في الفكر النهضوي الإسلامي

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك

تأليف
خير الدين التونسي

تقديم
محمد الحداد

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

أقوم المسالك
في معرفة أحوال الممالك

هــذا الكتــاب

طبع لأول مرة عام (١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) وتضمن برنامجًا إصلاحيًّا يختزل مجموع ما سعى النهضويون العرب إلى تحقيقه في القرن التاسع عشر، استوحاه خير الدين التونسي من مصادر ثلاثة: تجربته السياسية، ومطالعاته في التاريخ السياسي والاقتصادي وجغرافية العالم، ومشاهداته أثناء الرحلات التي قام بها إلى أوروبا.

يتألف من مقدمة طويلة هي أهم ما فيه، وكثيرًا ما يُختزل الكتاب فيها، بالإضافة إلى جزأين: يحتوي الأول منهما على عشرين بابًا، كل باب مخصص لبلد من البلاد الأوروبية، يتناول فيه تاريخ البلد، وجغرافيته، وموقعه، ومساحته، وأهم ملوكه، وتنظيماته الإدارية والسياسية والعسكرية. أما الجزء الثاني فيحتوي على ستة أبواب: خمسة منها لجغرافية القارات الخمس، والسادس للبحار.

والكتاب يصارح معاصريه بأنّ قضية الإصلاح لم تعد قضية اختيارية. ورغم مضي كل تلك السنين على تأليف هذا الكتاب فإنه بقي أثرًا خالدًا، تتداوله الأجيال، وتستفيد من رؤاه ومقترحاته؛ فكأن خير الدين قد خُلق ليشحذ عزائم الإصلاح في حياته وبعد مماته.

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

ألفت جافور - هالة عبد الوهاب

اللجنة العلمية

محمد عمارة — محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري — إبراهيم البيومي غانم

الإشراف على الإخراج الفني

ألفت جافور

(**فريق العمل:** ريم نعمان)

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان — محمد القاسم

(**فريق العمل:** علياء محمد - أحمد عبد الحميد - فاطمة الزهراء صابر)

الأعمال التحضيرية والمتابعة

نهال بدر - هدى سيد - شيماء التركي

في الفكر النهضوي الإسلامي

أقوم المسالك
في معرفة أحوال الممالك

تأليف
خير الدين التونسي

تقديم
محمد الحداد

٢٠١٢

دار الكتاب المصري
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبناني
بيروت

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة - أثناء - النشر (فان)

التونسي، خير الدين، 1225-1308 هـ.
أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك / تأليف خير الدين التونسي ؛ تقديم محمد الحداد.– الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، 2011.

ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-105-8

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. تونس -- تاريخ -- العصر العثماني. 2. تونس -- تاريخ -- بايات أسرة الحسين (1705-1957 م.).
أ. الحداد، محمد. ب.العنوان ج. السلسلة.

ديوي – 961.103 2011554395

ISBN: 978-977-452-105-8
رقم الإيداع: 20437/2010

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير
للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)
ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York
على الدعم المادي والمعنوي الذي قدَّماه للمشروع.

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديَّين»

المحتوى

الباب الثاني – في الكلام على مملكة فرنسا

الباب الثالث – في الكلام على مملكة أنكلترة، وفيه فصول

الباب الرابع – في الكلام على مملكة النمسة، وفيه فصول

الباب الرابع عشر - في الكلام على مملكة البلجيك

الباب الخامس عشر - في المملكة على مملكة البرتوغال، وفيه فصول

الباب السادس عشر - في الكلام على سويسرا وفيه، فصول

الباب السابع عشر - في الكلام على مملكة البابا

الباب الثامن عشر - في الكلام على مملكة الفورتمبرغ

الباب التاسع عشر - في الكلام على إمارة بادن الكبرى

الباب الموفي عشرين - في الكلام على مملكة الإغريق

الكتاب الثاني في الكلام على أقسام الكرة إجمالاً، وفيه فصول

الباب الأول – في الكلام على أوروبا، وفيه فصول

الباب الثاني – في الكلام على آسيا، وفيه فصول

الباب الثالث – في الكلام على إفريقية، وفيه فصول

الباب الرابع – في الكلام على أمريكا، وفيه فصول

الباب الخامس – في الكلام على جزر الأوقيانوس، وفيه فصول

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْنِ / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّيْن»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر – إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع – فيما يهدف – إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا – في إطار هذا المشروع – بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا – وغيرهم – لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية

والإسلامية، فضلاً عن الشباب المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًا وإلكترونيًا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية
والمشرف العام على المشروع

رقم الإيداع
2011/20437
I.S.B.N
978-977-452-105-8

دار الكتاب المصري
القاهرة
٣٣ شارع قصر النيل ـ تليفون: ٢٣٩٢٢١٦٨ / ٢٣٩٣٤٣٠١ / ٢٣٩٢٤٦١٤
ص.ب: ١٥٦ العتبة الرمز البريدي ١١٥١١ - القاهرة - ج.م.ع
فاكسميلي ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
Fax: (202) 23924657 القاهرة ATT: Mr. Hassan El-Zein

دار الكتاب اللبناني
بيروت
شارع مدام كوري ـ تجاه فندق بريستول ـ بيروت
تليفون: ٧٣٥٧٣٢ ص.ب: ٨٣٣٠ - ١١
بيروت ـ لبنان ـ فاكسميلي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
Fax: (9611) 351433 بيروت ATT: Mr. Hassan El-Zein

الطبعة الأولى
١٤٣٣ - ١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٢ - ٢٠١٣ م

First Edition
A.D. 2012-2013 - H 1433-1434

Website: www.daralkitabalmasri.com
E-mail: info@daralkitabalmasri.com

تقديم

محمد الحدّاد

لا تُذكر نهضتنا الحديثة إلا ويذكر خير الدين التونسي (١٢٢٥ - ١٣٠٨هـ/ ١٨١٠ - ١٨٩٠م) رائدًا من روّادها، وعلمًا من أعلامها. وقد تضمن كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» برنامجًا إصلاحيًا يختزل مجموع ما سعى النهضويون العرب إلى تحقيقه في القرن التاسع عشر. وتميّز خير الدين بأنه لم يكن من مفكري النهضة فحسب، بل كان أيضًا رجل سياسة ونفوذ، تولَّى مناصب خطيرة، أهمها: منصب الوزير الأكبر بتونس، والصدر الأعظم بعاصمة الخلافة العثمانية في إستانبول، فسخّر حياته ووظَّف مناصبه لخدمة الأهداف التي سطرها في كتابه المذكور. وقد ذاع صيته شرقًا وغربًا، وساح في البلدان، والتقى بعظماء عصره، وتقلب في المناصب، ومع ذلك فإنّ الأمور قد سارت بعكس ما تمنَّاه مرتين: مرّة أولى بالمملكة التونسية التي تراجعت فيها الإصلاحات؛ فغادرها خير الدين بدون رجعة، ومرة ثانية في الأستانة حيث عجز خير الدين - صدرًا أعظم - عن إيقاف تدهور الإمبراطورية نحو الهاوية.

قال عنه أحمد أمين بحقّ في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»: «كان مصلحًا اجتماعيًّا وسياسيًّا من جنس مدحت باشا، غير أنّ الفرق بينهما كالفرق بين السيد جمال الدين (الأفغاني) والشيخ محمد عبده، فمدحت باشا يُصلح، فإن عجز عن الإصلاح ثار ودبّر الانقلاب. وخير الدين يُصلح، فإن عجز عن الإصلاح رفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم إني قد بلغت». لقد كان خير الدين شاهد عصره، أي القرن التاسع عشر الذي شهد انهيار المجتمعات العربية والإسلامية، كما شهد ميلاد النهضة العربية الحديثة. ورغم أنه لم يحقّق مراده في الإصلاح فإنه قد أذكى شرارته أينما مرّ، وترك كتابه وثيقة من الوثائق الإصلاحية الأساسية.

السياق التاريخي

يصف المؤرخ رينيه ريموند القرن التاسع عشر بأنه قرن التحوّلات العظمى، فقد أينع فيه وعظم غرسان يعودان إلى نهاية القرن الثامن عشر، وهما: الثورة الفرنسيّة، والثورة الصناعيّة بإنجلترا. لقد تجاوز هذان الحدثان الإطار المحليّ، وأصبحا حدثين كونيين، ولم يعيدا رسم الواقع الأوروبي فحسب، بل أعادا رسم خارطة العالم برمتها[1]. ولأوّل مرّة في التاريخ - كما يقول ريموند - أصبحت أوروبا في موقع المركز بين الحضارات الإنسانية، ووجدت الشعوب الأخرى نفسها

(١) رينيه ريموند، القرن التاسع عشر (بالفرنسية).
René Rémond : Le XIX siècle. Paris, Ed. Seuil, 1974.

مضطرّة إلى إعادة ترتيب أوضاعها حسب هذا المعطى. ولأوّل مرّة أيضًا منذ ظهور الحضارة على وجه البسيطة تحوّلت أوروبا من قارّة تستقبل موجات الهجرة إلى قارّة تصدّر البشر والتِّقْنيّة والأفكار؛ فقد تضاعف عدد سكانها في ذلك القرن من ١٨٧ مليون نسمة في بدايته إلى ٤٦٠ مليون نسمة في نهايته. ويقدّر أن حوالي ٦٠ مليون أوروبي قد هاجروا خلال هذا القرن إلى مناطق أخرى في العالم، حاملين معهم الأفكار والتقنيات والعادات والأطماع الأوروبيّة.

لا يتّسع المجال هنا لرسم كلّ أحداث وخصائص ذلك القرن الطويل المعقّد الذي مثّل مُنْعَرَجًا في التاريخ البشري، لاسيّما أنّ الكتابات في هذا الموضوع عديدة ومتوفّرة. لكننا نقف عند تاريخين مفصليّيْن يختزلان القرن كلَّه، وهما: (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م) عقد مؤتمر فيينا(١)، و(١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) عقد مؤتمر برلين(٢).

ففي سنة (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م) عُقد مؤتمر فيينا ليعيد ضبط الأوضاع الأوروبيّة بعد فترة الاضطراب الكبرى التي افتتحتها الثورة الفرنسية سنة (١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م)،

---

(١) هو مؤتمر لسفراء الدول الأوروبية، ترأسه النمساوي كليمنس فينتزل. عقد المؤتمر في فيينا في الفترة من سبتمبر ١٨١٤م إلى يونية ١٨١٥م. كان هدفه تسوية العديد من القضايا الناشئة عن حروب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية، وتفكك الإمبراطورية الرومانية. أسفر هذا المؤتمر عن إعادة رسم الخريطة السياسية للقارة الأوربية.

(٢) عقد في الفترة من (١٣ يونية إلى ١٣ يوليو ١٨٧٨م)، كان ملتقى للقوى الأوروبية الكبرى والإمبراطورية العثمانية في برلين بعد صحوة الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧ – ١٨٧٨م)، كان الهدف الرئيسي للمؤتمر هو إعلان استقلال دول البلقان.

ثم واصلتها الحروب البونابرتية من مصر إلى أوروبا. ومع هزيمة بونابرت في واقعة واترلو[1] سنة (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م)، بادرت الأسر الملكية إلى المطالبة باسترجاع سلطاتها، وعقد مؤتمر فيينا لهذا الغرض، إلاّ أنّ المؤتمر لم يسفر عن العودة إلى النظام الأوروبي القديم، بل تم اختيار طريق وسط بين هذا النظام والأفكار الراديكالية للثورة الفرنسيّة، فاحتُفظ بمبدأ الملكية الدستوريّة المقيدة بدل الحكم الملكي المطلق، وحكم المجالس الشعبية، واحتفظ بمبدأ الليبرالية النخبويّة بدل النظام الإقطاعي القديم، وفكرة المساواة بين كلّ الطبقات، واحتفظ بمبدأ التقسيم القومي للدول، بدل المثل الإمبراطوري الذي كان قائمًا على المسيحية قديمًا، ثمّ على المبادئ الكونيّة للثورة، وحقوق الإنسان مع بونابرت.

هكذا تجدّدت أوروبا بصفة جذريّة، وأعادت رسم حدودها، وتأسيس أنظمتها، دون أن تدخل في دوّامة من الحروب الثوريّة تنهكها وتعطّل تطوّرها التقني والعلمي، وأصبحت محلّ انبهار العالم بفضل هذا التطوّر أوّلاً، وبفضل الأفكار الجديدة التي طرحتها في ميدان الإدارة السياسيّة والاجتماعيّة ثانيًا، مثل: الحريّة، والحكم الدستوري، وحقوق الإنسان، وتعميم المعارف، وتشجيع المبادرة الفرديّة.

---

(١) آخر معارك نابليون بونابرت، وقعت في ١٨ يونية ١٨١٥م، قرب بروكسل، كانت بين فرنسا من جهة والحلفاء (بريطانيا وبروسيا [ألمانيا] وهولندا..) من جهة أخرى. مُني فيها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بهزيمة قاسية، وأُجهض حُلمه في حكم أوربا كاملة، واعتبرت هذه المعركة بداية عصر جديد في أوربا.

ولعلنا نضيف إلى ذلك معطًى ثالثًا هو استقرار ما يمكن تسميته بحضارة المدينة؛ ففي التاريخ الإنساني القديم كان التقابل بين المدينة والرّيف، إلا أن هذا التقابل اتخذ مع الثورة الصناعيّة بُعدًا جديدًا، إذ إن الصناعة قد اقتضت تضخيم المدن بشكل غير مسبوق، وتحوّل الملايين إليها نازحين من الرّيف؛ طلبًا لفرص العمل، وظهرت أنظمة جديدة في السكن والعمل والتنقل والترفُّه تستجيب لحاجات الأقطاب الصناعيّة، مع اتّساع الفوارق الاجتماعيّة بين الطبقات العاملة من جهة وطبقة الرأسماليين والصناعيين والتّقنيين من جهة أخرى.

وتحوّلت حضارة المدينة وظهور الطبقة الوسطى أو البرجوازيّة الصغيرة من معطى أوروبي إلى معطى كوني، شأن أغلب التحوّلات التي رافقت الثورة الصناعية. وسقطت بعد مؤتمر فيينا كلّ النظم الأوروبيّة التي لم تستجب إلى هذا النموذج الحضاري الجديد، بينما أغرى هذا النموذج العديد من الشعوب غير الأوروبية بمحاولة النسج على منواله؛ ونشأ تيّار فكري قويّ هو المعروف بالليبراليّة[1]، وينبغي التأكيد على أنّ الليبراليّة لم تكن تمثل آنذاك نظريّة اقتصاديّة فحسب، لقد كانت أيضًا نظريّة في السياسة والمعرفة والدين، ومنها نهل روّاد الإصلاحيّة الإسلاميّة وعلى رأسهم خير الدين التونسي[2].

(١) مذهب يقوم على الاعتقاد في أهمية الفرد ورفاهيته، وإمكانية التقدم الاجتماعي من خلال تغيير التنظيم الاجتماعي وتجديده، كما يهدف لتحرير الإنسان كفرد وكجماعة من القيود السلطوية الثلاثة (السياسية والاقتصادية والثقافية).

(٢) يراجع كتابنا: ديانة الضمير الفردي، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧م، ص ٦٣ - ١٢١.

لم تكن الليبراليّة مبهرة ببنائها الفكري فحسب، لقد كانت مبهرة أيضًا لتزامنها مع ظهور أبرز الفتوحات التقنية الحديثة، مثل: المركب البُخاري سنة (١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م)، والمطبعة السريعة سنة (١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م)، والقاطرة سنة (١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م)، والسكك الحديدية سنة (١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م)، والكهرباء سنة (١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م)، والتلغراف سنة (١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م)، وآلة التصوير سنة (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م)، والهاتف سنة (١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م)، والسينما سنة (١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م)... إلخ. وتتمثل أهميّة هذه المخترعات في أنها حوّلت العلم من نشاط تجريدي يهتمّ به المختصون إلى واقع يومي يكيّف حياة الملايين من البشر. ولقد فرض القرن التاسع عشر الواقع الذي ندعوه اليوم بالعولمة؛ لأنّ تطوّر وسائل النقل والاتصال جعل المخترعات والمكتشفات تنتقل بسرعة بين المجموعات البشريّة، أو تنتقل بينهم بسرعة آثارها على الأقل.

لم تكن الليبراليّة الفلسفة الوحيدة التي ظهرت في القرن التاسع عشر، لقد تزامنت مع ثلاثة تيارات فكريّة أخرى، وهي: الديمقراطيّة، والاشتراكيّة، والقوميّة، لكن هذه التيارات الثلاثة قويت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بينما كانت الليبراليّة الأسبق. والواقع أنّ هذه التيارات كلها قد نشأت في رحم الثورة الفرنسيّة، وكان بينها علاقة تكامل وتضاد في آن واحد، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ التاريخ الفكري للقرن التاسع عشر كان صراعًا بين هذه التيارات الأربعة.

ولمّا كانت الليبراليّة هي السابقة، كما ذكرنا، فإن حركات الإصلاح في العالم العربي والإسلامي اهتمت بها أساسًا، قبل أن تتفتح لاحقًا على التيارات الثلاثة الأخرى. وسنرى مثلاً أنّ خير الدين لم يستعمل كلمة «شعب» أو «ديمقراطية»، ولم يهتمّ بالفكر الاشتراكي رغم أنّ كتابه «أقوم المسالك» صدر في نفس السنة التي ظهر فيها الجزء الأوّل من كتاب «رأس المال» لكارل ماركس(١)، ولم يساند فكرة التميّز القومي للشعوب الإسلامية رغم وعيه بأزمة الخلافة العثمانية. لكنه آمن إيمانًا قويًّا بالحلول الليبرالية القائمة على الحكم الدستوري والحرية الاقتصادية، ولم يلتفت إلى الجوانب الأخرى التي بدت له بعيدة عن أغراضه الإصلاحية.

والمفارقة أن خير الدين بدأ ينشر الأفكار الليبرالية في العالم الإسلامي في الفترة التي بدأت فيها هذه الفلسفة تتراجع نسبيًّا أمام منافساتها الثلاث (الديمقراطية، والاشتراكية، والقومية)، أو لنقل إن الشكل الليبرالي الذي اقتبسه خير الدين قد بدأ يتغيّر مع صعود الفكرة القوميّة، ومن هنا تأتي أهمية التاريخ الثاني الذي احتفظنا به، أيّ سنة (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م)، فقد شهد انعقاد «مؤتمر برلين» الذي أقرّ مبدأ انفصال القوميّات عن الإمبراطوريّة العثمانيّة، وبدأ معه

(١) كارل ماركس (٥ مايو ١٨١٨ – ١٤ مارس ١٨٨٣م). فيلسوف ألماني، وسياسي، وصحفي، ومنظّر اجتماعي، ألف العديد من الكتب، إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هي ما أكسبه شهرة عالمية؛ لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي.

تنافس الأوروبيين لمساندة هذه الحركات الانفصاليّة، وبذلك بدأت نهاية «الرجل المريض»، باعتبار الإمبراطورية العثمانية آخر الإمبراطوريات «العابرة للقوميات» في العالم المتوسطي.

ولقد اصطدمت الإمبراطورية العثمانية منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر بالمشكلة القومية، ممثلة بالحركة الانفصالية اليونانية، وساندت هذه الحركة كلّ القوى الأوروبية، وانتهت الأزمة بهزيمة عسكرية وحضارية للدول الإسلامية في معركة نافارين الشهيرة سنة (١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م)، حيث دُمّرت الأساطيل الإسلامية المتحالفة أمام الأساطيل الأوروبية المتحالفة (فرنسا وإنجلترا وروسيا). لكنّ الانهيار الأكبر بدأ بعد مؤتمر برلين؛ إذ تقاسمت القوى الأوروبية مقاطعات الإمبراطورية العثمانية شيئًا فشيئًا. وقد بدا الأمر من المنظور الإسلامي غزوًا حضاريًّا من الغرب للشرق، لكنّ العديد من الليبراليين الأوروبيين كانوا يعدّون ذلك مساعدة من أوروبا للقوميات (ومنها القومية العربية)؛ للتخلص من شكل قديم في الإدارة السياسيّة والتنظيم الاجتماعي كانت تمثله الدولة العثمانية، وقد ذكرنا سابقًا أنّ أوروبا كانت قد تخلصت في عصرها الليبرالي، أي القرن التاسع عشر، من كلّ الإمبراطوريات القديمة، سواء الملكيات المطلقة، أم الإمبراطورية المقدسة الرومانية التي كانت قد نشأت على أساس إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية المسيحية، ثمّ ما فتئت تضمر ويتلاشى نفوذها وجاذبيتها إلى أن تقرّر حلُّها سنة (١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م).

إنّ التذكير السريع بهذه المعطيات ضروري لفهم فكر خير الدين ومحاولاته الإصلاحية، فهذا الفكر وهذه الإصلاحات قد صدرت عن رؤية حاولت التوفيق بين الفلسفة الليبرالية التي كانت خاصيّة العصر والتقاليد الإسلامية كما رسخت في العصر العثماني، وجاء كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» تعبيرًا عميقًا عن هذه الرؤية. وسنعرض أهمّ معالمها بعد الحديث عن حياة خير الدين، والوظائف التي تقلدها، والمحاولات التي قام بها ليطبّق رؤيته الإصلاحيّة على أرض الواقع.

خير الدين: حياة من أجل الإصلاح

لا يُعلم الكثير عن مولد خير الدين وصباه، ويُرجَّح أنه وُلد سنة (١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م)، أو (١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م)، وقد سَجّل في مذكراته أنه شركسي الأصل، لم يحتفظ بذكرى عن موطنه الأصلي وأهله؛ إذ اختُطف صغيرًا، ولم تنجح محاولاته المتعدّدة بعد ذلك في العثور على عائلته. وقضى صباه في عاصمة الخلافة في خدمة أحد الأعيان. ثمّ أهداه صاحبه إلى باي (حاكم) تونس، فانتقل إليها سنة (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م)، وأصبح منذ ذلك الحين في رعاية القصر وخدمته، ودرس بعض العلوم الإسلامية واللغويّة، لكن تكوينه الأساسي كان في الحربية، واستفاد من وجود مدربين فرنسيين ليتقن فنّ الحروب الحديثة، ويتقن أيضًا استعمال اللغة الفرنسية التي أصبح يتحدث

بها بطلاقة. ثم تدرّج في سُلم الرُّتَب العسكرية إلى أن بلغ أعلاها. ولا شكّ أنّ معرفته باللغة الفرنسية وحسن صيته ونزاهته هي التي جعلت أحمد باي (١٢٥٣ - ١٢٧١هـ/ ١٨٣٧ - ١٨٥٥م) يختاره لأولى مهماته السياسية.

ففي سنة (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م)، أقدم أحمد باي على عمل غير مسبوق تمثل في القيام بزيارة رسميّة إلى فرنسا، وكان المعمول به عادة أنّ السياسات الخارجيّة للمقاطعات العثمانيّة تُترك للسلطان العثماني؛ لذلك ضغطت الأستانة باتجاه منع الباي من زيارة فرنسا وإنجلترا، ونجحت في منعه من الزيارة الثانية، بينما رفضت فرنسا هذه الضغوط، واستقبلت أحمد باي كحاكم مستقل، وذلك في إطار سياستها الهادفة إلى فصل تونس عن الإمبراطورية العثمانية للسيطرة عليها، مع العلم أنّ فرنسا كانت دائمًا ترفض الاعتراف بتبعية تونس للخلافة العثمانية، أو تعتبرها تبعية دينية رمزية لا سياسية دبلوماسية.

ومهما يكن من الخلفيات السياسية لهذه الرحلة، فإنها مثلت، من الناحية الحضارية، حدثًا مهمًّا؛ إذ مكّنت الباي وكبار مستشاريه من الاطلاع المباشر على الغرب، والاقتناع بضخامة الهُوّة التي أصبحت قائمة بين التقدم الغربي والتأخر الشرقي، ناهيك أنّ أحمد باي الذي كان متأثرًا بشخصية نابليون بونابرت كان يطمح في أن يؤسِّس في تونس جيشًا حديثًا مثل الجيش الفرنسي، فلما اطلع على المؤسسات العسكرية الفرنسية أدرك استحالة هذا الطموح.

وقد اصطحب الباي في هذه الزيارة المؤرخ أحمد بن أبي الضياف (١٢١٧ - ١٢٩١هـ/ ١٨٠٢ - ١٨٧٤م) صاحب الكتاب المشهور «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان»، وقد سجّل فيه وقائع هذه الرحلة المهمّة، واصطحب أيضًا خير الدين الذي كان يتقن اللغة الفرنسية. أما المهمّة الأولى التي انفرد بها خير الدين ومكنته من تعميق مشاهداته وفهمه لفرنسا فقد حصلت بين سنتي (١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م) و(١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م)؛ حيث كان شخص يدعى مصطفى بن عياد قد فرّ من تونس بتواطؤ مع الوزير الأكبر مصطفى خزندار، وحمل معه جزءًا كبيرًا من خزينة الدولة، ثمّ حصل على الجنسية الفرنسية، وأصبح في حماية فرنسا، ولم يكتفِ بذلك بل أصبح يطالب تونس بمبالغ ضخمة بمقتضى تعهدات مزيّفة كان قد حملها معه. ونظرًا إلى خطورة القضية كلف الباي خير الدين بمتابعته قضائيًّا، والدفاع عن الحقوق التونسية أمام المحاكم الفرنسية. وقد تمكن خير الدين من الإقامة طويلاً بفرنسا وفهم حضارتها وأنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وضمّن ذلك كتابه «أقوم المسالك» كما سنرى.

ونجح خير الدين في هذه المهمّة نجاحًا جزئيًّا، وجازاه الباي أفضل جزاء، ومنذ ذلك الحين أصبح عنصرًا فاعلاً في إدارة الشؤون التونسية. وبدأت أيضًا مصادماته بالوزير الأكبر مصطفى خزندار الذي نجح في تبرئة ذمته في هذه القضية رغم قناعة خير الدين بأنه كان طرفًا فيها منذ البداية. وفي سنة (١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م)

عيّن خير الدين وزيرًا للبحرية، وهي نفس السنة التي سمح فيها محمد باي (تولى الحكم ١٢٧١ - ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٥ - ١٨٥٩م) بإصدار وثيقة «عهد الأمان»، وهي وثيقة تشبه كثيرًا خطّ همايون[1] الصادر بتركيا قبل سنة (١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م)، لكن الباي رفض تطبيق الوثيقة العثمانية كي لا يظهر بمظهر الوالي للخليفة، وأصدر وثيقة باسمه كي يؤكد أنه الحاكم بأمره في تونس، إلا أنه استعاد أهم مبادئها ومحتوياتها، وكان خير الدين من المناصرين لهذه الخُطوة المهمّة التي كان يُرجى منها إقامة نظام دستوري بتونس، وعمل خير الدين بجدّ في اللِّجان التي كلفت بتطبيق هذه المبادئ في التشريعات الجاري بها العمل والإعداد لدستور تونسي. أما بصفته وزيرًا للبحريّة، فلم تكن أمامه مهمّات شاقة؛ لأنّ الأسطول التونسي المتواضع كان قد شارك في معركة نافارين، وناله ما نال الأسطول التركي، إذ حُطم بالكامل تقريبًا.

وقد ساند خير الدين بقية الإصلاحات التي قامت في عهد هذا الباي، وكان له الدور الأول في الدفع باتجاه إقرارها. وقد نقل ابن أبي الضياف وقائع هذه الفترة الحاسمة من تاريخ تونس، وصوّر الصراع الدائر بين الإصلاحيين بزعامة خير الدين والمحافظين من مقرّبي الباي وبعض كبار علماء الدين. ونقل ابن أبي الضياف على سبيل المثال هذه الحادثة المعبّرة: «لمّا أتممنا شرح القاعدة الأولى (من وثيقة عهد الأمان) وهي قاعدة كلّ القواعد، وقرأناها على الباي في ذلك

(١) هو المنشور الذي صدر في ١٨ فبراير ١٨٥٦ م على إثر انتهاء حرب القرم، وهو مرسوم إصلاحي، أو «منشورات الإصلاحات الخيرية».

المجلس، بدرت من بعضهم بادرة يغفر الله له فيها، وهي أن قال: أيّ شيء بقي لسيدنا؟ ووافقه على ذلك بعض المتزلفين، والباي ساكت (...). فوجمنا لهذه البادرة الباردة، فتكلم الوزير خير الدين، وكان أثبت القوم جَنانًا، وإن شئت قلت وأقواهم إيمانًا، وقال له: يبقى لسيدنا ما بقي للسلطان عبد المجيد وما بقي لسلطان فرنسا وسلطانة بريطانيا وغيرهم من السلاطين بالقانون»[(١)].

وبعد وفاة محمد باي، تولّى الحكم الصادق باي (١٢٧٦ -١٢٩٩هـ/١٨٥٩ -١٨٨٢م)، وفي عهده أصبح لخير الدين مكانة كبرى، لكنّ الأمر انتهى بين الرجلين إلى المنافرة ومغادرة خير الدين تونس نهائيًّا. لقد بدأت العلاقات بينهما جيّدة؛ إذ تولى خير الدين مهمّة السفر إلى الآستانة لطلب فرمان التولية، وحرص على أن يأتي بهذا الفرمان بصيغة تقرّ بالاستقلال الذاتي للباي في القرارات الداخلية، وتقرّ بتوريث الحكم في عائلته. وباعتبار المساعي الحثيثة التي قام بها خير الدين في هذا الاتّجاه، دون أن يحالفه النجاح بصفة قاطعة، فقد ارتفعت حظوته لدى الباي؛ فسمي «كاهية» (مساعد الرئيس) بالمجلس الأكبر سنة (١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م) ثمّ رئيسًا سنة (١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م)، وهذا المجلس هو بمثابة برلمان معيّن مهمته تقديم الاستشارة إلى الباي. وتمكّن في هذا الموقع المتميز من إعداد عُصبة من الأنصار عملت معه من أجل الإعلان عن الدستور سنة (١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م)، وكان هذا الدستور أوّل دستور عربي إسلامي يظهر إلى الوجود. ثمّ أنشأ الباي

(١) ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠١م، ج ٤، ص ٢٤٩.

سنة (١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م) مجلسا استشاريًّا خاصًّا، فكان خير الدين من أعضائه. لكنّ خير الدين ضاق ذرعًا في النهاية من كثرة المعارضين للإصلاح، واستاء من موقف علماء الدين الذين وقفوا بالحياد في مسألة عهد الأمان والدستور، واعتبروها مسألة سياسية لا شرعية، واختلف مع الباي في قضية حساسة تتعلق بالاقتراض من المصارف الأوروبية، فآثر الاستقالة من مناصبه سنة (١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م)، لكنّه بقي مواليًا للباي متفاديًا الإقدام على ما قد يثير حفيظته أو يوغر صدره، فظلّ الباي يستشيره ويرسله في المهمات والسفارات، واستغلّ خير الدين هذه الفترة للسياحة في البلدان الأوروبية، وتحرير كتابه «أقوم المسالك».

رغم أن الإصلاحات السياسية كانت تسير في تلك الفترة بالاتجاه الصحيح؛ فإنّ الوضع الاقتصادي كان على العكس من ذلك، يتدهور باستمرار؛ إذ لا ننسى أنه يصعب على اقتصاد متأخّر أن يزاحم الزحف الرأسمالي المستفيد من الإجراءات الليبرالية المقرّرة. كما يصعب أن يتحقق الانفتاح على السوق العالمية دون أزمات كبرى. وأهمّ ما يؤشّر إلى هذا التدهور اضطرار الخزينة التونسية سنة (١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م) إلى الاقتراض من المصارف الأوروبية، ثمّ مضاعفة ضريبة «المجبى» التي أحدثت سنة (١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م)، مع أنها كانت تبدو للسكان ضريبة غير شرعية، وكانت مضاعفة مقدارها سنة (١٢٨٠هـ/١٨٦٤م) بمثابة التعجيز للمزارعين الصغار؛ فقامت ثورة كبرى عرفت باسم قائدها، وهو

علي بن غذاهم[١]، وزاد الأمر سوءًا أن أحد المتصرفين ويدعى نسيم شمامة استغل الاضطراب الحاصل ليهرب بجزء من خزينة الدولة؛ فانهار الوضع السياسي والاقتصادي لتونس، وأُعلن إيقاف العمل بالدستور وبنظام المجالس، بل اعتبر البعض أنّ الإصلاحات السياسية هي التي كانت سببًا في الوضعية التي تردّت فيها البلاد، وانتشى معارضو الإصلاح من المحافظين بعد سنوات من التراجع.

لم يقم خير الدين بدور مهمّ أثناء ثورة ابن غذاهم، لا سيما أنه استقال من الوزارة ومن رئاسة المجلس الأكبر منذ سنة (١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م)، وأرسل على مدى سنوات في مهمات دبلوماسية إلى بلدان عديدة، فزار فرنسا وإنجلترا والسويد والمقاطعات الألمانية وهولندا وإيطاليا وبلجيكا والدانمرك وتركيا، واستفاد من تلك الرحلات في تأليف كتابه «أقوم المسالك». ثمّ أخمدت ثورة ابن غذاهم سنة (١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م)، وألقي القبض غدرًا على قائدها، وتمّت معاملته ومعاملة أتباعه - وهم أغلب شيوخ القبائل بالبلاد التونسية - بقسوة بالغة.

قضى خير الدين سنوات بعيدًا عن العمل السياسي المباشر، واستفاد من تلك الفترة للتنقل في أوروبا والتفكير العميق حول وضع العالم الإسلامي أمام

(١) علي بن محمد بن غذاهم، كان يلقب بباي الشعب، ثوري تونسي من قبيلة ماجر بولاية القصرين، أميّ؛ ابن طبيب؛ قاد ثورة ضد الحكومة التونسية سنة ١٨٦٤م بسبب مضاعفة الدولة لضريبة الإعانة بسبب المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعانيها تونس. شملت الثورة عدة مناطق في الشمال الغربي، الساحل والجنوب، إلا أن قوات الباي تمكنت في نهاية المطاف من إخمادها. وتم اعتقال بن غذاهم في فبراير ١٨٦٦م، ومات بالسجن في أكتوبر ١٨٦٧م.

القوة الجديدة التي أصبحت عليها البلدان الأوروبية. وقادته مشاهداته وتأملاته إلى تأليف كتابه الشهير «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، وقد صدر سنة (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م). وسنعود للحديث عن هذا الكتاب بعد أن نواصل متابعة حياة خير الدين وأعماله.

عاد خير الدين إلى العمل السياسي سنة (١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م)؛ إذ عُيّن رئيسًا للجنة المالية المكلفة بتصفية الديون، وتنظيم مداخيل الدولة ومصاريفها. ذلك أنّ الأزمة السياسية والاقتصادية قد جرّت الدولة إلى حافة الإفلاس، ولم يجد الباي من مخرج سوى تأسيس هذه اللجنة لتضم ممثلين عن المصارف الأجنبية فضلاً عن المسؤولين التونسيين. وعُهد إلى خير الدين برئاستها لدرايته في الأمور المالية، ولمواهبه الدبلوماسية الضرورية؛ لإقناع القناصل الأجانب بتخفيف ضغوطهم. وتدعيمًا لدوره ومكانته، عُيّن خير الدين في السنة الموالية (١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م) نائبًا للوزير الأكبر. وفي هذه السنة نفسها حصل في أوروبا حدث أبهر التونسيين، إذ انهزمت فرنسا أمام الجيوش الألمانية انهزامًا ساحقًا، مع أنّ فرنسا كانت تبدو للعرب آنذاك أكبر القوى الأوروبية. وكان في تبعات هذا الحدث خشية باي تونس من أن تستغل تركيا هذا الوضع لتفرض عليه الخضوع المباشر لها؛ إذ إن فرنسا كانت تمثّل العائق الأساسي أمام الإمبراطورية العثمانية لتحقيق هذا الغرض؛ فأرسل خير الدين مرّة أخرى إلى الآستانة للحصول على فرمان يضمن للباي نفوذه، ويبدو أنّ الباي قد قدّر نجاح

خير الدين في هذه المهمّة تقديرًا كبيرًا؛ فوهبه إقطاعًا شاسعًا، وبدأ يعدّه لأعلى منصب في البلد وهو منصب الوزير الأكبر.

تولى خير الدين هذا المنصب بصفة فعلية سنة (١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م) واحتفظ به إلى سنة (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م) ثمّ عُزل عن كلّ مناصبه، وغادر تونس ولم يعد إليها. وأثناء هذه الفترة القصيرة نجح خير الدين في إقرار جملة من الإصلاحات الهامّة، وحاول تطبيق مبادرته الإصلاحية التي ضمنها مقدمة «أقوم المسالك»، باستثناء إعادة العمل بالدستور. وقاوم المناوئين له وكانوا كُثُرًا، وأوّلهم الباي الصادق نفسه الذي أصبح يضيق ذرعًا بخير الدين. وقد قامت الإصلاحات على تنظيم مؤسسات الدولة تنظيمًا حديثًا، يعتمد الكفاءة ومنح المسؤوليات إلى الأتباع من الذين ناضلوا لتحقيق الإصلاح منذ عشرات السنين، وسنّت قوانين كثيرة لتنظيم النشاط الاقتصادي، وأصبحت الأداءات مضبوطة، وطرق استغلالها معلومة، وأعيد تنظيم القضاء.

وكان خير الدين يطمح إلى تحويل الأحكام الفقهيّة إلى شكل قانوني حديث ليتوحد فقه القضاء، لكنه لم ينجح في ذلك. واهتمّ خير الدين بالوقف والتعليم، فأسس جمعية لإدارة الأوقاف، وجعل رواتب الشيوخ والأساتذة منتظمة من موارده. واهتمّ خير الدين بإصلاح التعليم الزيتوني، وسنّ عدّة نصوص تنظيميّة في هذا الغرض. أما أهمّ ما أقدم عليه في هذا المجال فهو تأسيس المدرسة الصادقية (نسبة إلى الصادق باي) سنة (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م)، وهي

أوّل مدرسة حديثة في تونس، تدرّس العلوم العصرية مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وتعلم اللغات الأجنبية مثل الفرنسية والإيطالية. وقد بدأت هذه المدرسة بقبول ١٥٠ تلميذًا كانت الدولة تتولى كلّ نفقاتهم. وسيتضح أهمية هذه المدرسة بعد عقود من تأسيسها؛ فقد تخرجت فيها النخبة التونسيّة الجديدة التي قادت الحركة الوطنية أثناء الاستعمار الفرنسي.

لقد تحدث خير الدين عن تونس في مذكراته باعتبارها وطنه بالتبنّي، وأكد أن موقفه تمثل دائمًا في تعزيز ارتباطها بالإمبراطورية العثمانية، ولا ننسى أنّ خير الدين قد قضى طفولته ثم السنوات الأخيرة من حياته في تركيا، وبها عاش أبناؤه الذين ولدوا بتونس. وكان يحلم بنظام فدرالي أو كنفدرالي، كما يتأكّد من اهتمامه بهذا النوع من النظم عند حديثه عن البلدان الأوروبية التي زارها، وكما تؤكّده بعض العبارات في مقدمة «أقوم المسالك». وقد سعى خير الدين إلى تنظيم العلاقة بين تونس وعاصمة الخلافة على هذا الأساس، ونجح في استصدار فرمان يقنّن هذه العلاقة، وواجه تحفظات السلاطين العثمانيين الذين كانوا يخشون اتجاه تونس إلى الاستقلال بنفسها عن الإمبراطورية، كما واجه تحفظات بايات تونس الذين كانوا يسعون إلى عدم إلزام أنفسهم بشيء محدّد ونهائي بخصوص علاقتهم بالخلافة، مع أنّ شرعية حكمهم كانت رهنية إمضاء السلاطين على قرارات تعيينهم.

وعمومًا، كان خير الدين مقتنعًا بالرأي السائد آنذاك، وهو ضرورة اللعب على تناقضات الدول الكبرى، تركيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا، للمحافظة على نوع من الاستقلالية للقرار التونسي، مع ما يعنيه ذلك من ضرورة إرضاء كلّ الأطراف في نفس الوقت. لكن خير الدين كان يؤمن أيضًا بأنّ الرابطة الإسلامية رابطة مقدسة، وأنّ العلاقة بين تونس وعاصمة الخلافة ليست رابطة نفعيّة فقط، بل هي رابطة إستراتيجية وتاريخية ودينية.

وقد حمّل خير الدين مسؤولية انهيار البلاد التونسية إلى الوزير مصطفى خزندار، الذي تولى الوزارة من (١٢٥٣ - ١٢٩٠هـ/ ١٨٣٧ - ١٨٧٣م). فاعتبر أنه كان متآمرًا مع محمود بن عياد الذي فرّ إلى فرنسا حاملاً معه جزءًا كبيرًا من خزينة البلاد، وقد كلف خير الدين بمواجهته قضائيًّا لاسترجاع المسروق، وكفّ أذاه عن تونس. واعتبر خزندار المسؤول عن سياسة الاقتراض التي سلكتها الإدارة التونسية ابتداء من ستينيات القرن التاسع عشر، وأدت إلى إفلاس الخزينة وفرض الحماية، وقد عمل خير الدين على تفادي الاقتراض من المصارف الأوروبية، ثمّ عمل على ضبط الحسابات؛ كي تسدد الديون في أوقاتها.

ويرى المؤرخون أنه على الرغم من أن مسؤولية مصطفى خزندار كانت متأكدة وجسيمة فإنها لا تكفي وحدها لتفسير المصير الذي استهدف تونس، كما استهدف مصر وبلدانا أخرى كثيرة، لم تكن قادرة على الجمع بين التحديث والتصدّي للنزعة الإمبريالية والرأسمالية التي سيطرت على العالم آنذاك.

والطريف أنّ خير الدين كان متزوجًا من ابنة مصطفى خزندار رغم هذه العلاقة السيئة جدًّا التي فرّقت بينهما، كما توليا معا مناصب مهمّة في فترات مشتركة.

كما حمّل خير الدين مسؤولية إبعاده من الوزارة الكبرى - رغم النجاح الذي تميّزت به سياسته وقراراته - إلى الباي من جهة والقناصل الأوروبيين من جهة أخرى، فقد كتب ما يلي: «وإن تظاهر الباي بالرضا في تسييري للأمور، فقد كان في قرارة نفسه متحسرًا على العهد السالف الذي كان يخوّل له ولحاشيته التصرّف دون خوف في الأموال العمومية والخاصّة، وفي تبذير الملايين. وذهب به الأمر إلى تشجيع نديمه مصطفى بن إسماعيل سرًّا - وهو شاب مغمور ساذج جاهل وطمّاع مرتشٍ - للتآمر ضدّي. ومن جهة أخرى، لم يتوانَ قنصلان أوروبيان مقيمان بتونس، وهما من الأنصار المتحمسين لسلفي مصطفى خزندار، من العمل على إرجاعه إلى السلطة» [1].

لكن لا بدّ أن نذكر أنّ خير الدين كان يفضل في الغالب السلامة، ولا يواجه خصومه بقوّة، لا سيّما أنه كان صاحب ثروة ضخمة وأملاك شاسعة استفادها من خدمة البايات. ومن المآخذ على خير الدين قبل ذلك أنه آثر السلامة في فترة اندلاع ثورة ابن غذاهم، وترك الشعب الثائر يعاني الويلات من العنف الشديد

---

(١) مذكرات خير الدين باشا، تعريب محمد العربي السنوسي، تونس، ٢٠٠٨م، ص ٤٦.

الذي سُلط عليه لإخماد هذه الثورة، وأنه كان من أنصار الدستور، لكنه لم يعمل على إقراره عندما عُيّن وزيرًا أكبر، وقد انتقده أقرب المقرّبين إليه لهذا السبب[1].

من تونس إلى الأستانة

شعر خير الدين بعد عزله سنة (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م) أنه أصبح موضوع دسائس ومؤامرات كثيرة؛ فانتقل للإقامة بعاصمة الخلافة، وكان السلطان آنذاك عبد الحميد الثاني، فعينه في بعض المناصب الاستشارية، ثمّ عينه صدرًا أعظم سنة (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م)، لكنه لم يلبث في هذا المنصب إلا بضعة أشهر. وقد ارتطم خاصّة بالقضية المصرية، ومسألة تنحية الخديوي إسماعيل لصالح ابنه توفيق. ولم يعد ممكنًا لخير الدين أن يعود إلى تونس؛ إذ أصبح متهمًا بالتآمر مع الأستانة لإعادة تونس تحت السيطرة المباشرة للإمبراطورية العثمانية؛ فباع أملاكه فيها للفرنسيين بسبب تضييق الباي على التونسيين سبل شرائها، وناله من ذلك اللوم والتقريع؛ لأنه فرَّط في أراض تونسية شاسعة إلى القوة التي ستستعمر تونس بعد سنوات قليلة من ذلك. وقد قضّى خير الدين بقية عمره في عاصمة الخلافة، إلى أن وافاه الأجل المحتوم يوم (٩ جمادى الآخرة ١٣٠٧هـ/ ٣٠ يناير ١٨٩٠م).

وقد انتقد خير الدين الإصلاح على الطريقة التي عرفت بتركيا في عصر التنظيمات، وكتب ما يلي: «مبدئيًّا، يستحيل غرس مؤسسات بلد في بلد آخر،

(١) راجع مثلاً ما يرد في: محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، تونس، ١٩٨١م، ج٣، ١١٩ - ١٢٨.

حيث تختلف طباع الناس وعاداتهم وثقافاتهم وكذلك ظروفهم المناخية (...). منذ أربعين سنة، حاولت العديد من المرّات الحكومات التي توالت على الدولة العثمانية إعادة تنظيم المؤسسات السياسية والإداريّة والقضائية للبلد، غير أنّ جهودها لم تُفضِ إلى نتيجة؛ لأننا لم نسعَ بصراحة وحزم إلى إصلاحات جذريّة مناسبة للحاجيات الحقيقية للبلاد ولتقاليد أهلها. فعوض المحافظة على الطريق المسطرة لتحقيق التغييرات الضروريّة كلما دعت الحاجة، مثلما يطبق في حكومات الأمم المثقفة والمتحضرة، اخترنا نصف الحلول دون الأسس، وقلدنا أوروبا في بعض المؤسسات المعزولة عن إطارها؛ لأننا لاحظنا النتائج الطيبة التي وفرتها في البلدان التي ظهرت فيها، متناسين أنّ كلّ إجراء خاص يستمد فوائده من القانون العام للبلد المعني[1]».

تختزل هذه الفقرة البرنامج الذي كان خير الدين قد اقترحه على عبد الحميد الثاني، لكنه رُفض، واعتزل بعده السياسة. ومافتئ خير الدين يحذر من أنّ وضع الدولة العثمانية سيئ جدًّا، ويلمح إلى أن مصيرها سيكون الانهيار إذا لم يُبادر بإصلاحات جذريّة. ورأى أنّ أهمّ هذه الإصلاحات يتمثّل في:

- إنشاء مجلس وطني.
- جعل الحكومة مسؤولة أمامه (المجلس الوطني).
- إعادة تنظيم كل الولايات.

(١) مذكرات خير الدين، تعريب محمد العربي السنوسي، مرجع سابق، ص ١٤٨ (مع بعض التعديل للترجمة).

وقد اقترح تنظيم مقاطعات الدولة العثمانية على أساس التفويض لحكام الأقطار، مع بقاء هؤلاء تحت سيادة الإمبراطورية.

وكان من الطبيعي أن يرفض عبد الحميد الثاني هذا البرنامج؛ لأنه يعني ضمنيًّا تجريده من السلطة التنفيذية، ونقلها إلى حكومة مسؤولة أمام مجلس وطني. لكن وجود هذا البرنامج ينبغي أن يصحح الفكرة الشائعة التي تقول إن خير الدين لم ينجح في مهمّة الصدر الأعظم؛ لأنه لم يكن عالمًا بأحوال الخلافة، فالسبب الحقيقي في عدم نجاحه أنه كان يحمل مشروعًا مناقضًا لما كان يضمره عبد الحميد الثاني.

ويجدر في هذا الإطار أن نصحّح فكرة أخرى، هي أن خير الدين عندما تولى منصب الصدر الأعظم كان مقتنعًا حقيقة بضرورة عزل إسماعيل باشا، وكان يريد أن يعيد مصر إلى السيادة العثمانية مستغلاًّ تلك الأحداث؛ لأنه كان يرى أن أي بلد يستقل بنفسه سيقع عاجلاً أم آجلاً تحت نفوذ البلدان الأوروبية، فضلاً عن رأيه السيئ في إسماعيل الذي اعتبره المسؤول عن إفلاس الخزينة المصرية بسبب الديون الأجنبية وسياسة البذخ.

وكان خير الدين يرى أن القضية المصرية والقضية التونسية ذات طبيعة واحدة؛ لذلك كان الحل الذي يقترحه للقطرين واحدًا: تمتين العلاقة بالدولة العثمانية مقابل التفويض لحاكم محليّ قويّ ونزيه. وربما كان هذا الموقف هو الذي

دفع البعض إلى التخمين بأنّ خير الدين سعى إلى إنشاء ولاية عربية عثمانية تمتد من مصر إلى الجزائر، على أن يتولى هو حكمها باسم الخليفة العثماني، وقد نفى بقوة هذا الاتهام عن نفسه. ونحسب أنّ خير الدين كان رجل سياسة محنكًا لا يمكن أن يحلم بمثل هذه المشاريع الخيالية. لكن يمكن بالمقابل أن يكون قد طمح لتولي حكم تونس وتخليصها من الصادق باي والعائلة الحسينية. مع أن ابنه الطاهر خير الدين قد نفى أيضًا بقوة هذا الاتهام، واعتبر أنه كان من عمل خصومه لإيغار صدر السلطان والإيقاع بأبيه.

وبصرف النظر عن الطموحات الشخصية التي كانت أمرًا عاديًا في تلك الفترة، فإن رؤية خير الدين كانت واضحة ومتماسكة، فقد اعتبر التهديد الأوروبي الخطر الأكبر، واعتبر الحكم الفردي عائقًا دون التصدي لهذا التهديد، ودعا إلى تمتين أواصر الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية، ليس باتجاه منح مزيد من النفوذ إلى الخليفة أو إحكام سيطرة الدولة على الولايات؛ بل باتجاه إقامة سلطة تنفيذية مسؤولة أمام مجلس وطني تعمل تحت إشراف السلطان، ومنح التسيير الذاتي للمقاطعات والأقطار، مقابل تأكيد السيادة العثمانية عليها، وهذا عكس ما قامت عليه سياسة عبد الحميد الثاني الذي استبقى مع ذلك خير الدين في الأستانة وكرّمه.

كتاب «أقوم المسالك» وبرنامج الإصلاح

اشتهر خير الدين بكتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك». وقد صدر هذا المؤلف في حياته سنة (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م)، وعرض المخطوط على الباي الذي أذن بطبعه بالمطبعة الرسمية التونسية، ووردت الإشارة إلى ذلك في صفحة الغلاف. وعدد صفحات هذه الطبعة الأولى ٤٦٢ صفحة. وقد كتب في الفترة التي ابتعد فيها خير الدين عن العمل السياسي المباشر واستقال من مناصبه، وهي الفترة التي استغلها أيضًا للسياحة في أوروبا والاطلاع على أحوالها، ومبادلة الرأي مع رجال الفكر والسياسة فيها، وقد جاء الكتاب صدى لذلك كله. وإذا كان خير الدين هو صاحب الأفكار الواردة فيه، فإنّ المشهور أنه استعان في الصياغة والتحرير بالشيخ سالم بوحاجب الذي كان من مناصريه ومقربيه.

وكان خير الدين حريصًا على التعريف ببرنامجه الإصلاحي لدى كل الأطراف المعنية، فكتب مؤلفه باللغة العربية ليطلع عليه التونسيون والعرب والعلماء من كلّ العالم الإسلامي، وكان ينوي ترجمته إلى اللغات التركية والفرنسية والإنجليزية. ولمّا كان يتقن الفرنسية فقد أشرف بنفسه على الترجمة الفرنسية التي تولاها أحد مساعديه، وصدرت المقدمة بالفرنسية في باريس سنة (١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) تحت عنوان «الإصلاحات الضرورية للأقطار الإسلامية» (Réformes nécessaires aux Etats musulmans) . أما الترجمة التركية فقد تأخرت إلى

سنة (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م)، وهي سنة تعيينه صدرًا أعظم بالأستانة. ولم يتسنَّ له أن يرى الكتاب مترجمًا إلى الإنجليزية؛ إذ لم تحصل هذه الترجمة إلا بعد قرن من صدور الكتاب (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

عرّف خير الدين «أقوم المسالك» بأنه بحث في «أسباب التقدم والتأخر للأمّة الإسلامية»[١]، واستوحى مضمونه من مصادر ثلاثة: تجربته السياسية، ومطالعاته في التاريخ السياسي والاقتصادي وجغرافية العالم، ومشاهداته أثناء الرحلات التي قام بها إلى أوروبا. وينقسم «أقوم المسالك» إلى: مقدمة وكتابين، تتضمن المقدمة ثلاثة أبواب: أولها حول التنظيمات، والثاني تلخيص لتاريخ التمدن الأوروبي، والثالث تلخيص للمكتشفات والمخترعات الحديثة. ويفصّل الكتاب الأوّل المشاهدات والمعلومات التي جمعها خير الدين حول مجموعة من البلدان قام بزيارتها، ويتضمّن عشرين بابًا في التعريف بعشرين دولة، واحدة منها إسلامية وهي تركيا العثمانية، والبقية بلدان أوروبية؛ فجاء الباب الأوّل في الكلام عن الدولة العلية العثمانية، وخصص الباب الثاني لفرنسا، والثالث لإنجلترا، والرابع للنمسا، والخامس لروسيا، والسادس للمملكة البروسية (ألمانيا)، والسابع تحدث فيه عن العصبة الجرمانية (سنشير لاحقًا إلى دلالة هذا التخصيص)، والثامن لإيطاليا، والتاسع لإسبانيا، والعاشر للسويد والنرويج، والحادي عشر لهولندة، والثاني عشر للدانمرك، والثالث عشر لمملكة باوارما (اختفت منذ ذلك التاريخ)،

(١) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، الطبعة الحالية، ص٧٥.

والرابع عشر لبلجيكا، والخامس للبرتغال، والسادس عشر لسويسرا، والسابع عشر للفاتيكان، والثامن عشر لمملكة الفرتنبرغ (اختفت منذ ذلك التاريخ)، والتاسع عشر لإمارة بادن الكبرى، والعشرين لليونان. ويتضمن الكتاب الثاني معلومات جغرافية عامة، فيعرض تقسيم العالم وقاراته الخمس وخصائصها.

وأهمّ ما في مؤلف خير الدين مقدمته التي اختزل فيها الخلاصات الرئيسية لمشاهداته وتأملاته، فجاءت في قالب برنامج إصلاحي موجّه إلى القُطر التونسي خاصة، والدولة العثمانية عامّة بكل ما تشمله من أقطار إسلامية. وكادت شهرة هذه المقدمة تحجب بقية الأثر، وطبعت مفردة عدّة مرات. وتتضمن المقدمة أيضًا تلخيصًا لتاريخ أوروبا، أو ما دعاه الكاتب بـ «التمدن الأوروباوي»، يتلوه عرض للمكتشفات والمخترعات الحديثة، وأهمّ النظم التي قام عليها التمدن الأوروبي الحديث مثل التعليم والحريّة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ خير الدين قد انتقى الأحداث والأوصاف في بقية «أقوم المسالك» بحيث تخدم غرضه الإصلاحي؛ إذ سعى إلى أن يثبت أنّ أوروبا مرّت أيضًا بعصر انحطاط في القرن الوسيط واستطاعت أن تغيّر أوضاعها عندما أقرّت العزم على ذلك وقبلت بتغيير نظمها، وبيّن في كلّ مناسبة الطرق التي اعتمدتها الممالك الأوروبية لتحقيق نهضتها وضمان قوتها.

وكان خير الدين قد اغتنم رحلاته وسفراته إلى الدول التي ذكرها ليجمع حولها المعلومات، كما اعتمد مصادر جغرافية أوروبية حديثة. والحقّ أن المعلومات الواردة في الكتابين الأوّل والثاني هي مما كان متاحًا لأيّ أوروبي في ذلك العهد أن يحصل عليه بمراجعة الكتب الجغرافية، لكن ضعف المؤلفات الجغرافية في العالم الإسلامي – والعربي خاصة – هو الذي دفع خير الدين إلى تلخيص مؤلفات أوروبية. ومن جهة أخرى، يجدر التأكيد على أن خير الدين كان ينتقي المشاهدات والمعلومات بعين إصلاحية، فيعمل على دفع قارئه للاقتناع بضرورة اقتباس بعض النظم الأوروبية لما وفرته من منافع في البلدان التي طبقت فيها.

ويختتم خير الدين الكتاب على الطريقة المألوفة في عصره، فيذكر جملة من التقاريظ التي كتبها قراء مرموقون اطلعوا على الكتاب قبل الطبع أو بعده، وترد هذه التقاريظ نثرًا أو شعرًا.

لقد ذكرنا أن أهمّ ما في هذا الكتاب مقدمته التي أرادها خير الدين على طراز مقدمة ابن خلدون، تؤلف بين المتفرق وتقدّم عصارة الأفكار بعد التأمل والمشاهدة. ويتضح هذا التأثر بابن خلدون منذ الجملة الأولى: «سبحان من جعل من نتائج العدل العمران ...»، وقد استشهد بعدة مقاطع وآراء لابن خلدون وردت في مقدمته المشهورة.

وانطلق خير الدين من تسجيل حدث أساسي هو ما ندعوه اليوم بالعولمة (لكن هذه اللفظة لم تكن معروفة في عصره)، فكتب: «إذا اعتبرنا ما حدث في هذه الأزمان، من الوسائط التي قربت تواصل الأبدان والأذهان، لم نتوقف أن نتصوّر الدنيا بصورة بلدة متحدة، تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة. وكلّ منهم وإن كان في مساعيه الخصوصية غريم نفسه، فهو بالنظر إلى ما ينجر بها من الفوائد العمومية مطلوب لسائر بني جنسه»(١). وقد عيّن خير الدين موضوع كتابه باعتبار هذا الواقع الذي ميّز عصره، فهو البحث حول: هل يمكن لمجموعة بشريّة أن تعيش منعزلة عن مجموع العالم، أم أنّ الجميع أصبح مدعُوًّا إلى التفاعل مع الآخرين والاقتباس منهم بما يحقّق غاياتهم؟ وترتّب على هذا السؤال الأساسي سؤال فرعي: هل في الديانة الإسلامية ما يمنع أهلها من تحقيق هذا الانفتاح على الغير والاقتباس منه، ولو كان على دين آخر؟.

واستعمل خير الدين كلمة «اقتباس» للحديث عن موقف الانفتاح والتفاعل الإيجابي، وجعل الاقتباس قانونًا مطردًا في التقدّم والتأخّر، فالنهضة الأوروبيّة تحقّقت بالاقتباس من العرب، وكذلك تتحقّق النهضة الإسلاميّة الحديثة بالاقتباس من الغرب الذي كان يعني في عصره أوروبا تحديدًا. وحَدَّد خير الدين بوضوح الأطراف التي رأى أنها تعوق هذا الاقتباس، وهي: أوّلًا بعض علماء الدين «المعرضين عن استكشاف الحوادث الداخليّة، وأذهانهم عن معرفة

(١) المرجع السابق، ص٤.

الخارجية خليّة» كما قال، وثانيًا: بعض رجال السياسة ممن يتمسكون بالحكم المطلق، وثالثًا: العامة من المسلمين الذين يبادرون بإدانة كلّ جديد ولو كان نافعًا. والواضح أنّ خير الدين لم يكن يسعى إلى إطلاق نظريات، لكنه تحدّث من موقع التجربة عن الأطراف التي ارتطم بها عند محاولاته الإصلاحية بتونس، فرجال السياسة كانوا يميلون إلى المحافظة؛ لأنّ الإصلاحات تفقدهم تفردهم بالحكم والقرار، والكثير من علماء الدين كانوا يرون دورهم مقتصرًا على إعلان الحلال والحرام إذا ما طُلب منهم، دون المساهمة في الحياة العامة والمبادرة بتغيير السائد.

وكان لا بدّ لخير الدين من اعتماد وسائل متنوعة لإقناع هؤلاء جميعًا بتغيير مواقفهم: فأوّل هذه الوسائل هو العيان «وليس بعده بيان» كما قال. إنّ الجامع بين هؤلاء أنه لم يُتَح لهم في الغالب معاينة ما يحدث خارج أقطارهم، فكان لا بدّ من إطلاعهم على مظاهر التمدن في البلدان الأوروبيّة. وثاني هذه الوسائل الاعتبار بالتاريخ، كما كان قد دعا إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته المشهورة. وثالث هذه الوسائل الأدلة النقلية، إذ عمد خير الدين إلى إيراد الحجج الدينية المختلفة لإثبات أن الإسلام وأعلامه وفقهاءه القدامى لا يعارضون الاقتباس ولا يعدّونه كفرًا. ونبّه خير الدين إلى أنّ هذا الاقتباس الذي كان يدعو إليه منحصر في الأمور الدنيوية، «فإنّ الأمر إذا كان صادرًا من غيرنا وكان صوابًا موافقًا للأدلة، لا سيّما إذا كنّا عليه وأخذ من أيدينا، فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله. وكلّ متمسك بدِيانةٍ وإن كان يرى غيره

ضالاً في ديانته؛ فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية، كما تفعله الأمّة الإفرنجية، فإنّهم مازالوا يقتدون بغيرهم في كلّ ما يرونه حسنًا من أعماله، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد»[1].

وحذر خير الدين من أنّ الممالك التي لا تأخذ بالتنظيمات الحديثة سوف تجد نفسها ضعيفة، وستسقط غنيمة سهلة للأقوياء، وهذا ما يهدد المسلمين. فإذا لم يكن في دينهم ما يمنعهم من الاقتباس فما الذي يجعلهم يرضون هذا المصير لأنفسهم؟ والأغرب من ذلك أنهم لا يتورعون عن اقتباس المنافع الكماليّة مثل الملابس وأثاث السكن، ثمّ يرفضون اقتباس الضروري مثل الحريّة والعلم.

ونفى خير الدين أن يكون سبب التفوق الأوروبي اعتدال الإقليم أو الديانة النصرانيّة، بدليل أنّ أوروبا شهدت عصرًا طويلاً من الانحطاط في السابق، وقد رمى بذلك إلى ربط النهضة بعناصر يمكن التحكم فيها؛ لأنّ الموقع أو ديانة الأجداد ليسا في مجال المتغيرات. إنّ السبب الحقيقي للنهضة الأوروبية كما حدّده الكاتب إنما هو تحقيق العدل السياسي، وبفضله تتقدم العلوم والصناعات، وذلك جميعًا قد لخّصه ابن خلدون سابقًا في عبارة: «العدل أساس العمران». والعدل السياسي منافٍ للاستبداد والتصرّف المطلق كما هما سائدان في العالم الإسلامي. ورأى خير الدين أنّ مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» يتجسد

(١) المرجع السابق، ص١٢.

في العصر الحديث بإقامة المجالس النيابية، ومساهمة الصحافة في توجيه الرأي العام، ولا يحصل ذلك إلا بعد توفر الحريّة.

ووضع خير الدين ثلاثة افتراضات لوضع الحاكم: فإمّا أن يكون حسن التصرّف لا يحتاج إلى مشورة من أحد، أو يكون كامل المعرفة لكن شهواته تصدّه عن مراعاة المصالح العامّة، أو يكون ضعيف المعرفة ومتّبعًا لشهواته. ففي الحالة الأولى لن يضرّه أن يستشير العارفين والأمناء، وفي الحالة الثانية تصبح استشارة هؤلاء أمرًا حتميًا، وفي الحالة الثالثة تضيع مصالح الأمّة كلها إذا لم توجد هيئات استشاريّة قائمة. واستشهد بالملك الإنجليزي جورج الثالث (١١٥١ - ١٢٣٥هـ/ ١٧٣٨ - ١٨٢٠م)[1] الذي كان مجنونًا، لكن جنونه لم يؤثر في شؤون المملكة القائمة على المؤسسات. وانتقد خير الدين النظام السائد في عصره، وهو تفويض شؤون الدولة إلى وزير قويّ (الصدر الأعظم في تركيا أو الوزير الأكبر في تونس) ورأى أنه غير مجدٍ. فإذا افترضنا المعرفة والاستقامة من هذا الوزير فإنه يظل تحت رحمة السلطان أو الملك، يتخلص منه متى عارض رغباته. ولا شكّ أن خير الدين كان يعتبر بمآل العديد من الوزراء في تونس أو تركيا أو بقية العالم الإسلامي.

(١) ملك بريطانيا وأيرلندا خلال الفترة من ١٧٦٠ - ١٨٢٠م، قاوم استقلال أمريكا عن بريطانيا، وصمد في وجه حملات نابليون، أصيب سنة ١٧٨٨م باختلال عقلي وتطور إلى الجنون؛ فَنُصِّب ابنه جورج الرابع وصيًّا عليه سنة ١٨١١م.

يتطلب الأمر حينئذ تغييرًا جذريًّا في طرق ممارسة الحكم، كي يحلّ نظام المجالس بدل نظام التفويض. وقد حاول خير الدين أن يصوّر النظام السياسي الحديث في لغة معهودة لدى قرائه، فتحدث عن الشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهل الحلّ والعقد. وعاد إلى «الأحكام السلطانية» للماوردي الذي أجاز وزارة التفويض؛ ليقرأه قراءة معاصرة، فالتفويض في رأي خير الدين ينبغي أن يتحوّل من شخص الوزير إلى هيئة كانت تدعى قديمًا «أهل الحل والعقد» وتدعى حديثًا «المجلس النيابي»، ولا يعني ذلك سلب الملك سلطته؛ بل يعني ممارسة السلطة على أحسن وجه وبمقتضى تحقيق المصلحة العامّة. ومن الأدلة النقلية التي اعتمدها خير الدين الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن الْمُسْتَوْرِد الْقُرَشِيّ الذي قال عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ: مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: لَئِنْ، قُلْتَ: ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ، وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ».

وكما استدعى خير الدين التراث لتأكيد رأيه، فإنّ الطريف أنه استدعى أيضًا التاريخ الأوروبي، ونقل فقرات طويلة لكاتب فرنسي – تيارس Thiers – عرض تاريخ نابليون بونابرت، وبيّن كيف أنّه كان منقذ فرنسا في البداية، ثمّ دفعه

جنون العظمة إلى إقحامها في حروب واسعة، والإضرار بنفوس سكانها وثرواتهم، ونقل خير الدين النصيحة التي ختم بها الكاتب الفرنسي كتابه ووجهها إلى بني وطنه، وهي ألا يسلّموا أمرهم أبدا إلى شخص واحد ولو كان في عظمة بونابرت. وهذا النقل مهمّ جدًّا لما نعلمه من شدّة ولع العرب في القرن التاسع عشر بهذا البطل الفرنسي، حتى إنّ أحمد باي والوفد المرافق له في رحلة سنة (١٢٦٢هـ/١٨٤٦م) إلى فرنسا – وكان خير الدين ضمن الوفد – قد بادر بزيارة قبره فور الوصول إلى فرنسا. فكأنّ خير الدين يقول ضمنيًّا لحاكم تونس خاصّة وحكام المسلمين عمومًا: إذا كانت فرنسا قد أخطأت بإطلاق النفوذ لبطلها نابليون وهو من هو، فهل يصحّ لشعوبكم أن تطلق النفوذ لكم؟ إنّ بلدانكم تكون أكثر خطأ إذا جعلت نفوذكم عليها مطلقًا.

وكأنّ خير الدين كان يفضّل النموذج الإنجليزي على النموذج الفرنسي. وقد اختزل الأوّل في الحادثة التي قرأها لدى الفيلسوف ستيوارت ميل، وهي أن قمّة الازدهار الإنجليزي حصلت في عهد الملك جورج الثالث الذي كان مجنونًا؛ فهذه الحادثة تشهد على أنّ قوّة الأمم والدول بمؤسساتها لا بأشخاص حاكميها. لكن علينا أن نطرح هذه المفاضلة بنوع من النسبيّة؛ إذ ينبغي أن نتذكر – وقد أغفل عن هذا بعض الباحثين – أنّ خير الدين عرف فرنسا في عهد استعادة الملكية، أو بالأحرى العودة إلى النظام الملكي، ولكن في شكل دستوري مقيّد، وكان «تيارس» من أهم مصادره التاريخيّة، وهذا الكاتب كان قد تولّى وزارة

الداخلية والوزارة الأولى في عهد لويس فيليب (١٢٤٥ - ١٢٦٤هـ/ ١٨٣٠ -١٨٤٨م). فقد تقارب النموذجان السياسيان الإنجليزي والفرنسي في هذه الفترة، وقاما على المبادئ الأساسية التي احتفظ بها خير الدين: نظام ملكي مقيّد بالدستور وبالمجالس، ومفهوم ليبرالي للحريّة يؤكد على بُعدها السياسي والاقتصادي والعام (صحافة – مطبوعات)، وليبرالية اقتصادية تحت مراقبة الدولة، ونزاهة الإدارة وكفاءتها.

وقد استبطن خير الدين رؤية للتاريخ العربي والإسلامي قدّت على مقاس مسعاه الإصلاحي، وتأثّرت ببعض ما كان الأوروبيون قد نشروه في عهده. ومجمل هذه الرؤية أنّ العروبة والإسلام شيء واحد، وأنّ المجد العربي قد بدأ بالإسلام وبلغ أقصاه بعد حوالي مائة سنة، وأنّ الفتوحات الحربيّة تحوّلت إلى فتوحات علمية وثقافيّة، ثم بدأ الوهن يدبّ في جسم هذه الأمّة؛ فانقسمت إلى: دولة العباسيين بالشرق، ودولة الفاطميين بشمال إفريقيا، ودولة الأمويين بالأندلس، ثمّ ازدادت انقسامًا بملوك الطوائف وأمرائهم، إلى أن تلافى العثمانيون الأمر؛ فأعادوا جمع الشمل على أساس العدل، ووضع السلطان سليمان قوانين لتسيير الدولة والإدارة، وعادت للمسلمين عزّتهم كما تشهد على ذلك فتوحاتهم، لكنهم أفسدوا نظامهم مرّة أخرى بالتراجع عن القوانين والأسس التي قامت عليها الدولة العثمانية؛ لذلك كان المطلوب استلهام الماضي العربي والماضي العثماني في آن واحد، وإعادة تفعيل القواعد التي سمحت بالمجد سابقًا، وهي

الوحدة والعدل والتسابق إلى الصالح العام، ومعاضدة علماء الدين للعادلين من السلاطين.

ورأى خير الدين أنّ النهضة الحديثة المطلوبة قد استفتحتها الإصلاحات العثمانية المعروفة بالتنظيمات الخيريّة، وأشاد بالسلاطين الثلاثة: محمود الثاني (١٢٢٣ -١٢٥٥هـ/١٨٠٨ -١٨٣٩م)،وعبد المجيد (١٢٥٥ -١٢٧٧هـ/١٨٣٩ -١٨٦١م) وعبد العزيز (١٢٧٧ -١٢٩٣هـ/ ١٨٦١ -١٨٧٦م)؛ لأنّهم اتخذوا القرارات المناسبة بالإصلاح، مثل التخلص من الإنكشارية، وتنظيم الولايات، وسنّ القوانين. ولم يذكر خير الدين شيئًا عن تجربة محمد علي في مصر، بل لم يذكر شيئًا عن إصلاحات حمود باشا، وأحمد باي في تونس!

ورغم أن خير الدين استعمل مرّات كثيرة كلمة «عرب» فإن ذلك لا يعني أنه كان يفصل مصير العرب عن مصير الإمبراطورية العثمانية، فالتأمل الدقيق في موارد هذه الكلمة في نصّه يبيّن أنها استعملت في الغالب: إمّا للحديث عن القرون الأولى من الإسلام السابقة لظهور العثمانيين، أو استعملت صدى لما ذكره كتّاب فرنسيون، وكان السائد في فرنسا تخصيص العرب والاهتمام بهم؛ لأنّ مجال الاهتمام والنفوذ الفرنسيين منذ بونابرت كان عربيًّا أساسًا (الشام، ومصر، وشمال إفريقيا).

لقد أشاد خير الدين بالتنظيمات العثمانية، واعتبرها بداية النهضة الشرقية الحديثة ودافع عنها في كتابه، فنفى أن تكون شرعًا منافية للإسلام، واحتجّ بمساندة بعض علماء الدين لها، ومنهم شيخ الإسلام الحنفي بالآستانة، عارف حكمت بك (١٢٠٠ - ١٢٧٥هـ/ ١٧٨٦ - ١٨٥٩م)، والشيخ إبراهيم الرياحي (١١٧٩ - ١٢٦٦هـ/ ١٧٦٦ - ١٨٥٠م) كبير مفتي المالكية ورأس علماء عصره بتونس. لكن الملاحظ أنّ اقتصار خير الدين على اسمين فقط من كبار العلماء يدلّ على أنّ الأمر لم يكن بالصورة التي أراد إبرازها، فأكثر علماء الدين كانوا متضايقين من هذه التنظيمات، واعتبروا أنّ بعض جوانبها يخالف الشرع أو ينافسه؛ لذلك ما فتئ خير الدين يحثّ علماء الدين على رفع أصواتهم لمساندة التنظيمات، ويرى ذلك الوسيلة المثلى لفرضها على الحكّام والمحكومين.

أجل، كان خير الدين متحمسًا للتنظيمات التي اعتمدتها الدولة العثمانية منافحًا عليها، لكنّه لم يتردّد في إبراز بعض تحفظاته أيضًا، ومنها إناطة الإصلاح بشخص الحاكم دون مؤسسة الدولة، والإعراض عن فكرة الدستور والمجالس النيابية. وقد عبّر عن رأيه بأسلوب يجمع بين المجاهرة والتقيّة، فذكر مثلاً أنّ من بين منتقدي التنظيمات فريقًا يدعو إلى إطلاق الحرية وإقامة الدستور والمجالس المنتخبة، وعلّق على ذلك بطريقة ذكيّة تفهم قصده دون أن تورطه مباشرة في مساندة معارضي السلطان، فقال: «ونحن وإن لم نطلع على أحوال إدارة المملكة العثمانية في الحال، لا سيما في كيفيّة إجراء تلك التنظيمات، اطلاعًا يمكننا معه

معرفة صحّة الأسباب التي يتظلم منها الفريق المذكور أو عدم صحتها، فإنا نسلّم أن هذا المطلب الذي طلبوه هو من أعظم الوسائل في حفظ نظام الدول وقوّة شوكتها ونموّ عمران ممالكها ورفاهيّة رعاياها»[1]. ومن الانتقادات التي وجهها أيضًا من طرف خفي قوله عن السلطان عبد العزيز: «نُؤَمّل أن نرى منه، لا سيما بعد اطلاعه على أحوال أوروبا بالعيان وتطبيقها على ما كان معلومًا لديه بالبيان، مزيد العناية بكلّ ما يتيسّر به إطلاق الحريّة على الوجه الأكمل»[2]. فهذه العبارة كتبت بعد ست سنوات من تولّي عبد العزيز السلطة، وهي تعني أنه لم ينفذ بعد ما كان تعهّد به في أوّل حكمه، وهو تطبيق التنظيمات التي تقرّرت في عهد سابقه السلطان عبد المجيد.

فخير الدين كان يريد الذهاب إلى أبعد مما قامت عليه التنظيمات العثمانية، كان يريد إقامة الدستور والمجالس المنتخبة والحكومات المسؤولة أمام تلك المجالس. لكنه كان أيضًا رجل سياسة واقعيًا، يعلم أنّ تحقيق الغرض يرتبط بالأحوال، ولقد رأى بنفسه في تونس كيف سقط الدستور بعد فترة قصيرة من إعلانه؛ لذلك لم يسعَ عندما تولّى الوزارة الكبرى إلى إعادة العمل به، ولم يتحرج من خدمة عبد الحميد الثاني، وكان يدرك أن المعادلة صعبة بين التوقي من الخطر الأجنبي وإصلاح الأوضاع الداخلية، ولا شكّ أنه كان يعيش أيضًا

(١) المرجع السابق، ص٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص٥٦.

مأزق معادلة شخصيّة تتمثل في التوفيق بين نقده للأوضاع، والمحافظة على مكانته بين كبار الموظفين والأعيان في الدولة العثمانية.

وبنفس القوّة عارض خير الدين الحركات الاستقلاليّة، ورأى أن تقييد الحريات يصبح مقبولاً إذا كانت الغاية منه تحاشي نزعات الانفصال، واحتج بأن أكثر البلدان الأوروبيّة تقدّمًا تلتجئ إلى ذلك أيضًا إذا ما شعرت بالخطر. وبصفة عامّة، فقد كان خير الدين من دعاة التدرّج في الإصلاح، على شرط ألا يكون التدرّج فرصة للتنصل من واجب الإصلاح.

وقد أرجع خير الدين تعثر الإصلاحات العثمانية إلى أطراف كثيرة:

- الحكام؛ لأنّهم يتمسكون بالحكم المطلق.
- الحاشية والمستشارون؛ لأنهم لا يلتزمون بالنزاهة والاستقامة، ولا تتوفّر فيهم الكفاءة في الغالب.
- علماء الدين؛ لأنّهم لا يساندون الإصلاحات مساندة قويّة.
- العامة؛ لأنهم يعتبرون الإصلاحات منافية للدين والتقاليد.

وهذه الأطراف كلها تقع في داخل المجتمعات الإسلامية. لكن ثمّة مجموعة أخرى من الأطراف تنتمي إلى الخارج، وقد أصبحت بفعل العولمة التي أشار إليها خير الدين جزءًا من الداخل، وهي الجاليات الأجنبية وقناصل

الدول. وقد رأى خير الدين أنّ الامتيازات الموروثة عن قرون سابقة أصبحت تمثل عائقًا من العوائق الكبرى للتنظيمات، مثال ذلك إصرار فرنسا على مواصلة تطبيق معاهدة عقدت سنة (٩٤١هـ/ ١٥٣٥م) بين السلطان سليمان القانوني والملك فرنسوا الأوّل(١). وكانت الدولة العثمانية آنذاك في أوج قوتها، وقد منح سليمان للملك الفرنسي امتيازات كثيرة؛ سعيًا إلى تقسيم الصف الأوروبي، وكسب تحالف فرنسا ضد إنجلترا. فتطبيق بنود هذه الاتّفاقية - في عصر قد انقلبت فيه موازين القوى وتغيرت فيه المعطيات - يحمّل السلطنة عبئًا ثقيلاً.

كذلك رأى خير الدين أنّ فرض معاملات تجارية وقضائية خاصّة بالأجانب المقيمين في الأراضي الإسلامية ينافي فكرة التنظيم القائمة على وحدة القوانين. والواقع أنّ الدول الأوروبية كانت تتحجّج باختلاف أنظمتها القانونية عن الأنظمة

(١) تميل آخر التحقيقات التاريخية إلى نفي حقيقة هذه المعاهدة من الأصل، رغم أنها ظلت مذكورة في أغلب الدراسات واستعملتها فرنسا للمطالبة بالامتيازات حتى القرن التاسع عشر، فالباحث الفرنسي جيل فينشتاين، المختص في تاريخ العلاقات الفرنسية العثمانية، يرى أنّ قصة هذه الامتيازات الممنوحة إلى فرنسا في عهد سليم الأول هي مجرد أسطورة، وأنه لم يعقد اتفاق بين الطرفين قبل سنة ١٥٦٩م، بين سليم الثاني وشارل الرابع، وبذلك لا تكون فرنسا قد استأثرت بوضع خاص، بما أنّ هذه المعاهدات قد عقدت مع بلدان عديدة. راجع فصل «غموض التحالف الفرنسي العثماني» ضمن كتاب «تاريخ الإسلام والمسلمين في فرنسا» (بالفرنسية).

Gilles Veinstein : Les ambiguïtés de l'alliance franco - ottomane. Paru dans Histoire de l'Islam et des musulmans en France. Paris, 2006.

وعلى هذا الأساس، فإنّ فرنسا قد تعمدت نشر هذه القصة في القرن التاسع عشر لابتزاز الدولة العثمانية، ولم يكن خير الدين يعلم ذلك، ولم يكن العثمانيون أنفسهم على علم بالأمر.

الإسلامية آنذاك لمنح رعاياها امتيازات ضخمة، كما أن وجود قضاء إسلامي قائم على تعدديّة المذاهب مثّل نقطة ضعف أخرى استغلتها الدول الأوروبية لصالحها. وكان مقترح خير الدين إقامة قانون مدني مستوحى من أحكام المذاهب لكنّه موحّد ومفصّل حسب قواعد التقنيين الحديث. وكان يدعو الأوروبيين إلى منح الفرصة للسلطات الإسلامية كي تنشئ هذا القانون وتعتمده، بدل التذرّع بغيابه أو ضعفه لإعفاء جالياتها من الخضوع إلى القوانين المحلية. ومعلوم أنّ الإمبراطورية العثمانية كانت قد سنّت «مجلة الأحكام العدلية»، وقد لقيت هذه المجلة صعوبات في التطبيق داخل تركيا، ورفضت في بلدان مثل مصر وتونس لأسباب عديدة أهمّها أوّلاً أن تطبيقها كان يعني الإقرار بالسلطة الفعلية للسلطان على هذه البلدان، بينما كانت هذه البلدان تعتبر نفوذ السلطان معنويًّا دينيًّا لا غير، وثانيًا أنّ هذه المجلة كانت قائمة أساسًا على الفقه الحنفي، بينما كانت الأغلبيّة في هذه البلدان تعتمد مذاهب أخرى، ففي تونس مثلاً كان المذهب المالكي هو المنتشر بين الناس.

وعمومًا، فقد دعا خير الدين إلى منح الفرصة لتطبيق التنظيمات رغم الاضطرابات والمصاعب التي حصلت في أوّل العهد بها، وكتب يقول: «جميع الأمور في ابتدائها، قبل التمرن عليها والاعتياد بها (كذا) يقع فيها نوع اضطراب وارتباك حتى يحصل الاستئناس بها وتأخذ مأخذها. وهذا أمر طبيعي لا يقدح به في التنظيمات. فإنا نرى دول أوروبا لم تكن من أوّل الأمر حاصلة على هذا

النجاح في تنظيماتها المشاهد لها اليوم، وإنما حصلت على ذلك بواسطة إعانة السكان لها على إجرائها بعدم المخالفة والشقاق؛ إذ بدون ذلك لا يطمع في الحصول على شيء من نتائجها»[١].

ومضى خير الدين إلى أبعد من ذلك، فاتهم الأوربيين بأن موقفهم لا يصدر فقط عن سوء فهم أو تقدير؛ بل عن قصد إعاقة التنظيمات ونيّة إفشالها، فقال: «نضطر أن نعتقد أنّ لا داعي لذلك إلاّ قصد دوام التحيير في الممالك الإسلامية لتعطيل نجاحها»[٢]. وأدان موقف النفاق الذي تسلكه القوى الأوروبية في قضية الإصلاحات والتنظيمات: «سياسة الدول الأوروبية في ممالكنا متناقضة، فإن منهم من ينصح بعض الممالك بالإعانة على التراتيب المناسبة، ومنهم من يعطّل ذلك بتلك المملكة، ويبذل النصيحة المذكورة بغيرها على حسب اختلاف أغراضهم»[٣]. والعبارة الأخيرة (على حسب اختلاف أغراضهم) تفنّد أن يكون خير الدين قد راهن على دولة أوروبية معيّنة، وفرنسا تحديدًا كما اتهمه خصومه، وردّد عنهم التهمة بعض الدارسين المعاصرين. فقد خبر جيّدًا السياسات الأوروبية ليعلم أنها قائمة على المصالح، فكان يسعى إلى إقناع كلّ القوى الأوروبيّة بأنّ من مصلحتها مساندة التنظيمات والإصلاحات في العالم الإسلامي، وكان يدرك جيّدًا أن ليس بالإمكان المراهنة على طرف واحد؛ بل

(١) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مرجع سابق، ص٥٧
(٢) المرجع السابق، ص٥٩
(٣) المرجع السابق، ص٦٠

من الضروري الاستفادة من تعارض المصالح بينها لتوفير الظروف المناسبة لتطبيق تلك التنظيمات والإصلاحات.

لقد حصل خير الدين بممارسة الحكم على خبرة عميقة جعلته يدرك أن قضية الإصلاح قضية وعرة، وأنّها ترتطم بمصالح قوى كثيرة داخلية وخارجية. وكان طموحه أن تنشأ جبهة إصلاحية تضمّ الموظفين الأكفاء النزهاء من جهة، وعلماء الشرع المستنيرين من جهة أخرى. وظلّ وفيًّا للمثل الأعلى العثماني القائم على تعاضد رجال السياسة مع رجال الشرع لتحقيق التسيير الأفضل للدولة، وحدّد تقسيم الأدوار بين الفريقين كما يلي: «رجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر، والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة»[١]. فبمقتضى ذلك، كان على علماء الدين واجب مراعاة المصالح، ومتابعة الشأن العام، وعدم الاقتصار على ظواهر النصوص: «مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور من أهمّ الواجبات شرعًا؛ لعموم المصلحة وشدّة مدخلية الخلطة المذكورة في اطلاع العلماء على الحوادث التي تتوقف إدارة الشريعة على معرفتها»[٢]. فعلى رجال الشرع أن يتخذوا طريقًا وسطًا، فلا يعتزلون بأنفسهم عن أصحاب السياسة؛ فتضيع عن أنظارهم المصالح، ولا ينخرطون في خدمة أهواء السياسة وأغراضها.

(١) المرجع السابق، ص٦٢
(٢) المرجع السابق، ص٦٢

والواقع أنّ خير الدين ينخرط برأيه هذا في تقليد إسلامي وعثماني عريق، وليس من الصدفة أن يجد عضدًا له رسالة مهمّة كتبها شيخ الإسلام الحنفي بتونس محمد بيرم الأوّل (١١٣٠ - ١٢١٥هـ/ ١٧١٨ - ١٨٠٠م)، عنوانها «رسالة في السياسة الشرعية»، ومضمونها تأسيس هذا التوافق الذي أشرنا إليه بين رجال الشرع ورجال السياسة، وفي هذه الرسالة قرأ خير الدين العبارة المشهورة لابن عقيل الذي أجاب من قال: «لا سياسة إلاّ ما وافق الشرع» بقوله: «إن أردت بقولك: (إلاّ ما وافق الشرع) أي يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح، وإن أردت لا سياسة إلاّ ما نطق به الشرع فغلط». وفي هذه الرسالة أيضًا قرأ عبارة ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ - ١٣٤٩م) «إنّ أمارات العدل إذا ظهرت بأيّ طريق كان فهناك شرع الله ودينه».

ولم يكن خير الدين يحتاج إلى أكثر من ذلك ليجد للتنظيمات شرعية إسلامية، ويجعل علماء الشرع طرفًا ضاغطًا باتجاه تطبيقها. ولقد كانت النخبة في عهده متكوّنة أساسًا من الموظفين وعلماء الدين. فأمّا الموظفون فكانوا تحت رحمة الحكام يعينونهم ويعزلونهم متى شاؤوا، وأمّا علماء الشرع فكان لهم هامش أكبر لإبداء الرأي بحكم ما يحظون به من مكانة لدى الناس؛ لذلك كثيرًا ما نجد خير الدين يستجدي مساهمتهم في عملية الإصلاح، ويعاتبهم على ضعف حمساهم لذلك. بيد أنّهم كانوا يدركون أيضًا أنّ جوانب من التنظيمات العثمانية قد أقرّت تحت ضغط القوى الأجنبية؛ فلذلك كانوا محترسين من مناصرتها.

لم يكتف خير الدين بالاستفادة من التراث الإسلامي لتأكيد صحة رأيه، فقد اعتمد أيضًا العديد من المراجع الغربية. وسبق أن أشرنا إلى أهمية الأديب ورجل السياسة الفرنسي تيارس Thiers (١٢١١ - ١٢٩٤هـ/ ١٧٩٧ - ١٨٧٧م) الذي تولّى الوزارة في عهد الملك لويس فيليب (١٢٤٥ - ١٢٦٤هـ/ ١٨٣٠ - ١٨٤٨م)، وهو صاحب كتاب عنوانه «تاريخ عصر القنصلية والإمبراطورية» (Histoire du Consulat et de l'Empire)، ويتضمن تاريخ فرنسا بعد الثورة. وقد نقل خير الدين منه فقرات طويلة. وتتمثّل أهميّة هذا الكتاب في أنّه جعل خير الدين يتراجع عن الوهم البونابرتي الذي كان منتشرًا بين العرب والمسلمين؛ إذ بيّن هذا الكتاب كيف قام بونابرت بأعمال جليلة في فرنسا، لكن الحكم المطلق وجنون العظمة قد جعلاه أيضًا يقوم بأعمال بالغة الضرر ببلده وبمواطنيه وبجيرانه الأوروبيين.

ومن المراجع المهمّة التي استعملها خير الدين كتاب للمؤرخ فكتور ديروي Victor Duruy (١٢٢٦ - ١٣١١هـ/ ١٨١١ - ١٨٩٤م)، وكان هذا المؤرخ قد شارك في إقامة تعليم عصري في بلده فرنسا، وعنوان كتابه «تاريخ القرون الوسطى منذ سقوط الإمبراطورية الغربية إلى وسط القرن الخامس عشر» (Histoire du moyen âge depuis la chute de l'Empire d'Occident jusqu'au milieu du XV siècle). وقد نقل منه خير الدين عدّة فقرات معرّبة، واستفاد منه في ثلاثة جوانب: أوّلها: تأكيد أنّ القوة الأوروبية حادثة، وأنّ أوروبا قد مرّت بدورها بفترة طويلة من الانحطاط، فأسباب القوّة الأوروبية يمكن اقتباسها؛ لأنّها لا تتعلّق بالموقع أو بالديانة. ثانيها:

التأكيد على أن الانحطاط العربي أمر طارئ، فقد كان للعرب حضارة مزدهرة – وكان هذا موضوع أحد فصول كتاب ديروي – فليس انحطاطهم قدرًا محتمًا لا يرتفع. ثالثها: التأكيد على أنّ حضارة العرب السابقة حصلت بفضل اقتباسهم علوم سابقيهم، وخاصّة اليونان، ولولا ذلك الاقتباس لما بلغوا ما بلغوه من مجد وقوّة وازدهار.

مراجع خير الدين أيضًا الكاتب سدليو Sedillot (١٢٢٣ – ١٣٠٤هـ/ ١٨٠٨ – ١٨٨٧م) وكتابه «تاريخ العرب» (Histoire des Arabes) الصادر بباريس سنة (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م). وقد أثر هذا الكتاب في عدّة مفكرين من جيل خير الدين؛ إذ كان من أوّل الكتب التي اهتمت بتاريخ العرب وحضارتهم، وأقرّت بما في ذلك التاريخ وتلك الحضارة من خصال، واعترفت بالمديونية الأوروبية للعرب، وبأنّ الغرب بدأ نهضته بالاقتباس من العرب والمسلمين، خاصّة في الأندلس. وكان سدليو قد أشار في مقدمة كتابه إلى أنه ينوي تدارك هذه المظلمة التي حاقت بالتاريخ العربي؛ لذلك لقي كتابه قبولاً حسنًا لدى العرب والمسلمين. واستفاد خير الدين من هذا الكتاب للتأكيد على أنّ للعرب حضارة ماضية عريقة، فيمكنهم استعادة دورهم الحضاري لو أنّهم اقتدوا بسلفهم، وقبلوا الاقتباس من الغير، وأشاعوا العدل والحريّة بينهم. وقد نقل منه خير الدين فقرات طويلة.وقد ختم خير الدين مقدمته الإصلاحية بمصارحة معاصريه بأنّ قضية الإصلاح لم تعد قضية اختيارية، ونقل عن بعض أعيان أوروبا قوله: «إنّ التمدن الأوروباوي تدفّق سيله في الأرض فلا يعارضه شيء إلاّ استأصلته قوّة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة

لأوروبا من ذلك التيار، إلاّ إذا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية؛ فيمكن نجاتهم من الغرق»[١]. وعلّق خير الدين على هذا القول كما يلي: «هذا التمثيل المحزن لمحبّ الوطن مما يصدقه العيان والتجربة»[٢]. وهذا التعليق كاف لتأكيد أنّ خير الدين لم يكن منبهرًا بأوروبا، ولم يسعَ إلى نقل أحوالها للمسلمين إلاّ من موقع يقينه بأنّ التغافل عن التحوّلات التاريخية الضخمة التي حصلت في القرن التاسع عشر سيوقع البلدان الإسلامية في أسوء مصير، وهو الانهيار أمام هذه القوّة الجارفة.

رحلات خير الدين ومشاهداته

ممّا لا شكّ فيه أنّ أهمية كتاب خير الدين تتمثّل أساسًا في أهميّة مقدمته. أمّا الأجزاء التي استعرض فيها تاريخ التمدن الأوروبي، والمعطيات الجغرافية والسياسية والاقتصادية للبلدان الأوروبية، والمعلومات الجغرافية عن القارات الخمس، فهي تحتوي معلومات عامّة، وإنّما ذكرها خير الدين؛ لأنّها على عموميتها لم تكن معروفة لدى أغلب معاصريه، فضلاً عن كونه قد استغل فرصة العرض ليضمّن العديد من الإشارات التي تعاضد غرضه الإصلاحي المنشود في المقدمة.

(١) المرجع السابق، ص٧٤
(٢) المرجع السابق، ص٧٥

ففي القسم المتعلق بتاريخ التمدن الأوروبي عمل خير الدين على إبراز أنّ أوروبا قد عاشت فترة انحطاط، وأنها نجحت بعد ذلك في تحقيق النهضة. وقد حدّد فترة الانحطاط الأوروبية بستمائة سنة بدأت مع وفاة شرلمان. واعتبر أنّ النهضة الأوروبية قد حصلت بمخالطة الأوروبيين للأمم الإسلامية التي كانت تتقدمهم حضارة وتمدنًا. وهكذا جعل خير الدين النهضة الأوروبية صورة عاكسة لما كان يأمله من النهضة الإسلامية، والعكس بالعكس.

أما المعلومات التي ذكرها فهي تتصل بالميدان الفكري أساسًا، وهذا أمر جدير بالتنويه، فقد تغافل خير الدين عن الأحداث السياسية، وكأنه يريد أن يؤكد أهمية التجديد الفكري في إنجاح النهضة. فذكر كلّ كبار مثقفي أوروبا في العصر الحديث، من دانتي وبترارك ومكيافيل وشكسبير وكوبرنيك وغاليليه إلى فرنسيس باكون ورابليه ومونتانيه وليونارد دي فانشي وديكارت ونيوتن ومونتسكيو وفولتير وغوته. وذكر أيضًا أهم المخترعات، من المطبعة والمسبار إلى الآلة البخارية والتلغراف والمنطاد.

ولا شكّ أنّ خير الدين كان يعتبر العلاقة وطيدة بين النهضة التقنية التي شهدتها أوروبا وحركة تغيير الأفكار الفلسفية والسياسية التي رافقتها؛ فلذلك نجده يعرض التنظيم الحديث للتعليم، متخذًا فرنسا نموذجًا، ويحدّث قومه عن مراحله وأنواعه وعن الأكاديميات والمكتبات العموميّة. ولا يفوته أن يلاحظ أنّ أبناء الملوك والأعيان أصبحوا أيضًا مطالبين بالانخراط في التعليم، وأنّ أولياء

العهد يخضعون لتكوين دقيق؛ كي يكونوا ولاة أمر صالحين في المستقبل. ولا يخفى ما في هذه المعلومة من إشارة إلى واقع البلدان الإسلامية التي كان التعليم فيها ضعيفًا لدى عامّة الناس، ولدى الأعيان على حدّ سواء، يقول خير الدين: «إنّ سعادة الممالك وشقاوتها في أمورها الدنيوية إنما تكون بقدر ما تيسر لملوكها من ذلك، وبقدر ما لها من التنظيمات السياسيّة المؤسسة على العدل ومعرفتها واحترامها من رجالها المباشرين لها»[١]. ولم تكن هذه الملاحظة هي الوحيدة التي تضمنت نقدًا غير مباشر للأوضاع الإسلاميّة.

ومن المهمّ أن نلاحظ أنّ خير الدين كان من أوائل الذين شرحوا المفهوم الجديد للحريّة كما نشأ في أوروبا، ومن الأوائل الذين استعملوا عبارة «الحرية الشخصية»، وقد عرّفها بأنّها «إطلاق تصرّف الإنسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم»[٢]. وقابل الحريّة الشخصية بالحرية السياسية التي تعني مشاركة الرعية في السياسات الملكيّة.

ويلاحظ أنّ خير الدين لم يستعمل كلمة «شعب»، ولم يهتمّ كثيرًا بالنظام الجمهوري، مع أنّه ذكر بمناسبة الحديث عن مونتسكيو أن الأوروبيين يعدّون الجمهوريّة من النظم السياسية الصالحة. إلاّ أنّ النظام الأمثل لدى خير الدين ظلّ الملكيّة المقيّدة بالدستور والمجالس، كما كانت تمارس آنذاك في كلّ البلدان

(١) المرجع السابق، ص١١٥
(٢) المرجع السابق، ص١١٦

الأوروبيّة، ومنها فرنسا التي شهدت بعد حكم نابليون عودة الملكيّة في شكل مقيّد.

وقد أضاف خير الدين إلى الحريّة معنى ثالثًا هو حريّة التعبير، ومثّل له بحريّة المطبعة؛ لأنّ الصحف والمطابع هي التي نشرت هذا النوع من الحريّة في أوروبا. وتفطن خير الدين إلى أهميّة ذلك في صناعة الرأي العام وتوجيه الساسة ومراقبتهم؛ كي لا يحيدوا عن المصلحة العامّة. واعتبر أنّ كلّ الازدهار المادّي الأوروبي هو نتيجة استقرار مبدأ الحريّة عندهم بأنماطه الثلاثة. ولذلك تحدث عن الاقتصاد والمصارف والمعارض التجارية بعد الحديث عن الحرية؛ لأنّها «نتيجتها وجني دوحتها» كما قال. وقد ذكرنا سابقًا أنّ خير الدين كان يتمتع بثقافة اقتصادية ومالية مهمّة. ويعدّ من القلائل الذين اهتموا بهذا الموضوع، ناهيك أنّ كتاباته تتضمّن الكثير من الأرقام والإحصائيات. ومع ذلك فإنّ رؤية خير الدين لم تخلُ من شيء من المثالية؛ إذ اعتبر أنّ الفكر الحديث هو المنشئ للاقتصاد الحديث، واعتبر أنّ اقتباس مبادئ الفكر السياسي يفتح المجال لمجاراة التمدن الأوروبي وبلوغ مستواه. لقد كتب خير الدين كتابه في فترة لم يزل التفاؤل فيها ممكنًا، ومع وعيه بالهوّة الفاصلة بين الشرق والغرب؛ فقد اعتقد أنّ بالإمكان ردمها في وقت قصير، إذا تعاضدت الجهود على تحقيق الإصلاحات السياسية والاقتصادية الضروريّة.

ويندرج القسم الأكبر من الكتاب - ويتضمن المعلومات والمشاهدات التي جمعها خير الدين حول عشرين دولة - في تقليد «كتابة الرحلات»، وهو تقليد بدأه العثمانيون منذ القرن الثامن عشر، وبدأ لدى الكتاب العرب في القرن التاسع عشر، وكان أوّلهم المصري رفاعة الطهطاوي صاحب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م)، ثمّ اللبناني فارس الشدياق صاحب «كشف المخبا عن فنون أوروبا» و»الوساطة في أحوال مالطة» (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م)، ثمّ توالت الكتابات في هذا الموضوع بعد ذلك. ولا بدّ من التذكير بأنّ المغرب الأقصى كانت له أيضًا تقاليده الراسخة في كتابة الرحلات. أمّا الكتابات التونسية فكانت أشدّ تأثّرًا بالنمط العثماني، وأهمّها كتاب خير الدين «أقوم المسالك» (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م)، ثمّ كتاب بيرم الخامس «صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار» (١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م)، تضاف إليهما رحلات مهمّة ذات نفحات إصلاحية، مثل «الرحلة الحجازيّة» (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) لمحمد السنوسي.

واعتمد خير الدين نفس الخطة تقريبًا لعرض البلدان العشرين، فكان يبدأ بعرض بعض المعطيات التاريخيّة، ثمّ يورد معلومات عن النظام السياسي، ثمّ عن بقية مؤسسات الدولة، ثمّ عن الاقتصاد، ثمّ القضاء، ثمّ الجوانب الاجتماعية العامّة. وهذا المخطّط هو الذي كان معتمدًا في القرن التاسع عشر في الموسوعات الجغرافيّة الأوروبيّة؛ ما يرجح أنّ خير الدين كان يلخص ما وجده في بعض هذه

الموسوعات، مع إضافة مشاهداته الخاصّة التي جمعها بفضل رحلاته وسفاراته إلى هذه البلدان. والغريب أنّ خير الدين اعتمد مصادر غربية حتى عند حديثه عن تركيا العثمانية، مع أنّ الأدب الجغرافي كان قد تطوّر بعض الشيء في تركيا في عصره!

وقد كانت تركيا العثمانية أوّل بلد يخصّه بالوصف، وهو وصف إيجابي عمومًا يؤكّد تعلّق خير الدين بالخلافة في تلك الفترة؛ لأنّه لم يكن يعرف بعد حقيقة أوضاعها الداخليّة. وأهمّ ما يلاحظ هنا إيراد خير الدين لترجمة عربية لأهمّ نصوص التنظيمات: خطّ شريف كلخانة (١٨٣٩)، وخطّ همايون (١٨٥٦). ويلاحظ أيضًا أنه يصف الصدر الأعظم بأنّه وزير صاحب تفويض مطلق.

وسيلفت اهتمام القارئ المعاصر التفاصيل التي ذكرها خير الدين حول التوزيع السكاني للدولة العثمانية؛ إذ ذكر أنها كانت تضمّ ٣٧ إلى ٤٠ مليون ساكن، منهم ١٦ مليونًا في قسمها الأوروبي و٢١ مليونًا في قسمها الآسيوي، وينقسم المجموع حسب خير الدين إلى ٢١ مليون مسلم و١٦ مليونًا من غير المسلمين. فنرى أنّ الطابع «الأوروبي» للسلطنة العثمانية في عهد خير الدين كان قويًّا، وأنّ نسبة غير المسلمين هامّة جدًّا؛ لذلك علّق خير الدين على هذا التوزيع السكاني بأنّ المملكة إذا لم تسلك سبيل الإصلاح، وتساوي بين رعاياها فإنّ غير المسلمين سيطالبون بالانفصال أو الالتحاق بدول مجاورة؛ فتخسر الدولة الجزء

الأكبر من مناطقها، وهذا ما حصل فعلاً عندما فشلت السياسات الإصلاحية. لكن نشير مرّة أخرى إلى أنّ الوصف الذي قدمه خير الدين في كتابه كان وصفًا إيجابيًّا، يعكس طبيعة تقييمه المتفائل لمستقبل الدولة العثمانية في الفترة التي حرّر فيها كتابه.

وبنفس الإيجابية تحدّث خير الدين عن فرنسا، التي كانت مملكة في عصره (بعد استرجاع الملكية سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م)، ويظهر من تقديمها على بقيّة الدول الأوروبية أنّ خير الدين كان يعتبرها الأقوى والأهمّ بينها، ناهيك أنه لم يستبعد أن ينكر بعض القرّاء وصفه ويتهمه بالمبالغة، فبادر بالجواب قائلاً: «ومجمل جوابنا للمنكر هو ما أجاب بمثله ابن خلدون لما بيّن مداخيل الدول الإسلاميّة، وخشي استكثار الناس لذلك، فقال: ولا تنكرنّ ما ليس بمعهود عندك، ولا في عصرك، شيئًا من أمثاله؛ فتضيق حوصلتك عن ملتقط الممكنات»[1]. وممّا ينبغي أن يسجّل في هذا المجال أنّ خير الدين كان من أوائل الكتاب العرب الذين تحدثوا عن الثورة الفرنسيّة حديثًا إيجابيًّا، واستعمل كلمة «ثورة» لا «فتنة» للحديث عن أحداث (١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م). ولم يهتمّ كثيرًا بالتفريق بين العهد الجمهوري والعهد الملكي المقيّد والعهد الإمبراطوري، فما كان يهمّه هو أنّ فرنسا التزمت بالحكم الدستوري، وأنّ هذا الالتزام هو سبب قوتها ورفعة شأنها. ورغم موقفه الإيجابي من الثورة الفرنسية والنظام الفرنسي فإنّ خير الدين لا يستعمل

(١) المرجع السابق، ص٢٦٩

كلمة شعب، بل يواصل استعمال كلمة «العامة». وقد وصف بدقّة النظام السياسي والإداري الفرنسي كأنّه يشجّع البلدان الإسلامية على اقتباسه.

مثّلت إنجلترا في نظر خير الدين نموذجًا إيجابيًّا ثانيًا يجدر الاقتباس منه. ولم يخل وصفه لهذا البلد الأوروبي من الإعجاب والتقدير أيضًا. وذكر بإيجابية «الشرط الكبير» لسنة ١٢١٥ (Magna Carta) الذي يعتبر لدى المؤرخين أوّل بيان لحقوق الإنسان في التاريخ، وتحدث عن الحريّة لدى الإنجليز، فقسمها إلى: الحرية السياسية، وحرية الاجتماع، وحرية الصحافة والطباعة، والحريّة الشخصية. ويبدو من الوصف الذي قدمه للنظم السياسية والإدارية الإنجليزيّة أنّه اهتم اهتمامًا دقيقًا بسبر أغواره وتفاصيله.

ثمّ تواصل كلام خير الدين على بقية البلدان الأوروبيّة حسب نفس المخطّط، ولكن بإيجاز أكبر، فذكر: النمسا، وروسيا، وبروسيا، و«العصبة الجرمانية»، وإيطاليا، وإسبانيا، والسويد، والنرويج، وهولندة، والدانمرك، ومملكة باواريا (ألحقت بالإمبراطورية الألمانية)، وبلجيكا، والبرتغال، وسويسرا، والفاتيكان، والفورتمبرغ (ألحقت بالإمبراطورية الألمانية)، وإمارة بادن (ألحقت بالإمبراطورية الألمانية)، واليونان. ونتوقف هنا عند دولتين هما ألمانيا والفاتيكان لما في وصف خير الدين لهما من دلالات ومعانٍ تتصل برؤيته الإصلاحيّة.

إنّ حديث خير الدين عن «العصبة الجرمانية» يؤكّد أنه كان يستوحي من المثال الألماني في عصره فكرة التوحّد اللامركزي، أي الشكل الفدرالي أو الكنفدرالي، ولعلّ خير الدين قد رآه حلاًّ لمعضلة الدولة العثمانية كي تحافظ على وحدتها مع تمتيع ولاياتها ومقاطعاتها بالتسيير الذاتي؛ فتسلم بذلك من مخطط التقسيم والإضعاف الذي نصبته لها القوى الأوروبيّة، دون أن تتمسك بنظام سياسي لم يعد ملائمًا ولا ممكنًا الاحتفاظ به. فعند حديثه عن الاتحاد الألماني ذكر أنّ «المقصود عن هذا الاتحاد أمران: الأوّل: حماية هذه الدول بعضها من بعض، بحيث لا تتعدّى واحدة منها على الأخرى ولو كانت أضعف منها، والثاني: حمايتها من الدول المجاورة لها، ولو كانت في غاية القوّة؛ لما تراه من الشوكة لمجموعها»[1]. ومن الواضح أنّ خير الدين يستلهم هنا من التجربة الألمانية مفهومًا للوحدة، يراه مفيدًا للدول الإسلامية في علاقاتها ببعضها البعض، وعلاقاتها بمحيطها الجغرافي. وبالمقابل، جاء حديث خير الدين عن الدولة البابوية حديثًا سلبيًّا؛ إذ وصفها بقوله: «وأما الإدارة الحكمية فإن الدولة مستبدة»[2]، وكأنّه رأى البابا على هيئة الخليفة يتصرّف بأمره، ولا يتقيّد بدستور أو مجلس سياسي.

وبعد أن تحدث خير الدين عن هذه الدول العشرين أورد معلومات جغرافيّة عن القارات الخمس، وليس فيها ما يثير الانتباه سوى أن نلاحظ أمرين:

(١) المرجع السابق، ص٤٥٩
(٢) المرجع السابق، ص٦٥١

أوّلاً: أنّ خير الدين الذي عاش في شمال إفريقيا أقرّ بجهله التام بشؤون القارة الإفريقية، فهي القارة المجهولة عنده، وهذا ما يساير توجهات تونس (إفريقية) منذ عصرها «العثماني»، بل منذ أقدم عصورها (العصر الفينيقي)، إذ كانت أشدّ اهتمامًا بانتمائها المتوسطي من انتمائها الإفريقي.

ثانيًا: أنّ الغرب في نظر خير الدين كان يعني أوروبا وحدها، فالكلام عن الولايات المتحدة ورد عامًّا وسريعًا، مع أنّ تونس كانت قد تبادلت العلاقات الدبلوماسية معها منذ عهد حمودة باشا، وبالتحديد سنة (١٢١١هـ/ ١٧٩٧م). واليابان غير مذكورة بالمرّة، وهي طبعًا لم تكن تعتبر آنذاك أمّة غربية، إلاّ أنّ وضعها كان يشبهه وضع العرب والترك في محاولة التصدّي لزحف المدنية الحديثة باقتباس مبادئها بالطريقة التي تلائم مصالحها، لكن من الواضح أنّ خير الدين لم يكن مطلعًا على أوضاعها إلى حدّ تاريخ تحرير كتـابه.

كتاباته

الأثر الأساسي لخير الدين هو هذا الذي نضعه بين يدي القارئ. وقد صدر «أقوم المسلك في معرفة أحوال الممالك» أوّل مرة، كما ذكرنا، سنة (١٢٨٤هـ/١٨٦٧م)، ثم طُبع عدّة مرّات بعد ذلك، وطبعت المقدمة مفردة أحيانًا. وتولّى الدكتور المنصف الشنوفي تحقيق المقدمة ثم تحقيق الكتاب ونشرهما بتونس. وتميزت تحقيقاته بالدقة وثراء المعلومات الواردة في الهوامش. واشتهرت الطبعة التي نشرها

في بيروت الدكتور معن زيادة. وتوجد كمية ضخمة من الوثائق المتعلقة بخير الدين؛ فقد أملى خير الدين مجموعة من المعلومات حول حياته وأعماله، سجلها كاتبه الخاص الفرنسي اللسان، وهذه المدونات، مع وثائق متنوعة، هي التي نشرت بعنوان «مذكرات خير الدين»، وقد نشرت أوّلاً باللغة التي كتبت بها، أي الفرنسية، وكانت موجهة على ما يبدو لقرّاء أوروبيين ثمّ وقع تعريبها. ويُضاف إلى هذه الأوراق التي دُعيت بالمذكرات مجموعات من الوثائق المتنوعة. منها «مراسلات ووثائق الوزير الأكبر خير الدين» حققها الدكتور عبد الجليل التميمي، ونشرتها مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بتونس. ومنها مجموع «خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة» جمع ودراسة أتيلا جتين، ترجمة مصطفى الستيتي، نشرتها وزارة الثقافة التونسية سنة (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م). ومنها «رسائل الجنرال حسين إلى خير الدين»، جمعها وحققها الدكتور أحمد عبد السلام ونشرت بتونس... إلخ.

ولم يخلُ كتاب من الكتب الأساسية حول الإصلاح والنهضة في العالم العربي والإسلامي من حديث مستفيض عن خير الدين؛ فخصص له أحمد أمين فصلاً في «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، وألبرت حوراني فصلاً في «الفكر العربي في عصر النهضة»،... إلخ. أما أهم كتاب مفرد حول خير الدين فهو في تقديرنا كتاب فان كريكن «خير الدين والبلاد التونسية» المنشور في دار النشر «بريل»، وقد عُرّب ونُشر بتونس سنة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

خاتمـــة

لقد أمضى خير الدين المرحلة الأخيرة من حياته (١٢٩٦ - ١٣٠٧هـ/ ١٨٧٩ - ١٨٨٩م) بعيدًا عن السياسة، مع أنّه واصل حياة القصور والترف، وظل موضع تكريم وتقدير؛ فهو لم يتعرّض كل حياته لما لاقاه كثير من المصلحين من مشاكل مادية؛ إذ كان صاحب أملاك ضخمة في تونس ثم في الآستانة. لكنّه أمضى بقية حياته حزينًا مهمومًا؛ لفشل حركة الإصلاح في السلطنة العثمانية والأقطار الإسلامية، ونادرًا ما تجاسر على إبداء حقيقة رأيه وهو يعيش محاطًا بجواسيس السلطان عبد الحميد الثاني.

ولدينا شهادة ثمينة سجّلها محمد السنوسي التونسي عند رحلته إلى تركيا ولقائه خير الدين، فقد كتب ما يلي: «وقد أظهرتُ له في إحدى الليالي تعجبي من قَبوله لخطة الصدارة بعد ولايته رئاسة مجلس الشورى، حيث إن تلك الرئاسة من الوظائف الاستمرارية وصعوبة الصدارة في البلاد العثمانية لا تقتضي استمرارًا. كما أظهرت له تعجبي من إقامته وغيره من التونسيين هنالك تحت ضغط الاحتراس من ترصد الجواسيس. فصدّق تعجبي من كلا الأمرين، وقال لي: أما قبول الصدارة فالحقّ فيه ما تقول، ولكنني قبلتها حيث إن الصادق باي يعتقد أنّ من يخرج من بلاده يموت جوعًا، فأردت أن أريه أنّ من يخرج من بلاده يصير صدرًا أعظم في مقام السلطنة العثمانية. وأنا على يقين من عدم استمراري على تلك الخطة؛ ولذلك بعد خروجي منها عُرضت عليّ

مرارًا، ولم تزل الحضرة السلطانية تطلب إعادتي لها، وأنا على رأيي الأول في عدم العودة. وأما الإقامة في الآستانة على الحالة الموجودة فإني قبل دخولي الآستانة ما كنت أحسب شيئًا مما هو موجود، ولو أنّ إمامي الأعظم أبا حنيفة أخبرني بشيء مما وجدت عليه بلاد الترك؛ كنت أقول إنّ الإمام ﷺ عارف بأمر الدين، وربما شذت عليه أمور الدنيا. وما كنت أتصور وجود هاته الحالة في مقرّ السلطنة الإسلامية. ولكن بعد وجودي في هاته البلاد، وجب البقاء على هاته الحال، وأنا لا أدري كيف المآل»[1].

لقد انسحب خير الدين من العمل السياسي مرتين في حياته: الأولى عندما استقال من مناصبه بتونس سنة (١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م)، والثانية عندما عُزل عن خطة الصدر الأعظم سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م). ولقد كانت العزلة الأولى مفيدة؛ لأنها مكنته من التفرغ لتحرير كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، فلم يفقد الأمل آنذاك في نجاح الإصلاحات في تونس وفي السلطنة العثمانية عمومًا. أما العزلة الثانية فكانت بالصورة التي ذكرها السنوسي في هذه الشهادة. وقد بقي كتاب «أقوم المسالك» الذي كُتب في العزلة الأولى أثرًا خالدًا، تتداوله الأجيال، وتستفيد من رؤاه ومقترحاته. فكأن خير الدين قد خُلق ليشحذ عزائم الإصلاح في حياته وبعد مماته.

(١) السنوسي، الرحلة الحجازية، ج ٢، مرجع سابق، ص ١٢٦ - ١٢٧.

كتاب

اقوم المسالك

فى معرفة احوال الممالك

تاليف

الفهم الافخم الهمام فارس الكتائب واليراع القمقام

منيع الذرى امير الامرا

السيد خير الدين التونسى

ابقاه الله قدوة لكل مرتسى

طبعة اولى

باذن خصوصى من الحضرة العليه

صانها وايدها رب البريه

فى مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحميه

سنة ١٢٨٤

صفحة الغلاف الداخلي لآخر طبعة للكتاب صدرت في حياة المؤلف

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك

تأليف

خير الدين التونسي

فرغ من تأليفه عام (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م) وطُبع لأول مرة عام (١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م)

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من جعل من نتائج العدل العمران، وفضل بالعقل نوع الإنسان، وأهَّله به لحسن التدبير ومراتب العرفان، وأمره بالتعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان.

أحمده وهو المحمود في كل آن بكل لسان، وأصلي على عبده سيدنا محمد المرسل بالكتاب والميزان، المنزل عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾[النحل / ٩٠]. وعلى آله وأصحابه حفَّاظ شريعته اللائقة بكل زمان، الدائرة أحكامها على مركزي الإيمان والأمان.

أما بعد فيقول جامع هذه الورقات – أرشده الله إلى أقوم الطرقات: إني بعد أن تأملت تأملاً طويلاً، في أسباب تقدم الأمم وتأخرها جيلاً فجيلاً، مستندًا في ذلك لما أمكن تصفحه من التواريخ الإسلامية والإفرنجية. مع ما حرره المؤلفون من الفريقين فيما كانت عليه وآلت إليه الأمة الإسلامية، وما سيؤول إليه أمرها

في المستقبل بمقتضى الشواهد التي قضت التجربة بأن تقبل، التجأت إلى الجزم بما لا أظن عاقلاً من رجال الإسلام يناقضه، أو ينهض له دليل يعارضه، من أنَّا إذا اعتبرنا تسابق الأمم في ميادين التمدن، وتحزب عزائمهم على فعل ما هو أعود نفعًا وأعون، لا يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا، على قاعدة محكمة البِنَا، إلا بمعرفة أحوال من حفَّ بنا وحلَّ بقُربنا.

ثم إذا اعتبرنا ما حدث في هذه الأزمان، من الوسائط التي قربت تواصل الأبدان والأذهان، لم نتوقف أن نتصور الدنيا بصورة بلدة متحدة، تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة، وكل منهم وإن كان في مساعيه الخصوصية غريم نفسه. فهو بالنظر إلى ما ينجر بها من الفوائد العمومية مطلوب لسائر بني جنسه.

فمن لاحظ هذين الاعتبارين، اللذين لا تبقي المشاهدة في صحتهما أدنى رين[(١)]، وكان بمقتضى ديانته من الدارين، أن الشريعة الإسلامية كافلة بمصالح الدارين، ضرورة أن التنظيم أساس متين لاستقامة نظام الدين، يسوؤه أن يرى بعض علماء الإسلام، الموكول لأمانتهم مراعاة أحوال الوقت في تنزيل الأحكام، معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية، وأذهانهم عن معرفة الخارجية خليّة. ولا يخفى أن ذلك من أعظم العوائق، عن معرفة ما يجب اعتباره على الوجه اللائق.

---

(١) أدنى رين: أدنى دنس أو شك. (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب، وسوف يستعمل الرمز (م) لاحقًا للإشارة إلى ذلك).

أفيحسن من أُسَاةِ الأمة[١] الجهل بأمراضها، أو صرف الهمة إلى اقتناء جواهر العلوم مجرَّدة عن أعراضها؟

كما أنه يسوؤنا الجهل بذلك من بعض رجال السياسية، والتجاهل من بعضهم رغبة في إطلاق الرئاسة[٢].

فلذلك هجس ببالي، ما استذكيت لأجله ذُبالي[٣]، من أني لو جمعت بعض ما استنتجته منذ سنين بإعمال الفكر والروية، مع ما شاهدته أثناء أسفاري للبلدان الأوروباوية، التي أرسلني إلى بعض دولها الفخام الطود الرفيع الأسمى، والكهف المنيع الأحمى، جناب وليّ النعم، وزكيّ الأخلاق والشيم، لم تزل عزائمه كاسمه صادقة، وألسنة الأيام بالثناء عليه ناطقة، لم يخل سعيي من فائدة، خصوصًا إذا صَادَقَ أفئدة على حماية بيضة الإسلام متعاضدة.

وأهم تلك الفوائد عندي، التي هي في هذا التأليف مناط قصدي، تذكير العلماء الأعلام، بما يعينهم على معرفة ما يجب اعتباره من حوادث الأيام، وإيقاظ الغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعوام، ببيان ما ينبغي أن تكون عليه التصرفات الداخلية والخارجية، وذكر ما تتأكد معرفته من أحوال الأمم الإفرنجية، خصوصًا من لهم بنا مزيد اختلاط، وشديد علقة وارتباط، مع ما أولعوا به من

(١) أُسَاة الأمة: مداووها ومعالجوها، وهم المصلحون. (م)
(٢) إطلاق الرئاسة: الحكم المطلق. (م)
(٣) استذكيت ذُبالي: أوقدت فتيلتي. (م).

صرف الهمم، إلى استيعاب أحوال سائر الأمم، واستسهالهم ذلك بطيّ مسافات الكرة الذي ألحق شاسعها بالأَلَمّ[1].

فجمعت ما تيسر بعون الله من مستحدثاتهم المتعلقة بسياستي الاقتصاد والتنظيم، مع الإشارة إلى ما كانوا عليه في العهد القديم، وبيان الوسائل التي طرقوا بها في سياسة العباد، إلى الغاية القصوى من عمران البلاد، كما أشرت إلى ما كانت عليه أمة الإسلام المشهود لها حتى من مؤرخي أوروبا الأعيان، بسابقية التقدم في مضماري العرفان والعمران، وقت نفوذ الشريعة في أحوالها، ونسخ سائر التصرفات بمنوالها.

والغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروباوية، إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية، أن نتخيّر منها ما يكون بحالنا لائقًا، ولنصوص شريعتنا مساعدًا وموافقًا، عسى أن نسترجع منه ما أخذ من أيدينا، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا، إلى غير ذلك مما تتشوف إليه نفس الناظر في هذا الموضوع، المحتوي من الملاحظات النقلية والعقلية على ما نشره بطيّ فصوله يَضُوع [2].

وسميته: أقوم المسالك، في معرفة أحوال الممالك مرتبًا له على مقدمة وكتابين، يشتمل كل منهما على أبواب.

---

(١) الأَلَمّ: الذي يَكْثر جمعه والوصول إليه. (م).
(٢) يَضُوع: ينتشر. (م).

وبهداية الله نستوضح مناهج الرشد والصواب. والجري في هذا المجال وإن كان فوق طاقتي، لكن إغضاء الفضلاء مأمول في جنب فاقتي، وصدق النية كافل - إن شاء الله تعالى- ببلوغ الأمنيّة.

الباب الأول

التنظيمات

التنظيمات

لما كان السبب الحامل على الشيء متقدّمًا عليه طبعًا، ناسب أن نقدمه وضعًا، ولم نكتف بالإيماء في الخطبة إلى ما دعانا لجمع هذا التأليف، بل رأينا من المهم أن نعود إلى إيضاحه هنا، ونبني عليه ما أردنا إيراده في المقدمة، فنقول:

إن الباعث الأصلي على ذلك أمران آيلان إلى مقصد واحد:

أحدهما: إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة، وترويج سائر الصناعات، ونفي أسباب البطالة. وأساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن، المتولد منه الأمل، المتولد منه إتقان العمل، المشاهد في الممالك الأوروباوية بالعيان، وليس بعده بيان.

ثانيهما: تحذير ذوي الغفلات من عوامّ المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير، الموافقة لشرعنا، بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع

ما عليه غير المسلم من السِّيَر والتراتيب ينبغي أن يهجر، وتآليفهم في ذلك يجب أن تُنبذ ولا تُذكر، حتى إنهم يشددون الإنكار على من يستحسن شيئًا منها. وهذا على إطلاقه خطأ محض.

فإن الأمر إذا كان صادرًا من غيرنا وكان صوابًا موافقًا للأدلة، لا سيما إذا كنا عليه وأُخذ من أيدينا، فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله. وكل متمسك بديانة وإن كان يرى غيره ضالاً في ديانته، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الإفرنجية، فإنهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنًا من أعماله، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد. وشأن الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه، قولاً كان أو فعلاً، فإن وجده صوابًا قبله واتبعه، سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم؛ فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تُعرف الرجال. والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها.

ولما أشار سلمان الفارسي ﷺ على رسول الله ﷺ بأن عادة الفرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم، أخذ رسول الله ﷺ برأيه وحفر خندقًا للمدينة في غزوة الأحزاب، عمل فيه بنفسه ترغيبًا للمسلمين. قال سيدنا عليّ - كرم الله وجهه: «لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال».

وإذا ساغ للسلف الصالح أخذ مثل المنطق من غير أهل ملتهم، وترجمته من لغة اليونان؛ لما رأوه من الآلات النافعة، حتى قال الغزالي: «من لا معرفة له بالمنطق

لا يوثق بعلمه»، فأي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى أنفسنا محتاجين إليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد؟

وفي سنن المهتدين للعلامة الشيخ المّواق المالكي ما نصه: «إن ما نهينا عنه من أعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا، أما ما فعلوه على وفق الندب أو الإيجاب أو الإباحة فإنَّا لا نتركه لأجل تعاطيهم إيّاه؛ لأن الشرع لم ينه عن التشبه بمن يفعل ما أَذِنَ الله فيه».

وفي حاشية الدرّ المختار للعلامة الشيخ محمد بن عابدين الحنفي ما نصه: «إن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر».

على أنَّا إذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يُسْتَحْسَنُ من أعمال الإفرنج، نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات[1] ونتائجها، ولا يمتنعون منها فيما يضرهم.

وذلك أنَّا نراهم يتنافسون في الملابس وأثاث المساكن ونحوها من الضروريات، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية، والحال أن جميع ذلك من أعمال الإفرنج. ولا يخفى ما يلحق الأمة بذلك من الشَّين والخلل في العمران وفي السياسة.

(١) يقصد بالتنظيمات في هذا السياق المؤسسات العصرية الأوربية، ويستعملها في السياقات التالية من هذا الكتاب في الإصلاحات التي اعتمدتها السلطة العثمانية وبعض ولاياتها خلال الفترة من ١٨٣٩ – ١٨٧٦م. (م).

أما الشَّين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدَّالّ على تأخُّر الأمة في المعارف.

وأما خلل العمران فبعدم انتفاع صنَّاع البلاد باصطناع نتائجها الذي هو أصل مهم من أصول المكاسب، ومصداق ذلك ما نشاهده من أن صاحب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلاً يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ما ينتجه عمله لإفرنجي بثمن يسير، ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة بأضعاف ما باعه به. وبالجملة فليس لنا الآن من نتائج أرضنا إلا قيمة موادها المجردة دون التطويرات العملية التي هي منشأ توفّر الرغبات منا ومن غيرنا. ثم إذا نظرنا إلى مجموع ما يخرج من المملكة، وقايسناه بما يدخلها، فإن وجدناهما متقاربين خفَّ الضرر، وأما إذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يُتَوقَّع الخراب لا محالة.

وأما الخلل السياسي فإن احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها، وموهن لقوتها، لا سيما إذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التي لو يتيسر شراؤها زمن الصلح لا يتيسر ذلك وقت الحرب، ولو بأضعاف القيمة.

ولا سبب لما ذكرناه إلا تقدم الإفرنج في المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسَّسة على العدل والحرية. فكيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه مما هو مستحسن

في ذاته، ويستسهل الامتناع عما به قِوَامُ نفعه بمجرد أوهام خيالية واحتياط في غير محله؟

ومما يحسن سَوقُه هنا قول بعض المؤلفين من الأوروباويين في السياسات الحربية: «إن الممالك التي لا تنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتيب العسكرية يوشك أن تكون غنيمة لهم ولو بعد حين».

وخص التراتيب الحربية لأنها موضوع كتابه، فالواجب مجاراة الجار في كل ما هو مظنة لتقدمه، سواء كان من الأمور العسكرية أو من غيره.

ومما يؤيد ما قررناه قوله ﷺ لعاصم بن ثابت من حديث: «من قاتل فليُقَاتِلْ كما يُقَاتَل».

ويوضح معناه ما تضمنته وصية الصِّدِّيق لخالد بن الوليد – رضي الله عنهما – حين بعثه لقتال المرتدين، فقال: «يا خالد عليك بتقوى الله والرفق بمن معك» إلى أن قال: «والخوف عند أهل اليمامة فإذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر، ثم إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به، السهم للسهم، والرمح للرمح، والسيف للسيف».

قلت: ولو أدرك هذا الزمان لأبدل ذلك بمدفع الششخان ومكحلة الإبرة والسفينة المدرعة، ونحوها من المخترعات التي تتوقف عليها المقاومة، ولا يحصل

بدونها الاستعداد الواجب شرعًا الذي يستلزم معرفة قوة المستعد له والسعي في تهيئة مثلها، أو خير منها، ومعرفة الأسباب المحصِّلة له.

وبناء على ذلك يقال هنا: هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار إليه بدون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا؟

وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسس على دعامتي العدل والحرية، اللذين هما أصلان في شريعتنا، ولا يخفى أنهما مِلاكُ القوة والاستقامة في جميع الممالك؟

ولما كان الغرض من هذا الكتاب لا يتم إلا ببيان أحوال البلدان الأوروباوية، لزم أن نثني العنان إليه مدرجين في أثنائه ما يناسب الأمة الإسلامية.

فنقول: إن الحالة الراهنة في ممالك أوروبا لم تكن ثابتة لها من قديم الزمان؛ لأنها كانت بعد هجوم البرابرة الشماليين وسقوط الدولة الرومانية(١) سنة أربعمائة وست وسبعين (٤٧٦) مسيحية على أفظع حال من التوحش والاعتداء والجور، آخذة في حركة السقوط التي هي أسرع من الصعود طبعًا. ولم تزل في رِبقة الرق لملوكها وكبراء الأمم الجائرة المسمين بالنوبليس إلى زمن ولاية الإمبراطور شرلمان ملك فرنسا ومعظم ممالك أوروبا، سنة سبعمائة وثمان وستين (٧٦٨م)، فبذل

(١) الدولة الرومانية: الإمبراطورية الرومانية. (م).

غاية جهده في إصلاح حال الناس بسعيه في تنمية المعارف وغيرها. ثم بعد وفاته رجعت إلى غياهب جهالتها وظلم ولاتها، كما يأتي تفصيله.

ولا يتوهم أن أهلها وصلوا إلى ما وصلوا إليه بمزيد خصب أو اعتدال في أقاليمهم؛ إذ قد يوجد في أقسام الكرة ما هو مثلها أو أحسن، ولا أنَّ ذلك من آثار دياناتهم؛ إذ الديانة النصرانية ولو كانت تحث على إجراء العدل والمساواة لدى الحكم، لكنها لا تتداخل في التصرفات السياسية؛ لأنها تأسست على التبتُّل والزهد في الدنيا، حتى إن عيسى عليه السلام كان ينهى أصحابه عن التعرض لملوك الدنيا فيما يتعلق بسياسة أحوالها، قائلا: «إنه ليس له ملك في هذه الدنيا»؛ لأن سلطان شريعته على الأرواح دون الأشباح.

والخلل الواقع في ممالك البابا كبير الديانة النصرانية، لامتناعه من الاقتداء بالتراتيب السياسية المعتبرة في بقية الممالك الأوروباوية، دليل واضح على ما ذكرناه.

وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي، وتسهيل طرق الثروة، واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة. وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم.

وقد جرت عادة الله في بلاده أن العدل وحسن التدبير والتراتيب المحفوظة من أسباب نمو الأموال والأنفس والثمرات، وبضدها يقع النقص في جميع ما ذكر، كما هو معلوم من شريعتنا، والتواريخ الإسلامية، وغيرها.

فقد قال ﷺ: «العدل عز الدين وبه صلاح السلطان، وقوة الخاص والعام، وبه أمن الرعية وغيرهم»(١).

ومن أمثال الفرس: «الملك أساس والعدل حارس، فما لم يكن له أساس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع».

وفي نصائح الملوك(٢): «إن وليّ الأمر يحتاج إلى ألف خطة وكلها مجموعة من خصلتين، إذا عمل بهما كان عادلاً، وهما: عمران البلاد، وأمن العباد».

ومن تصفح الفصل الثالث من الكتاب الأول من مقدمة ابن خلدون رأى أدلة ناهضة على أن الظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كان.

وبما جبلت عليه النفوس البشرية كان إطلاق أيدي الملوك مجلبة للظلم على اختلاف أنواعه، كما هو واقع اليوم في بعض ممالك الإسلام، ووقع بممالك أوروبا في تلك القرون عند استبداد ملوكها بالتصرف المطلق في عبيد الله، من

(١) لم نعثر عليه في كتب السُّنة. (م).
(٢) في كتاب «التبر المسبوك في نصائح الملوك» للغزالي. (م).

غير تقيد بقانون عقلي؛ لمنافاته لشهواتهم، ولا شرعي؛ لعدم وجوده في الديانة المسيحية المبنية على التبتل والزهد في الدنيا، كما تقدم.

وما أشرف بعض ممالكهم على الاضمحلال وسلب الاستقلال إلا بسوء تصرفهم الناشئ عن إطلاق أيديهم، مع حسن سيرة مجاوريهم إذ ذاك من الأمة الإسلامية، الناتج عن تقيد ولاتهم بقوانين الشريعة، المتعلقة بالأمور الدينية والدنيوية، التي من أصولها المحفوظة إخراج العبد عن داعية هواه، وحماية حقوق العباد، سواء كانوا من أهل الإسلام أو من غيرهم، واعتبار المصالح المناسبة للوقت والحال، وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح، وارتكاب أخف الضررين اللازم أحدهما، إلى غير ذلك.

ومن أهم أصولها وجوب المشورة التي أمر الله بها رسوله المعصوم ﷺ مع استغنائه عنها بالوحي الإلهي، وبما أودع الله فيه من الكمالات، فما ذاك إلا لحكمة أن تصير سنة واجبة على الحكّام بعده.

قال ابن العربي: «المشاورة أصل في الدين، وسنة الله في العالمين، وهي حق على عامة الخليقة، من الرسول إلى أقل الخلق».

ومن كلام عليّ رضي الله عنه : «لا صواب مع ترك المشاورة». ومن الأصول المجمع عليها وجوب تغيير المنكر على كل مسلم بالغ، عالم بالمنكرات.

وقال حجة الإسلام الغزالي: «الخلفاء وملوك الإسلام يحبون الرد عليهم ولو كانوا على المنابر». فقد قال عمر بن الخطاب ﷺ وهو يخطب: «أيها الناس من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقوِّمه». فقام له رجل وقال: «والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا». فقال: «الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه». ولا شك أن مثل هذا الإمام العادل الشديد في حماية الدين وحقوق الخلافة لو لم ير مساغًا من الشريعة لذلك الكلام مع ما فيه من الشدة ما حمد الله عليه، بل كان الواجب رده وزجر قائله.

وروى الغزالي أيضًا - في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإحياء - أن معاوية حبس عطاء الناس، فقام إليه أبو مسلم الخولاني، فقال: «إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك»، فقال معاوية بعد إسكان غضبه بالوضوء: صدق أبو مسلم! إنه ليس من كدي ولا من كد أبي، فهلموا إلى عطائكم».

قلت: لولا التغيير المشار إليه ما استقام للبَشَرِ مُلْك؛ لأن الوازع ضروري لبقاء النوع الإنساني، ولو ترك ذلك الوازع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لم تظهر ثمرة وجوب نصبه على الأمة؛ لبقاء الإهمال بحاله. فلابد للوازع المذكور من وازع له يقف عنده، إما شرع سماوي أو سياسة معقولة. وكل منهما لا يدافع

عن حقوقه إن انتهكت؛ فلذلك وجب على علماء الأمة وأعيان رجالها تغيير المنكرات.

ونصب الأوروباويون المجالس، وحرروا المطابع، فالمغيرون للمنكر في الأمة الإسلامية تتقيهم الملوك كما تتقي ملوك أوروبا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع. ومقصود الفريقين واحد، وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وإن اختلفت الطرق الموصلة إلى ذلك.

وما ذكرناه أشار إليه ابن خلدون في فصل الإمامة من مقدمته حيث قال: «إن الملك، لما كان عبارة عن المجتمع الضروري للبشر، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار القوة الغضبية المركبة في الإنسان، كانت أحكام صاحبه في الغالب حائدة عن الحق، مجحفة بمن تحته من الخلق؛ لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طَوقِهم من شهواته، فتعسر طاعته لذلك، وتجيء العصبية المُفْضية إلى الهرج والقتل، فوجب أن يرجع إلى أحكامها. كما كان سياسة مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها. كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم، وإذا خلت الدولة عن مثل هذه السياسة لم يستقم أمرها، ولا يتم استيلاؤها. فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها، كانت سياسة عقلية. وإذا كان فرضها من الله تعالى بشارع يقررها كانت سياسة دينية نافعة في الدنيا والآخرة». انتهى.

قلت: والنفع المذكور إنما يكون تامًّا ببقائها محترمة، بصونها والذب عن حوزتها بمثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أشرنا إليه.

هذا وإنَّا لا ننكر إمكان أن يوجد في الملوك من يحسن تصرفه في المملكة بدون مشورة أهل الحل والعقد(١)، ويحمله حب الإنصاف على الاستعانة بالوزير العارف النصوح فيما يشكل عليه من المصالح، لكن لكون ذلك من النادر الذي لا يعتبر؛ لاستناده إلى أوصاف قلما تجتمع في إنسان، وعلى فرض اجتماعها ودوامها له، تزول بزواله، وجب علينا أن نجزم بأن مشاركة أهل الحل والعقد للملوك في كليات السياسة، مع جعل المسئولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها، بمقتضى قوانين مضبوطة، مراعى فيها حال المملكة، أجلب لخيرها وأحفظ له.

وبيان ذلك أن حالة الملوك بمقتضى الطبيعة البشرية، لا تخرج عن صور ثلاث: لأن الواحد منهم إما أن يكون كامل المعرفة والمحبة لخير الوطن، قادرًا على إجراء المصالح بمراعاة الأصلح، أو يكون كامل المعرفة ولكن له أغراض وشهوات خصوصية تصده عن مراعاة المصالح العمومية، أو يكون ناقص المعرفة ضعيف المباشرة.

ومثل هذه الصور الثلاث يعتبر في الوزير المباشر.

(١) أهل الحل والعقد: الولاة وعلية القوم الذين بيدهم تصريف الأمور. (م).

ولا يخفى أن لزوم المشورة ومسئوولية الوزراء في الصورة الأولى لا يعطل كامل المعرفة عن مقصده الحسن، بل يعينه؛ حيث إن آراء الجميع متعاضدة على المصلحة، كما أنه يسهل دوام الملك في عائلته ولو كانوا من ماصدقات[١] الصورتين الأخيرتين الواضح فيهما تأكد المشورة والمسئولية، ولوجوب المعارضة في الثانية والإعانة في الثالثة. فبذلك يستقيم حال المملكة ولو كان الوالي أسير الشهوات أو ضعيف الرأي، كما قال المترجم لتاريخ ستوارد مل الأنكليزي: «إن رفعة شأن الأمة الأنكليزية بلغت الغاية في مدة الملك جورج الثالث الذي كان مجنونًا». وما ذاك إلا بمشاركة أهل الحل والعقد ومسئولية الوزراء لهم.

وقد يسبق إلى بعض الأذهان الضعيفة أن تكليف من تحسن سيرته من الوزراء ينجبر به خلل الصورتين الأخيرتين، بحيث لا يحتاج لأهل الحل والعقد، وهو ظاهر السقوط؛ لأن تقديم الوزير للمباشرة وتأخيره عنها بيد الملك، ولا يظن أن الملك يقدّم من يعلم أنه يخالفه مخالفة معتبرة. وعلى فرض تقديمه وسيره سيرة مستحسنة فإنَّا نرى أن حال الوزير دائر بين أمرين:

لأنه، إمَّا أن يوافق الملك وحاشيته على أغراضهم وشهواتهم، مرجحًا بذلك حظ نفسه، وضرر المملكة في هاته الحالة لا يكاد يخفى.

(١) ما صدقات: ما ينطبق عليه كذا..، وهو من تعبيرات الفقهاء والمناطقة. (م).

وإما أن يخالفهم ويأمر الذين من تحته من المتوظفين بما تقتضيه مصلحة البلاد، وحينئذ فمن أين له هذا الحق؟ وبأي ظهير يستظهر على تلك المخالفة؟ خصوصًا إذا لم تكن هناك شريعة نافذة تحميه من تحزُّب حُسَّاده الذين غاية أملهم إضراره، وتعطيل تصرفاته الحسنة، المقللة لفوائدهم، بكل وجه أمكنهم، ولو بتنفيذ إذنه على غير مقصوده، أو تأخيره عن الوقت المناسب ليظهر الخلل ويكثر الزلل، أو بإخفاء جليل حسناته، وإشهار حقير سيئاته لتغيير القلوب عليه.

ومن دعاء عليّ رضي الله عنه: «اللهم احفظني من عدو يرعاني، إن رأى مني حسنة دسها، وإن رأى سيئة أشهرها».

ثم إذا خيب الله آمالهم بنجاح سعى الوزير المشار إليه في إدارة المملكة رجعوا إلى سلوك طريق الوشاية به عند الملك، بأن يقولوا: «إنه استبد عليك، ولم يُبق لك من الملك غير الاسم»، إلى غير ذلك من أنباء الفساق التي قد تروج على العاقل، قبل التبيُّن، خصوصًا عند الدول المشرقية.

فكيف يتيسر للوزير - والحالة ما ذكر - أن يجري إدارة المملكة على مواقع المصلحة، مخالفًا بذلك من هو الخصم والحكم، ولما في هاته الحالة الثانية من العوائق، يضطر الوزير المذكور إما إلى اختيار الحالة الأولى بالمجاراة، وسلوك طرق المدارة، وعاقبة ذلك وخيمة؛ لعوده بالمضرة على الوطن والملك، وعليه نفسه؛ لأن استعذاب الموافقة على الشهوة في الحال الناشئ عنه خراب المملكة يستعقب

مرارة الندامة في المآل. وإما إلى الاستعفاء من الخدمة بالمرة، وهو وإن لم يكن واجبًا لحفظ ذاته، فهو واجب للتخلص مما يتوقع من الموافقة على ما يؤول إلى خراب المملكة، الموجب لعقاب الخالق، ولوم المخلوق؛ إذ الإنسان، ولو ساغ له المخاطرة بنفسه لمصلحة الوطن لا يسوغ له المخاطرة بديانته وهمته، وما يجب عليه من الطاعة للملك، والمحبة للوطن، لا يحصلان إلا ببذل الجهد في النصح بجلب المصالح، ودرء المفاسد، إن قدر عليهما، وإن لم يقدر، فبالامتناع من الموافقة على ما يضر، فإن لم يفعل كانت موافقته مع العلم بما ينشأ عنها من المضرة خيانة.

فبان بهذا أن الممالك التي لا يكون لإدارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحل والعقد، خيرها وشرها منحصر في ذات الملك، وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها؛ ويشهد لذلك حالة الممالك الأوروباوية في القرون الماضية، قبل تأسيس القوانين؛ فقد كان لهم في ذلك الوقت من الوزراء من لهم شهرة إلى الآن بتمام المعرفة والمروءة، ومع ذلك لم يتيسر لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صورتي استبداد الملوك المشار إليهما.

ولا يقال: «إن مشاركة أهل الحل والعقد للأمراء في كليات السياسة تضييق لسعة نشر الإمام وتصرفه العام»؛ لأنا نقول: هذا التوهم يندفع بمطالعة الأحكام السلطانية للماوردي فإنه قال فيه عند بيان وزارة التفويض: «هي أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه، وإمضاءها على اجتهاده. وليس

يمتنع جواز هذه الوزارة؛ فإن الله تعالى يقول حكاية عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي. هَٰرُونَ أَخِي. ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي. وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه/ ٢٩ - ٣٢]، فإذا جاز ذلك في النبوة كان في الإمامة أجوز» انتهى.

قلت: فإذا جاز تشريك الإمام لوزير التفويض على الوجه المذكور ولم يعد مثل ذلك تنقيصًا من تصرفه العام، كان تشريكه لجماعة هم أهل الحل والعقد في كليات السياسة أجوز؛ لأن اجتماع الآراء إلى مواقع الصواب أقرب.

ولهذا لما جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلاف شورى بين ستة قال: «إن انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الأربعة. (ميلاً منه إلى الأكثر؛ لأن رأيهم إلى الصواب أقرب. قاله السيد السند) وإن تساووا فكونوا في الحزب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف...».

على أن المولى سعد الدين - في شرح العقائد - لم يمنع المشاركة في تصرفات الإمامة، وقصر منع التعدد على منشأ الفساد، حيث قال في أثناء مبحث الإمامة: «غير الجائز هو نصب إمامين مستقلين، تجب طاعة كل منهما على الانفراد؛ لما يلزم عليه من امتثال أحكام متضادة، وأما في الشورى فالكل بمنزلة إمام واحد» انتهى. أي لأن تعدد الأشخاص لا ينافي وحدة الإمام التي مدارها على وحدة الأمر والنهي.

وقد سلم كلام السعد مُحَشُّوه، كالفاضلين عصام الدين وعبد الحكيم، وقرره الخيالي بقوله: «وقد يجاب أيضًا».

وبالجملة، فكلهم معترف بصحة كلام السعد في نفسه. وظاهر حينئذ أحروية جواز الشورى في كليات السياسية بالمعنى الذي أشرنا إليه؛ إذ هي دون الشورى في سائر التصرفات. ثم إن الشورى على الوجه المذكور ليس فيها تضييق لدائرة خطة الإمامة وعموم تصرفها، باعتبار أن نظر أهل الحل والعقد بمنزلة نظر الإمام، ومراعاة كونه مظهرًا له لاستبداده بتمشيته وإدارته، مع ما يستبد به من التصرفات التي لا تقتضي المشاركة، كإجراء الخلطة السياسية والمتجرية مع الأجانب، ونصب أرباب الخطط وتأخيرهم، وتنفيذ سائر الأحكام، ونحو ذلك من التصرفات التي هي محمل وحدة الأمر.

وهاك شاهدًا آخر من كلام الإمام ابن العربي، فإنه قال في المغارم التي تؤخذ من الناس عند فراغ بيت المال: «إنها تؤخذ جهرًا لا سرًّا، وتنفق بالعدل لا بالاستيثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد». انتهى.

ولزيادة البيان نستوضح ذلك بمثال: وهو أن مالك البستان الكبير - مثلاً - لا يستغني في إقامته وتدبير شجره عن الاستعانة بأعوان، يكون لهم مزيد معرفة بأحوال الشجر وما يصلحه أو يفسده، فإذا اتفق أن رب البستان أراد قطع شيء من فروع شجره، لما رأى في ذلك من تقوية الأصول وتنمية ثمارها فلم يوافقه

أعوانه على ذلك، علمًا منهم - بمقتضى قواعد الفلاحة - أن القطع في ذلك الوقت مما ينشأ عنه موت الشجرة من أصلها، فتعطيل إدارة المالك في ذلك لا يعد تضييقًا لسعة نظره، وعموم تصرفه في بستانه. وقد يكون مستند الأعوان في تعطيل إرادته أمرًا شرعيًا، كما إذا أراد بيع الثمرة قبل بُدُوٍّ صلاحها — مثلاً - فأشاروا عليه بأن ذلك لا يرضاه خالق الشجر الذي هو المالك الحقيقي، فيلزمه الرجوع لرأيهم في المثالين، وإلا توجه اللوم إليه، واستحق أن يُحجر عليه. وهل يقال حينئذ: إن ذلك تضييق على رب البستان؟ بل إن التوسعة عليه مضادة للحكمة الإلهية في إيجاد العالم، واستعمار أرضه ببني آدم. هذا مع أن منفعة البستان مختصة بربه. أما إذا كانت له ولغيره، أو منزلته فيها - كما قال عمر رضي الله عنه: «كمنزلة والي اليتيم»، فأحرى أن لا يتوهم أن ذلك تضييق عليه.

ومعلوم أن تصرف الإمام في أحوال الرعية لا يخرج عن دائرة المصلحة، وأن القيام بمصالح الأمة وتدبير سياستها مما يتيسر لكل أحد؛ فتعطيل الإرادة حينئذ إنما يقع في شيء خارج عن دائرة التصرف المسوغ له.

فتحرَّر بما شرحناه اندفاع ذلك القيل، وأنه لا مانع من التشريك على الوجه المذكور. ومن لاحظ جانب المقتضى - كما لاحظه الشيخ ابن العربي - فيما قدمناه عنه، وهو ملحظنا في جميع ما أسلفناه، لم يتوقف في الجزم بتعينه لا سيما في هذا الزمان الذي قل فيه العرفان، وكثر الطغيان.

وقد كانت وقعت بيني وبين أحد أعيان أوروبا مكالمة، أسهب فيها بمدح ملكهم، وذكر ما له من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتى قال: «إنه متقيد بطبعه وعقله عن سلوك غير منهاج الصواب» فقلت له: «كيف تُشَاحُّونه في الحرية والسياسية، وترومون مشاركته في الأمور الملكية، والحال أنكم تُسلمون له من الكمالات ما لا يحتاج معه إلى المشاركة؟» فأجابني بقول: «من يضمن لنا بقاءه مستقيمًا واستقامة ذريته بعده؟»

ومما يناسب سَوْقُه هنا ما ذكره المؤرخ الشهير (تيارس) أحد أعضاء مجلس النواب بفرنسا الآن، وكان وزيرًا للملك لويز فليب، في آخر تاريخه المشهور – عند ذكر عواقب الاستبداد – من أن العمل بالرأي الواحد مذموم، ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف، بعدما ترجم لنابليون الأول بأوصافه الخاصة، وألحقه في السياسة بأفراد الرجال الذين جَادَ بهم الدهر في القرون الماضية، حتى وصفه بهمة إسكندر الروميّ، وقيصر الروماني، وذكاء أنيبال الإفريقي ومعارفه الحربية، إلى أن قال – مخاطبًا للفرنسيين: «تعالوا نمعن النظر في أفعال هذا الملك التي هي في الحقيقة أفعالنا، فيستفيد منها من كان جنديًّا كيف ينبغي أن تُقاد الجيوش، ومن كان من رجال الدولة معرفة كيف ينبغي أن تكون إدارة المملكة، وكيف ينبغي أن يرتفع شأنها بدون خروج عن دائرة التواضع والرفق؛ إذ المعاملة متى لم تكن مصحوبة برفق وقناعة لا تتحمل، وربما يُفْضِي ذلك إلى أسباب الاضمحلال، كما أفضت إليها سيرة المذكور الذي هو أقل البشر قناعة».

«فبالجملة نعتبر بغلطاته فنتجنبها، ثم نستفيد – معاشر أبناء الوطن – تربية أخيرة لا يسع نسيانها، وهي أنه لا يسوغ أبدًا أن يسلم أمر المملكة لإنسان واحد، بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده، ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلاً، ونحن وإن كنا لسنا ننتقد فعل نابليون في افتكاك فرنسا من أيدي الديركتوار(١) بعد أن كانت أشرفت على الضياع في أيديهم، لكن نرى أن وجوب استخلاص المملكة من تلك الأيدي الضعيفة الخاسرة، لا يكون حجة في إسلامها إسلامًا مطلقًا ليد قاهرة متهورة، لا تبالي بشيء ولو كانت هي اليد المنتصرة في ريفلي ومرنقو».

«على أنَّا نقول إن كان هناك أمة تعذر عذرًا ما في تسليم أمرها لشخص واحد، فلا تكون غير الأمة الفرنساوية في ذلك الوقت، أعني سنة ثمانمائة وألف (1800م)، حين استرأست نابليون المذكور عليها، والناس إذ ذاك فوضى لا سراة لهم، ولم يكن المشير عليها بذلك قاصدًا مجرد تخويفها لإلجائها إلى قيود العبودية، بل كان الخوف متحققًا بالمشاهدة».

«فواحسرة تلك الأمة على ألوف من النفوس البريئة صرعت بالمجزرة، وألوف كذلك خنقت بسجون الدير، وألوف أغرقت بوادي لوار، وبالجملة فقد حل بأولئك المتمدنين من أفعال المتوحشين أمر فظيع، روعهم وأرعد فرائصهم،

(١) الديركتوار: حكومة برجوازية قامت إثر الثورة الفرنسية. (م).

ولم يزالوا بعد سكون تلك الثورة القاسية رائجين بين السيافين المولعين بقطع الرؤوس، وهم جماعة الديركتوار، وبين الجُهَّال المتغربين عن وطنهم، وهم شيعة الملوك الذين كانوا يرومون بإراقة الدماء إرجاع فرنسا إلى الحالة القديمة التي كانت قبل الثورة، مع ما طرأ عليهم في أثناء ذلك الاضطراب من نهوض سيف الأجنبي متهددًا، فبينما هم في لجج الهرج إذ أقبل من المشرق الشاب المنصور الذي ذلت له صعاب الأمور، العاقل، المتواضع، المُغْري باستمالة قلوب البشر، وهو نابليون المشار إليه».

أفتراهم والحالة هذه لا يعذرون في إلقاء زمامهم بيد المذكور؟ بلى!

إذا لَمْ تكن إلا الأَسِنَّةُ مَرْكَبًا   فَلا يَسَعُ المُضْطَرَّ إلا رُكُوبُهَا

ومع ذلك فلم تمض إلا سنوات قليلة إذ انقلب ذلك العاقل مجنونًا بجنون غير مماثل لجنون أرباب الثورة، والجنون فنون، فإنه تقرب بمليون من النفوس في ميدان الحرب، وحمل أهل أوروبا على التعصب على فرنسا حتى بقيت مغلوبة، غريقة في دمائها، مسلوبة من نتائج انتصارها مدة عشرين سنة، بحيث صارت على حالة يرثى لها، ولم يبق لها أن تستثمر بعد ذلك إلا ما كان مزدرعًا[١] فيها من بذر التمدن الوقتي، فمن كان يظن أن عاقل سنة ثمانمائة وألف (1800م) يُجَنُّ في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة وألف (1812م)؟».

---

(١) مزدرعًا: مزروعًا. (م).

«نعم كان يمكن توقع ذلك، لو أمعنوا النظر في أن الذي له القدرة التامة، بحيث يستطيع أن يفعل كل ما يريد، معه داء لا دواء له، وهو الشهرة الداعية لفعل كل مستطاع ولو كان قبيحًا».

«إذا تقرر هذا فعلى أبناء الوطن أن يتأملوا سيرة المذكور، ويستخرج منها كل فريق ما يناسب خطته، والأهم أمر واحد، وهو أن لا يطلق أمر الوطن لإنسان واحد، كائنًا من كان، وعلى أي حالة كان».

«وقد ختمت هذا التاريخ الطويل، المستوعب لأحوال نصرنا وانهزامنا، بهذه النصيحة بل الصيحة الصادرة عن صميم فؤادي، راجيًا بلوغها إلى قلب كل فرنساوي، ليتيقن جميعهم أنه لا يليق بهم بذل حريتهم إلى أحد، كما لا ينبغي لهم الإفراط فيها حتى تُنْتَهك حرمتها». انتهى المراد منه.

وفي حكمة أرسطو أن من الغلط الفادح أن تُعوَّض الشريعة بشخص يتصرف بمقتضى إرادته.

فإذا تأملت كلامي هذين الحكيمين، وما تضمنه أولهما من المشاحَّة في الاستبداد، مع كون المستبد من المشهود لهم بمزيد العرفان والأهلية، تعرف بذلك ما جبلت عليه نفوس القوم من حب الحرية، والامتناع من ظلم الملوك، كما يشهد به كلام سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه في حديث مسلم الذي رواه المستورد القرشي رضي الله عنه قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: «سمعت رسول الله

يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس» فقال له عمرو: «أبصر ما تقول» قال: «أقول ما سمعته من رسول الله» قال: «لئن قلت ذلك، إن فيهم لخلالاً أربعًا:

إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كَرَّةً بعد فَرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك».

هذا، وقد كانت الأمة الإسلامية وقت احترامها للأصول الشرعية – المشار إلى بعضها سابقًا – بالمكانة التامة من الثروة والشوكة المحروستين بسياج حسن تدبير أمرائها وعدلهم، واستجلابهم رِضَى الله تعالى بتعمير أرضه.

نقل صاحب كشف الظنون: أن بعض العلماء قال: «لو علم عباد الله رضى الله في إحياء أرضه لم يبق على وجه الأرض موضع خراب».

ومن حكم أرسطو: «العالم بستان سياجه الدولة، والدولة سلطان تحيا به السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك، والملك نظام يعضده الجند، والجند أعوان يكنفهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، و الرعية عبيد يكنفهم العدل، والعدل مألوف وبه قوام العالم».

فقد تضمنت هذه الكلمات الحكمية الإشارة - بجعل العالم بستانًا - إلى تشبيه الرعية بشجر ثمرته المال، وحارسه الجند، وأن استقامة الدولة بها حياة السنة السياسية، التي هي مادَّة حياة بستان العالم.

ومن آثار ثروة الأمة الناتجة عن احترام أصول العدل ما حكاه المقريزي في الخطط، قال:

«لما سار المأمون في قرى مصر، وكان يقيم بالقرية يومًا وليلة اجتاز بقرية يقال لها طاء النمل، ولم يُقم بها، فتوسلت إليه عجوز كبيرة بالقرية في الإقامة، فأسعفها، وأحضرت من لوازم نفقة الخليفة وجنوده ما عظم لديه أمره وأهدت له حين عزم على الرحيل عشرة أكياس من سكة الذهب، كلها ضرب عام واحد، فازداد تعجبه، وقال: «ربما يعجز بيت مالنا عن مثل هذا». ورد عليها ما لها رفقًا بها، فلم تقبل. وقالت: «هذا - مشيرة إلى الذهب - من هذه، أي طينة الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين. وعندي من هذا شيء كثير». فقبله وأعظم جائزتها. انتهى بتصرف واختصار.

حكى أيضًا أن خراج مصر بلغ في زمن الخلفاء الراشدين أربعة عشر مليون دينار، وقدرها - بسكة الوقت - نحو سبعمائة مليون فرنك. وهذا المبلغ دخل إيالة واحدة، مع الإنصاف في الجباية.

وحكى ابن خلدون في المقدمة أن المحمول إلى بيت المال، في أيام الرشيد العباسي، بلغ إلى سبعة آلاف وخمسمائة قنطار ذهبًا، وقدر ذلك تقريبًا ألف وأربعمائة مليون فرنك. وهذا دون ما يؤخذ من العين.

ويدل على القوة العسكرية الناتجة من عدل الشريعة، واتحاد الأمة، ما تيسر لهم من الفتوحات التي يشهد بها المؤرخون من الفريقين، ويصدقها العيان، ففي قرة العيون الذي ترجمه الشيخ أحمد الزرابي المصري من اللغة الفرنساوية، وعُدَّ من حسنات المطبعة المصرية، أن الإسلام فتح في ظرف ثمانين سنة من الأقاليم أكثر مما فتحه الرومان في ثمانية قرون.

وبما نقلناه يعلم ما كان للأمة الإسلامية من نمو العمران، وسعة الثروة، والقوة الحربية الناشئة عن العدل، واجتماع الكلمة، وأخوة الممالك واتحادها في السياسة، واعتنائها بالعلوم والصناعات، ونحوها من المآثر العرفانية التي ظهرت في الإسلام. ونسج الأوروباويون على منوالها، وشهد المنصفون منهم بفضل التقدم فيها للأمة الإسلامية.

ففي تاريخ دروي وزير المعارف العمومية بفرنسا الآن ما معناه: بينما أهل أوروبا تائهون في دجى الجهالة، لا يرون الضوء إلا من سَمِّ الخِيَاط[١]، إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الإسلامية، من علوم أدب، وفلسفة، وصناعات، وأعمال

(١) سَمِّ الخِيَاط: ثقب الإبرة. (م).

يد، وغير ذلك، حيث كانت مدن بغداد والبصرة، وسمرقند ودمشق والقيروان، ومصر وفاس، وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف. ومنها انتشرت في الأمم. واغتنم منها أهل أوروبا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونًا علمية يأتي بيانها».

وفيه يقول: «كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين: الحميرية في اليمن، والقرشية في الحجاز. وبالأخيرة جاء القرآن (ولا يخفى عليك أن الذي يقابل الحميرية هو المضرية، وإن وقع الإجماع في القراءة على خصوص القرشية) ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها إلى وقتنا هذا باستمرار كتب العلوم والديانة، وما دخلت العجمة في اللسان إلا بدخول الأمم في الإسلام، وتطاول السنين».

«وللغة المذكورة من الاتساع وسعة المجال ما لا يخفى على مُثَافِنها[1]، لا سيما في الأشياء التي بها قوام المعيشة في البادية، أو تتكرر رؤيتهم لها، أو تكثر حاجتهم إليها، فقد يكون للشيء الواحد عدة أسماء باعتبار تعدد صفاته وأحواله. وبكثرة الترادف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية؛ إذ يقال إن للعسل عندهم ثمانين اسمًا، وللثعبان مائتين، وللأسد خمسمائة وللجمل ألفًا، وكذا السيف، وللداهية[2] نحو أربعة آلاف اسم. ولا جرم أن استيعاب مثل

(١) مُثَافِنها: مواظب عليها. (م).
(٢) الداهية: البَلِيَّة، المصيبة. (م).

هذه الأسماء يستدعي حافظة قوية. وللعرب من قوة الحافظة، وحِدَّة الفكر ما لا يسع أحدًا إنكاره، فمن مشاهيرهم حماد الراوية، الذي ذكر يومًا للخليفة الوليد أنه ينشد له في الحال مائة قصيدة، والقصيدة (من عشرين إلى مائة بيت) فتعب المستمع قبل المنشد».

إلى أن قال: «ولم يكن للعرب في أول الأمر إلا تلك الآداب. ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات، واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف، فأخذوا من اليونان تآليف أرسطو وشرحوها بإمعان نظر، لكن من سوء البخت لم يأخذوا الفلسفة من كتب اليونان الأصلية، وإنما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة أهل الشام، فهم ترجموا المترجمة، فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربي حفيد ابن رشد إلى أوروبا في القرون المتوسطة، وجد بها من التحريف أكثر مما وقع فيها أولاً».

«وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى. والفضل في ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية. وفي أوائل القرن التاسع المسيحي أمر الخليفة المذكور عالمين من فلكية بغداد، أن يقيسا مسافة درجة واحدة من خط الطول، بصحراء سنجار، ويزناها ليثبت بذلك تكوير الأرض بالمشاهدة، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالي عن طرفي الخط المقيس».

وقد شرح العرب كتاب إقليدس وهذبوا زيج بطليموس، وحرروا حساب تعريج منطقة البروج، كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال، والفرق بين السنين الشمسية والزمنية، فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية عدة دقائق. واخترعوا للتحريرات آلات جديدة، إلى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية. ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل أوروبا بكثير محل رصد عجيب».

«أما ما ينسب للعرب من اختراع الجبر والمقابلة، والأرقام الحسابية المسماة عندنا بالأرقام العربية فلم يثبت، بل إنما تعلموا ذلك مع فلسفة أرسطو بالتلقي من غيرهم. وهي من العلوم التي وجدوها بإسكندرية.

ويمكن أنهم نقلوا إلينا على ذلك الوجه البوصلة، أي بيت الإبرة والبارود الذي تعلموه من أهل الصين، كما يعترف لهم أهل أوروبا بمزية اختراع الكاغد من القماش، وبذلك كثرت الكتب ودنت أسعارها، وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده.

«وقد اشتهر العرب أيضًا بمعرفة الطب الذي كانوا تلقوه من كتب اليونان، ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس شاهدة بما ذكر. ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا في وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير، مثل أبي علي بن سينا المتوفى سنة ست وعشرين وأربعمائة هجرية، وابن رشد المذكور. وقد بلغوا

من الشهرة إلى حيث صار أعداؤهم في ذلك الوقت يرغبون في معالجتهم إياهم، كما يحكي أن بعض ملوك قسطلية كان اعتراه مرض الاستسقاء، فاشتهى أن تكون معالجته بقرطبة، وحصل من لطف الخليفة على الإذن في أن يذهب ويداويه المسلمون. ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه، واستعمال الرواند[1] وأدوية كثيرة».

«ومن العلوم التي لهم الفضل فيها الجغرافيا، وسبب تقدمهم فيها أن اتساع فتوحاتهم، ورغبتهم في الأسفار الخطيرة لا فتراض الحج عليهم، أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة، التي لم يصل إليها أهل أوروبا، أو نسوها بعدما كانت معروفة لهم. ومن مشاهيرهم في هذا الفَنّ أبو الفداء، والمسعودي والإدريسي، وهذا الأخير هو الذي استدعاه روجير ملك صقلية، وألف عنده كتابه الغريب الذي سماه «نزهة المشتاق»».

«وأما علم التاريخ فمن تآليفهم فيه تاريخا المسعودي وأبي الفداء المذكورين، وتاريخ المقريزي، غير أنها تواريخ مختصة بأبناء جنسهم، وقل أن يوجد بها الكريتيك، (بمعنى أنهم لا يسبرون منقولاتهم بمسبار العقل - كما أشار إلى ذلك ابن خلدون) «ولا يخرجون عن دائرة الوقائع المجردة». ولا سبب لذلك إلا ما حكاه سدليو في تاريخه الآتي ذكره من أن وجود التسلط في الملوك في

(١) الراوند: نبات يُستعمل في العلاج. (م).

بلدان المشرق، هو الذي كان يمنع المؤرخين من شرح جميع الوقائع، ببيان أسبابها؛ للخطر الذي يلحقهم في حكاية الحق.

«وأما صناعة الأرشتكتور - أي هندسة البناء - في اصطناع الهيئات فلم يشتغل العرب منها إلا بما يرجع إلى إتقان الأبنية، حيث كانت شريعتهم تمنع التصوير. على أن البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة، فالأصل عندهم في الأقواس المرفوعة على الأسطوانات أن تكون أكبر من نصف دائرة، وهذا الشكل أخذوه من أبنية البزنتيين، وهم أمة من اليونان».

واعتاض العرب عن الصور الدهنية والمجسدة التزيين بالنقش المسمى عندهم بنقش حديدة. وكان في الأصل رسومًا لها مدلولات، ثم صار مجرد خطوط متقاطعة شبيهة بالحروف العربية التي يمكن أن يصور منها أشكال جيدة ظريفة، وكثيرًا ما نتعجب من إتقان تلك الحروف حين نراها على الزرابي والأقمشة المشرقية».

ومن مآثر العرب اصطناع الجوابي الفوَّارات، والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر، التي كانوا يجلبونها من المشرق، ومن مقاطع إسبانيا الجنوبية. ومن أشهر أبنيتهم الجامع العظيم الذي بناه عبد الرحمن الأول بقرطبة، وكان به ألف وثلاث وتسعون أسطوانة، وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل. ثم قصر الزهراء الذي لا يتأخر عن الجامع المذكور في العظم، وقد بناه عبد الرحمن الثالث على

شاطئ الوادي الكبير، وبه ينبوع عظيم يفور منه شبه باقة من الزئبق، ثم ينعكس في قصعة من المرمر. ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التي هي في آن واحد قصر وحصن، وبها عدة أمور تصلح أن تكون مثالاً للطافة البناء وحسنه، وخصوصًا وسطها المسمى ببطحاء الأسود».

«وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة في سائر الأوقات، ثم لما امتدت سلطنتهم من البيريني – وهي جبال بين فرنسا وإسبانيا – إلى جبال هملاي (التي بأقصى شمال الهند)، صاروا أكبر تجار الأرض».

«وأما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها؛ إذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه، وتوزيعها بلطف في مزراعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة، فسيرتهم في ذلك، السائر بها إلى الآن أهل بلنسية، روضة إسبانيا، صالحة أن نجعلها أسوة نقتدي بها في فلاحتنا الفرنساوية».

«وأما الصناعات فإن العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلدان الرومانيين العظيمة، حتى صاروا أحذق أربابها، وكفاهم شهرة في ذلك سلاح طليطلة التي كانت تحت سلطانهم بإسبانيا، وحريريات غرناطة، والجوخ(١) الأزرق والأخضر بمدينة كونسة، والسروج والحروج والجلود بقرطبة. وكان أهل أوروبا يشترون

---

(١) الجوخ: نوع من أنواع النسيج. (م).

هذه المهمات بأعلى ثمن، ويتنافسون فيها مع شدة نفرتهم من أهلها المخالفين لديانتهم».

«وبالجملة فقد بلغت إسبانيا من العمران إلى هذه الشهرة، في القرون الأولى من مدة الخلفاء! حيث كانت الفتن عنها أسكن من المشرق. وقد تزايد نمو سكانها إلى أن صار بمدينة قرطبة وحدها نحو مائتي ألف (200,000) دار، وستمائة (600) جامع، وخمسين (50) مارستانًا، وثمانين (80) مكتبًا عموميًّا، وتسعمائة (900) حمام، ومليون (1,000,000) نفس».

«فهاك برنامجًا إجماليًّا للتمدن الذي نشره العرب من شاطئ تاج - وهو واد كبير بإسبانيا - إلى وادي هندوس بالهند تمدنًا يكاد يخطف نوره الأبصار، ولكنه لسرعة نموه كان معرضًا للعطب».

قال: «وتمدن أوروبا اليوم كان أبطأ في النمو، ولكنهم حصلوا بعد انقلابات وكسوفات على ما يمكن به طول البقاء المعتاد في كل بطيء النمو».

وقال في بيان امتداد ملك العرب: «قد امتد ملكهم في ظرف مائة (100) سنة من ظهور الإسلام، مثلما يمتد عظيم الخلقة فاتحًا ذراعيه لالتقاط كل شيء، فبلغ من أقصى الهند إلى جبال بيريني الكائنة بين فرنسا وإسبانيا. وقدر امتداد هذا الملك من سبع عشرة مائة (1700) إلى ثماني عشرة مائة (1800) فرسخ[1]. ولم

(١) فرسخ: وحدة مسافة تقدر بنحو أربعة كيلومترات. (م).

يبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية، وقد استمرت الديانة واللسان وأحكام القرآن نافذة في غالب البلدان التي فتحوها، واغتنمت منهم أوروبا في القرون المتوسطة مكتشفات وصنائع وعلومًا، وإن كان منها ما أخذوه من غيرهم، لكن لهم الفضل في تهذيب ذلك وتخليده بعدهم».

«ثم في النصف الثاني من القرن العاشر المسيحي توجه الراهب الفرنساوي جربير، الذي جلس على الكرسي البابوي باسم سلفستر الثاني، إلى مسلمي إسبانيا، وقرأ هناك علم الجبر والفلك، وأجرى لأهل أوروبا النصرانية منهلاً جديدًا من معارف العرب، وجمع خزانة جليلة من الكتب، وصنع كرتي السماء والأرض». انتهى ما أمكن تلخيصه من كلام الوزير المشار إليه.

وفي تاريخ العرب لسدليو، مدرس علوم التاريخ بإحدى مدارس فرنسا، وأحد أعضاء جمعية المعارف بها ما معناه: «إني منذ مدة طويلة تنيف على العشرين سنة مشتغل ببيان مزايا العرب على غيرهم من الأمم، فيما يتعلق بالعلوم والتقدم في التمدن مدة قرون متطاوية، من أيام اليونان بالإسكندرية إلى أيام العصر الجديد. فلزمني أن أجمع ما تيسر لي من الأدلة على عظم هذه الأمة التي لم يعرف قدرها إلى الآن، وأعرضه على ما لغيري ممن تكلم عليها، فيتأسس تاريخًا لها عموميًّا، وإن كان ذلك مما لا تفي به طاقة إنسان واحد».

«وقبل الشروع في ذلك، على وجه الاختصار، يلزمني أن أندب الناس إلى التأمل في أحوال هذا الجنس، الذي كان كثير الفتوحات، عديم الاستيلاء عليه في سائر مغازيه، ولم يزل مدة أربعة آلاف (4000) سنة على حال واحد في اكتساب الفضائل والمزايا التي تميز بها على غيره، والتراتيب والعادات الخاصة به».

ومن حجج ذلك أن الوقت الذي كانت فيه الممالك القديمة في مبدإ تكوينها ذات حيرة، كان هذا الجنس إذ ذاك قائمًا بنفسه، قادرًا على الإغارة على غيره. فقد كانت ملوك مصر وبابل من ذلك الجنس مدة تسعة عشر (19) قرنًا قبل التاريخ المسيحي. ثم بعد أن رجع إلى حدوده الأصلية دافع عن نفسه سلطة الفراعنة وملوك الشام، وامتنع من تسلط قيرس وإسكندر، ودام في استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملكوا الدنيا».

«وبعد ظهور النبي ﷺ الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة، تقصد مقصدًا واحدًا، ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج في إسبانيا إلى نهر القانج في الهند، ورفعت على منار الإشادة أعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوروبا مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة، كأنها نسيت بالمرة ما كان عندها من التمدن الروماني واليوناني».

«وبعد انقسام ممالك الإسلام لم تتعطل العلوم والآداب التي نتجت على أيديهم، فإن خلفاء بغداد وقرطبة ومصر، وإن ضعفت قوتهم الملكية والسياسية، فإن سلطنتهم الروحانية لم تزل قوية في كل جهة؛ لاجتهادهم في توسيع دوائرها بقدر طاقاتهم».

وقد نال النصارى، الذين استطاعوا إخراج العرب من إسبانيا بالخلطة معهم في الحروب، معارفهم وصنائعهم واختراعاتهم. ثم المغل والترك الذين تسلطوا على آسيا وتداولوها كانوا خَدَمَة في العلوم لمن تغلبوا عليه من فرق العرب».

«وإلى الآن لم نطَّلع في أوروبا على الأصول - التي تبين لنا عادات العرب- اطلاعًا تامًّا؛ إذ لم يعرف عندنا من تواريخهم إلا تواريخ أبي الفداء وأبي الفرج والمقريزي وابن الأثير، ونبذة من تاريخ ابن خلدون. ونجهل بالمرة تواريخ كثيرة نود لو نجد من يترجمها لنا، وإن كان المقدار الذي حصل عندنا كافيًا في رد غلط من غلط من أهل أوروبا في شأن العرب».

«ثم إني ذكرت في تاريخنا هذا ما يتعلق بفتوحات الخلفاء الأولين، وبتاريخ دولة بني أمية بدمشق وقرطبة، وبتاريخ دولة بني العباس ببغداد، والفاطميين بمصر، وبانقسام الممالك الإسلامية بالمشرق بعد تسلط الترك والمغل عليهم، فبينت جميع ذلك بقدر الطاقة، وزدت عليه شيئًا لم يوجد في التواريخ السالفة،

وهو برنامج التمدن العربي الذي قد توشجت عروقه في الدنيا القديمة، واستمرت آثاره ظاهرة إلى الآن لكل من يبحث بالجد عن أصل المعارف منا».

«وفي أوائل القرن الثامن من تاريخنا تبدل ولوعهم بالفتوحات بالجدّ في المعارف والعلوم، فكانت إذ ذاك قرطبة ومصر وطليطلة وفاس والرقة وأصفهان وسمرقند تتسابق في ميدان العلوم مع بغداد تحت بني العباس، وترجمت في تلك المدة كتب اليونان، وقرئت بالمدارس وشرحت، وسرت حركات عقولهم في جميع مواد المعارف الإنسانية، فنتج عنها من الاختراعات الغريبة ما شاع صيته في أوروبا».

فتبين بلا إشكال أن العرب هم أساتذنا بلا إنكار؛ لكونهم جمعوا الأدوات المؤسسة عليها تواريخنا المتوسطة، وبدؤوا بكتابة الرحلات، واخترعوا التأليف في تاريخ وفيات الأعيان، ووصلوا في صناعة اليد إلى غاية لا تحدّ.

وبقية آثار أبنيتهم مما يدل على اتساع معارفهم، وكذلك اختراعاتهم الغريبة تزيد بيانًا لفضائلهم التي لم ينزلوا بها إلى الآن منزلتهم التي يستحقونها بسببها؛ فإن علوم الفيزيك والطب، والتاريخ الطبيعي، والكيمياء والفلاحة، لما جاءت في أيديهم ازداد فيها الغريب، مع كونها من المحسوسات التي لا تصرف لها هممهم صرفًا تامًّا. فكيف بالعلوم العقلية التي اجتهدوا فيها اجتهادًا يفوق الحد من مبدأ القرن التاسع (9) إلى انتهاء القرن الخامس عشر(15)؟».

«ثم نقول: ما نسبة ما عرفناه الآن منهم ببحثنا إلى ما بقي مجهولاً لنا من ذلك؟».

«وبالجملة فالعرب هم منبع معارفنا، ولم نزل إلى الآن نطلع على أشياء من مختراعاتهم التي كانت منسوبة لغيرهم كلما قرأنا كتبهم».

ثم قال في شأن التمدن العربي: «إنهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على أوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها بل اجتهدوا في توسيع دوائرها، وفتحوا طرقًا جديدة لتأمّل العقول في عجائبها.

ثم استشهد بقول إسكندر همبلط: «إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات إلى الوادي الكبير بإسبانيا، وبين العلوم وأسباب التمدن، فتناولتها الأمم على أيديهم؛ لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيرًا لا يشتبه بغيره، فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني إسرائيل الذين لا يطيقون خُلْطَة أحد من الناس، فيخالطون غيرهم من غير أن يختلطوا به، ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة، ولا ينسون أصلهم الذي خرجوا منه. وما أخذت أمم ألمانيا في التمدن إلا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم، بخلاف العرب؛ فإنهم كانوا يحملون التمدن معهم، فحيثما حلوا حل معهم. فيبثون في

الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة. وتهذيباتهم وأشعارهم الشهيرة التي هي أساس بنى عليه المنسقر والتربدور أشعارهم».

ثم قال بعد ذلك: «ونعود الآن فنقول: إنه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه، رجحان عقولهم الغريب في ذلك الوقت الذي وصل صيته إلى أوروبا النصرانية، وهذا حجة على أنهم كما قال غيرنا، ونحن نعترف بهم أساتذنا ومعلمونا. انتهى المقصود منه.

ثم إن الدولة الإسلامية أخذت في التراجع لما انقسمت إلى دول ثلاث: «الدولة العباسية ببغداد والمشرق، ودولة الفاطميين بمصر وإفريقية، ودولة الأمويين بالأندلس. ثم تكاثرت الحروب الداخلية، وانقسمت تلك الدول خصوصًا الأندلسية؛ فإنها صارت ملوك طوائف، وتحقق فيها قول القائل:

أَلْقَابُ سَلْطَنَةٍ فِي غَير مَوْضِعِهَا كَالهِرّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ

وموجب ذلك التفرق تعارض الأغراض والشهوات من الأمراء والثوار، الذين لم يعتبروا ما في الانقسام من المضار على الجميع، حتى نشأ عن ذلك خروج الأندلس من يد الإسلام.

ووقع من الخلل في بقية الممالك ما تفاقم ضرره، لولا أن تلافى الأمر - بتأييد الله - سلاطين آل عثمان الكرام، فجمعوا غالب الممالك

الإسلامية تحت رعاية سلطنتهم العادلة، التي تأسست سنة ستمائة وتسع وتسعين (699) من الهجرة النبوية (1299م)، فتراجع للأمة عزها بحسن تدبيرهم، واحترامهم للشريعة المصونة بحفظ حقوق الرعية، وبفتوحاتهم الجليلة المُذَكِّرَة بفتوحات الخلفاء الراشدين، وارتقائهم في سلم التمدن، خصوصًا في مدة السلطان سليمان ابن السلطان سليم في أوائل المائة العاشرة؛ حيث بادر لقطع الذرائع التي يتوقع بسببها وقوع الخلل في الممالك، بما رتبه من قانونه النافع الذي استعان فيه بالعلماء العاملين، وعقلاء رجال دولته، وجعل مداره على إناطة تدبير الملك بعهدة العلماء والوزراء، وتمكينهم من تعقب الأمراء والسلاطين إن حادوا.

وذلك أن مُلْكَ الإسلام مؤسس على الشرع، الذي من أصوله المشار إليها سابقًا وجوب المشورة، وتغيير المنكر، والعلماء أعرف الناس به، كما أن الوزراء أعرف بالسياسة ومقتضيات الأحوال. فإذا اطلع العلماء والوزراء على شيء يخالف الشريعة والقانون الخادم لها فعلوا ما تقتضيه الديانة من تغيير المنكر، بالقول أولاً، فإن أفاد حصل المقصود، وإلا أخبروا أعيان الجند بأن وعظهم لم ينفع، وبَيَّنَ في القانون المذكور ما يؤول إليه الأمر إذا صمم السلطان على أن ينفذ مراده وإن خالف المصلحة، وهو أنه يُخلع ويُوَلَّى غيره من البيت الملكي. وأخذ على ذلك العهود والمواثيق من العلماء ورجال الدولة.

واستمر العمل على ذلك فكانت منزلة العلماء والوزراء بالدولة بمقتضى هذا القانون في الاحتساب على سيرة السلاطين كمنزلة وكلاء العامة في أوروبا الآتي بيانهم، بل هي أعظم، باعتبار أن الوازع الدنيوي الداعي إلى الاحتساب متأيد بالوازع الديني عندنا، فبذلك القانون المشار إليه استديم نجاح الدولة وحسن سيرتها.

ثم إنها أخذت في التأخر والنقص لما قصرت في إجراء المصالح الملكية على مقتضى الشرع والقوانين السياسية، وعدمت التحري في انتخاب أرباب الخطط المعتبرة، فتصرف بعضهم بحسب الفوائد الشخصية، لا باعتبار مصلحة الدولة والرعية، إلى أن دخل في عسكر الانكشارية[1] من أفسد حسن نظامهم، وخلخل طاعتهم حتى تداخلوا فيما ليس لهم من أحوال الملك، وحيروا راحة السكان بظلمهم المتنوع، بعد أن كان يضرب المثل بطاعتهم كما يضرب بشجاعتهم في ميادين الحرب.

فنشأ من مجموع هاته الأمور وأمثالها الاضطراب في المملكة، واغتنم ولاة الممالك البعيدة الفرصة في الامتناع من الانقياد لأوامر الدولة، وأطلقوا أعِنَّة الأغراض والشهوات.

---

(١) الانكشارية : فرقة من الجنود العثمانيين كانوا يُختارون صغارًا، ويُربون في معسكرات خاصة. وكانوا يمتازون بالشجاعة والصبر. (م).

والتجأ الكثير من أهل الذمة إلى الاحتماء بالأجانب؛ لأن الإنسان إذا انقطع أمله من حماية شريعة الوطن لنفسه وعرضه وماله، يسهل عليه الاحتماء بمن يراه قادرًا على حمايته، وربما يسعى في الأسباب التي يمكن بها تسلط حاميه على المملكة، وخصوصًا من لم يكن بينه وبين الدولة اتحاد في الجنس والديانة.

وبمثل هاته المضار الناشئة عن تصرف الولاة بدون قيد شرعي أو سياسي تيسر للأجانب التداخل في أحوال المملكة، وإفساد سياستها بما يناسب أغراضهم، حتى نشأت حروب أهلية في عدة جهات من المملكة، دامت مدة طويلة، وأفنت نفوسًا وأموالاً كثيرة. وتسبب عنها خروج ممالك معتبرة من يد الدولة، ووقع من الخلل في باقيها ما عظم ضرره، لولا تدارك المرحوم السلطان محمود وولديه المرحوم السلطان عبد المجيد والمؤيد السلطان عبد العزيز - دام عزه:

- بتعويض الأول عساكر الانكشارية بالعسكر النظامي، وقطع دابر أمراء الإيالات المسماة عندهم بالداربي، فانقطعت بذلك المظالم الناشئة في ذينك الفريقين.

- وضبط الثاني للسياسية الشرعية بالتنظيمات الخيرية، التي هي أساس تصرفات الدولة في الحال، بإعانة من رجال الدولة وعلمائها العاملين سنة ألف ومائتين وخمس وخمسين (1255) (1839م).

- ثم باجتهاد الثالث - أيده الله - في تمشيتها وتهذيبها، وإضافة ما تظهر لياقته بالأحوال بمقتضى تجريبها، كالقانون الذي رتبه أخيرًا في إدارة مصالح الإيالات الذي يؤمّل منه مصالح جمة.

وقد كانت العامة في مبدأ الأمر أنكرت تلك التنظيمات إنكارًا كليًا، حتى ظهر في بعض جهات المملكة مبادئ الاضطراب.

وسبب ذلك أن عمال تلك الجهات وغيرهم ممن له فائدة في التصرف بلا قيد ولا احتساب، لما تيقنوا أن إجراء الإدارة والأحكام على مقتضى التنظيمات ممّا يخل بفوائدهم الشخصية، دسوا للعامة من قول الزور والغش ما ينفرهم منها، مثل قولهم: «هذا شرع جديد مخالف لشريعة الإسلام».

وأعانهم على ذلك من كان له من الدول الأوروباوية فائدة في عدم نجاح سعي الدولة في تحسين أحوال ممالكها.

فالدولة العليّة عِوَضَ أن تغتنم تلك الفرصة، وترجع إلى استبدادها - كما وقع في بعض الممالك - أكذبت تلك الظنون الفاسدة بإرسال فخر علماء ذلك العصر وأتقاهم، أعني شيخ الإسلام المقدّس عارف بك، إلى جهات الاضطراب لوعظ الناس، وأمرهم بالطاعة والامتثال، فخطب بذلك على المنابر، وبين للناس أن تلك التنظيمات ليست خارجة عن المنهج الشرعي، وما هي إلا ضبط للسياسات الشرعية التي كانت أُهملت، وأن الداعي إليها ليس إلا تحسين إدارة

المملكة وحفظ حقوق الأمة في النفس والعرض والمال، وكف الأيدي الجائرة من الولاة ونحو ذلك من المصالح، فانقادت الرعية عند ذلك، وسكنت، واستمر العمل بالتنظيمات في سائر الجهات بقدر الإمكان.

وأنت خبير بأن مثل هذا الحَبر[١] الذي سارت بمآثره الركبان، وشهد له بالعلم والعمل جهابذة أرباب العرفان، خصوصًا فخر القطر الإفريقي، وفجر الرشاد الحقيقي، من بلغ صوت صيته مسامع سائر النواحي، الأستاذ العلامة سيدي إبراهيم الرياحي، لو لم ير مساغًا لهذه التنظيمات ما خطب بها على المنابر، ولا كان على تقريرها أحزم مثابر. ومن تأملها بعين الإنصاف، لم يجد في حسنها ولياقتها مثار خلاف، بل جزم بأنها قوام الاستقامة، والوسيلة التي يستعاد بها ما كان للدولة من العز والفخامة.

وهذا الصنع الجميل الذي صدر من هؤلاء السلاطين العظام، مع ما حصل به من تحسين حال الدولة والرعايا، مما لا يسع المنصف إنكاره بالنسبة لما كان قبل، لم يقنع حزبًا من المسلمين مع الرعايا من غيرهم، بل لم يزالوا يطلبون من الدولة إطلاق الحرية بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم الأهالي، وفي هذه المدة الأخيرة اشتدّ إلحاحهم في طلب ذلك حسبما تضمنته صحف الأخبار.

(١) الحَبْر: العالم الصالح. (م).

ونحن وإن لم نطلع على أحوال إدارة المملكة العثمانية في الحال، لا سيما في كيفية إجراء تلك التنظيمات، اطلاعًا يمكننا معه معرفة صحة الأسباب التي يتظلم منها الفريق المذكور أو عدم صحتها، فإنا نُسَلِّم أن هذا المطلب الذي طلبوه هو من أعظم الوسائل في حفظ نظام الدول، وقوة شوكته، ونمو عمران ممالكها، ورفاهية رعاياها، خصوصًا في هذه الأزمان. كما نسلم أيضًا أن مقصد المسلمين من أهل الحزب المذكور بطلبهم لِمَا ذُكِرَ إنما هو إصلاح الدولة والرعية.

لكن لنا أن نسألهم: هل ثبت عندهم أن مقصد غيرهم ممن معهم موافق لمقصدهم، حتى تحصل لهم الثقة بهم، ويصدر منهم ما ذكر؟

فإنَّا نرى خلاف ذلك منهم، بما دلت عليه القرائن من أن مراد أكثرهم إنما هو التفصِّي[1] عن سلطة الدولة العثمانية؛ حيث لم يظهر منهم بعد نيل الحرية الموجودة الآن شيء من أمارات النصح للدولة، بل ربما أظهروا حب النزوع إلى بني جنسهم، بالتظلم من تصرفاتها واستثارة مبادئ الحيرة معها؛ وذلك لاستمرار إفساد الأجنبي لهم، وزرعه بذر الحميّة في صدورهم لأغراض له لا تخفى.

فربما كان تأسيس الحرية على الوجه المطلوب آنفًا، قبل التبصر في العواقب، مما يسهل غرضهم المذكور؛ إذ من لوازم هذه الحرية تساوي الرعايا في سائر الحقوق

(١) التفصِّي: التخلص. (م).

السياسية، التي منها الخطط السامية، مع أن من الشروط المعتبرة في إعطاء تلك الحرية تواطؤ جميع الرعايا على مصلحة المملكة، وتقوية شوكة دولتها.

ولأقل من هذا السبب امتنع بعض الدول الأوروباوية من إطلاق الحرية المشار إليها، تحاشيًا من تحزب بعض الرعايا على تبديل العائلة الملكية - كما سيأتي بيانه عند الكلام على حرية أوروبا - فإذا ساغ الامتناع مع كون البدل المتوقع من جنس المبدل منه، فلأن يسوغ هذا مع كونه من غير الجنس أحرى وأولى.

وأيضًا فإن رعايا الدولة ينقسمون إلى عدة أجناس مختلفة الأديان واللغات والعادات، وغالبهم يجهل اللغة التركية التي هي لغة الدولة، بل يجهلون لغة بعضهم وبحيث تعسر المفاوضة بينهم لو ركب مجلس من جميع طوائفهم، ولا يتيسر إعطاء الحرية للبعض دون البعض؛ لما ينشأ عن ذلك من الهرج.

فيجب أن تُعتبر حالة هؤلاء الرعايا من أعظم العوائق عن تأسيس الحرية على الوجه المطلوب بالدولة العثمانية.

فمن اعتبر ما أشرنا إليه لا يسوغ له أن يوجه اللوم على الدولة في توقفها إلى الآن عن إعطاء الحرية المطلقة، وتأسيس المجلس المذكور، وإن كان ما ذكرناه لا يرفع عنها وجود الاجتهاد في قطع تلك العوائق التي يكون حسمها - بعون الله تعالى - من مآثر خليفة العصر[١] الذي رفع من أعلام العدل ما انتكس،

(١) يقصد السلطان عبد العزيز. (م).

وأحيا من رسوم الاستقامة ما اندرس، فإنا بمقتضى ما خوّله الله من الحزم الناجح، والرأي الراجح، نؤمل أن نرى منه - لا سيما بعد اطلاعه على أحوال أوروبا بالعيان، وتطبيقها على ما كان معلومًا لديه بالبيان - مزيد العناية بكل ما يتيسر به إطلاق الحرية على الوجه الأكمل، بإعانة رجال دولته وعلمائها المتعاضدين على إنجاح مصالح الدين والوطن، والعارفين بأسباب التقدم ما ظهر منها وما بطن.

ثم إن من عوائق نجاح التنظيمات في سائر الممالك الإسلامية تقاعس الدول الأوروباوية عن إدخال رعاياهم المستوطنين بها، تحت أحكامها.

- استنادًا للشروط القديمة التي لا تليق بهذا الوقت، بل لا ينبغي أن تسمى شروطًا لانبنائها على ما يخل بالشرط. وعلى فرض تسليم بعض الشروط وتسليم ما يوجب دوامها، فإنهم لا يقفون عند نصها، بل يستخرجون منها ما ليس فيها مما هو منافٍ لحقوق المساواة بين الأمم، ولحقوق سلطنة الأرض على كل وارد لها، بمعنى أن من دخل مملكة من الممالك فلا بد أن تجري عليه أحكامها.

وادعاء بأن معارف حكام الإسلام غير كافية لحفظ حقوق رعاياهم، وأن كراهيتهم للنصارى تحملهم على الحَيْف(١) عليهم.

والجواب عن الدعوى الأولى، أن مدعيها لا يمكن أن يظن به تعميمها في حكام المسلمين مطلقًا. أعني سواء كانوا حكام شريعة أو سياسة، لما هو معلوم

(١) الحَيْف: الظلم. (م).

عند كل عاقل - خصوصًا من هو منصف - أن علماء شريعة الإسلام في غاية المعرفة بأحكامها أصولاً وفروعًا، فلم يبق إلا أن يريد هذا المدعي حكام السياسة منهم، وهذا غير مُسَلَّم؛ لما هو ظاهر من بطلان دعوى من يدعي جهل جميع أهل مملكة من الممالك، بحيث لا يوجد بها من يقوم بأعباء أحكام تنظيماتها.

نعم هناك شيء واحد، وهو أن جميع الأمور في ابتدائها، قبل التمرن عليها والاعتياد بها، يقع فيها نوع اضطراب وارتباك حتى يحصل الاستئناس بها، وتأخذ مأخذها. وهذا أمر طبيعي لا يقدح به في التنظيمات، فإنا نرى دول أوروبا لم تكن من أول الأمر حاصلة على هذا النجاح في تنظيماتها المشاهد لها اليوم، وإنما حصلت على ذلك بواسطة إعانة السكان لها على إجرائها بعدم المخالفة والشقاق؛ إذ بدون ذلك لا يطمع في الحصول على شيء من نتائجها. بل لم نزل نرى إلى الآن تفاوت الدول المذكورة في تهذيب تنظيماتها، ومعارف حكامها وعفتهم. ولم يمنع هذا التفاوت دخول المتقدم منهم فيها تحت أحكام المتأخر.

فلم يبق حينئذ إلا أن نقول إن هذه الدعوى مجرد توهم، وليست مستندة إلى شيء من الأدلة والتجارب؛ لأنه لم يدخل أحد من رعاياهم تحت أحكام تنظيماتها حتى يلحقه الضرر منها، بل لنا أن نقول إنها مجرد مكابرة.

وأمَّا دعوى الكراهية فلا يخفى أنها بعد تسليمها مشتركة الإلزام؛ إذ للمسلمين أن يظنوا أن النصارى أيضًا تحملهم العداوة على الحيف عليهم وقت

حلولهم ببلدانهم، لكن الحق أن العداوة الدينية لا تستميل الحاكم عن الإنصاف المؤسسة عليه الشريعة، وعن الوقوف مع الحق حيث يجب، حتى لو وجب على الحاكم نفسه لأنصف طالبه منه كائنًا من كان، عملاً بما هو من قواعد الدين، الذي هو أعظم وازع، حتى لم يبقَ معه لإيثار النفس أثر؛ فقد ورد أن زيد بن سعنة جاء قبل إسلامه يتقاضى من النبي ﷺ دينًا له، فجذبه من ردائه حتى أثَّر في عاتقه الشريف، ثم قال: «إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطْل». فانتهزه عمر، وشدَّد عليه في القول؛ حيث لم يتوخَّ الرفق في الطلب، فقال له رسول الله ﷺ: «أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي» ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث»، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعًا لِمَا رَوَّعَه، فكان سبب إسلامه رضي الله عنه.

وورد أيضًا أن يهوديًّا أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب عليًّا كرم الله وجهه في حق، وكان عَلِيٌّ عنده، فقال له عمر: قم يا أبا الحسن واجلس مع خصمك»، فرأي في وجه علي الغضب. فلما انفصلت النازلة قال له عمر ما معناه: «تغضب لطلب أن تساوي خصمك!» فقال له علي: ما غضبت لذلك، وإنما كرهت تكنيتك لي بمحضر خصمي».

فالحاكم إذا كانت ديانته تلزمه الاتباع للشريعة بمقتضى الوازع الديني، والاقتداء بمن سلف من الخلفاء الراشدين، الذين هم نجوم الاهتداء، كيف يتوهم منه ترجيح جانب المسلم على غيره؟!

وبعد هذا لم يبق لمن له إنصاف من الأوروباويين أن لا يرى فيما ذكرناه ضمانة كافية لحفظ الحقوق، كما أنه لا يتأتى له أن يرى إمكان إجراء القوانين على وجه يثمر النتائج المقصودة منها، مع امتناع بعض السكان من المساواة فيها، لا سيما والممتنع بيده غالب الصناعات والمتاجر.

ثم إنهم لم يكتفوا في التعطيل بذلك الامتناع، حتى صار بعضهم ينفّر رعايا بعض الممالك الإسلامية من قبول التنظيمات التي رام ملوكها تأسيسها، بأن يقولوا لهم: «إن هذه التنظيمات لا تليق بحالكم، فرجوعكم إلى ما كنتم عليه أولى بكم»، مع أن ذلك مخالف لقواعد سياسة بلدانهم.

وبعضهم يقول لهم: «إن الحرية التي منحتموها من دولتكم لا تفي بحفظ حقوقكم»، مع أنها في الواقع أكثر مما منحتها رعايا بلدانهم.

فلذلك نضطر أن نعتقد أن لا داعي لذلك إلا قصد دوام التحيير في الممالك الإسلامية لتعطيل نجاحها.

وبالجملة فسياسة الدولة في ممالكنا متناقضة؛ فإن منهم من ينصح بعض الممالك بالإعانة على التراتيب المناسبة، ومنهم من يعطل ذلك بتلك المملكة، ويبذل النصيحة المذكورة لغيرها على حسب اختلاف أغراضهم.

هذا وإن سياسة غالب الدول الأوروباوية، ولو كانت كما ذكرنا، لكن من الحق أن نقول - في خصوص مبحث الشروط - إنا رأينا عند المحادثة مع رجال بعض الدول الغربية منها أنهم يسلمون عدم لياقة تلك الشروط بهذا الوقت، ولا يمتنعون من تبديلها بما يناسب، لكنهم يطلبون منا قبل ذلك إعطاء الضمانة الكافية في حفظ حقوق رعاياهم، بترتيب مجالس للحكم، وتمشيتها مدة من الزمان؛ حتى يثبت عندهم بالتجارب حسن إجراء الأحكام، بحيث يتيسر لهم تسليم رعاياهم على التدريج بحسب ما يرونه من نجاح التراتيب، حتى يتم دخولهم تحت أحكامنا.

ونحن نقول: «لما كان بقاء حال الأجانب على ما هو مُشَاهد اليوم مضرًّا بالممالك الإسلامية، والدول الأوروباوية لا تساعف على تبديل الشروط إلا بما ذكرناه، وجب على الدول الإسلامية السعي في إزالة هذا الضرر، بإعطاء تلك الضمانة وإبرازها للخارج».

ومن العوائق للتنظيمات - وهو أعظمها - تعرض بعض المتوظفين في تأسيسها وإجرائها؛ لما لهم في تعطيلها من المصالح الخصوصية، التي منها دوام تصرفاتهم في الخطط بلا قيد ولا احتساب.

هذا وإن الأمة الإسلامية لمّا كانت مقيدة في أفعالها الدينية والدنيوية بالشرع السماوي، والحدود الإلهية الواردة على الميزان الأعدل، المتكفلة بمصالح الدارين، وكانت ثمة مصالح تمس الحاجة إليها، بل تتنزل منزلة الضرورة يحصل بها استقامة أمورهم وانتظام شؤونهم، لا يشهد لها من الشرع أصل خاص كما لا يشهد بردها، بل أصول الشريعة تقتضيها إجمالاً وتلاحظها بعين الاعتبار، فالجري على مقتضيات مصالح الأمة والعمل بها حتى تحسن أحوالهم، ويحرزوا قصب السبق في مضمار التقدُّم متوقف على الاجتماع، وانتظام طائفة من الأمة ملتئمة من حَمَلَةِ الشريعة ورجالٍ عارفين بالسياسات ومصالح الأمة، متبصرين في الأحوال الداخلية والخارجية ومناشئ الضرر والنفع، يتعاون مجموع هؤلاء على نفع الأمة بجلب مصالحها ودرء مفاسدها؛ بحيث يكون الجميع كالشخص الواحد كما قال - عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا».

وكما قال ﷺ: «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد».

فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر، والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة. وأنت إذا أحطت خبرًا بما قررناه، علمت أن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور، من أهم الواجبات شرعًا؛ لعموم المصلحة، وشدة مدخلية الخلطة المذكورة في إطلاع العلماء على الحوادث، الذي تتوقف إدارة الشريعة على معرفتها.

ومعلوم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وبيان ذلك أن إدارة أحكام الشريعة، كما تتوقف على العلم بالنصوص، تتوقف على معرفة الأحوال التي تُعْتَبَرُ في تنزيل تلك النصوص؛ فالعالم إذا اختار العزلة والبعد عن أرباب السياسة فقد سد عن نفسه أبواب معرفة الأحوال المشار إليها، وفتح أبواب الجور للولاة؛ لأنهم إذا استعانوا به فامتنع صاروا يتصرفون بلا قيد.

نعم يُعاب على العالم شرعًا وعقلاً التكلف في الدين، والتحمل في النصوص الظاهرة في خلاف ما أراد منها، وارتكاب الأقوال الضعيفة ليوافق الأهوية والأغراض، لا لأجل مصالح تتنزل منزلة الحاجة والضرورة، حتى ينقلب ذلك الضعيف قويًّا.

وحيث كانت إدارة المصالح السياسية مما لا يتيسر لغالب الولاة إجراؤها على الأصول الشرعية؛ لأسباب شتى يطول شرحها، وتقدمت الأدلة على ما

يترتب على إبقاء تصرفاتهم بلا قيد من المَضَارّ الفادحة، رأينا أن العلماء الهداة جديرون بالتبصر في سياسة أوطانهم، واعتبار الخلل الواقع في أحوالها الداخلية والخارجية، وإعانة أرباب السياسة بترتيب تنظيمات منسوجة على منوال الشريعة، معتبرين فيها من المصالح أحقها، ومن المضار اللازمة أخفّها، ملاحظين فيما يبنونه على الأصول الشرعية، أو يلحقونه بفروعها المرعية، ذلك المقال الوجيز، المنسوب لعمر بن عبد العزيز: «تحدث للناس أقضية بحسب ما أحدثوه من الفجور»، وما في معناه من أدلة، أن الشريعة لا تنسخها تقلبات الدهور.

ومن تصفح رسالة أستاذ المشائخ الحنفية، ومحط رحال الإفتاء بالديار التونسية، من لم يزل على نقوله وأفهامه المعوَّل، الشيخ سيدي محمد بيرم الأول، وجد بها من الأدلة ما يشهد لما ذكرناه؛ فإنه عرَّف السياسة الشرعية: بأنها ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي، ثم أشار إلى ذم ما كان من التصرفات السياسية في أحد طرفي التفريط والإفراط، بقوله: «إن من قطع النظر عنها إلا فيما قل فقد ضيَّع الحقوق، وعطَّل الحدود، وأعان أهل الفساد. ومن توسع فيها فقد خرج عن قانون الشرع إلى أنواع من الظلم».

ثم قال: «ونقل ابن قيم الجوزية عن ابن عقيل مخاطبًا لمن قال: «لا سياسة إلا ما وافق الشرع» إن أردت بقولك: إلا ما وافق الشرع، أي يخالف ما نطق

به الشرع، فصحيح، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة -رضي الله عنهم- وسرد أمثلة من سياستهم».

«ولابن قيم الجوزية هنا كلام حاصله: «إن أمارات العدل إذا ظهرت بأي طريق كان فهناك شرع الله ودينه، والله تعالى أحكم من أن يخص طرق العدل بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منه وأبين».

«وسئل القرافي عن الأحكام المرتبة على العوائد «إذا تغيرت تلك العوائد، هل تتغير الأحكام لتغيرها؟ أو يقال نحن مقلدون، وليس لنا إحداث شرع جديد لعدم أهليتنا للاجتهاد؟» فأجاب بأن إجراء الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع وجهالة في الدين، بل الحكم التابع للعادة يتغير بتغيُّرها. وليس هذا بتجديد اجتهاد من المقلدين بل هي قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها» انتهى.

وعد ابن القيم من الجهل والغلط الفاحش توهم أن الشريعة المطهرة قاصرة عن سياسة الأمة ومصالحها. قال: «ولأجل هذا الغلط تجرأ الولاة على مخالفة الشرع، فخرجوا عن حدود الله إلى أنواع الظلم والبدع في السياسة»، يعني وسبب ذلك تمسكهم أو تمسك العلماء الذين يفتونهم بظواهر النصوص، فيضيقون ما وسَّعه الله عليهم، فيضطرون إلى خلع القيود وهتك الحرمات والحدود».

«وبناء على ما تقرر يظهر أن اللائق بأولئك الهداة أن يتوسطوا بين التفريط والإفراط، بحيث لا يبعدون من رجال السياسة بعدًا يتسبب عنه تبعيد تصرف الولاة عن الشريعة، وما لا يدرك كله لا يترك قلّه[1]، ولا يقربون منهم قربًا ينشأ عنه تقريب شهواتهم بتسهيل طرقها لهم».

وحيث تقدم بيان الأدلة الكافية لوجوب التنظيمات السياسية التي لو لم يكن إلا تنفير الأجنبي والمتوظفين منها لكان كافيًا في الدلالة على حسنها ولياقتها بمصالح المملكة، كان من أهم الواجبات على أمراء الإسلام ووزرائهم وعلماء الشريعة الاتحاد في ترتيب تنظيمات مؤسَّسة على دعائم العدل والمشورة، كافلة بتهذيب الرعايا وتحسين أحوالهم، على وجه يزرع حب الوطن في صدورهم، ويعرفهم مقدار المصالح العائدة على مفردهم وجمهورهم، غير معتبرين مقال بعض المجازفين أن تلك التنظيمات لا تناسب حال الأمة الإسلامية، مستندًا في ذلك إلى أربع شُبَه:

الأولى: أن الشريعة منافية لها.

الثانية: أنها من وضع الشيء في غير محله لعدم قابلية الأمة لتمدناتها.

الثالثة: أنها تُفضي غالبًا إلى إضاعة الحقوق بما تقتضيه من التطويل في فصل النوازل، كما يشاهد ذلك في سائر الخطط القانونية.

(١) قله: قليله. (م).

الرابعة: أنها تستدعي مزيد الضرائب على المملكة بما تستلزمه من كثرة الوظائف لإدارتها المتنوعة.

ولا يخفى على المتبصّر أنّ جميع ما استند إليه مردود.

أما الشبهة الأولى فيكفي في ردها ما أسلفناه مما يدل على أن الشريعة تقتضي التنظيمات، لا سيما بعد اعتبار أحوال ولاة الوقت، وعلى فرض أن يوجد في التنظيمات بعد تأسيسها وتهذيبها من رجال العلم والسياسة شيء لا مسوغ له، فلا مانع من تبديله، ولا يكون توقعه سببًا في ترك تأسيس التنظيمات من أصله.

وأما بقية الشُّبَه فلو أردنا الاكتفاء في ردها بما تقدم لكفى أيضًا، لكن رأينا أن نزيده إيضاحًا وبيانًا فنقول:

أما الشبهة الثانية فجوابها أن عامة غيرنا، الذين بلغوا بالتنظيمات غاية التمدن، كانوا في مبدأ الأمر أسوأ حالاً من عامتنا، وإن كُنَّا نُسَلِّم أن معارفنا الدنيوية الآن أقل مما أنتجته التنظيمات لبعض الأمم الأوروباوية، لكن عند التأمل يثبت عندنا أن الأمة الإسلامية بمقتضى ما شهد به المنصفون من رجحان عقول أواسط عامتها على عقول غيرها من الأمم، تقتدر أن تكتسب بما بقى لها من تمدنها الأصلي، وبعاداتها التي لم تزل مأثورة لها عن أسلافها، ما يستقيم به حالها ويتسع به في التمدن مجالها. ويكون سيرها في ذلك المجال أسرع من

غيرها كائنًا من كان، إذا أُذكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة، تسهل لها التداخل في أمور السياسة؛ وذلك أن الحرية والهمة الإنسانية اللتين هما منشأ كل صنع غريب، غريزتان في أهل الإسلام، مستمدتان مما تكسبه شريعتهم من فنون التهذيب، بخلاف غيرهم ممن لم تحصل لهم الغريزتان المذكورتان إلا بإجراء التنظيمات في بلدانهم.

نعم من الواجب على مؤسس أصول الحرية السياسية اعتبار حال السكان ومقدار تقدمهم في المعارف؛ ليعلم بذلك متى يسوغ إعطاء الحرية التامة ومتى لا يسوغ، ومتى يعمم المقدار المعطى في سائر السكان، ومتى يخص بمن قامت به شروط معتبرة، ثم توسيع دائرتها بحسب نمو أسباب التمدن شيئًا فشيئًا.

ثم لو سلم عدم القابلية للتنظيمات، وأن الأمة كما يزعمه أولئك القادحون بمثابة الصبي غير الرشيد الذي يلزم التقديم عليه، فهل ينهض لهم دليل على جواز أن تكون تصرفات المقدم خالية من مراعاة مصلحة المقدم عليه؟ وهل تتيسر تلك المرعاة بدون توقع احتساب مؤسس على الشرع؟

وأما الشبهة الثالثة فجوابها أنَّ التطويل الذي يمكن عُرُوضه في فصل النوازل يرجع إلى قسمين؛ لأنه إما أن يكون ناشئًا عن صعوبة تصور النازلة وتعيين ما ينطبق عليها من النصوص المتجاذبة لها، أو يكون ناشئًا عن قصور المتوظفين أو تقصيرهم.

أ) أما القسم الأول فلا يتشكى منه إلا الجاهل أو المتجاهل؛ وذلك أن إعطاء النوازل حقها من التأمل حتى يتضح عند الحاكم وجه الحكم، يستدعي فسحة ضرورية لفهمها على الوجه المطلوب، وتلك الفسحة المتفاوتة بتفاوت النوازل في التشعب من لوازم البشرية، في حق كل من الحاكم والمحكوم عليه؛ إذ الحكم سواء كان مبنيًّا على القواعد الشرعية أو القوانين العقلية، لا يكون حكمًا معتدًّا به إلا إذا كان مسبوقًا بأخذ المحكوم عليه مهلة لتحرير حججه التي يدافع بها عن نفسه، وأخذ الحاكم مثلها لإمعان النظر فيها، وتعيين ما ينطبق من الأصول عليها؛ فالحاكم إذا نقص من إحدى المهلتين شيئًا فقد ظلم المحكوم عليه ونفسه.

وحيث كان التطويل المشار إليه طبيعيًّا للنوازل، ومما تعاضد على لزومه الشرع والعقل، يسوغ لنا أن نقول إنه لا منشأ للقدح به في التنظيمات إلا إرادة تنفير الأهالي منها، بتحسين ما تعودوه من حكامهم السياسيين الذين كثيرًا ما ينشر لديهم من النوازل ما لو نشر لدى أحذق القضاة لاحتاج في تصوره إلى عدة أيام، فيبادرون إلى فصلها في عدة دقائق بحكم لا يتعقب، بل لو فرض الترخيص في تعقبه لما أمكن ذلك، حيث لم يكن الحكم مسجلاً بظهير؛ لأن التعقب يستدعي استناد الحكم المتعقب إلى شيء من الأدلة يمكن إطلاع المتعقب عليه، بحيث يجد محلاً للتخطئة في تنزيل الحكم أو نحو ذلك، إذا كان الحكم مسجلاً. وما يصدر من هؤلاء

حكم شفاهي غير معلل باستناده إلى شيء في الخارج، فهو لا يخلو إما أن يكون أمرًا اتفاقيًا بحسب ما يسنح لأحدهم في ذلك الوقت؛ ولذلك ترى كثيرًا من النوازل متفقة في المعنى وأحكامها مختلفة، أو مستندًا إلى دليل لا يتجاوز صدر ذلك الحاكم، فلا يمكن الاطلاع عليه. وفي الحالتين لا يمكن التعقيب.

ثم إنَّا لا ننكر أن يقع في ابتداء العمل بالتنظيمات شيء من التطويل زائد على المقدار الطبيعي، ناشئ عن عدم التعود بها والتمرن عليها، لكن نرى الخطب في ذلك سهلاً؛ لأنه مما يزول بإعانة الله في أقرب وقت، عند حصول ملكة التجريب وتخفيف أعمال الحكام في الأحكام الخفيفة ارتكابًا لأخف الضررين، وتحريض الدولة سائر متوظفي السياسة على المبادرة بإتمام مأموريتهم بجلب المدعى عليه، ونحو ذلك مما تتوقف عليه الأحكام حتى لا يبقى من أسباب التطويل إلا ما يستدعيه حال النازلة.

على أنَّا نقول – تنازلاً مع هؤلاء المنفّرين – إن الغرض من التنظيمات ليس محصورًا في فصل النوازل الشخصية على وجه الإنصاف المأمول منها، بل هناك مصالح أخرى من أهمها ضبط كليات السياسة القابض لأيدي الولاة عن الجور، فأين مضرة التطويل في النوازل الجزئية من مضرة إطلاق أيدي أولئك الولاة في التصرف في الأبدان والأعراض والأموال؟

فهذه الشبهة على فرض نهوضها لا تنتج إلا تعطيل مجالس النوازل الشخصية.

أما ضبط أصول السياسة الذي هو أساس خير المملكة فلا نظن دليلاً ينهض على تعطيله بوجه من الوجوه.

(ب) وأما القسم الثاني فظاهر أنه لا يُقْدَحُ به في حسن التنظيمات في نفسها، وإنما يتوجه التشكي من مضرته على الدول حيث لم تمعن النظر في أحوال المتوظفين، وتمتحنهم بمزيد المراقبة والتجربة.

وبيان ذلك أنَّا نرى المتوظفين في الممالك الإسلامية على ثلاث فرق: الفرقة الأولى يستحسنون ترتيب التنظيمات استحسانًا صادقًا، ويؤثرون ما تنتجه من الهمة والحرية، وتوفير مصالح الرعية، على ما عسى أن يكتسبوه بالاستبداد من المنح الخصوصية.

الفرقة الثانية يجهلون مصالح التنظيمات، بحيث لا يرون كبير فرق بينها وبين السيرة الاستبدادية، بل يعدونها من بدع آخر الزمان، ويؤثرون عليها البقاء على ما كان، ولا منشأ لذلك إلا القصور، وعدم الاطلاع على نتائج التنظيمات في غالب المعمور.

الفرقة الثالثة لا يجهلون مصالح التنظيمات وتوفيرها لخير البلاد والدولة، ولكنهم يؤثرون على ذلك فوائدهم الشخصية التي تتوفر لهم بالاستبداد، ولا منشأ لذلك إلا نقص الديانة والهمة الإنسانية، وعدم ملاحظة العواقب الدنيوية والأخروية.

إذا تمهد هذا فنقول: إن التنظيمات وإن بلغت بحسن الترتيب والتهذيب غاية المطابقة لمقتضى الحال، لا تظهر فائدتها المقصودة من تأسيسها إلا إذا كان المكلفون بإجرائها من الفرقة الأولى؛ فهم الذين تُوكل مصالح العباد إلى أمانتهم، ويعتمد في تأسيسها وتمشيتها على إعانتهم. وأما الفرقتان الأخيرتان فلا يحصل من تكليفهما إلا خلاف المقصود، لا سيما الفرقة الثالثة لمزيد انبعاث همتها إلى تعطيل التنظيمات.

فعلى الدولة التي عزمت على تأسيسها إذا علمت ما ذكر من أحوال الفرقتين المذكورتين أن لا تنيط بأمانتها حفظها ولا إدارتها، حتى يثبت عندها بالتجارب صدق رجوع الأولى إلى استحسانها بالقلب والقالب، وإيثار الأخيرة المصالح العمومية على الحظوظ الشخصية، واكتسابها المروءة الإنسانية المانعة من قبول الإنسان خطة لا يباشرها بصدق نية.

وبالجملة فإسناد الشيء إلى عهدة متمني زواله من أقوى موجبات اختلاله واضمحلاله.

وأما الشبهة الرابعة، وهي اقتضاء التنظيمات لمزيد الضرائب على المملكة، فجوابها أن هذا القائل المسكين لو علم ما ينشأ عن حالة الاستبداد وحالة التقيد بالتنظيمات، لما صدرت منه هذه القولة الوهمية المبنية على عكس القضية؛ فإن حالة الاستبداد هي التي تقتضي كثرة الضرائب؛ إذ يؤخذ فيها اللازم

وغير اللازم ليصرف فيما هو في الغالب غير لازم، بخلاف حالة التقيد؛ فإنها بضبط الدخل وصرفه في خصوص الأمور اللازمة لا تكلف فيها أهل المملكة إلا بضرائب تسمح بها نفوسهم، حيث يرون لزومها وصرفها في مصالح وطنهم.

فإذا قابلنا ما يلزم صرفه على إجراء التنظيمات، بما ينقص بها من المصاريف والخطط غير اللازمة، التي لم تكن محدودة قبل التنظيمات بعدد ولا ضابط، مع ما يرتفع بها من المظالم التي لا تقف بدونها عند حد، لم يبق للمنصف شك في أن التنظيمات - على فرض كثرة خططها - من أقوى أسباب الاقتصاد والتوفير، لا سيما والمباشرون لاستخلاص المجابي متقيدون بالقوانين أيضًا. فشتان بين حالة المستبد الذي يأخذ ويعطي بمقتضى الشهوة والاختيار، وحالة المتقيد بالقوانين الذي يفعل ما ذكر بمقتضاها متوقعًا تعقب آراء كثيرة يخجل من تنزيلها إياه منزلة القاصر في تصرفه، فضلاً عن الخائن فيه.

فبان بهذا أن المصاريف البالغة التي تكلف المملكة ما لا طاقة لها به إنما تكون في حالة الاستبداد، وأن الاقتصاد الذي هو منشأ خيرها إنما يحصل بضبط سائر التصرفات بقيود التنظيمات.

وفي هذا المقدار كفاية لمن تَبَصَّر في الفَرْقِ بين الحالتين.

ولو أطلقنا عنان القلم في بيان حال بعض الدول في مصاريفها، وفي سيرة المباشرين لها قبل تأسيس التنظيمات ومعها وبعدها حين تيسر تعطيلها لأهل

الأغراض والشهوات من أرباب الخطط، ورجعوا للتصرف بلا قيد ولا احتساب بإعانة أمثال هذا القادح، لتبين أن قلة معرفته بنتائج التنظيمات هي التي غَرَّته وأَغْرَته على القدح فيها بمثل ما أسلفناه، وعلى إعانة الساعين في تعطيلها لفوائدهم الخصوصية المُضِرَّة بالدولة والمملكة، لكن سعة مجال الكلام في ذلك تخرجنا عن المقصود.

هذا وإذا كانت الدولة العثمانية التي هي مركز الخلافة الإسلامية مع ما أشرنا إليه سابقًا من العوائق الخاصة بها، لم تزل مجتهدة في رفع تلك العوائق اجتهادًا يرجى منه تمام نجاحها، بتأسيس ما يتم به خير ممالكها، وحفظ حقوق رعاياها، فغيرها أحرى وأولى؛ لانتفاء تلك العوائق عنها، فلا يظهر لملوكها سبب قوي في الامتناع إلا حب الاستبداد المُوصل للشهوات.

ثم نقول: كما كان ترتيب التنظيمات واجبًا على من تقدم بمراعاة حال الوقت، فمن اللائق أيضًا بمن يدعي من الدول الأوروباوية المتمدنة حب الخير للنوع الانساني أن يعينوا في هذا الشأن، ولو بالكف عن التعطيل، خصوصًا من له فائدة في دوام استقلال الأمة الإسلامية.

هذا ما دعت الحاجة إلى تحريره من أسباب التقدم والتأخر للأمة الإسلامية، ملخصًا جُلُّه من الكتب الإسلامية والإفرنجية. وبه يعلم من لا خبرة له بأحوال الإسلام من الأوروباويين وغيرهم ما كان للأمة من التقدم في المعارف وغيرها،

وقت نفوذ الشريعة في أحوالها، ودخول الولاة تحت قيودها، وأن الشريعة لا تنافي تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لأسباب التمدن ونمو العمران، كما يعتقده الكثير ممن ذكرنا، حتى صاروا يدرجون ذلك في صحف أخبارهم ومستحدثات تآليفهم، ولا سبب لذلك - يمكن اعتذارهم به عن سريان ذلك لاعتقادهم - إلا ما يشاهدونه في ممالك الإسلام من اختلاف التصرفات والأحكام، وما نشأ عنه من سوء حال الرعايا. وهذا ونحوه من مضار تقصير الأمراء في حماية الشريعة، واستبدادهم بالتصرف بمقتضى شهواتهم، مع إغفال العلماء القيام بما أَهَّلَهُم الله له، بإعراضهم عن مقتضيات أحوال الوقت - كما أشير إليه سابقًا - ولا يخفى أن البقاء على هذه الحالة مما يعظم خطره، وتخشى عواقبه.

سمعت من بعض أعيان أوروبا ما معناه: «إن التمدن الأوروباوي تدفَّق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، إلا إذا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق».

وهذا التمثيل المحزن لمحب الوطن مما يُصَدِّقُه العيان والتجربة؛ فإن المجاورة لها من التأثير بالطبع ما يشتد بكثرة المخالطة الناشئة عن كثرة نتائج الصناعات، بحيث تلجئ لإخراجها والانتفاع بأثمانها، وهو سبب ثروتهم كما تقدم.

ولنقتصر على هذا المقدار من الإشارة إلى أسباب التقدم والتأخر في الأمة الإسلامية، ونرجع إلى ذكر أدوار التمدن الأوروباوي من أيام الإمبراطور شارلمان إلى هذا التاريخ، على وجه إجمالي يُقتَدَر به على الإحاطة بأنواع التمدن المكتسب بالمعارف، ويستفيد منه من يريد معرفة الأشخاص الذين اشتهروا بكشف كنوز الطبيعة، وأسرار التهذيب، ورسوم معالم السياسة.

الباب الثاني

التمدن الأوروباوي

التمدن الأوروباوي

اعلم أن الإمبراطور شارلمان الذي أسس دعائم السياسة والأحكام، كان أشهر ملك ظهر بأوروبا، من وقت سقوط الدولة الرومانية إلى سقوط دولة الإغريق، التي كان تحت مملكتها القسطنطينية العظمى. وهو الذي أدخل العلوم والأعمال لممالكه، وكان يفني غالب أوقاته في قراءة العلوم، وكان مجلسه محفوفًا بالعلماء، وأسس بباريس مدرسة جامعة لسائر المعارف.

وبمثل هاته المآثر حصل له من السمعة في أقطار الأرض ما استمال الخليفة هارون الرشيد إلى صحبته، ومهاداته بتحف منها مِنْقَالة[1] لم تزل إلى الآن في أحد قصور فرنسا.

ثم بعد وفاة الإمبراطور المذكور، وفقدان تدبيره، تعطلت تلك المصالح، وتنازلت أوروبا وبقيت مغمورة في دجى الجهل مدة ستمائة سنة. وفي هاته المدة كانت موطئًا لأقدام البرابرة الذين كانت دولتهم تتداول عليها. ومع ذلك الفشل

(١) مِنْقَالة: آلة توقيت (ساعة). (م).

التام فإن أهل الكنيسة منهم كانوا محافظين على كتب المعارف، وعلى اللسانين اللذين لولاهما ما انتُفع بتلك الكتب، وهما اليوناني واللاتيني، فالناس ممنونون لهم بذلك.

ثم في القرن الحادي عشر - الذي هو خامس قرون الهجرة النبوية - ظهرت مبادئ علوم وصناعات وهندسة في الأبنية، فأنشئت بها هياكل في الناحية الغربية من أوروبا، وأخذ علم الفلسفة في النمو بين محاورات كلامية ومنازعات جدلية، وظهر حزب الفرسان الذين اشتهروا باسم الكوليير، وهم جماعة من وجوه الناس تحالفوا على أن يحاربوا في الله للمدافعة عن حرية النسوة، والمستضعفين من سائر الأهالي، وأن لا يلاحظوا في أفعالهم - لا سيما المحاربة - إلا مقتضيات الشرف الإنساني، وعلو الهمة ولو مع أعدى الأعادي، مثلاً: يرحمون من يسترحمهم، ولا يُجهزون على جريحهم، ولا يبتزون سَلَبَ قتيلهم.

ومن أواخر هذا القرن إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت حروب الصليبيين مع المسلمين لافتكاك بيت المقدس، وقطع استيلائهم على الأمم في زعمهم.

وإنما أشرنا لهاته الحروب والفرسان لبيان ما لها من الدخل في التمدن الأوروباوي؛ فإن مؤرخيهم يقولون إن تلك الحروب وإن هلكت فيها نفوس عديدة، وأموال بدون الحصول على المقصود بالذات، فإنها أعقبت نتائج نافعة

لهم، منها أنهم من ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر، وتعلموا بمواصلتهم لأهل المشرق صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك، وتخلَّقُوا بأخلاق الحضر، وتعودوا بالأسفار لاستكشاف أحوال الأقطار، فاطلعوا على أحوال آسيا المتوسطة وأحوال الصين، كما ذلك مبين بتأليف ماركو بولو.

وبالجملة فبالسبب المذكور - وهو مخالطة الأوروباويين للأمة الإسلامية المتقدمة عليهم في التمدن والحضارة - كان ابتداء التمدن عندهم، لا سيما في القرن الثالث عشر، ثم تهذب حتى وصل إلى ما هو مُشَاهَدٌ اليوم.

وانتهت إذ ذاك رئاسة العلوم والآداب والفلسفة إلى صان برنار بفرنسا، وصان توماس بإيطاليا، وألبرت الكبير بألمانيا، وريموندو لولو بإسبانيا، وجن دونسكوت بأنكلترة. وظهرت الشعراء والمهندسون والكنائس الأصولية، والهياكل الفخيمة المنسوبة للقرون المتوسطة.

وفي القرن الرابع عشر نالت تلك الأمور شرفها، خصوصًا في إيطاليا؛ فإن دانتي حرر اللسان الطلياني، وقرره في شبه أراجيز يتخلد ذكرها، وجيوتو وتشيمابوي أحييا صناعة الدهن، وبتراركا وبكاتشو سلكا طريقة دانتي في النظم والنثر.

ثم في أواسط القرن الخامس عشر - وهو الوقت الذي لا يُنسى لغرابة حوادثه - اخترع غتمبرغ - من أهل ميانس بألمانيا - طبع الكتب، الذي حصل

به من تنمية مواد العلوم وسرعة انتشارها في أقطار الأرض ما يغني فيه العيان عن البيان. وأول ما طبع منها كتاب في أشعار اللغة اللاتينية التي عاد إلى استعمالها أهل إيطاليا، وتكاثرت بها أشعارهم بعد أن تناسوها.

وهي وإن لم تأخذ مأخذها في التوصل بها إلى المعاني الدقيقة واللطائف البديعة، فقد رجعت إلى ما كانت عليه من الطلاوة وحسن السبك.

ثم أخذ التمدن في الترقي بمدارج العلوم والأعمال، وكانت المزية في ذلك لجماعة الميدشي، الذين كانوا رؤساء الدولة الجمهورية بفلورنسة، ثم صاروا أمراءها، فهم الذين مهدوا سبلها للناس، وكان اشتهارهم بذلك في القرن السادس عشر، المعبر عنه بالقرن الكبير، الذي كانت أيامه تضاهي بأولئك الرؤساء أيام أغسطوس أول قياصرة الرومان، في الأشعار وحسن هندسة البناء وبديع أشكاله، اقتداء بالرومانيين الذين اقتدوا في ذلك باليونان.

ومن حوادث القرن الخامس عشر أن جماعة الميدشي المشار إليهم، والبابا ليون العاشر الذي هو منهم، بحثوا في الخزائن عن الكتب القديمة، وطبعوها لاستكثار نسخها، وجعلوا عليها تعليقات نافعة وملاحظات غريبة، وبذلك ارتفع عن محاسن الأقدمين القناع الذي تكاثف بتطاول السنين.

وفي تلك المدة ظهر الشاعران أريستو وتاسو اللذان أشهرا اللسان الطلياني المستعمل الآن، وهما في الطبقة الأولى من مشاهير تلك اللغة.

فأولهما خلد ذكره باختراع معانٍ لم يسبق إليها، في ألفاظ مهذبة مستعذبة.

والثاني نال شهرة أميرس الشاعر اليوناني، وفرجيل الشاعر اللاتيني.

وبالجملة فاللسان الطلياني أخذ في ذلك الوقت مأخذه من السلاسة وحسن السبك، وألفت به تآليف عديدة في فنون شتى.

ومن مشاهير القرن المذكور مكيافلي الذي كان أول من بَيَّنَ القواعد السياسية بعد سقوط الدولة الرومانية، وغويتشر ديني الذي بلغ بجودة الفكر وحسن التعبير إلى إتقان التصنيف في التاريخ، وفراباولو الذي اشتهر بالمدافعة عن حرية الوطن بقلم غيور منصف ضد سياسة البابوات الدائرة رحاها على إيثار الشهوات.

وفي ذلك الوقت ظهر بمملكة إسبانيا التي كانت اكتسبت من المسلمين أنواعًا من الظرف كالفروسية واللعب بالرماح، وتعاطي المعاني الغريبة من الأشعار، الناظمان المجيدان لويس دفيفا وكالدرون، اللذان أظهرا من التراكيب الشعرية ما حسن إلقاؤه في المجامع المعدة لتهذيب الأخلاق المسماة عندهم بالتياطرات(١).

كما ظهر في ذلك الوقت عند الأنكليز الناظم الشهير شكسبير، وهو وإن لم يخل كلامه عن الهفوات، فله النفيس من جوهره، ويتوصل بفصاحته إلى

(١) التياطرات: المسارح. (م).

الكشف عن كُنه ما يروم وصفه، والإحاطة بكيفيته الحسية والمعنوية، لاسيما في وصف الحروب، بحيث إن سامع كلامه يكون المشاهد لما يصفه.

وأما أهل شمال أوروبا فلم يشتهروا إلى ذلك الوقت بشيء من أعمال الفكر، غير أن منهم من لا تُنْكَرُ مِنَّته على العرفان مثل كبرنيك من أهل بولونيا، المولود سنة ثلاثة وسبعين وأربعمائة وألف (1473)، وهو الذي حرر القول بأن الشمس في مركز العالم، وأن الأرض والكواكب تدور حولها. قيل وليس هو أول قائل بذلك، والأول فيلولاوس أحد تلامذة فيثاغورس، وذلك قبل وجود كبرنيك المذكور بألفي عام، لكن وقع الانفصال على أن كبرنيك هو الذي ينبغي أن ينسب إليه مزية الابتكار لهذا القول، وإن انتفع في الاهتداء إليه بقول فيلولاوس المذكور.

وممن حرر الدليل على تلك الدعوى بما يقرب من المشاهدة غليلاو الطلياني، وأعانه في ذلك ما اخترعه مسيوس من أهل هولاندا من آلة البلور التي تُكَبِّرُ الأشياء، فكانت مرآته تُكَبِّرُ الشيء مائة وستين مرة زيادة على مقدار جِرْمِه[1]، ثم تهذبت تلك الآلة حتى صارت تُكَبِّرُه من ألفين إلى ثلاثة آلاف وأكثر. ولم تزل تلك الدعوى تترجح عند أهل أوروبا إلى أن صارت مُسَلَّمَةً لديهم، وبواسطة تلك الآلة اطلع غليلاو المذكور على كواكب لم تكن معهودة، وهو وتلميذه تريشلي

(١) جِرْمه: جسمه. (م).

أول من عرف وزن الهواء، وأن طلوع الماء في الطلنبة[1] مسبب عن ضغط الهواء، سطح الماء، وأن نهاية صعوده اثنان وثلاثون قدمًا؛ حيث إن قوة عمود الهواء النازل على سطح الماء لا تتجاوز المقدار المذكور، فلا ينجذب بها الماء إلى أكثر من ذلك.

والحاصل أن أهل إيطاليا اغتنموا في ذلك الوقت شهرة بالآداب والصناعات المستظرفة المسماة عندهم بوزار، وهي صناعة الدهن والنقش، وهندسة البناء، والموسيقى، وحصلوا على ما أمكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة.

وأما ألمانيا فقد اشتهر فيها تيخو براهي ووكلوبلر.

فالأول أفنى عمره وماله في طلب العلم واقتناص شوارده، حتى سُمِّي بالمحسن إلى العلم.

والثاني صرف المهجة إلى علم الفلك حتى قيل له صاحب الأحكام.

وأما أنكلترة فإنها صارت بقرب ذلك العهد ذات يد في العلوم الرياضية والحكمة الكلامية، وممن اشتهر فيها فرنسس باكن ذو الفكر الوقاد، والجد والاجتهاد، وقد صحت تسمية تأليفه بحالة العلوم الجديدة. واستند في دعاويه

(١) الطلنبة: المضخة الكبيرة. (م).

إلى التجارب المفرغة في قالب الأسلوب الفلسفي، حتى قيل: «إن فن الطبيعيات صار بقواعد الكتاب المذكور كما ينبغي أن يكون».

وفي القرن السادس عشر امتاز أهل فرنسا بعلم الأحكام الآتي بيانه، واشتهر منهم بذلك عدد كثير، مثل كوجا ودوملان ومياشل دولبيتال الذين عمروا مكاتب الأحكام، والماهر الفصيح فرنل المتسلطن في علم الطب، وأمبروازبري أعرف أهل وقته بأحوال الجراحات، وفيات الذي اختصر كتب الجبر بوضع حروف نائبة عن الأعداد، وصيره لعلم المساحة كالمنطق لسائر العلوم، وبيار لسكو الذي هندس بناء اللوفر وفلبار دلورم الذي هندس قصر مودون وقصر التويلري، والأول والثالث بباريس يسكن بهما ملوكها، والثاني بقربها.

ثم إن فرنسا وإن بلغت في هذا الوقت ما بلغته من التمدن والتهذيب، وفاقت أممًا كثيرة ممن تقدمها إلا أنها لم تضاه نظائرها؛ حيث لم يكن لسانها في ذلك الوقت خالصًا من الشوائب.

ومن مشاهيرها في تلك المدة أميو ومارو؛ فالأول في الإنشاء والثاني في النظم تميزا بسلامة السليقة وقلة التعقيد، ومنهم ربلي متقن صياغة مثالب الهجو، ومونتان الفيلسوف الذي سهل طرق المعاني وأداءها بألفاظ راشقة، وشرح ماهية الإنسان غير محمول بعين الرضى على تحسين معائبه، ولا بعين السخط على تقبيح محاسنه.

وفي هذا القرن اشتهر بإيطاليا بين أرباب الصناعات رفايل وميكلانج وليوناردو داو ينشي، وأشخاص آخرون في صناعة الدهن، والنقش، والبناء، فبهم وبتلامذتهم تجدد البوزار في سائر نواحي أوروبا.

وفي القرن السابع عشر بلغت العلوم الرياضية والأدبية في أوروبا إلى الغاية القصوى؛ وذلك بكثرة العلماء الذين نمت بهم المعارف، حتى صار من كان يعد من مشاهير العلماء في القرون الماضية، يعد من عامتهم في هذا القرن، خصوصًا أهل فرنسا الذين ترقوا في سائر المعارف، وتقدموا من عداهم من أهل أوروبا في الفصاحة نظمًا ونثرًا، وفي صناعة البوزار المتقدم بيانها.

فمن مشاهير هذا القرن باسكال المشتهر بفن الحساب والطبيعيات والإنشاء، ألف كتابًا سماه بما ترجمته «مكاتيب أهل القرى»، وهو من أشهر ما أُلِّفَ في الإرسال، وتعرَّض فيه للقدح في سيرة الجزويت (حزب يعرف باليسوعية، دأبهم جلب الناس بكل وجه ممكن إلى الديانة النصرانية، والمدافعة عن السياسة البابوية). ومنهم دكارت المعدود في الطبقة الأولى من مخترعي العلوم الرياضية، باستعمال قواعد الجبر في المساحة، وإتقان التصرف في علم الفلسفة، وهو من أشهر العلماء الذين هذبوا أخلاق البشر.

ثم بوردلو وماسليو اللذان أظهرا فصاحة لم تكن لأحد قبلهما من خطباء ديانتهم.

ثم بوسوي الذي بلغ في حسن التأبين، وفي خطبته على التاريخ العام السائرة مسيرة المثل عند أهل أوروبا، درجة لم يبلغها أحد بعده، ثم بوالو الذي بَيَّن قواعد الشعر عندهم.

ثم لابرويار المعدود من السابقين في علم التهذيب.

ثم فنلون صاحب التأليف المشهور المسمى تلماك الجامع لأسباب التهذيب البشري.

ثم كرنيل وراسين اللذان لا يقاسان في التراجيديا إلا بمشاهير اليونان (وهي محاكاة الحروب والوقائع) والكوميديا (وهي محاكاة أمور في قالب الهزل).

ثم موليير في الكوميدات، ولافونتين في الأمثال تقدَّما من كان قبلهما.

وفي القرن المذكور ظهر بألمانيا الحكيم ليبنتس، وكان له شهرة في علم التاريخ والطبيعيات، لا سيما الرياضيات والفلسفة؛ فقد كان له فيهما اليد الطولى.

وفي هذا القرن تميز علماء الأنكليز عن غيرهم بإتقان علم الهيئة والفلك، فمنهم هالي الذي شرح خواص الهواء وأسرار مد البحر وجزره، وأسرار المغناطيس، وحركات ذوات الأذناب. وارتكب المشاق والأخطار في تطلّب العلم من نوازح الأقطار، حتى بلغ جزيرة صانت الآن في البحر المحيط، ورسم على صخورها

خريطة نجوم القسم الجنوبي من الهيئة، وبذلك ارتفع شأن رصد غرينتش في أنكلترة.

ثم المنجم فلامستيد الذي بيّن ملاحظات عديدة في علم الفلك تلقاها الناس بالقبول.

ثم نيوطن المشتهر اشتهارًا أنسى به ذكر سابقيه، وله تأليف كبير أحدث به في الفلسفة تغييرًا غريبًا، وقع من الناس موقع الإعجاب.

وفي ذلك الوقت ظهر من شعراء الأنكليز درايدن وبوب ومن كتبة الإنشاء أدسون.

وفي القرن الثامن عشر حازت فرنسا خمسة أشخاص من مشاهير الكتبة، بذلوا الجهد في إيضاح طرق الفلسفة وتشييد مبانيها.

وهم: فونتنيل الذي انسجمت مكاتيبه فيها.

ثم بوفون مشفع أفلاطون، وبلين الذي كسا علم الفلسفة رقة التعبير في كتابه الذي خلَّد ذِكْرَه، وأعرب عن رقة طبعه ودماثة أخلاقه.

ثم مونتسكيو الذي صرف همته إلى كتب السياسة، وأبانت تصانيفه عنه غاية معرفته بها، وكفى شاهدًا على ذلك ما كتبه في السبب الذي كبرت به الدولة الرومانية وتعاظمت، والذي سقطت به وانقرضت، وهو كتاب عجيب

يحتوي على تعليقات صادقة وعبارات محررة راشقة. وكتابه الآخر المسمى بحكمة القوانين الذي بَيَّن فيه الحقوق الإنسانية، وقسمها إلى ثلاثة أقسام: أولها الحقوق المعتبرة بين الأمم في خلطتها السياسية والمتجرية، وثانيها حقوق الدول على رعاياها وبالعكس، وثالثها حقوق الأهالي فيما بينهم. ثم قسم حالة الدولة إلى ثلاثة أقسام أيضًا: الأول الدولة الوراثية خلفًا عن سلف المطلقة التصرف بلا قيد. الثاني الدولة الوراثية كذلك المقيدة بالقوانين. الثالث الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين أيضًا. والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الأمة رئيسًا لدولتهم، يتصرف في إدارتها بمقتضى القوانين مدة حياته، أو لمدة معلومة، ثم ينتخب غيره. وبيَّنَ ما ينشأ من الخير والشر عن الأحوال الثلاثة. وهو معدود عند أهل أوروبا قانونًا صحيحًا في الأحكام. ومن تمثيلاته البديعة تشبيه المستبد في تصرفاته بمن يتوصل لاجتناء الثمرة بقطع الشجرة من أصلها. وله في غير ذلك تآليف عديدة تلقاها الناس بالقبول.

ورابعهم دلمبير صاحب التأليف المُحَلَّى بقلائد القواعد، الحاوي بأوضح بيان ما كاد يأتي على سائر الفوائد.

وخامسهم كندلياك الذي بسط أشعة التحقيق على تأليف لوك الأنكليزي في علم الفلسفة.

ومن مشاهير القرن الثامن عشر فولتير، وهو ممن أخذ راية الكتابة باليمين والشمال، واشتهر في سائر فنونها اشتهار الدجال في الأجيال، ولو لم يحمله انحلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته أتم، والنفع بمعارفه أعم.

ومنهم جانجاك روصو، وهو نظير ولتير في الشهرة، وله من حسن التعبير ما لا تستقر معه الأوهام. وهذان الكاتبان المجيدان هما اللذان أنشأ ثورة أهل فرنسا سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف (1789)، الموافقة لسنة مائتين وألف هجرية (1200) وهيأ أسبابها، واستعجلا وقوعها.

ومنهم جان باتيست روصو صاحب الأشعار والمعاني الرائقة، ومنهم لوساج مؤلف جلبلاس الكتاب المحتوي على المقامة الفلسفية، الذي هو من أحسن ما ألف في بابه.

ومن مشاهير هذا القرن لناوس من أهل السويد، اشتهر في الطبيعيات.

وفيه ظهر بألمانيا الشاعران غوتي وشلر، فالأول فاق أقرانه في محاسن الآداب، والثاني استحق اسم المجدد لتياطرات الألمان؛ فإنه ركب ألعابًا معتبرة ينشد فيها مستظرفات الأشعار، وله تآليف في التاريخ شاهدة بتقدمه في ميدان الأفكار.

كما ظهر فيه بأنكلترة المؤرخون الثلاثة الذين تَشَرَّف بهم وطنهم، وهم غيبون وهيوم وروبرتسون، ثم ظهر بها أيضًا آدم سميث الذي فاق أقرانه في علم الرياضيات والاقتصاد السياسي. والمعلم الطبيعي بانكس والجراحيان وليم هنتر وأخوه جُن وكاوندش الذي حلل أجزاء الماء، والفلكيون برادلي وهرشل وبنجمن فرانكلن، الذي خلد اسمه ببيان الأمور المتعلقة بالجاذب المغناطيسي.

ومن مشاهير أنكلترة في القرن المذكور أركرايت الذي اخترع آلة غزل القطن، ثم خرج عن صف العامة ثلاثة أشخاص استنبطوا لهذه الآلة ما أكسبها قوة غير محصورة، وهم سميطن وفلطن وجامس وات.

وهذا الأخير هو الذي اخترع الكيفية العجيبة في الانتفاع بالآلة البخارية، اخترعها أوهلا نيوكمن.

كما ظهر بهذا القرن الخدمات العجيبة الهائلة على يد المهندس برادلي، فتضاعفت طرق المواصلة بأنكلترة، وفتحت الخُلُج(١) العديدة في الأماكن التي كانت معطلة، وبذلك نمت نتائج الأيدي، واتسعت دوائر متجر الأنكليز وثروتهم، وارتفع شأن السياسة، فمن النتائج كثرة استخراج معادن الأرض بسهولة المناولة والمواصلة، وكذا جلب القطن والكتان وغيرهما، واصطناع الأقمشة منها في أسرع

(١) الخُلُج: جمع خليج. (م).

وقت، كل ذلك بمعونة الآلات المذكورة. وقد كبرت بلدانها الصغيرة لاتساع نطاق المتجر فيها، حتى صارت من البلدان المعتبرة.

وهناك مثالاً جزئيًّا تعلم به التبديلات الخطيرة الواقعة في أحوال المتجر، وهو أن قيمة ما كان يخرج من سائر بلدان أنكلترة من القطن المصنوع لم تكن في أوائل القرن الثامن عشر تتجاوز خمسمائة ألف فرنك في السنة، وفي أواسط هذا القرن بلغت قيمة ما يخرج من ذلك في السنة خمسمائة مليون فرنك.

ولنمسك عنان القلم هنا حيث بلغنا إلى القرن التاسع عشر الذي صار فيه المشاهير بالعلوم والصناعات أكثر من أن يحصوا، والساعون فيما يزيد نوع البشر تحسينًا أَجَلُّ من أن يضبطوا، ولم يزل الملوك يُرَغِّبُون الناس في أسباب التمدن، وينشطونهم بالجوائز وعلامات العناية، وبوضع صور مشاهيرهم بمجامع العامة لتوفير دواعي البحث عما يمكن أن ينفع جنسهم ويخلد ذكرهم.

الباب الثالث

تلخيص المكتشفات والمخترعات

تلخيص المكتشفات والمخترعات

في أوائل القرن الرابع عشر استعمل أهل أوروبا في سفنهم البوصلة المنقولة عن العرب كما تقدم. وكشف أهل البرتغال عدة جهات من شطوط إفريقيا الغربية، وأحاطوا بالجهة الجنوبية من رأس الزعزعة المسمى من ذلك الوقت رأس الرجاء الصالح، ووجدوا بذلك طريق الهند في البحر، وأحدثوا فيها عدة مستعمرات.

وفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة وألف (1436)، اخترع المطبع بألمانيا. وفي سنة ست وستين وأربعمائة وألف (1466)، وجدت فبريكة الحرير بمدينة ليون من فرنسا، وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وألف (1492)، كشف كريستوف كولومب أمريكا.

وفي القرن السابع عشر حدثت فبريكة القطن بأنكلترة وفرنسا، وظهرت المرآة التي تُكَبِّرُ الأشياء المتقدم ذكرها، وظهرت البوسطة أي بيت المكاتيب، وتحرر ميزان الهواء بالوجه المتقدم. وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف (1648)

في أوائل القرن الرابع عشر استعمل أهل أوروبا في سفنهم البوصلة المنقولة عن العرب كما تقدم. وكشف أهل البرتغال عدة جهات من شطوط إفريقيا الغربية، وأحاطوا بالجهة الجنوبية من رأس الزعزعة المسمى من ذلك الوقت رأس الرجاء الصالح، ووجدوا بذلك طريق الهند في البحر، وأحدثوا فيها عدة مستعمرات.

وفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة وألف (1436)، اخترع المطبع بألمانيا. وفي سنة ست وستين وأربعمائة وألف (1466)، وجدت فبريكة الحرير بمدينة ليون من فرنسا، وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وألف (1492)، كشف كريستوف كولومب أمريكا.

وفي القرن السابع عشر حدثت فبريكة القطن بأنكلترة وفرنسا، وظهرت المرآة التي تُكَبِّرُ الأشياء المتقدم ذكرها، وظهرت البوسطة أي بيت المكاتيب، وتحرر ميزان الهواء بالوجه المتقدم. وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف (1648) ظهر استعمال الكينا(١). بأوروبا، وفي سنة سبع وستين وستمائة وألف (1667) استعملت فبريكة نسج البُسُط(٢) الرفيعة بباريس.

وفي سنة أربعين وسبعمائة وألف (1740) أنشئت فبريكة الذكير المذاب بأنكلترة. وفي سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وألف (1752) اخترع فرنكلن

(١) الكينا: دواء ضد الحُمَّى. (م).
(٢) البُسُط: جمع بساط، وهو نوع من الفرش يُطرح على الأرض. (م).

جواذب الصاعقة التي تجذب القوة الكهربائية من السحاب وتدخل بها في الأرض.

وفي سنة ستين وسبعمائة وألف (1760) تأسس بباريس محل تعليم الصم البكم والعمي القراءة والكتابة والرياضات، ثم اقتدى بذلك بقية ممالك أوروبا حتى إنه يوجد اليوم بها من الأماكن المخصوصة بتعليمهم نحو مائة وخمسين، وكيفية ذلك في الأصم الأبكم أن يُرُوه صور الحروف، ويصطلحون معه على تخصيص كل حرف منها بإشارة مخصوصة في الأصابع، ثم يحضروا له الشيء المراد تعريفه إياه، ويكتبوا اسمه له على مقتضى تلك الحروف الإشارية، فبهذه الواسطة يصير قابلاً للتعليم لتيسر الكلام معه بسهولة. وفي الأعمى بجعل حروف له ذات أجرام[١]، فبذلك يقبل تعلم القراءة والكتابة، وإذا أريد تعليمه الجغرافيا ترسم له الخريطة أجرامًا ممسوسة، فيسهل تعلمه إياها جدًّا، حتى يصير بحيث متى طلب منه تعيين محل من الأرض، أو بلد من البلدان، وضع يده عليه بدون مشقة.

وفي سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (1776)، اخترع الطبيب جنر الأنكليزي من مدينة بركليا كيفية تلقيح الجدري.

---

(١) ذات أجرام: مُجَسَّمة. (م).

وقد تنازع مؤرخو الأنكليز والفرنسيس وأمريكا في اختراع الآلة البخارية، فكل يدعي ذلك لأهل مملكته، والذي حرره آراغو الفلكي الفرنساوي هو أن الماكينجي هيرون الإسكندارني فكر في قوة البخار، والمنافع التي يمكن تحصيلها به، وكان ذلك قبل الميلاد المسيحي بمائة وعشرين سنة، لكن بقى هذا الرأي عقيمًا عدة قرون، ثم في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وألف (1543) من الميلاد المذكور كتب بلاسكودي غراي الإسبنيولي الأصول التي يمكن حصولها على تلك القوة وفكرة استعمالها، وكتب مثل ذلك سلمون بوكوس الفرنساوي في سنة خمس عشرة وستمائة وألف (1615)، ثم في سنة ثلاث وستين وستمائة وألف (1663) استقل بهذا الشأن ورشتر الأنكليزي، إلا أن ما أنتجته فكرته لم يكن كافيًا في حصول الانتفاع بتلك القوة. ثم في سنة تسعين وستمائة وألف (1690) فكر في شأنها المهندس دنيس بابين الفرنساوي إلى أن رَكَّبَ في سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (1695)، الآلة البخارية بالبستون (وهو شيء يشبه مدق المكحلة) وهو أول من ظهر له جعل القوة القابلة للبسط في آلة نارية، حيث إن البخار ينبسط عند شدة الحرارة وينقبض عند البرودة. ثم اعتنى بذلك الماكينجي الأنكليزي جامس وات المتقدم الذكر، الذي ظهرت أعماله في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بتوجيهه العناية إلى هذه المأثرة، وبحثه عن سائر أجزاء الآلة البخارية، حتى ارتقى في ذلك درجة تنيله منصب الاختراع لها. وقد كان دنيس بابين المذكور أشار إلى إمكان السفر في البحر، وبيَّن كيفية ذلك بغاية الإيضاح.

في سنة ست وثلاثين وسبعمائة وألف (1736)، أخذ جونتان هلس الأنكليزي السراح من الدولة في استعمال الآلة المذكورة بسفينة، لكن لم تتم له الموجبات، فكانت جدوى فعله قليلة، وفي سنة (1775)، صنع الماكينجي بريا الفرنساوي السفينة الأولى البخارية، وبعد ثلاث سنين اخترع جوفروي الفرنساوي الآلة المذكورة، وألقاها في وادي دوب بفرنسا، وفي سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (1781) ألقى على وادي صون بفرنسا أيضًا سفينة كبيرة من ذلك النوع، وسارت ثم استقل بالمأثرة المشار إليها جماعة في أنكلترة نجح سعيهم فيها، وهم ميلر في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وألف (1791)،، ثم لورد ستنهوب في سنة خمس وتسعين وسبعمائة وألف (1795)، ثم سيمنغطن سنة إحدى وثمانمائة وألف (1801)، وفي السنة الثالثة من القرن التاسع عشر (1803) جرب الأمريكاني فلطن بباريس عمله بتلك الآلة، فرأى مخائل النجاح، وكان معه من أهل وطنه ليونسطن فوضعا على وادي سون أول فابور تام بالعجلات، وذلك في تاسع أغشت من السنة المذكورة، لكن لم يتفق إنجاز المأثرة المذكورة بفرنسا لعدم اعتناء الدولة بها في ذلك الوقت، فلما أيس فلطن من نجاح سعيه هناك حمل مخترعه إلى وطنه أميركا وأشهره بها. ويقول أهل فرنسا إن من سوء البخت عدم انجذاب بال الدولة في ذلك الوقت لهذه النتيجة الباهرة. وفي السنة السادسة من القرن المذكور (1806) سافرت السفينة البخارية المسماة كلرمونت من نيويورك إلى فيلادلفيا في الممالك المتحدة بأمريكا، وفي سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف (1814) شرع المذكور في اصطناع الفرقاطة البخارية الأولى فمات قبل إتمامها، وفي حياته صنع

بتلك المملكة عدة فابورات صغار، منها المسمى فلطن، الذي التقى بالسفينة الحاملة لنابليون الأول إلى جزيرة صانت الآن، التي بقي فيها بعد سقوطه، فلما رأى الفابور المذكور وذَنَب دخانه شائل في الجو ندم على إعراضه عن تلك المأثرة التي تم ظهورها في غير بلاده. وجميع التحريرات البخارية مستنبطة من قواعد فلطن المذكور؛ لأنه كان مهندسًا حاذقًا لبيبًا. ثم انتشر هذا المخترع بسائر جهات أوروبا على التعاقب شيئًا فشيئًا.

وأما استعمال آلة الذنب المسماة آليس بدلاً من العجلات، فأول من فَكَّرَ فيها دوكي الفرنساوي سنة سبع وعشرين وسبعمائة وألف (1727) وبوكتون سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (1768). وفي سنة ثلاث وثمانمائة وألف (1803)أخذ شارل دلري الرخصة في عمل الآلة المذكورة إلا أن سعيه إذ ذاك لم ينجح لعدم وجود المبالغ اللازمة من المال، فاغتنم التفرغ لهذا العمل المهندس أريكصون الشهير من أهل السويد في الممالك المتحدة بأمريكا من سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف (1836) إلى سنة أربع وأربعين وثمانمائة وألف (1844) إلى أن تم واستعمل في سنة خمس وأربعين وثمانمائة وألف (1845) وقد شاع العمل به الآن.

وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وألف (1783) ارتفع في الهواء بالبالون مونغولفي الفرنساوي. والبالون قبة من الحرير مصنوعة بكيفية لا ينفذ بها من مسامها الغاز الذي هو ألطف من الهواء فتملأ القبة بتلك المادة، فتصعد في الجو لصيرورتها أخف من الهواء. وفي سنة أربع وتسعين وسبعمائة وألف (1794)

اخترع ولتا البيل الذي يستعمل للتذويب وللتلغراف الكهربائي. وفي سنة إحدى وثمانمائة وألف (1801) اخترع جكار الحائك آلة النسج التي تنسج بدون واسطة اليد، وهذه الآلة أورثت تبدلاً كبيرًا في أمر النسج، وارتفع بها شأن فبريكات ليون بفرانا، التي تصنع الأقمشة الحريرية وغيرها؛ ولذلك رفع أهلها صورة المخترع المذكور ببطحاء المدينة إظهارًا لممنونيتهم له.

وفي سنة ست عشرة وثمانمائة وألف (1816) ظهر بلندرة حادث إسراج[١] الغاز، كما ظهر بها في السنة المذكورة الستينوغرافي (وهي كيفية تسهل استيعاب الكاتب جميع ما ينطق به اللسان السريع باصطلاح مخصوص، والواضع لها رامزي من أهل سكوتلاند. وفي سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف (1829) ظهرت أول كروسة تامة تجري على طريق من الحديد. وهي من مخترعات المهندس ستيونصن الأنكليزي. واخترع ويتصطون الأنكليزي أيضًا الكيفية المستعملة في التلغراف المذكور. واخترع نيبس وداغير الفوتغرافي أي ارتسام الصورة بواسطة المرآة وبقاءها، ولهذه الصناعة فوائد جمة في الطبيعيات والفلك.

ولما وان تقدم أهل أوروبا في ميدان التمدن الذي من نتائجه الاختراعات المشار إليها، إنما كان بتمهيد طرق العلوم والفنون، وتسهيل أسباب استحصالها، وكان للمملكة الفرنساوية مزيد شهرة بحسن التنظيم في أطوار التعلم والتعليم،

(١) إسراج: إيقاد. (م).

رأينا أن نبين تراتيبها الناجحة ليقاس عليها بقية الممالك لاقتداء بعضهم ببعض في مثل ذلك.

فنقول: اعلم أن طبقات المتعلمين عندهم ثلاث؛ لأن المتعلم إما مبتدئ أو متوسط أو منته، وانقسام الفنون على هذه الطبقات باعتبار سهولة الفن وصعوبته.

فالفنون الأولية مثل علم الأخلاق، وأصول الديانة، والقراءة والكتابة، والمفردات اللغوية، وأصول الحساب، والوزن والكيل، وأصول التاريخ والجغرافيا، ومبادئ سر الطبيعة، والاستدلال بالموجودات الأرضية، ومبادئ الفلاحة والصناعات، وقانون حفظ الصحة، وأصول المساحة ورسم الأرض والتصوير الخطي، والفنون الأولية، تدرس في المكاتب العمومية المقامة من الدولة، أو الإيالة، أو البلدة أو القرية. وفي المكاتب المطلقة ومحال المرحمة المقامة من خصوص أشخاص من الناس وجمعيات من المحسنين.

وأما فنون الطبقة المتوسطة التي ينتقل إليها بعد تحصيله ما يجب تحصيله من المعارف الأولية، فهي علم اللغات القديمة والحادثة، وعلم البيان والمنطق، والفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية والتاريخ. وجميع هذه العلوم تدرس في مكاتب للدولة، ومكاتب لأهل البلدان، وأماكن خصوصية ومحال صغيرة لتعليم الرهبان.

وأما الطبقة المنتهية، فمنهم من يتعلم بالمكاتب العالية، ومنهم من يحضر مجامع درس العلوم والإنشاء، الذين يجيزون الطلبة بعد امتحانهم بحضرتهم والمجامع المشار إليها مشتغلة بدراسة العلم الإلهي، وأحكام النوازل، وصناعة الإنشاء، ونحو ذلك.

وتنوَّع إلى خمسة أصناف:

أحدها يحتوي على ثمانية مجامع وظيفتها تعليم العلم الإلهي، ستة منها على مقتضى العقيدة الكاثوليكية، واثنان على مقتضى العقيدة البروتستانية. ومن شعب هذا العلم عندهم فروض الديانة، وعلم الأخلاق، ونظام الكنيسة، والكتاب الموصوف عندهم بالمقدس، واللسان العبراني.

والصنف الثاني يحتوي على تسعة مجامع، وظيفتها تدريس علم النوازل المنقسم عندهم إلى القواعد العمومية، وأحكام الرومان، والقانون المدني وأحكام الجنايات، وأعمال المجالس، وقياس العقوبات بأحكام البلدان والقانون المتجري، وأحكام الإدارة العمومية، وأحكام ما يقع بين الأمم، والأحكام الفرنساوية.

والصنف الثالث يحتوي على ثلاثة مجامع، وظيفتها دراسة علم الطب المتناول للتشريح، وتركيب الحيوان، وتاريخ الطبيعة المتعلق بالطب، وقانون الصحة، ومعرفة الأمراض الظاهرية والباطنية، وكيفية المعالجة، ومواد الأدوية وعلاج الجراحات،

وأحوال الولادة. وهناك مكاتب كبار لتعليم كيفية تركيب الأدوية، ومكاتب أخرى للاستعداد لتعاطي فن الطب.

والصنف الرابع يحتوي على مجامع وظيفتها دراسة علوم مختلفة، كعلم الهيئة والفلك، وعلم الجبر والمساحة، وعلم المكانيك أي التصرف بآلالات كجَرِّ الأثقال، وعلم استعمال الآثار الطبيعية، كالتصوير بالمرآة، وعلم الكيمياء، وعلم طبيعة الأرض، والنبات وتركيبه، وعلم طبائع الحيوانات.

والصنف الخامس يحتوي على مجامع وظيفتها تعليم الإنشاء وسائر العلوم الأدبية، وعلم الفلسفة وتاريخها، وآداب اليونان، والشعر اللاتيني والفرنساوي، وآداب الأجانب، والنحو، والتاريخ قديمه وحديثه، والجغرافيا.

وهناك مكاتب للاستعداد للفنون المذكورة، ويقرأ فيها تاريخ فرنسا كالجغرافيا الطبيعية والسياسية، وعلم الرسم.

ومن عوائدهم أن يختموا كتبهم في المكتب العالي المشتهر بمكتب فرنسا. وهناك مكتب لتعليم الألسنة المشرقية، ومحل مخصوص بتعليم أخذ الأطوال. ومحل الرصد السلطاني بباريس، والمحل المعد لوضع الحيوانات المُصَبَّرَة[1] على اختلاف أنواعها، وأنواع الأحجار. والمكتب السلطاني المعد للخريطات الجغرافية، ومكتب البوزار أي الصناعات المُسْتَظْرَفة، ومكاتب أعمال اليد، ومكتب التصوير

(١) المُصَبَّرة: المُحنَّطة. (م).

السلطاني، ومحل تعلم قواعد الموسيقى، ومكتب تعليم مخاطبات التياطرات. وجميع المكاتب المشار إليها تحت رعاية وزير المعارف، وما عداها من المكاتب الخصوصية فإنها وإن كانت خارجة عن دائرة الإدارة العمومية إلا أنها لا تخرج عن دائرة المراقبة؛ حيث يجب تفقدها فيما يتعلق بتهذيب الأخلاق وحفظ الصحة وموافقة التعليم لمقتضى قوانين البلد.

ثم إن هناك خمس جمعيات من كبار علمائهم، يسمى كل منها بالأكدمية، وتسمى الجمعية الأولى أكدمية فرنسا، والثانية أكدمية الخطوط القديمة، والثالثة أكدمية العلوم، والرابعة أكدمية البوزار، والخامسة أكدمية السياسة وتهذيب الأخلاق.

فوظيفة الجمعية الأولى الاعتناء بتصفية اللغة، وتحرير أوضاعها.

ووظيفة الثانية تحرير الأقلام القديمة، واستخلاص الألسنة العلمية، والنظر في الهياكل القديمة والتواريخ.

ووظيفة الثالثة نشر رسائل في سائر أنواع العلوم، وهذه الجمعية بمثابة مجلس لتحرير سائر العلوم.

ووظيفة الرابعة النظر في أحوال الأبنية والأدهان، والنقش والتصوير، والموسيقى، وهذه الجمعية هي التي تعين من يستحق الدخول في مكتب البوزار.

ووظيفة الخامسة النظر في أحوال علوم الفلسفة والأحكام، والحقوق العامة، والإكونومي بوليتيك أي الاقتصاد السياسي، والإستاتستيك، وتاريخ الفلسفة العمومي، والإدارة السياسية والمالية.

ولكل من هذه الجمعيات تعيين جوائز المؤلفين من مقدار مال، أو نيشان من الصنف المعروف عندهم بالمداليا. والجوائز تارة تكون من الدولة وأخرى من بعض أعيان البلد، ترغيبًا في الاختراع.

وهناك مكاتب أخرى لتعليم سائر العلوم، والفنون الحربية والبرية والبحرية، وجمعيات أخرى وظيفتها الإعانة في أسباب التقدم في المعارف، والفلاحة، وسائر الصنائع، منها جمعية الطب، وإدارة الموزيات[١] السلطانية، وجمعية الترغيب في الصناعات الأهلية، والجمعية السلطانية المركزية في الخضر والنباتات، المتكلفة بجلب غير الموجود منها من سائر الأقطار، وتدبيره بما يكون سببًا في بقائه عندهم، حتى صار بهذه الواسطة يوجد عندهم غالب ما يوجد في سائر المعمور. وجمعية في الجغرافيا، وأخرى في بنية الكرة الأرضية، وأخرى في حوادث الجو، والآثار القديمة، وأحوال الأمم، وأخرى في خصوص أحوال آسيا، وأخرى في الاقتصاد السياسي، وأخرى في مبادئ العلوم، وأخرى في الجراحات، وأخرى في تركيب الإنسان، وأخرى في تواريخ فرنسا.

---

(١) الموزيات: المتاحف. (م).

كما أن بإيالات فرنسا كثيرًا من هذه الجمعيات.

ويوجد كثير من المدارس لتعليم كيفيات التصوير، وأعمال اليد وهناك مكاتب تتعلق بالمعادن، ومكتب كبير لأصول التجارة، وأماكن خصوصية لذلك تحت رعاية الدولة، وثلاثة مكاتب سلطانية لتعليم البيطرة، ومثلها لتعليم فنون الفلاحة، واثنان وخمسون جريبًا(١) لامتحان قواعد الفلاحة. والعارفون بقواعد الفلاحة متوزعون في بلدان المملكة، ومن مكاتب الفلاحة ما هو دائم التعليم، ومنها ما لا يفتح إلا في أوقات مخصوصة.

ومن تاقت نفسه إلى تفاصيل العلوم والفنون المشار إليها، فعليه بمطالعة الفصل الثالث عشر من المقالة الثالثة من رحلة العالم البارع الشيخ رفاعة أحد علماء مصر، المسماة بتخليص الإبريز إلى تلخيص باريز؛ فقد كشف فيها الغطاء عن تدبير الأمة الفرنساوية التي رفعت راية التمدن، وأجاد في ذلك وأفاد.

من آثار اعتنائهم بتوسيع دوائر العرفان، الذي هو أساس التمدن والتهذيب لنوع الإنسان، كثرة خزائن الكتب الجامعة لسائر الفنون، وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الإدارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق، كما يتضح ذلك بالتفصيل الآتي:

---

(١) جريبًا: حقلاً مزروعًا. (م).

ولنقتصر في بيان كثرة الكتب بالبلدان الأوروباوية المعتبرة على ما حرره نتالي وزير المعارف العمومية بإيطاليا، بعد تمام بحثه عن ذلك سنة سبع وستين وثمانمائة وألف (1867)، فذكر أن الموجود بخزائن إيطاليا من الكتب المجلدة أربعة ملايين، ومائة وأربعين ألفًا، ومائتان وواحد وثمانون (4,140,281) مجلدًا، غالبها من الكتب القديمة المتعلقة بالديانة. بخزائن بريطانية العظمى مليون وسبعمائة وواحد وسبعون (1,701,070) ألفًا، وأربعمائة وثلاثة وتسعون (1,771,493) مجلدًا، فيكون لكل مائة (100) نفس من الأهالي ستة مجلدات، وعلى قياس هذه النسبة يكون لكل مائة (100) نفس من أهالي إيطاليا أحد عشر مجلدًا وسبعة أعشار المجلد، ويوجد ببلاد النمسا مليونان وأربعمائة وثمانية وثمانون (2,000,488) مجلدًا، وبالنسبة للأهالي يكون لكل مائة نفس ستة مجلدات وتسعة أعشار المجلد. ويوجد بالبروسية مليونان وأربعون ألفًا، وأربعمائة، وخمسون مجلدًا (2,400,450) فيكون لكل مائة نفس من أهاليها أحد عشر مجلدًا. وفي الروسا ثمانمائة ألف، واثنان وخمسون ألف (852,000) مجلدٍ، فيكون لكل مائة من أهاليها مجلد واحد وثلاثة أعشار المجلد، وفي البلجيك خمسمائة ألف، وتسعة آلاف، ومائة (509,100) مجلد، فيكون لكل مائة من الأهالي عشرة مجلدات وأربعة أعشار المجلد، وفي باواريا مليون، ومائتان وثمانية وستون ألفًا، وخمسمائة (1,268,500) مجلدٍ، فيكون لكل مائة من أهاليها ستة وعشرون مجلدًا وخمسا المجلد، كما يوجد بفرنسا أربعة ملايين وثمانمائة وتسعون ألف (4,890,000) مجلدٍ، فيكون لكل مائة من أهاليها أحد عشر مجلدًا وسبعة أعشار المجلد (فهي مثل إيطاليا، كما قال).

وبهذه النسب يظهر أن مملكة باواريا أكثر كتبًا من غيرها بالنسبة إلى عدد الأهالي، وإن كان الموجود بفرنسا لا يوجد بغيرها من الممالك.

وفي مدينة باريس وحدها ثلث العدد الموجود بمملكة فرنسا كلها؛ ففي قاموس العلوم المؤلف في هذه السنين الأخيرة أن الخزانة السلطانية بباريس بها من الكتب على ما تحرر في سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف (1863)، مليون كتاب مطبوع وثمانون ألفًا (80,000) بخط اليد. وغاية ما كان بها وقت تأسيسها في سنة ثمانين وثلاثمائة وألف (1380) تسعمائة وعشرة (910) مجلدات، وصار بها في سنة سبع وأربعين وخمسمائة وألف (1547) ألف وثمانمائة وتسعون (1890) مجلدًا، ثم في سنة أربعين وستمائة وألف (1640) صار مقدار ما بها ستة عشر ألفًا وسبعمائة وستة وأربعين (16,746) مجلدًا. وفي سنة أربع وثمانين وستمائة وألف (1684) صار قدر ما بها خمسين ألفًا وخمسمائة واثنين وأربعين (50,542) مجلدًا. وفي سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف (1775) صار بها مائة وخمسون ألف (150,000) مجلدٍ. وفي سنة تسعين وسبعمائة وألف (1790) صار بها مائتا ألف (200,000) مجلدٍ. واليوم بها مليون (1,000,000) من الكتب المطبوعة، وثمانون ألفًا (80,000) بخط اليد كما تقدم. كما بها أربعون ألف (40,000) خريطة في فن الجغرافيا، وعدد كثير من الرسائل، ونحوها مما لا يطلق عليه اسم المجلد».

وبهذا التفاوت الكبير الواقع في مواد المعارف يعلم مقدار تأثير الحرية في الممالك؛ فإنا نرى الخزانة المذكورة في مدة أربعمائة وعشرة أعوام، من مبدأ

تأسيسها الذي هو سنة ثمانين وثلاثمائة وألف (1380) إلى سنة تسعين وسبعمائة وألف (1790) لم يتحصل بها إلا مائتا ألف (200,000) مجلد. ومن ذلك التاريخ الذي هو مبدأ الحرية بفرنسا إلى سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف (1863)، التي هي تمام أربع وسبعين سنة من ذلك الوقت ازداد في الخزانة المذكورة ثمانمائة وثمانون ألف (880,000) مجلد دون ما لم يمكن حصره من الرسائل المشار إليها.

وعلى هذا يقاس سائر أسباب التمدن.

ويوجد بباريس ثلاثون (30) خزانة سوى الخزانة المذكورة، متفاوتة في الكبر، كما توجد خزائن معتبرة في سائر تخوت الممالك.

وأما بيان حسن إدارتها المسبب لغاية سهولة الانتفاع بها، فهو أن أماكن الخزائن المشار إليها تفتح كل يوم قدر خمس أو ست ساعات، ومنها ما يفتح بالليل أيضًا قدر ثلاث ساعات. وذلك فيما عدا يوم الأحد وأيام الأعياد التي لا تتجاوز مدتها شهرًا في السنة، وأيام التسريح للاستراحة. وإنما تفتح في سائر الأيام للطلبة الراغبين في الاستفادة، وأما الذين يأتون بقصد مجرد الاطلاع فلا يسوغ لهم ذلك إلا في يومين من الأسبوع. وللخزائن المشار إليها نظار وخَدَمَة بقدر الكفاية، وحولها بيوت للتعلم تُسَخَّنُ في الشتاء.

وهي محتوية على آلات الكتابة عدا الكاغد، فيأتي به مريد الاستنساخ، ويطلب من المكلف الكتاب الذي يريده ببطاقة يدفعها إليه، وإذا احتاج إلى أكثر

من كتاب يبين السبب فيها، فيدفعها المكلف للخَدَمَة، فيُحضر له في الحين ما طلب، وحين خروجه من ذلك المحل يسلم للمكلف ما أخذه من الكتب. وهذه المنحة مبذولة لكل راغب سواء كان من الأهالي أو الأجانب. أما من كان من المؤلفين المشهورين فيسوغ له نقل الكتب للانتفاع بها في مهلة أقصاها عام إذا طلب ذلك بالكتابة، ويبين السبب الداعي لأخذ الكتاب، وعند مضي المدة إما أن يرجع ما أخذ، أو يطلب تجديد التسويغ مدة أخرى.

ومما يناسب سوقه هنا اعتناؤهم بأسباب تهذيب أبناء العائلة الملكية، وتوسيع دائرة معارفهم، ولا شك أن ذلك من الأصول المعتبرة النافعة في إدارة المملكة غاية النفع.

فنقول من عادتهم أن من يبلغ من أبناء العائلة سن التربية، ينتخب له رئيس تلك العائلة معلمين مهرة، يعلمونه من فنون العلم ما يناسب حاله والمراد منه، من كل ما يهذب أخلاقه، ويوسع في المعارف نطاقه.

فإذا بلغ من التعلم أشده يوجه إلى الممالك الأجنبية لمشاهدة أحوالها، ومطالعة سياستها وأحكامها، ومالها من التقدم في العمران وغيره، ليتحقق بالمشاهدة ما بينها وبين بلاده من التفاوت؛ ليعتبر أسباب ذلك وقت مباشرته لسياسة المملكة، فيتجنب ما تأخرت به بلاده، إن رأى غيرها خيرًا منها، ويعتني بما تقدمت به إن رآه دونها.

فإذا بلغ من العمر نحو ثماني عشرة (18) سنة يصير من أعضاء المجلس الأعلى، يحضره ولا يكون له كلام فيه إلا إذا بلغ من العمر خمسًا وعشرين (25) سنة. وفائدة ذلك التدرب على الأمور السياسية ومُثَاقَفَتها[١] حتى يستكمل الملكة فيها، مع ما يحصل له بذلك من الخبرة بطبقات رجال السياسة، المتأكد معرفتها على من يترشح للرئاسة، التي هي من أعظم الخطط البشرية وأصعبها، فيجب على متقلدها من الاستعداد والمعرفة بمقتضيات الأحوال المختلفة ما لا يجب على غيره، لا سيما معرفة أهل الخبرة والمروءة والنجدة من رجال المملكة لينتخبهم للخطط المعتبرة، مع التفطن لدسائس الحساد والمفسدين؛ فإن المطلوب من الملوك ليس هو مجرد فصل النوازل الشخصية. كما هو مشاهد في بعض الممالك الإسلامية، ولا مباشرة جزئيات الإدارة التي يمكن إجراؤها بغيرهم من المتوظفين، وإنما المطلوب منهم النظر في كليات الأمور من معرفة الرجال اللائقين بالخطط، وامتحانهم، وتعقبهم بالمراقبة؛ لإرشاد جاهلهم، وزجر متجاهلهم، وتفقُّد أحوال الرعايا، والإعانة على تكثير الصنائع، والعلوم الموصلة إلى تهذيب الأخلاق ونمو الأرزاق، والعناية بتنظيم العساكر البرية والبحرية، وتحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة لحفظ الدين والوطن، وإصلاح أحوال الخلطة السياسة والمتجرية مع الدول الأجنبية، بما ينمو به عز المملكة وثروتها، إلى غير ذلك من الكليات.

(١) المثاقفة: الخبرة والمهارة بالشيء. (م).

فإن سعادة الممالك وشقاوتها في أمورها الدنيوية إنما تكون بقدر ما تيسر لملوكها من ذلك، وبقدر ما لها من التنظيمات السياسية المؤسسة على العدل، ومعرفتها واحترامها من رجالها المباشرين لها.

نقل عن المؤرخ بوليبيوس اليوناني الذي تكلم على سياسة الأمة الرومانية، وما وقع بينها وبين أهل قرطاجنة من الحروب، أنه قال - في معرض الاستدلال على أن المباشر للأمر يلزمه أن يكون عارفًا بأصوله - ما معناه: «إذا كان المريض لا يُرْتَجَى له حصول العافية على يد طبيب يجهل نوع المرض والدواء المناسب له، فكذلك المملكة لا يُرْجَى خيرها واستقامتها إذا كان وزراؤها المباشرون يجهلون أصول سياستها، وقوانين شرائعها وعاداتها».

ولا يخفى أن حصول خير المملكة إذا كان يمتنع بسبب الجهل بأصول السياسة فامتناعه إذا انضم لذلك عدم وجود تلك الأصول بالكلية أحرى وأولى؛ لأن السبب في الحالة الأولى دائر بين الجهل والتجاهل، وكلاهما أمر عارض تمكن إزالته بتبديل المباشرين، أو إرشاد جاهلهم، وإلزام متجاهلهم بالجريان على الأصول المحفوظة. أما إذا لم يوجد من تلك الأصول شيء يرجع إليه، وسند مضبوط يقع التعويل عند الاشتباه عليه، فإن هاته الحالة يتسع فيها مجال الأغراض والشهوات من الآمر والمأمور، وربما يؤول أمر الدولة إلى الاضمحلال والدثور، ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج/٤١].

هذا ولما تضمن ما أوردناه في هذا المجال الإشارة إلى أن الحرية هي منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأوروباوية، رأينا من المتأكد بيان معنى الحرية عرفًا لدفع ما عسى أن يقع من الالتباس فيها.

فنقول: إنَّ لفظ الحرية يطلق في عرفهم بإزاء معنيين.

أحدهما يسمى الحرية الشخصية، وهو إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم، بحيث إن الإنسان لا يخشى هضيمةً في ذاته ولا في سائر حقوقه، ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المتقررة لدى المجالس.

وبالجملة فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية، والحرية بهذا المعنى موجودة في جميع الدول الأورباوية إلا في الدولة البابوية والدولة المسكوبية[(١)]؛ لأنهما مستبدتان، وهما وإن كانتا ذواتي أحكام مقررة إلا أنها غير كافية لحفظ حقوق الأمة؛ لأن نفوذها موقوف على إرادة الملك.

المعنى الثاني، الحرية السياسية، وهي تطلب الرعايا التداخل في السياسات الملكية، والمباحثة فيما هو الأصلح للمملكة، على نحو ما أشير إليه بقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ: «من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقومه»، يعني انحرافًا في سياسته للأمة وسيرته معها.

---

(١) المسكوبية: نسبة إلى موسكو. (م).

ولما كان إعطاء الحرية بهذا المعنى لسائر الأهالي مظنة لتشتيت الآراء وحصول الهرج، عُدِلَ عنه إلى كون الأهالي ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الأورباويين بمجلس نواب العامة، وعندنا بأهل الحل والعقد، وإن لم يكونوا منتخبين من الأهالي.

وذلك أن تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية، وفرض الكفاية إذا قام به البعض سقط الطلب به عن الباقين، وإذا تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص.

ومجلس النواب المشار إليه موجود في سائر الممالك الأورباوية ما عدا المملكتين المتقدم ذكرهما، وله أن يتكلم بمحضر الوزراء وغيرهم من رجال الدولة بما يظهر له في سيرة الدولة من استحسان وضده، وغير ذلك من المصالح العمومية كما يأتي.

وبقي وراء ذلك للعامة شيء آخر يسمى حرية المطبعة، وهو أن لا يمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات[1] التي تطلع عليها العامة، أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس، ولو تضمن الاعتراض على سيرتها.

وفي هذا المقدار افترقت الممالك الأورباوية.

---

(١) الجرنالات: جمع جرنال. (م).

فمنهم من ناله مع الأول فتمت له الحرية المطلقة، ومنهم من ناله بشروط معتبرة عند الملوك التي لم ترخص لرعاياها ما تيسر لغيرها إعطاؤه من الحقوق، وذلك أن أحوال الممالك متفاوتة بتفاوت مقاصد رعاياها، فمنهم من لا ينازع الملوك إلا لقصد الحصول على ما يسوغ لهم معارضة الدولة إن حادت عن سواء السبيل، واستجلابها لما فيه صلاح المملكة، وحينئذ تيسر للملوك إعطاء تمام الحرية لتوارد مقصد الراعي والرعية على المصلحة.

ومنهم من يظن به أن الباعث له على المناضلة فرط التعصب والحمية، حيث تفترق الرعايا أحزابًا، كل حزب يروم السياسة التي يراها أصلح للمملكة في نظره، كأن يرى البعض أن تكون الدولة جمهورية، والبعض يختار أن يكون الملك في عائلة غير التي يختارها الآخر، فينشأ عن ذلك ظن الدولة أن معارضة الأحزاب لها، وإن كانت بحسب الظاهر لإلجائها إلى طرق المصلحة، لكن الغرض منها وراء ذلك. وبذلك الظن الناشئ عما ذكر استباح الملوك الامتناع من إعطاء تمام الحرية الموصل لما أشير إليه.

هذا وإن من واجبات الممالك التي تنال الحرية ولو خصوص الشخصية أن يقابلوا تلك النعمة بإظهار آثارها، واستجناء ثمارها بتعاطي المعارف، وأنواع الصناعات الراجعة إلى الأصول الأربعة: الفلاحة والتجارة والأعمال البدنية والفكرية.

وبهذه الأصول قوام السعادة الدنيوية المربية للهمة الإنسانية، وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن نظام الجماعة، حتى يكون المحترف مثلاً آمنًا من اغتصاب شيء من نتائج حرفته، أو تعطيله في بعض أحوال خدمته، فما ينفع الناس كون أرضهم خصبة كريمة المنابت، إذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع، ومن الذي يقدم حينئذ على ازدراعها؟!

ولضعف أمل الناس في كثير من أراضي آسيا وإفريقيا تجد أخصب مزارعها بورًا معطلة، ولا شك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال، وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال إلى أن يعم الاختلال المُفْضي إلى الاضمحلال.

ومن أهم ما اجتناه الأورباويون من دوحة الحرية تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية، وتعاضد الجمعيات المتجرية، والإقبال على تعلم الحرف والصنائع.

فبالطرق تُستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات إبان الانتفاع بها، بعد أن كان جلبها متعذرًا لطُرُوء[١] الفساد عليها في الطريق، أو لزيادة كِرَائها[٢] على أضعاف قيمتها.

وبالجمعيات تتسع دوائر رؤوس الأموال فتأتي الأرباح على قدرها، وتتداول على المال الأيدي المحسنة لتنميته.

(١) طُرُوء: حدوث الشيء بعد أن لم يكن. (م).
(٢) الكِراء: الأجرة. (م).

وبتعلم الحرف تكتسب الأموال الذريعة عن غير رأس مال.

وقد رأينا بالمشاهدة أن البلدان التي ارتقت إلى أعلى درجات العمران، هي التي تأسست بها عروق الحرية والكونستيتوسيون المرادف للتنظيمات السياسية، فاجتنى أهلها ثمارها بصرف الهمم إلى مصالح دنياهم المشار إلى بعضها.

ومن ثمرات الحرية تمام القدرة، على الإدارة المتجريّة؛ فإن الناس إذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون إلى إخفائها، فيتعذر عليهم تحريكها.

وبالجملة فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى، ويستولي على أهلها الفقر والغلاء، ويضعف إدراكهم وهمتهم، كما يشهد بذلك العقل والتجربة.

وما أشرنا إليه من أن الشركات الجمعية من أسباب نمو النتائج المتجرية معقول مجرب؛ فإن قوة الاجتماع معهودة في سائر الأمور العادية وغيرها.

وكلما تمكن حب الاشتراك من قلوب أهل المملكة يشاهد نمو المكاسب فيها بالعيان.

ولذلك كثرت الجمعيات بأوروبا في سائر المعاملات المدنية والمتجرية وغيرها، وتكاثرت الخدمات برًّا وبحرًا، وكثرت مجامع العلوم وجمعيات المحسنين للضعفاء والمساكين، وتكرر التعاون على استخراج المعادن واصطناع

الخُلُج ومجاري المياه التي تصعد بها السفن إلى الجبال ثم تنزل، وطرق الحديد، إلى غير ذلك من المهمات التي لم تكن تحدث لولا وجود تلك الجمعيات.

فمن الذي كان يقدر وحده على اصطناع طريق حديد، أو يخاطر بجميع ماله - على فرض قدرته - في إحداث ما لم يتيسر لهم إلا باشتراك مائتي أو ثلاثمائة ألف (300,000) نفس، بخلاف مخاطرة الواحد منهم بنزر يسير من ماله، فإنها غير مجحفة ولا مستبعدة.

ثم إن الجمعية إذا كانت كبيرة فيها فائدة عمومية فإن الدولة قد تضمن لها ربحًا معلومًا في المائة، وإدارة الجمعية تكون بيد أناس ينتخبون من أرباب الحصص[1] لهم مزيد شهرة ومعرفة بإجراء قانون الشركة وحفظ فوائدها، وعند تمام السنة يقدمون حساب ذلك مع سائر متعلقات الإدارة، ويعينون الفوائد لأرباب الحصص المشار إليهم.

ومن أعظم مآثر المشاركة شق خليج السويس، وطريق الحديد الجامع بين طرفي البحر المحيط بأمريكا، وثقب جبل آلب الكائن بين إيطاليا وفرنسا، وقطع جبل البريني بين فرنسا وإسبانيا لمرور طريق الحديد بهما، وإحداث السرداب تحت وادي تامس بلندرة، وعقد الجمعية المسماة بمجرى أمبريال التي لها من السفن الجليلة ما هو مشاهد في سائر البحور، ووضع سلك التلغراف تحت البحر

---

(١) الحصص: الأسهم. (م).

المحيط من أنكلترا إلى أمريكا، ونحو ذلك من الإعانات التي وجدها في المشاركة رجال الدول وأرباب الاختراع وحذاق المحترفين.

ومعلوم أن قوة المجموع أشد بكثير من قوى الجميع، والناس إذا تعاضدوا على شيء توصلوا إلى المقصود منه ولو كان من أصعب الأمور.

وكفى حجة لذلك الحادثان الهائلان، وهما بنك فرنسا المشهور ومستعمرات الأنكليز بالهند؛ فإن دولة أنكلترة تملكت بجمعية من تجارها تسمى كومبانية الهند مسافة ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف (3,500,000) كيلو متر مربعٍ، بها من السكان مائة وخمسة وثمانون مليون (185,000,000) نفس.

وأما بنك فرنسا، فإنه كان في سنة ثمانمائة وألف (1800) رأس ماله ثلاثون مليون (30,000,000) فرنك، متجمعة من ثلاثين ألف (30,000) سهم، وفي سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف (1848) بلغ ما به من النقود واحدًا وتسعين مليون (91,000,000) فرنك، وبلغت كواغده المالية الرائجة بين الناس وفي المعاملة رواج المسكوك مقدار اثنين وخمسين وأربعمائة مليون (452,000,000) فرنك. في أواخر سنة تسع وأربعين وثمانمائة وألف (1849)، رُخِّصَ من الدولة للبنك المذكور أن يزيد في كواغده الرائجة إلى أن تبلغ مقدار خمسة وعشرين وخمسمائة مليون (525,000,000) فرنك، وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة وألف (1857) طلب البنك من الدولة تجديد المدة إلى تمام أربعين سنة مُسْتَقْبَلَة، فأذنت له بشرط تضعيف ما

به من النقود، حتى يصير تقريبًا مائتي مليون (200,000,000) فرنك، فضاعف ذلك وتمت له الدولة مطلوبه.

ثم إن من تصرفات البنك عندهم صرف كواغد الحوالات التي تكون مصححة بخط ثلاثة أشخاص يعرف مجموعهم بالملا، الذي يناسب المعاملة بذلك المبلغ الذي تضمنته، وقبض ما كلف البنك بقبضه من الحوالات لأربابها بأجر معلوم، إلا إذا كانت في البلد الذي هو به فإنه يفعل ذلك بلا عوض، وقبول ودائع الناس لمجرد حفظها، ومراسلة من يضع فيه مالاً وتتميم المحاسبة معه، وإقراض المال لمن يريده إذا دفع رهنًا ثقة غير الربع والعقار(١) من كل ما يصير عينًا بسهولة، كسهام طرق الحديد، والكواغد التي تباع من اقتراض الدول، والسبائك ونحوها، وإعطاء كواغد الحوالات على نوابه، كما يحيل عليه النواب أيضًا.

وله خمسة وخمسون (55) نائبًا في بلدان متفرقة، وإذا أردت أن تعرف كيف تدرجه إلى هذه الحالة الراهنة، وكيف اتسعت دائرة المعاملات بأوروبا في هذه المدة الأخيرة منذ ثلاثين سنة، فاعلم أن البنك المذكور لم يكن به من الكواغد في سنة ثلاثين وثمانمائة ألف (1830) إلا مقدار ثلاثمائة وخمسين مليون (350,000,000) فرنك، واليوم به من النقود ما تقدم آنفًا، وهو ما يقرب من مائتي مليون (200,000,000) فرنك، ومن الكواغد الرائجة مع ما في الصندوق من

(١) الربع والعقار: المنزل والممتلكات غير المنتقلة. (م).

الحوالات وغيرها مقدار ألف وستمائة مليون (1,600,000,000) فرنك. هذا مع أن البنك كان في الزمن السابق مستقلاً بمعاملة الناس، وأما الآن فقد زاحمه كثير من الجمعيات، كجمعية معاملة الصناع والتجار، والكريدي المعينة لمعاملة أرباب الأراضي، والكريدي المعينة لمعاملة أرباب المنقولات، والجمعية العامة، وصندوق الودائع، ونحوها من الجمعيات.

وبالجملة فإذا قال القائل إن الملايين التي كانت الناس تتعامل بها سابقًا صارت اليوم ألوف ملايين فلا يكون قوله بعيدًا عن الصدق.

ومن أسباب تقدمهم العناية بمن اخترع شيئًا لم يسبق إليه، أو أجاد في عمل مفيد، فمن ذلك أن بتخوت الممالك المشار إليها مواضع معتبرة، تعرض فيها نتائج المملكة من نباتات وحيوانات ومصنوعات مستغربة ونحوها، بعد كل خمسة أعوام أو أقل أو أكثر، بحسب مقتضى حال المملكة.

وينعقد لذلك مجمع مركب من العارفين بحقائق الأشياء ليتأملوا فيها، فإن وجدوا شيئًا منها مستبدعًا أعطى مخترعه قطعة من نحاس أو فضة أو ذهب تسمى الميدالية، على شكل المسكوك مرسومًا في أحد وجهيها صورة الملك وفي الآخر مكان العرض وتاريخه. وقد يستحق متقن صناعته نشان الافتخار. فإن قيل: «ما فائدة هاته القطع التي أعلاها قطعة ذهب، وهي لا تفي ببذل الجهد والمكابدة في الاختراع؟» فالجواب أن آخذ تلك القطع - زيادة على الشهادة له

بالكمال والتقدم فيما هو بصدده من الأعمال – يتوصل بذلك إلى ما يؤمله من الرغبة في سلعته المثمرة لنمو مكاسبه؛ لأن سائر ما يقع في ذلك المجتمع يطبع في صحف الأخبار ليشيع في الناس، وربما أعطى المخترع مبلغًا من المال. وقد كان نابليون الأول أصدر أمرًا بإعطاء مليون فرنك لمن يحدث آلة تغزل الكتان وحدها.

ومن عناية ملوكهم بهذا المجمع أن الملك يحضره بنفسه مع رجال دولته حضورًا رسميًّا عند فتح المعرض وعند انتهائه، ويعلن للحاضرين بخطبة تتضمن مدح من أتى بشيء مستبدع لتتوفر الدواعي، ويتنافس الناس فيما ينمي منافع الوطن. وإذا طلب أحد المخترعين من الدولة – ولو خارج المعرض قبل إشهاره مخترعه – الرخصة في الاستبداد باصطناعه مدة لا يصطنعه غيره فيها إلا بإذنه، تعطي له الرخصة في ذلك بشرط أن لا تتجاوز المدة خمس عشرة سنة، وأن يدفع للدولة شيئًا معلومًا في مقابلة الاختصاص.

وأما المؤلفات فإنها تبقى ملكًا لصاحبها مدة حياته، ويختص بها ورثته بعد موته سبع سنين، وفي بعض الممالك ثلاثين سنة. ثم يرتفع التحجير المشار إليه. ولولا هذا التخصيص ما انبعثت رغبات الناس إلى الاختراع والتأليف؛ لأن المخترع يلزمه ما لا يلزم المقتدي من اقتحام شاق الأعمال، والمخاطرة بمصاريف التجريب، وإضاعة غالب الأوقات في التدبير، فإذا لم يعط هذا الاختصاص كانت أعماله المذكورة بلا عوض؛ حيث شاركه غيره في فائدتها.

ومن وجوه الترغيب عندهم أن من اخترع أمرًا مهمًّا تُجْعَلُ صورته من رخام أو نحاس، وتوضع في الأماكن المعدة لاجتماع الناس، أو يسمى باسمه ما يتفق حدوثه في تلك المدة من قنطرة أو طريق جديد أو نحو ذلك ليبقى بذلك ذكره.

وحاصل سياستهم في هذا الشأن اعتبار ما حقه أن لا ينسى بأي نوع يقتضيه حاله من وجوه الاعتبار، كما اعتبرت ذلك الدولة العلية عند تأسيسها سوقًا بدار الخلافة لعرض نتائج المملكة، وقد وقع العرض المذكور في سنة ثمانين ومائتين وألف هجرية (1280هـ) وفي سنة إحدى وخمسين وثمانمائة وألف (1851) وقع بأنكلترة للمعرض المشار إليه ترتيب عجيب، وهو أنهم أسسوا محلاًّ في غاية الاتساع والضخامة، وأعدوه لعرض نتائج الممالك من سائر المعمور، ثم وقع مثله في فرنسا سنة خمس وخمسين وثمانمائة وألف (1855) ثم تكرر بأنكلترة، ثم أعيد في فرنسا بمزيد اعتناء سنة سبع وستين وثمانمائة وألف (1867)، كل ذلك ليقتدي المتأخر بالمتقدم في الصناعات ونحوها، مع ما يحصل لتجار تلك المملكة من الأموال الغزيرة، الناشئة عن معاملة ملايين من النفوس الأجانب الوافدين عليها لذلك. وإدارة هذه المجامع، وتعيين المنازل لأرباب الصنائع والبضائع، وتعيين من يستحق الجزاء ونحو ذلك موكولة لنظر مجلس مرؤوس بأمير من البيت الملكي إظهارًا لمزيد الاعتبار.

وقد آن أن نبين أصول تنظيماتهم السياسية، التي هي أساس التمدن والثروة المشار إلى بعض آثارهما آنفًا، فنقول:

اعلم أن الأمم الأوروباوية لما ثبت عندهم بالتجارب أن إطلاق أيدي الملوك ورجال دولهم، بالتصرف في سياسة المملكة دون قيد، مجلبة للظلم الناشئ عنه خراب الممالك، حسبما تحققوا ذلك بالاطلاع على أسباب التقدم والتأخر في الأمم الماضية، جزموا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد الآتي بيانهم، في كليات السياسة، مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين، وبلزوم تأسيس القوانين المتنوعة عندهم إلى نوعين: أحدهما قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية، والثاني قوانين حقوق الأهالي فيما بينهم.

فمرجع الأول معرفة ما لصاحب الدولة وما عليه، ويندرج تحته أمور، منها: حرية العامة الكافلة بضمانة حقوقهم، ومنها تعيين أصول تصرفات الدولة جمهورية أو وراثية، كتنفيذ القوانين الحكمية، وإدارة السياسة الداخلية والخارجية، كعمل الحرب وعقد شروط الصلح والتجارة، وتعيين من لم تكن وظيفته مؤبدة (وإنما عبرنا بالتأخير لأن عزل المتوظف عن الخطة التي أفنى أطيب عمره في خدمة المملكة لنيلها، عزلاً يقتضي طرحه من خدمتها بالمرة، لا يكون إلا بذنب يثبت لدى مجالس الحكم بمقتضى القوانين، وكذا صرف المجابي لما عينت

له إلى غير ذلك من إدارة المملكة بما لا يخرج عن مقاصد قوانينها. كل ذلك من حقوق صاحب الدولة بإعانة وزرائه.

وتأسيس أصول هذا النوع يكون في دولة فرنسا بموافقة غالب رشداء أهل المملكة، المتصرفين في حقوقهم الخصوصية والسياسية. وفي غيرها يزاد على الشرط المذكور إما العلم، أو ملك عليه مبلغ محدود من الأداءات والوجاهة المسماة عندهم بالنوبليس. وموافقتهم بأنفسهم أو بواسطة وكلاء ينتخبونهم لذلك.

والنوع الثاني: القوانين المحررة لفصل نوازل السكان، والتسوية بينهم في المجابي والمنح، بحسب المكاسب والاستحقاق، إلى غير ذلك من أحوالهم الداخلية. وتأسيس هذا النوع أو تبديله بما هو أليق بالحال يكون بموافقة المجلسين، أعني المجلس الأعلى المركب من أمراء العائلة المالكة، ومن ينتخبه الملك من أعيان المملكة مؤبدًا وظيفته، ومجلس الوكلاء المركب ممن ينتخبهم الأهالي للمناضلة عن حقوقهم والاحتساب على الدولة؛ فأهل هذين المجلسين هم أهل الحل والعقد عندهم، فكل ما وافقوا عليه مما لا يخالف تلك الأصول اللازم فيها مشاركة العامة يصير من شرائع المملكة.

وأما مسئولية الوزراء فمعناها أن يكونوا تحت احتساب مجلس الوكلاء مباشرة، كما هو موجود في سائر الممالك الكونستيتوسيونية، ما عدا الدولة الفرنساوية اليوم، فإن وزراءها مسؤولون للملك، وهو مسؤول للمجلس.

ومن آثار المسؤولية المذكورة أن أمور الإدارة المتقدم أنها من حقوق صاحب الدولة، ويتوقف إنجازها على إجازة الوزراء، وحيث لا يبرم أمرًا منها حتى يستشيرهم، وإنهم لا يمكنهم البقاء في الخدمة إلا إذا كان غالب أعضاء مجلس الوكلاء موافقًا في سياستهم، فعلم أن المجلسين المذكورين لا يتداخلان في تفاصيل الإدارة، وإنما دأبهما وضع القوانين وحفظهما بالاحتساب على الدولة. ومن أعمالهما عند الاجتماع النظر وإعطاء الرأي فيما يعرض على كل منهما من النوازل المهمة الداخلية والخارجية، وسؤال الوزراء عما يظهر لهما متى شاءا، والقدح في سيرتهم خصوصًا مجلس الوكلاء. وعلى الوزراء الجواب عن جميع ذلك، وتقع المجادلة بالمجلس علنًا بين القادح والمدافع، ليتضح الحال ويظهر المصيب من المخطئ، فإذا اتفق غالب مجلس الوكلاء على تصويب سياسة الوزراء، بعد التأمل في أدلة القادح والمدافع، تيسر للوزراء البقاء في الخدمة، وتحصل حينئذ فائدة الدولة والمملكة.

أما الدولة فبكون المجلس لا يتوقف بعد ذلك في أن يسوغ لها أخذ ما تقتضيه المصلحة من المال والرجال؛ لأن من وافق على المصلحة وعلى حسن سيرة مباشرها لا يمتنع من إعطاء ما يلزم لإنجازها.

وأما فائدة المملكة فبثبوت سيرة المباشرين لمصالحها، فيهون عليها صرف أموالها ودماء أبنائها حيث كانت فيما يعود بالنفع عليها.

وبمثل هذا يستقيم حال الدولة والمملكة ولو كان الملك أسير الشهوات أو ضعيف الرأي كما تقدم.

وأما إذا اتفق غالب المجلس على عدم استحسان سياسة الوزراء فيجب على الملك عند ذلك أحد أمرين: إما تبديل الوزراء المشار إليهم، أو حل مجلس الوكلاء، على أن يعيد الأهالي الانتخاب في مدة معلومة، فإذا انتخبوا من يكون أشهر باللين والمساعدة للدولة دل ذلك على رضاهم بسياستها، فيبقى الوزراء على خططهم، وأما إذا انتخبوا الأولين أو من يكون مثلهم في الشدة، فيستدل بذلك على عدم رضاهم بها، ويجب حينئذ خروج الوزراء من الخدمة وتعويضهم بمن سياسته ترضي المجلس. وللمجلس المذكور أن يدعي الخيانة على أحد الوزراء أو مجموعهم إذا رأى أدلى ذلك، وتكون نازلة تفصل بالمجلس الأعلى. وظاهر أن الوزراء المشار إليهم كما تشدد عليهم القوانين المسؤولية عن تصرفاتهم تمنع التعدي عليهم في النفس والعرض والمال، فيتيسر للنجيب الأمين منهم

إجراء الأمور على مواقع المصلحة، والفوز بما يستعقبه ذلك من جميل الثناء. ولمن اتصف بالأمانة دون النجابة الخروج بالسلامة لا له ولا عليه.

وبما تقدم يعلم أن سلطة المجلسين تتحد تارة وتفترق أخرى؛ إذ لكل منهما أعمال تخصه وأعمال يشارك فيها الآخر، غير أن المعتبر في تأسيس القوانين سيما المتعلقة بالمجابي، والقوة العسكرية، وفي الاحتساب على الدولة، واستحسان سياسة الوزراء، وضده اللذين ينبني عليهما خروجهم أو بقاؤهم في الخطة، وهو ما يتفق عليه غالب مجلس الوكلاء - حسبما أشير إليه قريبًا، كما أن إجراء القوانين المذكورة يتوقف على موافقة المجلس الأعلى على كونها غير مخالفة لأصول الكونستيتوسيون.

قلت فبتقرير ما ذكر يعلم أيضًا أن صاحب الدولة عندهم مضطر إلى موافقة إرادة المجلس، التي هي في الحقيقة إرادة أهل المملكة، ولا يخفى ما يتبادر فيه من التشديدات التي تأباها نفوس غير المنصفين من الأمراء والوزراء، لكن من بخت الأمم الأوروباوية، ونجاح مساعيها الدنيوية، أن عرف ملوكها ووزراؤها ما ينشأ عن ذلك من الفوائد الجمة التي منها كف أيدي المأمورين عن التعدي على الرعية، ومنها سهولة اعتبار المكاسب في توزيع الأداء على الأهالي بحيث لا ينقص من رؤوس أموالهم؛ إذ لا يتم مع ذلك نمو العمران. ومنها أن الرعايا إذا وافق وكلاؤها على أصل المصلحة فإنها لا تشح بإعطاء ما يلزم لإنجازها كما تقدم، ومنها أن

المفسد لا يجد مساغًا للقدح في تصرفات الدولة بقصد التنفير منها، وتغيير القلوب عليها، ومنها أن الوالي المستبد ولو كان عادلاً لا يمكنه الاطلاع على أحوال مملكته إلا بواسطة الوزراء وغيرهم من المتوظفين، الذين أثبتت التجارب أن أكثرهم لا يعرفون الولاة إلا بما تقتضيه فوائدهم، فيتوصلون بالنصائح العمومية إلى أغراضهم الشخصية خصوصًا من يشير منهم على الملوك بالاستبداد، لما له في ذلك من المعونة على حصول استبداده هو أيضًا في مأموريته.

على أنه يمكن لنا أن نقول إن المأمورين في دولة الاستبداد، كل واحد منهم مستبد على قدر حال مأموريته، فلهذه الفوائد ونحوها تجشم الملوك والوزراء ما في التقييد في مبدأ الأمر من المرارة، نظرًا لما يستعقبه من لذة السطوة والحضارة.

وقد صح حدْسهم في ذلك بما لم نزل نشاهده من تقدمهم في العلوم والصناعات، واستخراج كنوز الأرض بالزراعة، والبحث عن المعادن، وحصولهم من أمثال هذه المذكورات الناتجة من اتحاد الراعي والرعية، على ما قوى حاميتهم في البر والبحر، حتى هابتهم الأمم، واستولوا على ممالك كثيرة خارجة عن قسم أوروبا، ونالوا من نفوذ الكلمة في غير ممالكهم ما هو مشاهد، وصاروا في التصرفات الدنيوية قدوة لغيرهم. وما ذاك إلا بإجراء القوانين السياسية، التي مدارها على ما تقتضيه الحرية المشروحة سابقًا، من حفظ حقوق الإنسان في نفسه وعرضه وماله،

والاتحاد في جلب المصالح ودرء المفاسد، بمراعاة العادات والأمكنة والأزمنة التي تعتبر شريعتنا اختلاف أحكامها اعتبارًا كليًّا.

ولتلك القوانين في الممالك الأوروباوية من الاحترام واستمرار النفوذ برعاية أهل الحل والعقد، ما يحمي حقوق الرعية وحريتها، ويؤمن الضعيف من بطش القوي، ويدفع عن المظلوم سلطة الظالم، مثل ما كان لأمة الفرس التي طال ملكها ودام حديث عدلها إلى الآن، وشهد لبعض ملوكها بالعدل سيدنا الصادق ﷺ، ومثل ما كان لأمة الرومان التي استولت على غالب جهات المعمور، حتى كان يقال لها في ذلك الوقت: «كرسي ممالك الأرض». ومثل ما كان لأمة اليونان التي لما استولى العدو على بعض بلدانهم ولزمهم الخروج منها سألوا حكيمًا لهم: «أين تصلح السكنى؟» فقال لهم: «في بلد تكون الشريعة فيه أقوى من السلطان».

إلى غير ذلك من الأمم التي ما بلغت غاية الاستقامة إلا باحترام قوانين أحكامها المؤسسة على العدل السياسي، كما أن عدم احترامها كان منشأ رجوعهم القهقري.

ولا يتوهم أن ذلك بسبب بركة في شرائع الأمم المذكورة؛ إذ الواقع أنها قوانين عقلية مبنية على مراعاة الوازع الدنيوي.

فإذا انضم إلى ذلك وجود البركة والحرمة الإلهية كما هو حال شريعتنا المطهرة، كانت المخالفة مع ما تستعقبه من النكال الأخروي أجلب للانحطاط الدنيوي. ومن تتبع تواريخ الأمم المشار إليها وتواريخ الأمة الإسلامية رأى ذلك عيانًا.

هذا وإن الضرورة قد تدعو إلى تفويض إدارة المملكة لشخص واحد مستبد لكن لغاية محدودة، وبشروط عندهم معهودة.

وذلك أن من أصول السياسة المأثورة عن الأمة الرومانية أن المملكة إذا اشتد الخطر عليها، إما بكثرة الإفساد الداخلي، أو بظهور مخائل التغلب عليها من الخارجي، وصعب حسم مواد ذلك بالأعمال القانونية؛ لمكان تعدد الأنظار المتساوية، وما عسى يقتضي الترجيح بينها من طول المفاوضة المُفْضِي إلى عدم قمع المفسدين، ومدافعة المتسلط الأجنبي، أو إلى تأخير ذلك عن وقت الحاجة، فعند ذلك يطلب مجلس السناتو من أحد رئيسي الدولة الجمهورية أن يختار من أعيان رجال المملكة من يسميه باسم دكتتور (أي مطلق التصرف)، تفوض إليه إدارة المملكة بما يظهر له بمقتضى اجتهاده، كعمل الحرب والصلح، ونفي أو قتل من يراه من أهل الفساد والخيانة، أو عقابه بأخذ المال، أو غير ذلك مما يقتضيه الحال.

ولا يتوقف نفوذ حكمه على موافقة أحد إلا في أمر المجابي؛ فإن أعماله فيها موقوفة على موافقة مجلس السناتو، وكل من له مأمورية عسكرية أو سياسية فهو ملزم بتنفيذ أوامره، وكذلك سائر الأهالي.

ولا يتجاوز التفويض المذكور ستة أشهر - ولو كان السبب باقيًا - إلا بتفويض جديد؛ كما أنه إذا ارتفع السبب قبل انتهاء المدة فإن التفويض ينتهي، وترجع الإدارة إلى قوانينها.

وعند خروج المفوض له تتوجه إليه المسؤولية اللازمة لكل من يخرج من خطة معتبرة عندهم، فيطلب منه بيان السبب الداعي إلى ما تصرف به من قتل وحرب وصلح وأخذ مال، ونحو ذلك، بمحضر أهل رومية المجتمعين لذلك، فإن صوبوا تعليله استوجب شكرهم وثناءهم على سيرته في موكب مخصوص، وإن كانت الأخرى يحكم عليه بما يناسب سوء تصرفه، وأكثر ما يكون ذلك بالنفي من التخت، أو أداء المال.

ثم إن الأوروباويين صاروا في المدة الأخيرة يطلقون اسم الدكتتور على كل والٍ مطلق التصرف، سواء كان محدودًا بمدة أم لا كالجنرال كرونول بأنكلترة، ونابليون الأول بفرنسا، وغيرهما ممن كان استبداده من آثار حيرة تثور بالمملكة، يشتهر فيها المشار إليه بمزيد الدراية والحزم، فينصب نفسه منصب الدكتتور، وتتعرف به العامة بقصد إخماد الحيرة، وتخليص المملكة من مواقع الخطر،

واستصلاح حالها بتهذيب جفاة الأهالي وتقويم اعوجاجهم، لكنهم لا يحصلون غالبًا على هذا المقصود، بل يتوصل المنتصب بذلك إلى اغتنام الفرصة لاستمرار استبداده؛ إما لاستمرار أسباب الحيرة وضعفه عن إزالتها، وإما لكون المنتصب أزالها بحسن تدبيره، ووقع من الأهالي موقع الإعجاب، حتى اكتسب بذلك مزيد احترام عندهم أسس عليه سلطته، وإيثار نفوذ إرادته على إجراء قوانين المملكة، مرجحًا بذلك حظ نفسه على المصالح العامة.

لكن ذلك مع ما يفضي إليه من المضار الاستبدادية، لا ينكر أن المصير إليه واجب عند قيام سببه لاستيفاء راحة المملكة، كما يشير إليه قول الحكيم مونتسكيو الفرنساوي: «إنا بمقتضى ما نسمعه من أعمال الأمم التي كانت حاصلة على الحرية التامة، نرى أن الحال قد يقتضي إرخاء الستر على الحرية إرخاء وقتيًا».

قلت: وحيث كان التفويض المشار إليه إنما ساغ للضرورة، وما أبيح للضرورة يتقدر بقدرها، فلا جرم يجب الرجوع إلى كشف حجب الحرية بعد زوال السبب.

هذا وقد قررنا في هذه المقدمة من الأدلة الناهضة الواضحة على ما في التصرفات السياسية المضبوطة بالتنظيمات من المصالح العامة والخاصة، التي يشهد العيان بآثارها الناجحة في الممالك، وما في التصرفات السياسية الغير المضبوطة بها من المضار الفادحة، ما تقر به عين النصوح المحب لخير الوطن.

وإني لا أزل أقول إن ترتيب التنظيمات المشار إليها من لوازم وقتنا هذا. كما أقول - صدعًا بالحق - إن كل متوظف لا يرى الاحتساب عليه في وظيفته، فهو عديم الأمانة والنصيحة لدولته ووطنه، ولو كان معتمدًا في ذلك على ما قد يجده في نفسه من حب الإنصاف؛ لأنه تسبب فيما يستعقب الخراب بامتناعه من المراقبة والاحتساب؛ حيث إن أكثر المتوظفين إنما يباشر خطته على مقتضى شهواته ومصالحه الخصوصية، مؤثرًا لها على المصالح الوطنية العمومية. فهب أنه كان مجبولاً على حب الإنصاف، فإن غيره لا يفعل مثله إلا بمراقبة الاحتساب؛ ولأنه لو كان منصفًا في الواقع ما ضَرَّه الاحتساب حتى يمتنع منه، بل اللائق بحاله مزيد الحث عليه؛ إذ به تظهر براءته ظهورًا لا يحصل بدون ذلك.

وفيما أودعناه في غضون هذه المقدمة للمستبصرين كفاية، والتوفيق بيد الله المحمود في كل بداية ونهاية.

الكتاب الأول

في الكلام على ممالك أوروبا

وفيه أبواب

الباب الأول

في الكلام على الدولة العلية العثمانية

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن السلطنة العثمانية كان مبدأ تأسيسها في أيام السلطان غياث الدين السلجوقي، وانتقلت إليها الخلافة في سنة تسع وتسعين وستمائة هجرية، على صاحبها أزكى الصلاة والتحية، وأول من تقلدها السلطان عثمان الذي كان قبل ذلك التاريخ أميرًا على إيَالات[1] بأرض أناطولي[2] افتتحها بسيفه الباتر بعد أخذه الرخصة في ذلك من السلطان السلجوقي، عند مجاورته لأرضه بارتحال أسلافه مما وراء النهر ثم امتدت السلطنة العثمانية واتسع بالفتوحات نطاق ممالكها إلى أن انتشرت رايات صيتها في الآفاق وامتلأت بمآثرها الباهرة بطون الأوراق.

ولاشتهار ذلك في التواريخ الإسلامية، والتحاقه بالمعلومات الضرورية، رأينا أن نقتصر على ذكر أسماء سلاطين الدولة المذكورة، وتاريخ ولادتهم، وجلوسهم على سرير الملك، وانتقالهم إلى الدار الباقية، ومدة سلطنتهم وأعمارهم الشريفة ثم نثني عنان القلم لبيان المهم من أحوال تلك المملكة الوقتية كأصولها السياسية

(١) إيَالات: جمع إيالة: ولاية. (م).
(٢) أناطولي: الأناضول. (م).

وإدارتها، وعدد رعاياها، ونحو ذلك مما ينساق إليه الكلام، فهاك برنامجًا[1] في بيان أسماء الخلفاء من آل عثمان وما ذكر بعدها.

أسماء السلاطين العظام	ولادتهم	ولايتهم	وفاتهم	ملتهم	أعمارهم
السلطان الغازي عثمان خان	656/ [1258]	699/ [1299]	726/ [1325]	27	70
السلطان الغازي أورخان خان	680/ [1281]	726/ [1325]	761/ [1359]	35	81
السلطان الغازي مراد خان	726/ [1325]	761/ [1359]	791/ [1388]	30	65
السلطان الغازي يلدرم بايزيدخان	761/ [1359]	791/ [1388]	805/ [1402]	14	44
السلطان محمد خان	781/ [1379]	816/ [1413]	824/ [1421]	8	43
السلطان الغازي مراد خان الثاني	806/ [1403]	824/ [1421]	855/ [1451]	31	49
السلطان الفاتح محمد خان الثاني	835/ [1431]	855/ [1541]	886/ [14881]	31	51
السلطان الغازي بايزيد خان	856/ [1452]	886/ [1481]	918/ [1512]	32	62
السلطان الغازي سليمان خان	874/ [1469]	918/ [1512]	926/ [1519]	8	52
السلطان الغازي سليمان خان	901/ [1495]	926/ [1519]	974/ [1566]	47	74
السلطان الغازي سيلم خان الثاني	929/ [1522]	974/ [1566]	982/ [1574]	8	53

(١) برنامجًا: قائمة أو ورقة جامعة. (م).

أسماء السلاطين العظام	ولادتهم	ولايتهم	وفاتهم	ملتهم	أعمارهم
السلطان الغازي مراد خان الثالث	959/ [1546]	982/ [1574]	1003/ [1594]	21	50
السلطان الغازي محمد خان الثالث	974/ [1566]	1003/ [1594]	1012/ [1603]	9	38
السلطان الغازي أحمد خان	998/ [1589]	1012/ [1603]	1026/ [1618]	14	28
السلطان مصطفى خان ابن محمد خان	1001/ [1592]	1026/ [1617]		3ش	
السلطان الغازي عثمان خان الثاني	1012/ [1603]	1027/ [1617]	1031/ [1621]	4	19
ولاية السلطان مصطفى خان الثاني		1031/ [1621]	1032/ [1622]	4ش1	31
السلطان الغازي مراد خان الرابع	1021/ [1612]	1032/ [1622]	1049/ [1639]	17	6ش28
السلطان إبراهيم خان	1024/ [1615]	1049/ [1639]	1058/ [1648]	9	34
السلطان الغازي محمد خان الرابع	1051/ [1641]	1058/ [1648]	1104/ [1692]	6ش40	53
السلطان سليمان خان الثاني	1052/ [1642]	1099/ [1687]	1102/ [1690]	6 ش 3	6ش51
السلطان أحمد خان الثاني	1052/ [1642]	1102/ [1690]	1106/ [1694]	6 ش 4	54

أسماء السلاطين العظام	ولادتهم	ولايتهم	وفاتهم	ملتهم	أعمارهم
السلطان مصطفى خان الثاني	1074/ [1663]	1106/ [1694]	1115/ [1703]	9	41
السلطان الغازي أحمد خان الثالث	1083/ [1672]	1115/ [1703]	1143/ [1730]	28	60
السلطان الغازي محمود خان	1108/ [1695]	1143/ [1730]	1168/ [1754]	25	60
السلطان عثمان خان الثالث	1110/ [1698]	1168/ [1754]	1171/ [1757]	3	60ش6
السلطان مصطفى خان الثالث	1129/ [1716]	1171/ [1757]	1187/ [1173]	10	58ش6
السلطان الغازي عبد الحميد خان	1137/ [1724]	1187/ [1773]	1203/ [1788]	12	66
السلطان الغازي سليم خان الثالث	1175/ [1761]	1203/ [1788]	1223/ [1808]	19	48
السلطان مصطفى خان الرابع	1193/ [1779]	1222/ [1807]	1223/ [1808]	1	30
السلطان الغازي محمود خان الثاني	1199/ [1784]	1223/ [1809]	1255/ [1839]	32	55ش6
السلطان الغازي عبد المجيد خان	1238/ [1822]	1255/ [1839]	1277/ [1860]	22ش6	39

الفصل الثاني
في أصول قوانين الدولة العلية

قد سلف في المقدمة أن المرحوم المنعم السلطان الغازي عبد المجيد خان استدرك الخلل في سياسة الدولة بضبطه للسياسات الشرعية بالتنظيمات الخيرية سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية، وأصدر المنشور الموشح بالخط السلطاني[1]، المبين به أصول التنظيمات المشار إليها التي صارت أساسًا لتصرفات الدولة وضمانًا لحقوق الرعية.

وخلاصة ترجمة المنشور المذكور «من المعلوم عند الجميع أن دولتنا العلية لم تزل من مبدأ ظهور أمرها معتنية بكمال الرعاية للأحكام القرآنية الشريفة، والقوانين الشرعية المنيفة، وأن سلطتنا السَّنيَّة قد وصلت بذلك إلى الدرجة القصوى من القوة والمكانة ورفاهية الرعايا وعمارة المدن والقرى، إلا أنها منذ مائة وخمسين سنة تناقصت قوتها، ومعمورية ممالكها، وأخذت في التأخر والضعف؛ وذلك لغوائل متعاقبة، وأسباب متنوعة، نشأ منها تجاوز الحدود الشرعية، والقوانين المرعية، ولا يخفى أن الممالك التي لا تنسج إدراتها على منوال القوانين الشرعية لا تدوم استقامتها فلذلك لم تزل أفكارنا منذ جلوسنا على سرير الملك مصروفة

(١) الخط السلطاني: الأوامر والرسوم والفرمانات، وهو مصطلح عثماني. (م).

إلى تدبير وسائل عمارة الممالك ورفاهية الأهالي مما يحصل به المطلوب في مدة يسيرة بعون الله تعالى نظرًا إلى حسن الموقع الجغرافي المحتوي على ممالك دولتنا العلية ذات الأراضي الخصبة، والأهالي ذوي الاستعداد وتمام القابلية، إلى أن رأينا من المهم وضع قوانين جديدة مؤسسة على القواعد الشرعية المشيدة، واعتمادنا في وضع ذلك على العناية الربانية، متوسلين بحرمة سيد البرية ﷺ، ومدار القوانين المشار إليها على وجوب حفظ النفس والعرض والمال، وعلى بيان المرجع في تعيين الأداء وجلب العساكر اللازمة. أما وجوب حفظ النفس والعرض فلكونهما أعز الأمور الدنيوية فإذا خشى الإنسان عليهما اضطر إلى التشبث بمن يرجو به وقايتهما كائنًا من كان، وإن لم يكن في أصل فطرته مجبولاً على الخيانة. ولا يخفى أن ذلك مما يضر بالدولة والمملكة، بخلاف ما إذا كان آمنًا على نفسه وعرضه، فإنه لا يحيد عن طريق الصدق والاستقامة، وصرف الهمة إلى حسن الخدمة لدولته وملته. وأما المال فإن من فقد الأمن عليه لا يتأتى له القيام بحقوق دولته، إذ لا يخلو دائمًا من شغل بال، واضطراب حال، بخلاف ما إذا كان آمنًا على ماله فإنه يشغل نفسه بما يعنيه في دينه ودنياه، وينظر في توسيع دائرة معارفه وعيشه، وبذلك يتمكن من قلبه حب الوطن، وتشتد غيرته عليه وعلى دولته، ويكون سعيه على حسب ذلك. وأما تعيين الأداء فالمرجع فيه أن كل دولة تحتاج في حفظ ممالكها إلى القوة العسكرية كما تحتاج في ضبط تصرفاتها إلى مصاريف لازمة، فلابد لها من مبلغ وافر من المال بحسب احتياجها، وإنما يتحصل ذلك بما يضرب على أتباع تلك الدولة، فلزم أن يوضع للأداء المشار إليه طريقة مستحسنة؛

وذلك أن الاستبداد وإن بقيت معه ممالكنا المحروسة سالمة والحمد لله على ذلك لكن ظهرت آثاره من الاختلال والخراب؛ وذلك لأن جعل زمام مصالح المملكة السياسية وأمورها المالية بيد شخص واحد موكولة إلى اختياره، بل لا مانع أن يقال موكولة إلى قهره وجبره، يتسبب عنه ما ذكر، خصوصًا إذا لم يكن ذلك الشخص من أهل الخير، فإنه يؤثر منفعته على منفعة الغير، وتكون تصرفاته مبنية على الظلم والضير، فوجب لذلك أن نبادر بترتيب معيار مضبوط يعتبر في توزيع الأداء على الأهالي، مُرَاعي فيه قدر المكاسب واليسار، بحيث لا يؤخذ من أحد ما فوق مقدوره، بعد أن يُجْعَل لمصاريف الدولة اللازمة للعساكر وغيرها حد محدود بقوانين لا تتعداها. وأما جلب العساكر فهو من أهم ما يتوقف عليه حفظ الدين والوطن، والذب عنهما، فيلزم الأهالي أن يقدموا أشخاصًا منهم للخدمة العسكرية، لكن الطريقة الجارية في ذلك إلى الآن مع ما فيها من عدم الانتظام تؤدي إلى اختلال أصول الزراعة والتجارة وإلى قلة التناسل (فيقع النقص في الأموال والأنفس والثمرات)، ومنشأ ذلك عدم اعتبار عدد النفوس الموجودة ببلدان المملكة، فيؤخذ من بعضها أكثر من المقدور، ومن بعضها أقل من الميسور، واستمرار الجندي في الخدمة العسكرية مدة حياته، وبذلك يقل النسل، ويحصل الضجر المخل بفوائد الخدمة المذكورة. فبناء على ذلك نرى من اللازم إذا مست الحاجة لأخذ العسكر من الممالك أن يوضع لذلك أصول مناسبة جارية على منهج المساواة المطلوبة، ثم يسلك في الاستخدام العسكري طريقة المناوبة، بحيث لا يبقى الشخص في الخدمة المذكورة أكثر من خمسة أعوام مثلاً. وبهذه الأصول

التي عليها مدار القوانين والتنظيمات يحصل بمعونة الله نمو العمران والقوة والأمن والراحة؛ فلذلك نقول: يلزم من الآن فصاعدًا أن لا يعامل أحد من أرباب الجرائم والجنايات بما يفضي إلى إتلاف نفسه من سم ونحوه بدون مبالاة بل لا يحكم عليهم إلا بما تقتضيه القوانين الشرعية، وأن لا يسلط أحد على الوقوع في عرض آخر وهتك حرمته، وأن يتصرف كل إنسان في أمواله وأملاكه بغاية الحرية وعدم المُعَارَكَة، وأنَّ من جنى جناية لا يحرم ورثته من حق وراثته بالاستيلاء على أمواله للجناية التي هم برآء منها. وهذه المساعدة منا جارية في حق المسلمين وغيرهم من أهل الملل التابعين لسلطنتنا بدون استثناء أحد منهم. ولإتمام الأمان وتعميم الاطمئنان يزاد في أعضاء مجلس الأحكام العدلية قدر ما يلزم للنظر في سائر النوازل وفصلها بما يتفق عليه الأكثر. وعلى وكلاء دولتنا العلية أن يحضروا المجلس المذكور في بعض الأيام، ويبدي كل واحد ما يستصوبه دون تحاش ولا مداراة. وأما المفاوضة في شأن التنظيمات العسكرية فإنها تكون بدار الشورى الكائنة بمحل السر عسكر، وكل ما يستقر عليه الرأي من القوانين يعرض علينا لنوشحه بالخط الميمون، ويكون دستور العمل إلى ما شاء الله. وحيث كان وضع القوانين الشرعية المشار إليها إنما هو لإحياء الدين والدولة والملك والملة أكدنا ذلك بالعهد والميثاق من طرفنا الملكي، على أن لا يصدر منا شيء يخالفها، وأقسمنا على ذلك في بيت الخرقة(١) الشريفة بمحضر جميع العلماء والوكلاء، وسيحلف كل منهم على ذلك. فإذا صدر بعد ذلك من أحد الوزراء أو العلماء ما يخالف

---

(١) الخرقة: بردة الرسول ﷺ. (م).

تلك القوانين الشرعية فإنه يجازي بالتأديب المناسب لجريمته الثابتة، بدون التفات لرتبته ولا مراعاة لذاته. وحيث إن مأموري الدولة لهم مرتبات كافية، ومن ليس له ذلك الآن سيرتب له ما يكفيه وجب أن نشدد في قطع مواد الرشوة المستبشعة طبعًا وشرعًا، بوضع قانون يخص عقوبتها. ولاستبقاء التنظيمات المشار إليها، والأصول المبنية هي عليها، المغيرة للعوائد الجورية القديمة، وجب أن ننشر هذه الأوراق السلطانية إلى سفراء الدول المتحابة المقيمين بالآستانة العلية؛ ليكونوا شاهدين على إمضائها، كما ننشرها إلى أهالي الآستانة وسائر ممالكنا المحمية، فمن سعى في حل عرى هاته القوانين، الموضوعة على أساس شرعي متين، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا ينال فلاحًا إلى يوم الدين، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لإجراء هذا الخير العميم آمين».

ثم أصدر المنشور الثاني المؤرخ بجمادى الثانية سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية مخاطبًا به الصدر الأعظم في بيان حقوق غير المسلمين من رعايا الدولة العلية، ملخصه أن أصناف الرعية كلهم وديعة الله في يد الملك، فالواجب أن يكونوا كلهم حاصلين على الحالة الحسنة من العدل والإحسان. وإذا اتحدت وتآلفت قلوب بنى الوطن قويت شوكة الدولة وعزة المملكة. ومن أسباب تأليف قلوب السكان من سائر تُبَّاع الدولة أَمِن غير المسلم منهم على نفسه وماله كما أمن المسلمون؛ فلذلك نجعل لهم مجالس تحت نظر الباب العالي للنظر في أمورهم الدينية. ثم بين كيفية تصرف رؤساء ديانتهم في ذلك، ثم ذكر أن القانون مانع

لسائر الناس من ارتكاب ما يزري بشرف الإنسان من أوصاف الشين والعار، وأن كل امرئ له الحرية التامة في دينه ومذهبه فلا يمنع أحد من رعايا السلطنة عن عبادته، ولا يجبر على تبديل دينه أو مذهبه. ثم ذكر أن الدعاوى التي تحدث بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل تفصل في مجالس سيكون أيضًا أعضاؤها من المسلمين وغيرهم. وإذا تنازع اثنان من غير المسلمين في مثل الميراث، وتراضيا على التحاكم لدى رؤساء ديانتهما أو مجلس ينعقد لخصوص النازلة فلهما ذلك. ثم قال: «ولتضبط قوانين الجزاء والتجارة، ويصلح حال السجون، ويعامل المساجين بمقتضى تنظيماتها، بحيث لا يرام أحد بما يؤلم بدنه أو نحو ذلك». ثم قال: «ويستوي سائر الرعايا في ضرائب الأداء والمطالبة بالخدمة العسكرية، وقد يعافى غير المسلم من مباشرة الخدمة المذكورة إذا أقام عوضًا عنه أو أعطى دراهم نقدًا معروفة المقدار». ثم أشار إلى تنظيم الإدارة وأحوال البلاد إلى أن قال: «ولمراعاة النفع العام سيتعين من لدن دولتنا مبلغ من المال لتمهيد الطرقات». ثم تكلم على كيفية استخلاص المجابي وبيّن أن المجلس الذي ينظر في مصالح السلطنة تتولى اختيار أعضائه الذات الشاهانية، ومدة بقائهم في العضوية عام واحد، ويستوثق منهم باليمين عند دخولهم وعليهم أن يذكروا ما يظهر لهم من غير تخوف من شيء غير ربهم. إلى أن قال: «فلنفتح الطرق والجداول لنقل محاصيل المملكة، وليمنع كل ما يحول دون الزراعة والتجارة، وليكن تمام الاعتناء بتعلم المعارف والفنون بالتفتيش كلما أمكنت فرصة عن أسباب وضع الشيء بمحله في جميع الأمور». ثم ختمه بقوله: «إليك يا صدر دولتنا الأعظم عنوان أمرنا الجليل الملكي،

وأنت المشار عليه بتكميل ما نبا عنه البيان بالشرح الشافي، وإشاعته بدار خلافتنا وجميع بلدان سلطنتنا الجليلة؛ ليعلمه الناس قاطبة من الآن، فعليك ببذل الجهد واستفراغ الهمة لإنفاذه والقيام بحقوقه، وعلى علامتنا الشريفة اعتمادك».

هذا ما أمكن تلخيصه من ترجمة المنشورين المذكورين، ولا يعزب عمن كابد تهذيب المعاني المنقولة من لغة إلى لغة عذر محررها في قلق العبارة، وما يقتضيه ضيقها في بعض التراكيب من الإخلال ببعض مقاصد الأصل.

الفصل الثالث
الصدارة العظمى والباب العالي

في أحوال وزراء الدولة العلية ومجالسها السياسية والعسكرية، فأولها الصدارة العظمى، وهو وزير التفويض المطلق، النائب عن الحضرة السلطانية، والحافظ لطابع السلطنة العلية، وله رئاسة سائر الإدارات الداخلية والخارجية، وجميع الوزراء عيال عليه، لا سيما وزير الخارجية ووزير المال، ولا يعرض شيء لإمضاء السلطان على غير طريقه، ولا يمضي شيء بغير واسطته. يرأس المجلس الخاص، ويجمع أعضاءه للمفاوضة متى شاء، وبواسطته تكون ولاية سائر المتوظفين وعزلهم، ومقره الباب العالي، وهو قصر ضخم بالتخت، يقال له بلسان الترك باشا قبوسي، وبه يجتمع المجلس الخاص ومجلس الأحكام العدلية والوزارة الخارجية. وبالجملة فالباب العالي هو مركز سياسة الدولة، إليه تنتهي الأمور، ومنه تصدر الأوامر الملكية، وقد تحل به الحضرة السلطانية أحيانًا، إما لتكون مفاوضة المجلس بحضره، أو لتعرض عليه مهمات السياسة غير التي تعرض عليه بقصره الخاص، على أنه يحضر به مرة في السنة حضورًا رسميًّا لتعرض على حضرته كليات الأمور التي وقعت في السنة الماضية، وهو يخاطبهم بما يقتضي استحسان ما وقع

منهم أو بتحريضهم وتنبيه هممهم إلى ما يكون أحسن. وللصدر الأعظم مستشار في الباب العالي معدود من ذوي المراتب الرفيعة، ومن وظيفته تلخيص النوازل قبل عرضها على الصدر. ثم إن تصرفات الصدر على ثلاثة أقسام: قسم يأمر فيه الصدر بما يراه من غير عرض على أحد، وقسم يعرضه على إمضاء السلطان، وقسم يعرضه على المجلس الخاص أو مجلس الأحكام العدلية، وما يستقر عليه الرأي يعرضه على الإمضاء، وإلا فيمضيه وحده بمقتضى قوانين الدولة.

وبقية الوزارات كل منها مركب من وزير ومستشار وكُتّاب وَوَزَعَة[1] بقدر الحاجة. وبكل وزارة ما عدا الخارجية مجلس مركب من رئيس وأعضاء وكتبة للتأمل وإعطاء الرأي في النوازل التي تعرض عليهم من الوزير. وما يستقر عليه الرأي يصحح عليه المجلس والوزير، ثم يرسل إلى الصدارة العظمى، فإن كانت النازلة حسابية مثلاً يرسلها الصدر إلى مجلس المحاسبات؛ فإن ثبتت عنده صحتها وموافقتها لقوانين الدولة يرسلها إلى وزارة المال لتبقى هناك، وإن وجدت فيها مخالفة عمدية فإن النازلة تنقل إلى مجلس الأحكام العدلية، ويحضر نواب من الوزارة التي وجد الخلل في حسابها للمدافعة عنها، ونواب من مجلس المحاسبات للمدافعة عن حقوق الدولة والقانون.

(١) وزعة: جمع وازع: زاجر ومانع. ويبدو أنه يقصد وظيفة المراقب. (م).

الفصل الرابع
في بيان مجالس الدولة

فأولها المجلس الخاص وهو مركب من شيخ الإسلام، وسائر الوزراء، وبعض أعيان المتوظفين تحت رئاسة الصدر الأعظم، ويسمى مجلس الباب العالي.

ومجلس الوكلاء، ويكون انعقاده مرتين في الأسبوع، إلا إذا عرضت نازلة مهمة فللصدر عقده متى شاء. وعلى هذا المجلس تعرض جميع النوازل السياسية المهمة. وما يستقر عليه الرأي فيه يعرض على موافقة السلطان، إن كان مما يتوقف على موافقته وإلا يأمر الصدر بإمضائه. ومما يعرض على المجلس المذكور أمر المجابي دخلاً وخرجًا في كل سنة للمفاوضة وتعيين أصول المصاريف.

الثاني مجلس الأحكام العدلية، وهو مركب من أكابر المتوظفين وأعيان أهل المملكة، يرأسه أحد أعضاء المجلس الخاص ممن له رتبة وزير، وينقسم ثلاثة أقسام، بكل قسم منها رئيس ثانٍ تحت إشراف الرئيس الأول. فمأمورية القسم الأول النظر في الأمور الملكية السياسية، ومأمورية القسم الثاني تهذيب القوانين

الجديدة وشرح مشكلاتها حيث يقع الخلاف في الفهم، والقسم الثالث مأموريته التأمل والحكم فيما يصدر من المتوظفين من الجنايات ونحوها، وتحقيق الأحكام الصادرة من سائر المجالس في سائر جهات المملكة بالعقوبة الثقيلة المتوقفة على إمضاء السلطان، كالقتل، والسجن بالخدمات الشاقة، ونحو ذلك، بحيث لا يصدر إمضاء السلطان فيه إلا بعد حكم غالب هذا القسم، وفي المهمات تجتمع الأقسام الثلاثة تحت رئاسة الرئيس الكبير.

الثالث مجلسٌ مركب من عشرة علماء، تحت رئاسة قاضٍ لتدقيق الأحكام الشرعية.

الرابع مجلس مُرَكَّب من ثمانية علماء، تحت رئاسة مُفْتٍ لانتخاب الحكام الشرعية بعد امتحانهم.

الخامس مجلس المعارف العمومية، وهو مركب من اثني عشر عضوًا، تحت رئاسة مشير [1]، ومأمورية هذا المجلس إدارة المكاتب والمدارس من الرتبة الأولى والثانية والثالثة، عدا مكاتب العسكر بتقديم المدرسين بعد الامتحان، وإجرائهم وإجراء التلاميذ في الدروس على ما تقتضيه القوانين المرتبة لذلك، والتعريف بالمجتهد من المدرسين، وعرض حاله على الدولة ليعتني به ولو بالإحسان إليه للترغيب في طلب العلم والجد فيه، ومن مأموريته امتحان التلاميذ والتأمل فيما

(١) مشير: لقب أطلقه العثمانيون على الوالي ووزير الإيالة ثم على أعلى رتبة في الجيش. (م)

يؤلف من الكتب والرسائل، والمنع من إشهار ما اشتمل على شيء ينافي الديانة ومكارم الأخلاق.

السادس مجلس وزارة الحرب، وهو مركب من خمسة عشر عضوًا، تحت رئاسة أمير أمراء، ومأموريته إدارة المصالح العسكرية، كتعيين من وجب تقديمه للولاية من الضباط على اختلاف مراتبهم، والنظارة على الأطعمة واللباس والأسلحة، وتحرير حسابات الوزارة، وغيرها من المهمات العسكرية.

السابع مجلس الطوبخانة، وهو مركب من سبعة أعضاء، تحت رئاسة أمير أمراء، ومأموريته إدارة مهمات الطوبجية، وفبريكات السلاح والبارود وخزائنهما، وحراسة الحصون، وتحرير الحسابات.

الثامن مجلس وزارة البحر، وهو مركب من أحد عشر عضوًا، ومأموريته النظر في متعلقات أحوال البحر بمثل ما ذكر بمجلس وزارة الحرب نصًّا سواء.

التاسع مجلس المحاسبات، وهو مركب من اثني عشر عضوًا تحت رئاسة أحد المتوظفين السَّيَّاسة من الرتبة الأولى، ومأموريته تحقيق حسابات سائر المتوظفين في الدولة من الوزارات وغيرها، وتطبيقها على القوانين المرتبة في ذلك.

العاشر مجلس التحقيق، وهو مركب من عشرة أعضاء تحت رئاسة أحد المتوظفين من الرتبة الأولى، ومن أعضائه ثلاثة أشخاص من رعايا الدولة غير المسلمين.

الحادي عشر مجلس الضابطية، وهو مركب من أحد عشر عضوًا تحت رئاسة أحد المتوظفين من الرتبة الأولى، ومن أعضائه إغريقي وكاثوليكي ويهودي من رعايا الدولة، ومأموريته فصل النوازل الخفيفة من الجنايات.

الثاني عشر المجلس البلدي، ويسمى مجلس إدارة الضابطية، وهو مُرَكَّبٌ من ثمانية أعضاء، تحت رئاسة أحد المتوظفين السَّياسيَّة من الرتبة المتمايزة، ومأموريته إدارة مصالح البلد، وتحته خمسة مجالس صغار، كل منها مُرَكَّب من أربعة أعضاء ورئيس.

ثم ديوان استئناف مركب من خمسة أعضاء، منهم مفت، يرأسه وزير المتجر لتحقيق الأحكام الصادرة من بقية مجالس المتجر بين الأهالي. ثم مجلس أول لفصل النوازل المتجرية مركب من خمسة أعضاء، تحت رئاسة أحد متوظفي الرتبة الثانية من المتمايزة. ومجلس ثالث لذلك أيضًا مركب من ثلاثة أعضاء تحت رئاسة مثل رئيس المجلس الثاني، ووظيفتهم فصل سائر نوازل المتجر بين رعايا الدولة. وإن كان في النازلة أجنبي يضاف للمجلس أشخاص من الأجانب على مقتضي الترتيب المتفق عليه مع دولهم.

ثم مجلس المعادن، وهو مركب من أربعة أعضاء، تحت رئاسة أمير أمراء، ومأموريته إدارة المعادن المعلومة، والبحث عما لم يُعْلَم بعد منها.

مجلس المرسومات، أي المجابي، وهو مركب من ستة أعضاء، تحت رئاسة أحد المتوظفين من الرتبة الأولى.

ثم مجلس المعابر، وهو مركب من سبعة أعضاء، تحت أمير أمراء، وكُلْفته عمل الطرقات والقناطر، ونحوها من الأبنية العمومية.

ثم مجلس مكلف بتدبير صرف المبلغ المعين للحضرة السلطانية، وهو مُرَكَّب من ستة أعضاء، تحت رئاسة أحد المتوظفين من الرتبة المتمايزة، ومقر المجالس المذكورة كلها دار الخلافة.

الفصل الخامس
في مقدار سعة ممالك الدولة العلية وعدد سكانها

اعلم أن سكان الممالك العثمانية على مقتضى كتب الجغرافيا يبلغ عددهم سبعة وثلاثين مليونًا إلى أربعين، منها في قسم أوروبا ستة عشر مليونًا وسبعمائة وثلاثون ألفًا، وفي قسمي آسيا وإفريقية أحد وعشرون مليونًا. فمن سكان قسم أوروبا أربعة ملايين وتسعمائة وخمسون ألفًا من المسلمين وأحد عشر مليونًا وسبعون ألفًا من الإغريق والأرمن، وستمائة وأربعون ألفًا من النصارى الكاثوليك، وسبعون ألفًا من اليهود. ومن سكان قسمي آسيا وإفريقية ستة عشر مليونًا ومائة وسبعون ألفًا من الإسلام، وأربعة ملايين وثمانمائة وثلاثون ألفًا من الإغريق والأرمن واليهود وغيرهم. فجملة الرعايا من الإسلام واحد وعشرون مليون نفس ومائة وعشرون ألفًا. وجملة الرعايا من غيرهم ستة عشر مليونًا وستمائة وعشرة آلاف. وإذا نسبنا مبلغ الصنف الثاني إلى الأول، واعتبرنا أنه وإن نقص عن الأول في الكمية فعنده من أسباب التمدن ما يجبر به ذلك النقص، مع وجود العلاقة الجنسية بينه وبين الدول الأوروباوية، ومساعفتها له على الإلحاح في طلب المساواة في سائر المنح من الدولة العلية؛ لكونه من جملة رعاياها وأبناء وطنها، لم

يبق لنا توقف في تصويب ما تضمنه المنشور الثاني المتقدم آنفًا، والجزم بأن سريان خلاف ذلك إلى بعض العقول القاصرة منشؤه عدم الاطلاع على ما في الخارج الملجي إلى وجوب ارتكاب أخف الضررين. وأما المساحة فقدر سطح أرض تلك الممالك أربعة ملايين وخمسمائة وسبعة وثلاثون ألفًا وثلاثمائة كيلو ميتر، منها في قسم أوروبا خمسمائة واثنان وأربعون ألفًا وثلاثمائة كيلو ميتر، والباقي في قسمي آسيا وإفريقية، وهو ثلاثة ملايين وتسعمائة وخمسة وتسعون ألف كيلو ميتر. والكيلو ميتر عبارة عن ألف ميتر، والميتر ذراع ونصف تركيتان. ثم إن الممالك العثمانية تنقسم إلى إيالات، والإيالات تنقسم إلى أعمال ألوية، وكل من أعمال الألوية ينقسم إلى أوطان قضاة، والأوطان يحتوي كل منها على بلدان وقرى، وفي مركز كل إيالة والٍ مكلف بإمضاء القوانين وأوامر الدولة، بمثل الإعانة على استخلاص المجابي، وتنزيل العسكر، وغير ذلك من مصالح الدولة، وهو المكلف بحفظ راحة السكان، والسعي في تنمية الفلاحة، وتسهيل طرق المتجر، ورفع العوائق عن سائر الصناعات، وتمهيد الطرقات، وبناء القناطر، ونحو ذلك بمشاركة مجلس الإيالة. وهو المسؤول عن سيرة متوظفي إيالته حيث إن من مأموريته منعهم من ارتكاب ما يخالف واجباتهم وإعلام الدولة بذلك حالاً، كما أن من واجباته إعانة المحاكم الشرعية والمجالس العرفية. ومع هذا الوالي مجلس تحت رئاسته لفصل النوازل التي تقع بين السكان، والنظر في سائر مصالح الإيالة، من أعضائه الدفتر دار المكلف من الدولة بأحوال المجابي، وقاضي الإيالة، مع خمسة وعشرين عضوًا منتخبين من الأهالي. وقد شهد المنصفون من أهل أوروبا بحسن

هذا الترتيب ولياقته بمصالح الإيالات. ثم في كل مركز عمل لواء قائم تحت رئاسته مجلس تنتخب أعضاؤه من الأهالي. وتصرف هذا القائم مقام ومجلسه في العمل كتصرف الوالي ومجلسه في الإيالة، إلا أنه تحت نظر والي الإيالة. وفي كل وطن من أوطان القضاة مدير، تحت رئاسته مجلس، تنتخب أعضاؤه من الأهالي، وتصرُّف المدير ومجلسه في الوطن كتصرف القائم مقام، ومجلسه في عمل اللواء، إلا أنه تحت إذنه ثم كل بلد أو قرية قوجم باشي أو مختار، ينتخبه أهل البلد مكلف بإدارة البلد. وفي كل بلد من بلدان المملكة يوجد مجلس جنايات لفصل سائر نوازل الجنايات الواقعة بين السكان عدا ما يلزم إنهاؤها لمجلس الأحكام العدلية بالتخت؛ فإن عمل مجلس جميع الجنايات المذكور فيها سماع الدعوى وتحرير الحجج، ثم إرسال جميع ذلك لمجلس الأحكام العدلية بواسطة الوالي. كما يوجد بكل بلدة كبيرة مجلس متجري، مركب من رئيس وأعضاء من الأجانب، وقد بلغ عدد المجالس المتجرية اثنين وخمسين مجلسًا.

وأما المجالس العسكرية، فاعلم أن الجيوش البرية بالممالك العثمانية مقسومة إلى ستة أقسام، يسمى كل منها عرضيًّا، تحت إمارة مشير، وبه مجلس لفصل نوازل العسكر وتدبير مصالح الجيش، وللدولة رجال تنتخبهم من أعيانها الموسومين بالمعرفة والنجابة والمروءة والديانة، تكلفهم بالبحث عن كيفية إجراء القوانين وسائر الإدارات الملكية والمدنية إجمالاً وتفصيلاً، وتفوض لهم عزل من يستوجب العزل أو سجنه، أو توبيخه، أو توجيهه إلى تخت المملكة.

وقد نتج من هذه الخدمة مصالح مهمة من تحسين الإدارة، واستقامة تصرفات الولاة والقضاء والمجالس؛ إذ المكلفون بالتفقد في الحالة الراهنة ممن لا تأخذهم فيما وُكِلَ لأمانتهم لومة لائمة بالجملة، فخدمة هاته الطائفة المكلفة بالبحث والتفقد من أهم الخدمات النافعة للإيالة خصوصًا البعيدة عن دار الخلافة.

الفصل السادس
في بيان ما للدولة من الاعتناء بتهذيب أخلاق رعاياها من الإسلام وغيرهم بتوسيع دوائر المعارف وتسهيل طرق اكتسابها

فمن ذلك اعتناؤها بمكاتب العلوم، لا سيما الرياضية التي كادت تنقطع من أرض الإسلام مع شدة الاحتياج إليها في هذا الوقت؛ فقد نفق سوقها بممالك الدولة العلية، حتى صار مدرسوها من ضباط العساكر السلطانية وأعز أبناء الوطن، وبذلك يُرْتَجى عَودُ الدُّرِّ لمعدنه؛ لما أشرنا إليه في المقدمة من أن الإسلام كان منبع غالب تلك العلوم.

ومن ذلك اعتناؤها بمطابع الجرنالات اليومية، وغيرها المطلعة على حوادث الأيام في سائر المعمور. ولاشك أن ذلك من أقوى أسباب التهذيب والتمدن كما يقتضيه العقل والتجربة، أما العقل فلأن القادر على الاختراع قليل، فشأن الأمم السالكين سبيل الحضارة اقتداء بعضهم ببعض في الأعمال الحميدة؛ حتى يكونوا من الذين يرعون الحسن من الأحوال، ولا يتركونه في زوايا الإهمال، وأما التجربة فبمشاهدة تقدم الإفرنج في المعارف الذي من أعظم أسبابه انكبابهم على مطالعة الجرنالات في كل آن، وليس بعد العيان بيان. فمن الجرنالات التي تطبع بدار الخلافة الجرنال المسمى تقويم الوقائع الملكية ثم جريدة الحوادث، ثم ترجمان الأحوال، وهذه الثلاثة باللغة التركية. ومنها

الجوائب الذي هو عربي العبارة، ثم المسمى تصوير الأفكار، والمسمى مجموع الفنون، ثم جريدة عسكر، وفروعها التي تصدر في كل شهر مجموعة تشمل على فنون عسكرية تطبع بالمكتب الحربي، ويوجد بالقسطنطينية جرنالات غير ما ذكر بلغات عديدة، كلغة الأرمن والبلغر والإغريق، واللغة الفرنساوية والإنكليزية، وغيرها.

ولنرجع إلى بيان المكاتب وعدد تلاميذها إجمالاً، فأولها المكتب الحربي السلطاني بالقسطنطينية، يحتوي على أربعمائة وثمانية وخمسين من التلاميذ، يتعلم به الجبر الأعلى من العلوم الرياضية، واستخراج سطوح المثلثات البسيطة المستوية وزواياها، والكزموغرافيا، أي فن الهيئة، وفن الاستحكامات، والتوبوغرافيا، أي البلدان، والأسوار، وفن الحكمة، والطبيعيات، والبيطرة، واللسان الفرنساوي، والهندسة، واستعمال السيف، وعلم المناظر والأطلال، وفنون الطوبجية، والبناء العسكري، والرماية والفروسية، وسرعة المشي، ونحو ذلك من الفنون الحربية على اختلاف أنواعها. كما يوجد بها سبعة عشر مكتبًا يدرس في جميعها علوم العربية، كالنحو والبيان، والرسم والإنشاء، وعلم التاريخ والجغرافيا، والمنطق، والحساب والهندسة، والعلوم الشرعية، كما يدرس بها علم الإدارة المالية والقوانين، واللسان الفارسي والفرنساوي، والفنون الرياضية. ومبلغ ما بها من التلاميذ ألف وثمانمائة وستة وعشرون تلميذًا، كما يوجد بها مكتب لترشيح الطلبة للتدريس بالمكاتب الرشيدية، عدد تلامذته اثنان وعشرون. وهناك مكاتب أخرى لترشيح الطلبة للخدمات الملكية، وبالجملة فمكاتب الدولة العثمانية آخذة في التقدم،

وهي منقسمة إلى ثلاث مراتب: الأولى للمبتدئين من التلاميذ، والثانية للمتوسطين، والثالثة للمنتهين. وقد بلغ عدد مكاتب المرتبة الأولى في العام المنصرم - وهو سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية - خمسة عشر ألفًا وأربعين مكتبًا في سائر جهات المملكة، بها من التلاميذ خمسمائة ألف وستة آلاف وثلاثمائة وستة عشر. فمن تلك المكاتب اثنا عشر ألفًا وأربعمائة وثمانية وسبعون مكتبًا للإسلام، بها من التلاميذ ثلاثمائة وثمانية وستون ألفًا وباقي المكاتب والتلاميذ لرعايا الدولة من غير الإسلام. وغالب معلمي تلك المكاتب من المسلمين وأبناء الوطن. كما أن غالب أطبائهم كذلك. وقد فتحت في العام الفارِط[1] مدرسة تعرف بدار الفنون، يقرأ بها فن الكيمياء والطبيعة الحكمية، وكان المباشر للتدريس بها أحد أعيان الباشوات. ومن مزايا الدولة العلية ترتيب الجمعيات العملية، التي منها الجمعية الكائنة بمقر خزائن الكتب، الجامعة للتآليف الإسلامية والإفرنجية، ويؤخذ عن علمائها فنون مختلفة بلغات عديدة وبمحل هاته الجمعية مكان مخصوص بمطالعة الجرنالات. ثم جمعية المدرسين من علماء الإسلام، المنقسمة إلى قسمين: قسم يكون اجتماعهم بمكتب معين لهم، تؤخذ به عنهم علوم العقائد، وفن الرياضيات، وعلم الحساب، والهندسة، والجغرافيا، وفن التاريخ، والقسم الثاني موقوف أمره الآن على إنجاز خصوصيات، وستتهيأ إن شاء الله قريبًا، ومن مزاياها الاعتناء بالطرق الحديدية وسلك التلغراف؛ ففي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف الحالّة[2] بلغ طول المنجز من الطرق المذكورة أربعمائة وأربعة وعشرين كيلو ميترًا ومن التلغراف أربعة عشر ألفًا ومائة وخمسة وعشرين كيلو ميترًا.

(١) الفارط: المتقدم السابق. (م).
(٢) الحالّة: التي ستحلّ. (م).

الفصل السابع
في القوة المالية والعسكرية بالمملكة العثمانية

اعلم أن قيمة جميع السلع الداخلة إلى ممالك الدولة والخارجة منها - على ما حرره صاحب قاموس السياسة - بلغت منذ سبع عشرة سنة - وهي مدة رسوخ التنظيمات اثنتي عشرة مائة مليون فرنك في السنة، بعد أن كانت لا تتجاوز أربعمائة وخمسين مليونًا. وهذا أوضح دليل على لياقة التنظيمات بالمملكة؛ حيث ازداد بتأسسها في نتائج المملكة ورفاهية أهاليها ما يقرب من ضعفي الأصل. وقد تحقق بذلك ما ترجاه السلطان عبد المجيد نَعَّمه الله من إجراء القوانين لممالكه ذات الأراضي الخصبة، والأهالي الذين هم في غاية القابلية، كما أشار لذلك بطالعة منشور تأسيس القوانين المتقدم ذكره. كما أن سفن المتجر الداخلة في مراسي المملكة لم تزل تتضاعف، وفي سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف بلغ قدر ما دخل منها بخصوص مرسى القسطنطينية ما يأتي بيانه.

جدول في بيان عدد السفن التي دخلت بمرسى القسطنطينية سنة 1863

طونلاتة[1]	مراكب	أصناف المراكب
8,58,034	19,328	مراكب براية الترك
62,158	824	مراكب براية الممالك التابعة للدولة المستقلة في إداراتها الداخلية بأداء سنوي
9,201,192	**20,152**	**الجملة**
5,346,037	**20,670**	**مراكب أجنبية**
6,266,229	**40,822**	**الجملة**

بيان دخل الدولة السنوي وخرجها بمقتضى المضبطة الرسمية

فرنك	المنشورة في عام 1281/ [1864]
405,091,875	جملة الدخل
400,507,500	جملة الخرج

جدول في بيان القوة العسكرية البرية سنة 1861

وقت الحرب	وقت الصلح	أصناف العساكر
117,360	100,800	عسكر تريس[2]
22,416	17,280	خَيَّالة
7,800	7,800	طوبجية الأمحال[3]

(١) طونلاتة: وحدة لقياس حمولة المراكب. (م).
(٢) تريس: المشاة. (م).
(٣) طوبجية الأمحال: جنود المدفعية. (م).

أصناف العساكر	وقت الصلح	وقت الحرب
طوبجية الحصون	5,200	5,200
مهندسون	1,600	1,600
عساكر في كريد	8,000	8,000
عساكر في طرابلس الغرب	4,000	4,000
عسكر رديف[١]		148,680
عساكر الممالك التابعة للدولة التي لها استقلال في إدارتها الداخلية		100,000
عسكر غير مرتب		87,000
الجملة		**502,056**

جدول في بيان القوة العسكرية البحرية سنة 1866

أصناف البحرية والسفن	بحرية	فابورات حديد	فابورات[٢]	مراكب قلاع	جملة المراكب	جملة المدافع
أمراء البحر	5					
أمراء ألوية[٣]	11					
جملة القبطانات	10,900					
والفسيالات[٤] والبحرية الرديف أصناف السفن	66,100					
بوارج أو أجفان [١]			5		5	470

(١) عسكر رديف: احتياطي. (م).
(٢) فابورات: جمع فابور: وهي السفينة البخارية. (م).
(٣) أمراء ألوية: القبطانات. (م).
(٤) الفاسيلات: الضباط. (م).

جملة المدافع	جملة المراكب	مراكب قلاع	فابورات[٢]	فابورات حديد	بحرية	أصناف البحرية والسفن
216	6			6		فراقط مدرعة بالحديد منها ثلاث مشرفة على التمام.
474	10			10		فراقط[٢]
155	9			9		قرابط[٣]
36	6			6		شالوب أي قوارب
	80	80				أبركة وسكاين[٤] ونحوها
	12	12				مراكب لحمل الأثقال عدا الفابورات لما ذكر؛ إذ لم يتيسر لنا معرفة عددها الآن
1,351	**128**	**92**	**30**		**33,016**	الجملة

وبما بينَّاه من تنظيمات الدولة العلية السياسية والعرفانية، حصل لها من قوة الشوكة وظهور النمو في عمران ممالكها بالنسبة لما كان قبل التنظيمات ما لم يكن يظن حصوله في هذه المدة القليلة، ولا يستطيع المنصف جحده ولا يجد المكابر سبيلاً لإنكاره. وقد كان يمكنها الحصول على أكثر من ذلك لولا العوائق

---

(١) بوارج: جمع «بارجة» وهي سفينة حربية كبيرة. (م).
(٢) فراقط: جمع فرقاطة: وهي سفينة شراعية كبيرة. (م).
(٣) قرابط: جمع قربيطة: وهي سفينة حربية. (م).
(٤) أبركة وسكاين: أبركة جمع بريك، ويطلق على سفينة ذات صاريين وسكاين جمع أسكونة، ويطلق على سفينة ذات صاريين. (م).

التي أعظمها إغراء بعض الدول الأجنبية لبعض رعايا الدولة من غير الإسلام بالامتناع، وعدم الرضى، ونحو ذلك مما أوضحنا أسبابه في المقدمة.

هذا ما أمكن تحريره من تراتيب الدولة العلية، على ما فيه من إجمال؛ لأن الكتب التي لخصنا منها هذا المختصر أكثرها إفرنجية، فلم نجد بها مزيد إيضاح لأحوال الممالك الإسلامية خصوصًا ما يتعلق بالمجابي والخرج والقوة العسكرية، ولم نعثر الآن من الكتب الإسلامية على ما يفيدنا إفادة شافية.

هذا وقد اشتهر في هذه الأيام بميادين السياسة أن عزيز مصر إسماعيل باشا الأفخم رتب مجلسًا شوريًّا، يحتوي على خمسة وسبعين عضوًا، تنتخبهم الأهالي للنظر في أحوالهم الداخلية دون الخارجية؛ لتكفُّل الدولة العلية بها، وتفويض الأمور الداخلية لنظر ولاة مصر من آل محمد علي باشا، بشرط أن لا يحيدوا في تصرفهم عن مقاصد الشريعة الإسلامية، ثم التنظيمات السياسية المؤسسة عليها من تلقاء الدولة العلية، وذلك بمقتضى المنشور الصادر لمحمد علي باشا الممنوح بالمنشور المذكور تخليد ولاية مصر في نسله، وجعله وراثة في ذريته، على شروط مقررة به، كأداء مقدار معلوم من دخل مصر للدولة العلية في كل سنة، وتوجه الوالي لدار الخلافة عند ولايته، وأن لا يعطي شيئًا من أراضي المملكة لأجنبي إلا بترخيص من الدولة، وأن تكون ولاية المتوظفين في المراتب العالية عن إذن السلطان، إلى غير ذلك. وقد وقع أول اجتماع للمجلس المصري المشار إليه في نوفمبر سنة ثلاثة وثمانين ومائتين وألف هجرية، ولا يمتري أن ذلك مما يحصل

به إن شاء الله الفوائد الجمة لسكان تلك البلاد، إذا قام أهله بواجباتهم، وعرف أهل المملكة مواقع الانتخاب من أهل الفضل والمروءة، والتجربة والفطنة، والغيرة على الوطن؛ كي لا يغتروا بزخارف أرباب الأغراض، ويعرضوا عن دسائسهم كل الإعراض. واستمر أميرهم الداعي إلى هذا التعاضد من تلقاء نفسه على التزام العمل بما يتفق عليه أهل المشورة إلى غير ذلك مما يجب اعتباره في إنجاح هذا السعي الحميد العواقب.

الباب الثاني

في الكلام على مملكة فرنسا

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن ابتداء تاريخ فرنسا في الحقيقة إنما كان من سلطنة كلويس حفيد ميروي، وهو الذي أسس ملك العائلة الميرونجيانية، وما يحكى عن سلطنة فرامون، وكلوديون، وميروي، وشلدريك إنما هو مجرد أخبار تسلطن أولئك الملوك، مع عدم وجود ما يفيد القطع بصحة أخبارهم وحوادث أيامهم. وعند ولاية كلويس المذكور في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة مسيحية، كانت أمم الويزيغوت والبورغوند، والألمان والرومان تتنازع في أرض الغول (ويقال لها الغاليا أيضًا)، وبهذا الملك انتصر الفرنكس أي الإفرنج، وهم فرقة من سكان تلك الأرض؛ فكسروا جيش الرومان في صواصون، سنة ست وثمانين وأربعمائة، وطوّعوا الألمان بعد حرب تولبياك في سنة ست وتسعين وأربعمائة، وقصروا جماعة الويزيغوت على ملك السبتيمانيا، وهو قسم كبير من جنوب فرنسا، وأخرجوا ما عداه من أيديهم، وذلك بعد الانتصار عليهم في حرب وليي سنة سبع وخمسمائة. وكسروا شوكة البورغوند حتى انمحت رسوم ملكهم بالتمام في أيام أبناء الملك المذكور، وذلك في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة.

هذا وبعد وفاة الملك كلويس المذكور، اقتسم أبناؤه الأراضي التي كان افتتحها، وذلك في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فمن هذا الاقتسام تكونت أربع ممالك متفرقة، فكانت مدينة باريس تختًا للمملكة الأولى، وماتس للثانية، وصواصون للثالثة، وأورليان للرابعة.

ثم في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة جمع كلوتير الأوَّل سائر ممالك فرنسا تحت حكمه، لكنها انقسمت بعده ثانيًا، وذلك من سنة إحدى وستين وخمسمائة إلى سنة ثلاث عشرة وستمائة، وأعقب الانقسام حروب أهلية أجلت عن اجتماع في مدة قليلة، ثم عن افتراق انقسمت به فرنسا إلى أربع ممالك، وهي أوسترازيا ونوستريا وبوغونيا وأكويتانيا.

فكانت أوسترازيا ونوستريا مُتميّزتين من بين الممالك الأربع بالسطوة ونفوذ الكلمة، وكانتا متكافئتين مدّة من الزمن.

ثم في سنة سبع وثمانين وستمائة ارتفع شأن أوسترازيا، التي كانت محافِظَة على عاداتها القديمة، التي كانت عليها قبل فتوحاتها، وذلك بعدم مخالطتها لحضارة الرومانيين، وعلا أمرها على النوستريا، وكانت إذ ذاك لا تلقب بلفظة المملكة؛ لانقطاع العائلة الملكية منها، وصيرورتها ربوبليك فاودال، أي جمهورية مقودة بالهرستال بلقب دوك، وهم أشرافهم، وهؤلاء الدوكات حكام أوسترازيا لم يزالوا حتى تسلطوا بوظيفة ماردوبالي (بمعنى ناظر القصر) على ملوك نوستريا،

وذلك لما انقطعت العائلة الملكية من أوسترازيا - كما أشرنا إليه - وصارت المملكة جمهورية مروسة بأشرافها الذين كانوا مذعنين لأمراء نوستريا بمجرد تلقي اللقب منهم؛ إذ كانوا هم الأمراء المتأصلين في الملك من العائلة الميرونجيانية.

ثم دخلت بورغونيا تحت طاعتهم، والأكويتانيا التي هي القسم الرابع، بعد أن استخلصها شارل مارتل من أيدي العرب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، بانتصاره في حروب شديدة وقعت بينه وبين عساكر الأندلس في إمارة عبد الرحمان الغافقي. ثم بعد مدة وجيزة من إمارة أحد أولئك المار - أي نظار القصر - وهو ببان لبراف انتقل التاج إليهم، واستولى المذكور ملكًا في سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، بعد أن عزل شلدريك الثالث آخر ملوك العائلة الميرونجيانية.

ومن هذا كان ابتداء العائلة الثالثة من ملوك فرنسا، وهي العائلة الكارلونجيانية، وهذا الملك تغلب أيضًا على إكويتانيا وعلى سبتيمانيا، وهو أول من جمع فرنسا كلها عدا البريطانيا تحت رئاسة واحدة، وامتد سلطانه ونفوذ كلمته إلى إيطاليا، وألجأ اصطلف ملك لومبارديا إلى احترام البابا إستيفنو ومَلَّك الكنيسة عدة أراض.

وأما ابنه شارلمان المذكور في مقدمة هذا الكتاب، فقد تغلب بعده على إسبانيا الشمالية، وعلى إيطاليا، وعلى السّاكوسونيا، وعلى باواريا، وعلى الأوار أهل بنونيا، وذلك من سنة ثمان وستين وسبعمائة إلى سنة أربع عشرة وثمانمائة،

واستجمع الممالك المذكورة في مملكة كبيرة سمّاها السلطنة الغربية المتجددة، وأشار بالمتجددة إلى إحياء السلطنة الرومانية الغربية بعد اندراسها. غير أن هذه السلطنة لم تتجاوز سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة حتى انقسمت إلى ثلاث ممالك مستقلة، وهي فرنسا وإيطاليا وجرمانيا، وصار تاج السلطنة يتداوله بعض الذرية بإيطالية مرة، وأقاربهم من أمراء العائلة الكارلونجيانية أخرى، حتى انتقل إلى طائفة من الأعيان ليسوا من تلك العائلة، ثم انتهى الأمر إلى بقائه بيد الألمان. وكان ابتداء سقوط العائلة الكارلونجيانية من سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة حين صارت عصبية أعيانها تتعاظم، وتغتنم فرصة التسلط على السلطة الملكية، حتى إنه في سنة سبع وثمانين وثمانمائة، كان واحد من أولئك الأعيان المتقدمين للخطة من صاحب التاج يسمى أودون، وهو جد عائلة الكابيت افْتَكَّ المُلْكَ من يد العائلة الكارلونجيانية، الذين آل أمرهم في ذلك الوقت إلى وجود مجرد ألقاب السلطنة فيهم دون قوة ولا مملكة، ثم رجعت العائلة إلى تخت السلطنة، ثم افتكّ منهم، ورجع إليهم بعد ذلك ثم آل أمرهم إلى فقد جميع ما كان بأيديهم وسقطوا بالكلية.

وكان ذلك سنة سبع وثمانين وتسعمائة على يد هوغ كابيت، وهو أول العائلة الثالثة من ملوك فرنسا وهي العائلة الكابيسيانية، وجعل مركز السلطنة الدوكاتو الكبرى التي كانت في قبضة فرنسا. وبحسن تدبير هذا الملك وسياسته تزايدت القوة الملكية في فرنسا وحسن حالها، وأعانه على ذلك شدة حزمه،

وطول مدة ولايته، والمجالس البلدية التي أجاد تأسيسها في الإيالات، وما حدث في ذلك الوقت من الحروب بين المسلمين والصليبيين، وذلك من سنة سبع وثمانين وتسعمائة إلى سنة ثمان ومائة وألف. ومن هذه السنة إلى سنة ست وعشرين ومائتين وألف ازدادت السلطة الملكية نموًّا وقوة شوكة، وافتك من أيدي الإنكليز عِمَالَةَ النورمانديا، والأنجو والألمان والبواتو، من سنة أربع ومائتين وألف إلى سنة خمس ومائتين وألف. وأشرفت إيالتا غيان وغسكونيا على عود التاج إليهما لولا مفارقة لويز لوجون زوجة ليونورة داكويتانيا في سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف.

ثم إن لويز التاسع - المُلَقَّب بصان لوي، بمعنى الصالح، وهو الذي مات بتونس - مَهَّدَ مصالح المملكة، وساسها أحسن سياسة، من سنة ست وعشرين ومائتين وألف إلى سنة سبعين ومائتين وألف؛ فإنه لم يزد في أرض المملكة زيادة معتبرة إلا أنه أعطى التاج ما يستحقه من السلطة والاعتبار، وأقام دعائم الملك على أمتن أساس.

ثم في مدة فليب الثالث، من سنة سبعين ومائتين وألف إلى سنة أربع وثمانين ومائتين وألف، أضاف المذكور اللنغدوك إلى فرنسا، وتداخل في جميع المنازعات التي كانت واقعة في ممالك إسبانية النصرانية، وامتد نفوذ كلمته إلى مملكة نابلي من إيطاليا.

ثم شرع فليب الرابع، من سنة أربع وثمانين ومائتين وألف في استرجاع الأملاك التي كانت سلمت إلى لوتير، ونجحت مدافعته في ذلك ضد سلطة البابا الدنيوية وأقام بين الببّاصين[1] والأعيان وسلطتهم حاجزًا، وهو مجلس المشورة العمومية، (بمعنى أنه عطل تصرفاتهم وأحالها إلى الشورى، فكانت أحزاب الناس تجتمع لعرض المطالب)، وهذا الملك هو أول من جمع دواوين المدن بفرنسا، ويقال لها مجالس البارلمان.

ثم بعد وفاته مال أولاده إلى الأعيان، وقوَّوا سلطتهم بدون تبصر في عاقبة الأمر، وكان دأب أولئك الأعيان البحث عما يتيسر به تخلصهم من القيود المنافية لأغراضهم، واغتنام الفرصة في ذلك، حتى تمكنوا من السلطة ثانيًا بإعانة أولئك الأبناء الذين كانوا يجهلون مصالح الملك، وكان ذلك من سنة أربع عشرة وثلاثمائة وألف إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف. ووقع مثل هذه الإعانة للأعيان من الفرع الثاني الملكي، وهو الملقب بالواولوا اقتداء بأولاد فليب الرابع، فبتلك السيرة المتهورة أشرفت فرنسا على الاضمحلال.

فاغتنم ملوك الأنكلترة الفرصة، وشرعوا في الحروب المسماة بحروب المائة سنة، وانضم إليهم الفلمنك والبوروتون.

وكان مبدأ تلك الحروب سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعة مائة وألف، وبعد أن غلبت فرنسا في مقاتلة كريسي، وذلك

(١) الببّاصين: الرهبان، وهي كلمة يونانية تعني الأب. (م).

في دولة فليب دووالوي سنة ست وأربعين وثلاثمائة وألف، وفي محاربة بواتيي، وكانت في دولة جان الثاني سنة ست وخمسين وثلاثمائة وألف، شرعت في النهوض في دولة شارل الخامس، من سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف، لكنها رجعت بعد ذلك القهقرى في دولة شارل السادس حين كان صغيرًا تحت قيد الحجر.

ثم حين اختل عقله - وذلك من سنة ثمانين وثلاث مائة وألف إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وألف - حتى أشرفت على الانقراض ثانيًا؛ بسبب تجاذب أمراء العائلة المتكثرين عددًا وثروة، وتداخلهم في سياسة الممالك طمعًا في التاج، ورغبة في نفوذ الكلمة مع ما آل إليه أمر العائلة الثانية من أمراء بورغونيا من القوة والسلطان في سنة إحدى وستين وثلاث مائة وألف، حتى صارت مضاهية للعائلة الملكية.

ومما زاد الأمة الفرنساوية وَهْنًا على وهنهم، المصادمات التي جرت فيها الدماء بين شيعة البورغوند وشيعة أرمنياك.

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة وألف تغلبت الأمة الأنجليزية في أزنكو، وحازت غالب الإيالات البحرية من فرنسا.

ثم في سنة تسع وعشرين وأربعمائة وألف بزغ[1] طالع سعد فرنسا بظهور البنت جان دارك، بنت أحد الفلاحين المولودة بقرية دومرمي التي زعمت أن الله أمرها باستخلاص فرنسا من أيدي الأنكليز، فتوجهت إلى الملك شارل السابع بمدينة بورج فانقاد إلى قولها، وكانت السبب في رفع حصار الأنكليز لمدينة أورليان، بقودها لجيوش الملك المشار إليه بأزِمَّة النصر إلى إن أوصلتهم إلى مدينة رامس، وبعد ذلك أخذت أسيرة في محاصرة مدينة كومبيان فأُحرقت بالنار بدعوى أنها ساحرة.

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وألف طرد الأنكليز من أرض فرنسا بعد محاربات شديدة، وتغلب لويز الحادي عشر من سنة إحدى وستين وأربعمائة وألف إلى سنة ثلاث وثمانين وأربع مائة وألف على عصبة الأعيان المتقدم ذكرهم، وأضاف إلى حكم التاج إحدى عشرة إيالة كبيرة، كانت كل واحدة منها مستقلة بالتصرف، وإن كانت ولاية حكامها بيد الملك. وشرع شارل الثامن في حروب إيطاليا سنة أربع وتسعين وأربعمائة وألف، ودام الحال إلى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة وألف.

ثم تمادى على ذلك لويز الثاني عشر الملقب بأبي العامة حتى أفنى فيها ماله ورجاله. ومما يحكى من محاسن هذا الملك أنه كان من الفرع الثاني من العائلة الكابيسيانية، وكان المُلْكُ لابن عم له من الفرع الأول منها، فلما مات

(١) بَزَغَ: ظَهَر. (م).

الملك خلفه ابن له صغير السن تحت حجر أحد الأعيان، فرأى الملك المشار إليه عدم استقامة الحال، واضطراب أمر المملكة بسبب صغر سن الوارث، فتحرك عليه لذلك وتحزَّب بجماعة لافتكاك المُلْك(١) لنفسه، حتى آل الأمر بعد حروب بينه وبين مقدم الصبيّ إلى القبض عليه وسجنه بسجن حصين. وكان يشدد مع ذلك عليه، ويُنْزِله في مطمورة بالسجن لئلا يتمكن من الفرار. هكذا مسجونًا حتى انقرض الفرع الأول ولحقته الدولة.

ولما ولي الأمر طلب منه أحزابه أن ينتقم من ذلك المقدم الذي نكَّل به وعذبه، ولما ألحوا عليه في ذلك أجابهم بقوله: «لا يليق بشرف سلطان فرنسا أن يتنازل لأخذ الثأر على ما وقع لدوك دوأورليان».

فليتأمل من هذا الجواب الحسن، ومن همَّة هذا الرجل العالية المنبئة عن كمال المروءة والمعرفة بمواقع السياسة، وكيف فَرَّق بين المرتبتين قبل الولاية وبعدها في ذات نفسه، فمن علم منه مثل هذه رآه جديرًا بأن يُلقَّب بأبي العامة.

ثم في سنة خمس عشرة وخمسمائة وألف انتصر الملك فرنسوا الأول على السويسرة في حرب مرينيان، ثم انكسر في بيكوك سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وألف، عند محاربته لجيش إمبراطور ألمانيا شارل الخامس وكذلك في باويا سنة خمس وعشرين وخمسمائة وألف انتصر عليه وأخذ أسيرًا، ولم

(١) افتكاك المُلك: تخليصه المُلْكَ لنفسه. (م).

يتيسر للملك المذكور مدة ملكه إلا المدافعة بقدر الإمكان لقوة الإمبراطور شارل المذكور.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وألف أضاف الملك هنري الثاني إلى المملكة ثلاث عمالات كان كل منها مروَّسًا بمطران(١).

وبقرب ذلك العهد نشأت الحروب الأهلية الدّينيّة بين الكاتوليك والبروتستانت، التي بها خربت فرنسا، وفيها هلكت عائلة الوالوي التي كان آخرها الملك هنري الثالث، وذلك من سنة اثنتين وستين وخمسمائة وألف.

وبالملك هنري الرابع ابتدأ فرع آخر من العائلة الملكية يسمى بالبربون، وفي أيامه انتهت الحروب الأهلية، وذلك من سنة تسع وثمانين وخمسمائة وألف إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف، وبه اندملت جراح فرنسا، وتيسرت لها أسباب رفعة الشأن، من سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف إلى سنة عشر وستمائة وألف.

وفي دولة لويز الثالث عشر - من سنة عشر وستمائة وألف إلى سنة ثلاث وأربعين وستمائة وألف - أسس الوزير الكردينال ريشليو المُلْك الاستبدادي، ومهد طريقه للوزير الرابع عشر، بعد أن كسر شيعة البروتستانت، ومحا آثار

---

(١) مطران: رئيس الكهنة وهو فوق الأسقف ودون البطريرك. (م).

تصرفات الأعيان. وهذا الوزير المشار إليه هو الذي رفع أمر فرنسا إلى الأَوْج[١] في الحروب المسماة بحروب الثلاثين سنة، من عام ثمانية عشر وستمائة وألف إلى عام ثمانية وأربعين وستمائة وألف، ونقل إليها الرجحان الذي كان قبل ذلك لدولة النمسة.

وبالجملة فقد صارت فرنسا بموجب شروط وستفاليا سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف، وشروط بيريني سنة تسع وخمسين وستمائة وألف، أعظم ممالك أوروبا سطوة، وطمعت في التسلط عليها في دولة لويز الرابع عشر، فتعصب عليها جميع أهل أوروبا، ودافعت عن نفسها ثلاث مرات، وازدادت قوتها في صلح نيم سنة ثمان وسبعين وستمائة وألف، ثم في صلح ريزويك سنة سبع وتسعين وستمائة وألف كان الأمر لا لها ولا عليها، وتأخرت بعد ذلك قليلاً في صلح أو ترخت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وألف، حين ضعفت من طول الحروب مع إسبانيا الملقبة بحروب وراثة إسبانيا.

وفي مدة لويز الخامس عشر - من سنة خمس عشرة وسبعمائة وألف إلى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف - حازت فرنسا اللوران والكورسكة، لكن لم يكن لها في ذلك الوقت منهج سياسي تسير عليه، أي لم تكن سياستها محصورة يقتدي الخلف فيها بالسلف؛ فإنها حاربت في فائدة النمسة من سنة ست وخمسين وسبعمائة وألف إلى سنة ثلاث وستين وسبعمائة وألف، وتركت

(١) الأَوْج: القمة. (م).

التعرض في انقسام بولونيا من سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف إلى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف وفوتت الفرصة التي منحت لها في أخذ الهند، من سنة أربعين وسبعمائة وألف إلى سنة ست وخمسين وسبعمائة وألف، وبعد ذلك ضيعت مستعمراتها الخارجية، غير أن أهلها كانوا في ذلك الوقت في مقدمة الأمم بالعلوم والمعارف، وكان لسانهم مستعملاً في سائر نواحي أوروبا، ومرغوبًا في تعلمه.

ثم في مدة لويز السادس عشر انتقمت فرنسا من أنكلترة بإعانة أهل أمريكا حرصًا على استقلالهم بحكمهم، وذلك من سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف إلى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وألف. ثم في سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف وقعت الثورة الفرنساوية التي ساقت الملك لويز السادس عشر إلى مقتله، وعوضت الملك بالربوبيلك (أي الجمهورية) في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وألف، وأعطت الأمة الكونستيتوسيون مؤسَّسًا على الحقوق الإنسانية.

وقد وضع هذا الانقلاب الفرنساوي مبدأ تاريخ جديد للاجتماع الإنساني؛ حيث غيَّر حال الناس إلى طور جديد، بالانتقال من ربقة العبودية إلى تمام الحرية، كما كانت ثورة أنكلترة مبدأ تاريخ لدولة مُنَظَّمَة.

هذا وينبغي أن نذكر هنا بعض أسباب هذه الواقعة التي تولدت منها حرية أوروبا، وكيف كان حال الأمة الفرنساوية قبلها، وإلى ماذا آلت إليه بعد.

فاعلم أن فرنسا لم يكن لها قبل ذلك التاريخ كونستيتوسيون ولا إدارة منظمة، وكانت حالها في السياسية والاقتصاد سيئة جدًّا، بحيث لا يمكن تحملها بوجه.

وكانت أرضها منقسمة إلى إيالات، بعضها عدو لبعض، والناس متوزعون على طبقات متضادة، وكل الأمور كانت تعتبر جزئياتها لاعتبار شخصيات أفراد الناس، بمعنى أنهم كانوا لا ينظرون في الأمور بما تقتضيه كليات الأحوال، بل يقتصرون على الشخصيات التابعة للأغراض الخصوصية، فمن كانت له حظوة عند الملك أو بعض حاشيته، أو حماية ممن لاذ بهم نال بغيته، ومن لا فلا. وكانت الصناعات وقابليات المعارف محجوزة بقيود لا انفكاك لها، والخطط الدينية والمدنية والعسكرية كانت دائمًا مقصورة على طائفة من الناس، ولم يكن يسوغ للإنسان أن يتعاطى صناعة من الصناعات إلا في حالة مخصوصة، وبشروط معتبرة، كدفع المال ونحوه. وبعض المدن كانت لها مزايا خصوصية في التراتيب الداخلية، وفي توزيع الأداء ونحوه. وسائر الوظائف كانت مؤبدة تحت يد أفراد من الناس في جميع جهات المملكة. وكان العدد القليل من ذوي الثروة والجاه يقاوم جمًّا غفيرًا من الفقراء والمساكين، وثِقَل الأداء ونحوه كان كله يحمّل طبقة واحدة من الناس وهم الضعفاء منهم، أما الأعيان وأهل الكنيسة فكانوا يملكون ما يقرب من ثلثي أرض فرنسا، ولا يؤدون عليه شيئًا، والثلث الذي بيد العامة يوظف عليه الأداء للدولة أولاً ثم عوائد كثيرة للأعيان، ثم العشر للكنيسة، مع

ما كانت تتحمله أراضيهم من إفساد زروعها من مرور الأعيان بها عند الاصطياد، ومن الصيد نفسه؛ حيث إن الاصطياد كان محجَّرًا على العامة، ولو في أراضيهم، إذ هو من خصائص الأعيان.

والأداء على الأقوات إنما كان على العامة، واستخلاص المجابي كان بالقهر من دون أدنى ترتيب. والأعيان إذا امتنعوا من أداء ما يوظف على كسبهم لا يلزمهم بالامتناع شيء، بخلاف العامة فإنهم كانوا يعاملون في أموالهم وأبدانهم معاملة سيئة. فمن لم يعجل بدفع ما يطلب منه فقد عرض ماله للتلف وبدنه للسجن، وما كانوا يرتزقونه بعرق الجبين يدفعونه في مصالح الطبقة العليا من الأعيان ثم يدافعون عنهم بأنفسهم.

وأقل شقاوة من هؤلاء أهل الصناعات؛ فإنهم لعدم الملك عندهم لا يلزمهم من الأداء ما يلزم غيرهم من أرباب الأملاك، لكنهم لا يحصلون على شيء من المنح التي يستحقونها بتزيينهم المملكة بنتائج أفكارهم، وتحصيلهم لها بذلك ثروة وشهرة بين الممالك.

وكانت الأعيان تتولى الأحكام في بعض إيالات المملكة الراجعة لهم، وأما الإيالات التي لم يكن بينها وبين الخطَّة الملكية واسطة فكانت الخطط بها تُباع وتُشتَرى.

وكان فصل الأحكام في الكل بطيئًا، وفي الغالب يترجح في الحكم جانب من وفر العطية، وكثيرًا ما يتراضى الخصمان على ترك المخاصمة بالمرة أخذًا بالأصلح لهما لكثرة المصاريف.

وفي نوازل الجنايات كانت العامة تعامل بالغلظة والفظاظة بخلاف غيرهم؛ حيث كانت رسوم الحرية الشخصية عند حكامهم منهوكة؛ بحيث لا يراقبون في الإنسان إِلاًّ[1] ولا ذِمَّة.

ثم المطابع كانت تحت نظر رقباء من جانب الدولة؛ بحيث لا يرخصون لأحد في طبع ما لا يُستحسن عندهم.

وبالجملة لم يكن للعامة حق عندهم ولا حرمة، كما لم يكن للسلطة الملكية حد تقف عنده، ولا نهاية، فأحوال فرنسا في ذلك الوقت كانت مرتبكة بدون تقييد ولا تنظيم. ولم تكن المملكة محمية من الأجانب كما ينبغي، ودخلتها الخيانة بواسطة صاحبات لويز الخامس عشر، وأشرف نظامها على الاختلال من ضعف وزراء لويز السادس عشر وبعد ذلك ضيعت شرفها بترك إعانة هولاند وبولاند؛ حيث كانت حليفة لتينك الدولتين، ولم تدافع الأجانب عند استيلائهم عليهما.

ولمثل هذه الأسباب قامت الأمة الفرنساوية على الدولة ورجالها، وكانت ثورة أبدلت الكيفية القديمة المختلة الإدارة بكيفية منظمة لائقة بالشرف الإنساني،

(١) إلاًّ: الإل: العهد والأمان أو القرابة أو الجوار. (م).

وعوضت الاستبداد بالقوانين القابضة لأيدي الحكام عن تجاوز الحدود والتفضيل بين الناس بالتسوية بينهم في الحقوق.

فتسَرَّحت الصناعات مما كان يعوقها، وحُميت الفلاحة من تسلط الأعيان ومن أداء العشر للكنائس، وكفت عن الأملاك موانع التحبيس، واتحدت أحوال المملكة وتصرفاتها.

وقد استقر حكم الدولة الجمهورية بفرنسا في الحادي والعشرين من اشتمبر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وألف، واستمر ذلك إلى الثامن عشر من مايه سنة أربع وثمانمائة وألف.

ففيها ارتقى نابليون الأول على تخت السلطنة، من وظيفة قنصل أول للربوبليك، وهو الذي طَوَّع أوروبا الغربية لفرنسا مدة سنين، لكنه ضيع خيار عسكره في حروب إسبانيا والروسية سنة اثنتي عشرة وثمانمائة وألف، ثم أزيل عن كرسيه في سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف.

وحينئذ رجعت عائلة البوربون إلى الملك، ورجعت فرنسا إلى حدودها القديمة قبل الثورة.

فأعطى الملك لويز الثامن عشر الكونستيتوسيون للأمة، وجعل لهم نواب يناضلون عنهم، وهم أهل القمرة[1]. وفي سنة خمس عشرة وثمانمائة وألف ظهر نابليون مرة أخرى.

لكن بحرب واترلو تَعَيَّن زوال الإمبراطورية الأولى بالكلية، ورجع لويز الثامن عشر إلى فرنسا ثانيًا، ودام الملك في عقب الفرع الأول من عائلة البوربون إلى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف، ثم سقط هذا الفرع في أثناء الثورة لعدم ميل قلوبهم للدولة القانونية.

وعوّض عنه في الملك الفرع الثاني من تلك العائلة، وهو عائلة أورليان، وفي الرابع والعشرين من فبراير سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف وقعت ثورة على حين غفلة، رجعت بها الدولة الجمهورية.

ثم في سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف رجعت الإمبراطورية، وارتقى على تخت السلطنة لويز نابليون، باختيار سبعة ملايين وأربعة وعشرين ألفًا ومائة وتسعة وثمانين من العامة ضد مائتين وثلاثة وخمسين ألفًا ومائة وخمسة وأربعين منهم، ولقَّب نفسه بالثالث؛ لأن نابليون الأول كان تنازل عن الملك لابنه الصغير الملقب بنابليون الثاني بعد حرب واترلو، وقبله أهل القمرتين، إلا أنه لم يتم له أمر كما تقدم.

(١) أهل القمرة: مجلس النواب. (م).

الفصل الثاني
في ذكر أسماء ملوك فرنسا وتاريخ ولايتهم وانتهائها

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك ونسبهم
العائلة الأولى الميرونجيانية		
420	427	فارامونـد
427	448	كلوديون
448	458	ميروي
458	481	شيلدريك الأول
481	511	كلويس الأول
511	524	كلود ومير في أورليان
511	534	تييري الأول في ماتس أي أوسترازيا
534	548	تيود وبرت الأول فيها أيضًا
548	555	تيود وبالد فيما ذكر
511	558	شيلد برت الأول في باريس
558	561	كلوتير الأول في صواصون 511-558 ثم في فرنسا كلها
561	575	سيجبرت الأول في أوسترازيا
575	596	شيلد برت الثاني فيها أولاً ثم فيها وفي بورغونيا، من سنة 593 بعد وفاة غوانتران الآتي ذكره: نيود وبرت الثاني في أوسترازيا

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك ونسبهم
596	612	كاريبرت الأول في باريس
561	567	غونتران في أورليان وبورغونيا
561 596	593 613	تييري الثاني في أورليان وبرغرونيا أولاً ثم فيهما وفي أوسترازيا من 612 بعد تيودوبرت الثاني المار ذكره
567	584	شيلبريك الأول في صواصون أولاً 561 ثم فيها وفي باريس
584	628	كلوتير الثاني في صواصون إلى 613 ثم في فرنسا كلها
628	631	كاريبرت الثاني في أكويتانيا
628	638	داغوبرت الأول في أسترازيا 622 إلى 628 ثم في فرنسا كلها
638	656	سيجبرت الثاني في أوسترازيا
638	656	كلويس الثاني في نوستريا وبورغونيا
656	670	كلوتير الثالث فيهما أيضًا
670	673	شيلدريك الثاني في أوسترازيا إلى 670ثم في فرنسا كلها
674	679	داغوبرت الثاني في أوسترازيا
679	691	تييري الثالث في نوستريا 673 إلى 679 ثم في فرنسا كلها
691	695	كلويس الثالث
695	711	شيلد برت الثالث
711	715	داغوبرت الثالث
717	719	كلوتير الرابع في أوسترازيا أولاً إلى 717 ثم في فرنسا كلها
715	720	شيلبريك الثاني في نوستريا وبورغونيا
720	737	تييري الرابع فيهما أيضًا
737	742	فترة خمس سنين
742	752	شيلدريك الثالث

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك ونسبهم
العائلة الثانية الكارلونجيانية		
687	714	بابن دوهريستال استولى دوكا في أسترازيا
714	715	تيود والد
715	741	شارل مارتل
741	747	كارلومان ثم انخلع
752	768	بابن لبراف مع كارلومان 741 ثم ملك فرنسا
768	771	كارلومان ثم انخلع
768	814	شارلمان أي شارل الكبير مع كارلومان إلى 771 ثم على فرنسا كلها
814	840	لويز الأول الملقب بالدَّيِّن Le pieux
840	877	شارل الملقب بالأصلع
877	879	لويز الثاني الملقب بالتمتام الألكن Le begue
879	882	لويز الثالث وكارلومان
882	884	كارلومان وحده
884	887	شارل الملقب بالغليظ كان إمبراطور ألمانيا أيضًا
887	898	أود أو أودون أول ملك في الكاباسيان
898	923	شارل الثالث الملقب بالساذج، بويع ملكًا في 893 بمدينة رامس، فطرد منها، ثم استولى على فرنسا كلها بعد أودون
922	923	روبرت الأول أخو أودون، بويع في صواصون
923	936	راوول من أقارب الكاباسيان
936	954	لويز الرابع الملقب دوترمار، أي القادم من وراء البحر إشارة إلى كونه تربى في أنكلترة

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك ونسبهم
		العائلة الثانية الكارلونجيانية
954	986	لوتار
986	987	لويز الخامس الملقب بالكسلان
		العائلة الثالثة الكاباسيانية
987	996	هوغ كابات
996	1031	روبرت الثاني
1031	1060	هنري الأول
1060	1108	فيليب الأول
1108	1137	لويز السادس الملقب بالغليظ
1137	1180	لويز السابع الملقب بالصغير
1180	1223	فيليب الثاني أوغست
1223	1226	لويز الثامن الملقب بالأسد
1226	1270	لويز التاسع المشهور بصان لوي
		الفرع البكري المعروف بالفرع الفليبي
1270	1285	فليب الثالث الملقب بالجسور
1285	1314	فليب الرابع الملقب بالجميل
1314	1316	لويز العاشر الملقب بمُعْجِبِ نفسِه
	1316	جان الأول المولود بعد أبيه وهو ابن لويز العاشر
1316	1322	فليب الخامس الملقب بالطويل، وهو عم جان
1322	1328	شارل الرابع الملقب بالجميل عم جان أيضًا
		صنو ثان من الفرع الفليبي، ويقال له الوالوي، وهم من بني فليب الثالث من عقب أخ لفليب الرابع وهو شارل دو والوي

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك ونسبهم
		الفرع البكري المعروف بالفرع الفليبي
1328	1350	فليب السادس دو والوي ابن شارل المذكور
1350	1364	جان الثاني الملقب بالمليح، مات رهينًا ببلاد الأنكليز
1364	1380	شارل الخامس الملقب بالعاقل
		أول فرعي دوحة شارل الخامس
1380	1422	شارل السادس الملقب بالحبيب
1422	1461	شارل السابع الملقب بالمنصور
1461	1483	لويز الحادي عشر
1483	1498	شارل الثامن
		ثاني فرع الدوحة المذكورة ويقال له والوي
1498	1515	أروليان وهم ولد شارل الخامس من ابنه الثاني لويز دوك أورليان
		نسل البكر من ذلك ويقال لهم أورليان
		أورليان وهم من بني شارل دوك
		أورليان بكر لويز المذكور
		لويز الثاني عشر الملقب بأبي العَامَّة
		نسل صنو البكر مما ذكر، ويقال لهم أورليان أنغولام، من عقب جان كونت
		دانغو لام ثاني أولاد لويز
		دوك أورليان المذكور وحفيد شارل الخامس
1515	1547	فرنسوا الأول الملقب بأبي الآداب أي علوم الأدب
1547	1559	هنري الثاني

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك ونسبهم
ثاني فرع الدوحة المذكورة ويقال له والوي		
1559	1560	فرنسوا الثاني
1560	1574	شارل التاسع
1574	1589	هنري الثالث، مات قتيلاً
الفرع الثاني من العائلة الكاباسيانية		
		صنو الفرع الفليبي، ويقال له الفرع الروبرتي أو بيت بوربون، وهم من بني روبرت دوكلارمون سادس أولاد صان لوي وأخي فليب الثالث
1589	1610	هنري الرابع دو بوربون
1610	1643	لويز الثالث عشر الملقب بالمنصف نسل البكر من بيت بوربون المذكور
1643	1715	لويز الرابع عشر الملقب بلويز الكبير
1715	1774	لويز الخامس عشر الملقب بالمحبوب
1774	1792	لويز السادس عشر، عزل في أغسطس سنة 1792، وقطع رأسه في يناير سنة 1793 بحكم مجلس النواب لويز السابع عشر ابن لويز السادس عشر لم يتول الأمر الدولة الجمهورية
1792	1804	الاتفاق
1792	1795	الدير كتوار
1795	1799	القنصلية أقيم فيها ثلاثة قناصل، منهم نابليون
1799	1804	بونابارت بخطة قنصل أول وكامبا سارس ثانٍ ولوبرون ثالث
الإمبراطورية		
1804	1814	نابليون بونابارت جلس على كرسي فرنسا بلقب نابليون الأول إمبراطور الفرنسيس في الثامن عشر من ماي سنة 1804

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك ونسبهم
		العودة الأولى
1814	1815	لويز الثامن عشر أخو لويز السادس عشر
		رجوع الإمبراطورية
	1815	نابليون الأول في المرة الثانية ثلاثة أشهر وثلث، تعرف هذه المدة في التاريخ بمدة المائة يوم نابليون الثاني تنازل له أبوه في 22 يونيو بعد واقعة واترلو، وقبله السناتو ومجلس النواب لكنه لم يتول
		العودة الثانية
1815	1824	لويز الثامن عشر المذكور
1824	1830	شارل العاشر أخو لويز ثم خلع في آخر يوليو
		نسل صنو البكر من بيت البوربون، ويقال لهم بوروبون أورليان، وهم من بني فليب أخي لويز الرابع عشر
1830	1848	لويز فليب الأول ملك الفرنسيس، خلع في فبراير واستوطن سراية كلارمونت بأنكلترة، ومات فيها في 26 أغسطس سنة 1850 ولقب بملك الفرنسيس لأنه لم يكن من أولياء العهد؛ لوجود وريث الكرسي من بيت البوربون إذ ذاك في قيد الحياة، وهو الكونت دو شامبور حفيد شارل العاشر من ثاني ولديه، لقب نفسه بهنري الخامس
1848	1852	الدولة الجمهورية الثانية، نشأت في 24 من فبراير
1848	1852	لويز نابليون صار رئيس الدولة الجمهورية في العاشر من دجمبر 1848
		الإمبراطورية الثانية
1852		لويز نابليون بونابرات ترقى إلى الإمبراطورية في الثاني من دجمبر بلقب نابليون الثالث إمبرطور الفرنسيس

الفصل الثالث
في وصف فرنسا

اعلم أن فرنسا إحدى الممالك الأوروباوية الغربية، موقعها بين سبع درجات وتسع دقائق من الطول الغربي، وخمس درجات وست وخمسين دقيقة من الطول الشرقي. وبين اثنتين وأربعين درجة وعشرين دقيقة وإحدى وخمسين درجة وخمس دقائق من العرض الشمالي.

وحدُّها من ناحية الشمال بحر المانش وبوغاز كالي الفاصل بينها وبين أنكلترة، ثم البلجيك والوكسنبورغ، وإيالات بروسية وباواريا التي على شاطئ وادي الرين، وشرقًا الدوكاتو الكبرى من بادن والسويسرة وإيطاليا، وقبلة البحر المتوسط أي بحرنا هذا وإسبانيا، وغربًا البحر المحيط الأطلانتي.

وقدر امتدادها مما بين الشمال والغرب إلى ما بين القبلة والشرق ألف كيلو ميتر وأربعة وستون كيلو ميترًا، ومما بين القبلة والغرب إلى ما بين الشرق والشمال تسعمائة وأربعة وعشرون كيلو ميترًا.

وقدر مساحتها بالتكسير خمسمائة واثنان وأربعون ألفًا وثلاثمائة وستة وتسعون كيلو ميترًا مربعًا.

وعدد سكانها بلغ في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف سبعة وثلاثين مليونًا وثلاثمائة وستة وثمانين ألفًا ومائة وإحدى وستين نفسًا، منها بمدينة باريس وهي تختها - مليون وستمائة وستة وتسعون ألفًا ومائة وواحد وأربعون.

ومن سكان فرنسا خمسة وثلاثون مليونًا وسبعمائة وأربعة وثلاثون ألفًا وستمائة وسبعة وستون متمذهبون بالمذهب الكاثوليكي الذي رئيسه البابا، ومليون وخمسمائة وواحد وستون ألفًا ومائتان وخمسون بروتستانت، ومائة ألف وستة آلاف من اليهود، والباقي على عقائد مختلفة.

وبشطوط فرنسا عدة جزر راجعة إليها، مثل جزيرة كورسكة وجزر يارس في البحر المتوسط، وجزر ري وأوليرون وويسان في البحر المحيط، ويرجع إلى فرنسا زيادة على ما ذكر مستعمرات في جهات مختلفة، ففي قسم إفريقيا الجزائر في الناحية الشمالية منها وسينغال وجزيرة غوري في الجهة الغربية، وجزيرة صانت ماري وجزيرة بوربون في الجهة الشرقية منها، عدد سكان جميعها ثلاثة ملايين ومائتان وثمانية عشر ألفًا وأربعمائة وخمس وعشرون نفسًا، منهم للجزائر مليونان وتسعمائة وتسعون ألفًا ومائة وأربع وعشرون نفسًا، والمسلمون منهم مليونان وسبعمائة وثمانية وسبعون ألفًا ومائتان وواحد وثمانون.

والباقي منهم مائة وخمسة وثمانون ألفًا ومائة من الكاتوليك، وستة آلاف وسبعمائة وستة وثلاثون من البروتستانت، وتسعة وعشرون ألفًا وسبعة من اليهود.

وتربيع مساحة أرض الجزائر ثلاثمائة وتسعون ألف كيلو ميتر، وفي قسم أراضي بوند يشري وكاريكال وماهيويناون وشاندرنغور في الهند، وسايغون في الكوشنشين، وعدد سكانها جميعها ثلاثمائة ألف وتسعة عشر ألفًا وثمانمائة وثمان وستون نفسًا.

وفي قسم أمريكا جزيرة صان بيير، وجزيرة ميكلون، وجزيرة مارتينيك، وجزيرة غواد لوب، والغيان الفرنساوية، وعدد سكانها جميعها ثلاثمائة ألف وثلاثة عشر ألفًا وخمسمائة وثمان وستون نفسًا.

وفي قسم الأوقيانوس جزر مركيز وتاييتي، وعدد سكانها جميعها مائة وثمانية وسبعون ألفًا وتسعمائة وعشرون نفسًا.

فجملة رعايا فرنسا في الأقسام الخمسة أحد وأربعون مليونًا وأربعمائة وستة عشر ألفًا وتسعمائة واثنتان وأربعون نفسًا.

وكانت فرنسا في المدة السالفة ملكت من أمريكا لوزيانة والكاندة، وصان دومنيك وصانت لوسي، وتاباغو، وملكت بآسيا مراكز عديدة، كان أعظمها مركز سورات، لكنها ضيعت جميع ذلك فيما بعد خصوصًا وقت حروب نابليون الأول مع الأنكليز.

وأما حدودها باعتبار الطبيعة الأرضية فيحيط بفرنسا من ناحية الشرق والقبلة سلسلة جبال بعضها شامخ جدًّا، كالجورا وجبال الألب في الناحية الشرقية، وجبال الووزج بين الشمال والغرب، ويوجد مع النزول من القبلة إلى الشرق ربى الشمبانيا الشرقية، وبورغونيا، وجبال فوريز وجبال أوارن وساوان، وفي الناحية القبلية جبال بيريني الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا.

وبها من الأودية الكبار ستة، وهي الرَّين والموز، ومأخذهما من أرض فرنسا قليل، والرون والغارون واللوار والسان.

وبها أنهار وأودية كثيرة غير ما ذكر. والأنهار تصب في الأودية الكبيرة فتسقي الأراضي، وتجري بها السفن، وبها خلج - أي قنوات - مستحسنة الكيفية متقنة الصنعة، كخليج فرنسا، وخليج وسطها، والخليج الكائن بين وادي رون ورين، وخليج بورغونيا، والخليج المحاذي لوادي لوار، وخليج سانتر، والخليج المار من نانت إلى براست، والقناة المارة من نيورت إلى روشال، وقناة لوانغ وبريار.

ويوجد بفرنسا طرق عديدة عمومية، تتصل بها الطرق المعتادة، وست طرق كبيرة حديدية، وهي أمهات الطرق، كالتي بين باريس ومرسيليا.

والطرق الحديدية الفرعية كثيرة، وطول جملة الذي تَمَّ منها في سنة أربع وستين وثمانمائة وألف ثلاثة عشر ألفًا وسبعة وخمسون كيلو ميترًا، والذي فيه العمل ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنا عشر كيلو ميترًا.

وبها كثير من مقاطع الفحم الحجري الكثيرة الفائدة، والقطران الأرضي، ومقاطع الحديد والرصاص كثيرة بها، ومقاطع النحاس قليلة، والفضة أقل، والذهب بحيث لا يستخرج لعدم قيامه بالمصاريف.

وبها عدة مقاطع من الرخام المتشفف، والمرمر والكذان، والرخام الجيد، وحجر الطبع، وغير ذلك من أنواع الحجر المنتفع به، وأنواع الجص والتراب الكبريتي والزاجي، ونحوها، والمياه المعدنية، والعيون الملحية، والسباخ الشهيرة.

وغالب أراضيها خصب، وبها سهول تنبت الحبوب، ومن مروجها ما هو طبيعي ومنها ما هو مزدرع، وبها بساتين كروم جيدة، ومع هذا يوجد بها أراضٍ معطلة كائنة بين القبلة والغرب على شاطئ البحر المحيط.

ومن نباتات أرضها غير القمح والشعير وغيرهما من الحبوب، الدخان والقنب، إلا أنهم ينتفعون بخيوطه فقط، وحبوب الزيوت على اختلاف أنواعها، والفول والجلبان، والغرفالة واللوبيا، والقسطل، والبطاطا، وسائر الثمار على اختلاف أنواعها. ويزرع بها اللفت الأحمر والعنب بكثرة، ويستخرج من الأول السكر ومن الثاني المقطرات[1].

ويربى بها دود القزّ بكثرة، والنحل، وأنواع الطير والحيوانات المستخدمة والأنعام.

---

(١) المقطرات: الكحوليات. (م).

ومنذ سنين رُبّي بها الغنم المرينوس المجلوب من إسبانيا، ومعز التبت - وهو صقع بآسيا الوسطى - اللذان شعرهما يشبه الحرير لينًا.

وأعمال اليد بها في غاية الإتقان، لا يسلِّمُون جودة الصنائع وأعمال اليد لأمَّة من الأمم إلا للأمَّة الإنكليزية في عمل المكينات، وبعض الأقمشة القطنية وغيرها في الكثرة ورخص أسعارها، وفيما عدا ذلك فإنهم متميزون عمن عداهم بإتقان الجوخ، وجميع أقمشة الصوف والحرير والكتان والقطن، وما يستعمل من الجلود، وكذا الصيني والفخار المطلي، والبلور، وما شاكل ذلك.

وكذا صناعة الصياغة، والآلات التي يستعان بها على سائر الصنائع وعمل الكراريس[1] وغير ذلك.

كما أن دائرة المتجر بها في غاية الاتساع، داخل البلاد وخارجها، وأصول السلع التي تخرج من فرنسا راجعة على سبيل الإجمال إلى الأقمشة، من حرير وقطن، وكتان وصوف. والأشربة من سائر المقطرات والزيوت، والموبيلية - أي أثاث البيوت - وأنواع اللباس، والأسلحة، والكتب، والجلود، وأصول ما يدخل إليها إجمالاً مثل القطن والدخان، والسكر والقهوة، والنيلج والكاكاو والكشنيلية، وخيوط الكتان، والزيوت بأنواعها، والقطران، والأقمشة، والذهب والفضة، والقصدير والحديد، والنحاس.

(١) الكراريس: العربات التي يجرها الخيل، جمع كروسة، وهي معربة. (م).

ودخل أهل مملكة فرنسا من جميع ما ذكر في السنة كثير جدًّا، كما يأتي تفصيل بعضه.

والأمة الفرنساوية أقل الأمم اختلاطًا، بمعنى أنهم أقرب الناس إلى اتحاد الجنس. ومع ذلك فإن أهل الجنوب منهم لا يشبهون أهل الشمال، لا سيما خارج المدن الكبيرة. ولم تزل سيماء الألمان ظاهرة في وجوه الألزاس، وفي بعض جهات لوران، وصور الغال بادية في البريطانية السفلى، وصور الباسك في سكان جبال بيريني. والأمة في الأصل متكونة من أخلاط الغال، وهم فرع من السالت والكيمريس، أو البالج والأبيار أو الباسك، ثم من الفينيقيين، ثم من الإغريق والرومان، ثم من الفرنكس المتقدم ذكرهم، ومن الالان والغوت، والبورغوند والسواف.

واللسان الفرنساوي مشهور بحسن التنظيم والإيضاح، حتى كاد يستعمل في سائر جهات أوروبا.

وأما الديانات بجميع أنواعها فغض عنها الطرف بفرنسا، فلا يمنع أحد من التدين بما شاء، إلا أن غالب الفرنسيس متمذهبون بالمذهب الكاتوليكي.

الفصل الرابع
في نظام الإدارة السياسية

اعلم أن نظام الإدارة السياسية بفرنسا ناشئ عن موافقة جمهور الأمة، في الحادي والعشرين والثاني والعشرين من دجمبر سنة إحدى وخمسين وثمانمائة وألف، ومؤسَّس على قواعد المعاهدة المسماة عندهم بالكونستيتوسيون، المعطاة لهم في الرابع عشر من يناير سنة اثنتين وخمسين، وعلى عدة شروط صدرت بعد ذلك التاريخ.

وهذا الكونستيتوسيون منشؤه أن رئيس الربوبليك - أي الجمهورية - استشار العامة، وبمساعفتهم أُسِّس على الأصول الآتية التي أولها:

أن يبقى الرئيس مدة عشر سنين ثم يطالب في تصرفاته.

الثاني: الوزراء يُطالبون لرئيس الدولة فقط[1].

الثالث: مجلس الدولة المركب من الأعيان المنتخبين مكلف بإحضار القوانين، والمدافعة عنها أمام أهل القمرة.

---

(١) الوزراء يُطالبون لرئيس الدولة فقط: يُساءلون منه فقط. (م).

الرابع: أهل القمرة - أي مجلس نواب العامة - يتحاورون في القانون المراد تحريره، ويقترعون عليه، وأعضاء هذا المجلس يختارهم العامة.

فبرز الكونستيتوسيون مؤسَّسًا على هذه الأصول، في الرابع عشر من يناير سنة اثنتين وخمسين المتقدم ذكرها.

وتعينت السلطة الحكمية بأن يتصرف رئيس الربوبليك بواسطة الوزراء ومجلس الدولة، ومجلس السناتو وأهل القمرة، والسلطة التأسيسية، بأن تكون باتفاق الرئيس مع أهل القمرتين، أعني السناتو ومجلس النواب.

وما أشير إليه في مقدمة هذا الكتاب من أن وضع أصول القوانين لا يكون إلا بموافقة غالب الرشداء من أهل المملكة... إلخ، فهو في مثل الأصول المذكورة تَأَمَّلْ. ثم بمقتضى المرسوم الذي صدر من مجلس السناتو في نوفمبر من تلك السنة استتبت المنزلة السلطانية، وصار لويز بونابارت رئيس الدولة والجمهورية إمبراطور الفرنسيس، أي سلطان الفرنسيس، وتسمى بنابليون الثالث. وهذه طالعة أوامره الرسمية:

السلام من نابليون إمبراطور الفرنسيس بنعمة الله وإرادة الأمة، وسوّغ له أن يجعل وراثة الملك في ذريته الشرعيين من الذكر إلى الذكر، وإذا لم يكن له عَقِبٌ فإن له أن يتبنى أحد الذكور من سلالة إخوة نابليون الأول، وهذا التبني يقرر في مرسوم من السناتو، والتغيير المذكور المتعلق بالكونستيتوسيون عرض

على العامة وقبلوه. ومن ذلك الوقت صدر ترتيبه على ما يأتي ذكره، وهو أن الإمبراطور هو رئيس المملكة، وبيده (العقد والحل) في القوة البحرية والبرية، يشهر الحرب، ويعقد شروط الصلح والمعاهدة والتجارة، ويسمِّي سائر الموظفين، ويعمل التراتيب اللازمة لإمضاء القوانين، وتصدر الأحكام باسمه، ويعرض على القمرة ما يروم إحداثه من القوانين. وله أن يعفو عن الجناة ولو في الحق الخاص، ويقبل سائر القوانين التي يوافق عليها مجلس السناتو ويمضيها، وله أن يوقف الحرية حال المحاصرة عن وطن أو قسم من المملكة، إن اقتضى الحال ذلك لوقوع هرج ونحوه، بشرط أن يعرف بذلك السناتو في أسرع وقت ممكن.

هذا، وإن الشروط المتجرية التي يحررها الإمبراطور مع الدول الأجانب تكون قانونًا للعامة، فيما يتعلق بتبديل الأسعار وجميع الخِدَم، والمشروعات المعلقة بالمصالح العمومية تصدر بأمر أو بترخيص منه.

وكل وزير يطالب بخدمته للدولة، ويطالب مجموعهم - أعني مجلس الوزراء - حيث كان مرجع المطالبة في السياسة العمومية إلى ذات الإمبراطور، ومجلس الدولة - المسمى كونسيل ديتا - مكلف بإعطاء الرأي في التصرفات بدون أن يعطلها عن مرادها.

وأعضاء هذا المجلس يسميهم الإمبراطور، الذي هو رئيسهم الطبيعي، وله تبديلهم متى شاء. وتنقسم خدمة هذا المجلس إلى ستة أقسام تحت رئاسة رؤساء يُنصِّبهم الإمبراطور:

قسم لتهذيب القوانين الجديدة والأحكام والأمور الخارجية، وقسم لفصل النزاع الواقع بين المتوظفين فيما يخص الإدارة.

وقسم للنظر في المصالح الداخلية، كالتعاليم العامة، وترتيب إجراء المناسك الدينية، ونحوها.

وقسم للأعمال في المصالح العمومية، من الزراعة والتجارة ونحوهما، وقسم للمصالح العسكرية برًّا وبحرًا.

وقسم لترتيب المجابي والمصاريف. وتجتمع الأقسام المذكورة تحت رئاسة الملك أو نائبه للتأمل في الأمور المهمَّة مما ذكر وغيره.

وللوزراء الحضور في هذا المجلس، ولهم آراء يعتد بها.

ومجلس السناتو هو المحافظ على الكونستيتوسيون والحرية العمومية، كما سلف. وله التداخل في فصل كل نازلة تحدث في غيبة مجلس وكلاء العامة، وشرح مقاصد القانون، وإبطال حكم مستبد أو مخالف للقانون، كما أن له أن لا يمضي ما اتفق عليه مجلس وكلاء العامة من القوانين، إذا رآه مخالفًا لأساس الكونستيتوسيون، وأن يتصرف في الكونستيتوسيون بما فيه صلاح، إذا كان ذلك بطلب من الملك وكان غير مضرٍّ بالأصول.

وهذا المجلس هو الذي يقبل عرض أحوال السكان وتَشَكِّيهم من سائر الأمور. وله عرض تقرير في ذلك على الملك إن ظهر له، كما أن له التداخل في إيجاد قانون جديد بدون أن يطلب ذلك منه، بمعنى أنه يستأذن الإمبراطور في التقرير الذي يعرضه عليه في إحداث ما تعم مصلحته.

ثم إن هذا المجلس يتركب من مائة وخمسين عضوًا في الأكثر، منهم كل من بلغ من أمراء العائلة الملكية من العمر ثماني عشرة سنة، وكبراء الدين، أي الكردينالات، والماريشالات الذين حازوا نهاية المراتب العسكرية، وأمراء البحر الذين لهم رتبة ماريشال.

وولاية المذكورين في المجلس تكون بمجرد وصولهم إلى تلك الدرجة، من غير ولاية خاصة؛ لأنه قد جعل من حقوق وظيفتهم أن يكونوا أعضاء في المجلس المذكور، وبقية الأعضاء ينتخبهم الإمبراطور من الأعيان بوظيفة عمرية، كما ينتخب الرؤساء الأُوَل والثواني لهذا المجلس، ولمجلس النواب أيضًا.

وأما أهل هذا المجلس الأخير فإنهم يتأملون في صورة سائر القوانين التي يرام صدورها، ويقترعون عليها، وكذلك أمور الأداء وتعيين أصول مصاريف الدولة. وأعضاؤه تسميهم العامة، فكل خمسة وثلاثين ألف نفس ممن لهم حق الانتخاب ينتخبون واحدًا، ثم إذا تجاوز عدد المنتخبين في عمالة المقدار المذكور بأكثر من تسعة عشر ألفًا يختارون نائبًا آخر، وهكذا.

والدولة تقسم البلاد إلى دوائر للانتخاب، لكل دائرة ما تحتاجه من النواب وما يُفْضَل عن العدد المطلوب يضاف لدائرة أخرى، وتجدد النظر في التقسيم بعد كل خمس سنين؛ لتطَّلع على ما يحدث من زيادة أو نقصان في الأهالي المستحقين للانتخاب. وتدوم نيابة أولئك المختارين مدة ست سنين.

وفي قوة الإمبراطور أن يعطل مجلس وكلاء العامة لسبب من الأسباب السياسية، على شرط أن يطلب من الأهالي إعادة الانتخاب، وأن لا يتجاوز تعطيلهم ستة أشهر. والمتوظف في الدولة لا يكون نائبًا عن العامة، وكل من بلغ سنُّه من الأهالي إحدى وعشرين سنة يكون له حق الانتخاب بدون اعتبار كسب، إلا أن يكون قد حكم عليه بجناية تشين العرض، أو يكون ممن لا يحسن التصرف في نفسه.

وكل من بلغ سنه خمسًا وعشرين سنة يمكن انتخابه لمجلس وكلاء العامة. وينبغي أن تكون أسماء الأهالي الذين لهم حق الانتخاب مقيدة بجريدة، وأما المنتخب فلا يشترط أن يكون اسمه معلومًا قبل الاقتراع.

ولهذين المجلسين - أي مجلس السناتو ومجلس وكلاء العامة - تراتيب لتحسين إدارة خدمتهم، كتقسيم الأعضاء إلى عدة أقسام، تجتمع اجتماعات سرية للتأمل في النوازل قبل عرضها على الاجتماع العام ونحو ذلك.

واعلم أن أهل القمرتين - أعني مجلس السناتو ومجلس النواب - يقترعون في كل سنة عند ابتداء الخدمة على المعروض الذي يكون جوابًا عن خطبة الإمبراطور التي يلقيها عليهم، بعد ندبه إياهم للاجتماع، وعند المفاوضة في المعروض المذكور يحضر نواب من الدولة في القمرتين ليشرحوا لهم سياستها، ويناضلوهم عنها، وذلك المعروض هو المسمى عنهم بالأدريس، وقد يتضمن تلميحات وإشارات تنبي عن مقاصدهم من غير أن يخرجوا عن حدود الحقوق القانونية. ومباحثهم تتناول سائر متعلقات السياسة الداخلية والخارجية؛ لأن الدولة تعرض على ذينك المجلسين سياساتها على العموم، وترسل إليهما المكاتيب السياسية الواردة إليها والصادرة عنها. كما أن خطبة رئيس الدولة التي تفتتح بها الخدمة من المجلسين، تتضمن الإشارة إلى السياسة الداخلية والخارجية المفصلة في حججها المعروضة.

وكل من المجلسين المذكورين يكلف كومسيونًا، أي جماعة منتخبة منه لتحرير الجواب عن الخطبة المذكورة. وقد تقع المجادلة أو لا، ويحضر غالبًا مكلف من الدولة لإيضاح ما يشكل عليهم من مقاصدها. والكومسيون المشار إليه يجيب عن سائر المقاصد التي أشار إليها رئيس الدولة، إما بالقبول والثناء أو بعدم الإقناع والارتضاء.

ثم تُوَزَّع نسخ جواب الكومسيون على سائر أعضاء المجلس، وتقع المفاوضة فيه بعد ذلك علنًا، وهناك يلتمس كل عضو ما يراه من التبديل والتغيير. وقد

كان التبديل في المدة الأولى مُحَجَّرًا على مجلس وكلاء العامة، وإنما يلقي إليهم صورة الجواب فيقبلونه على ما هو عليه أو يمتنعون من قبوله، ثم أبيح لهم التصرف فيه.

ووزير الدولة – وهو غير وزير الداخلية – هو المكلف بمتعلقات خدمة الملك مع القمرتين، ولا يتعاطى غير ما ذكر من الإدارات، ويُعينُه في المناضلة المذكورة رئيس مجلس الدولة ونائبه، وأعضاء منه في أمور خصوصية.

واعلم أن المباحثة في الأمور السياسية بمقتضى القوانين التي قررناها لم تكن متيسرة لمجلس وكلاء العامة ومجلس السناتو إلا في وقتين: وقت جوابهم عن خطبة الإمبراطور، ووقت تأملهم في مصاريف الدولة.

ثم رُخِّصَ لأعضاء كل من المجلسين – بمقتضى المنشور الذي صدر في ثامن عشر يناير سنة سبع وستين وثمانمائة وألف – في سؤال الوزراء عما يظهر لهم انعقاد المجلس، بشرط أن يجتمع رأي خمسة أعضاء فأكثر على الأمر الذي أريد البحث فيه، وأن يعرضوه في مكتوب مبيّن في جهة البحث على رئيس المجلس، وهو يعرضه على جميع أقسام المجلس المنقسم إليها، ويعطي منه نسخة لوزير الدولة المناضل عنها، فإذا اتفق على قبوله أربعة أقسام من الأقسام التسعة المنقسم إليها مجلس وكلاء العامة، أو قسمان من الأقسام الخمسة المنقسم إليها مجلس السناتور، صار نازلة عمومية، تعرض على المجلس وقت اجتماعه العام لتقع المجادلة فيها علنًا بين القادح والمدافع. وبعد تمام النزاع بين الخصمين يُنظر،

فإن كان رأي غالب المجلس بمقتضى القرعة مع القادح، وجب عرض ذلك على الدولة؛ لتعتبر ما يلزم، وتعمل بمقتضاه، وإن كان العكس انتهت النازلة حينئذ، وأفاضوا في غيرها، وفي كل من الوجهين تحصل فوائد جمة.

وقبل صدور هذا المنشور كان المدافع عن حقوق الملك وزير الدولة، ورئيس مجلس الدولة، وأعضاء منه، وبمقتضى هذا المنشور صار ممكنًا لكل من الوزراء أن يتولى الدفاع عن القدح في سيرته أو سيرة غيره، بإعانة من كان مستقلاًّ، بذلك من وزير الدولة ومن معه، بمقتضى أمر يصدر في ذلك من الملك.

وللمملكة مجلس مُرَكَّب من أعضاء ورئيس أول ورؤساء ثوانٍ، جميعهم بولاية من الإمبراطور، بوظيفة عمرية لتحرير حساب الدخل والخرج، ومطابقته بما تقتضيه القوانين، وحكم هذا المجلس في ذلك كله ماض، وبه تبرأ ذمة المأمورين.

ثم إنه بمقتضى الكونستيتوسيون المتقدم ذكره تَكَّونَ مجلس عالٍ لفصل نوازل البغاة الثائرين على الحاكم أو الدولة، انفرد الثائر أو تعدَّد ولجنايات المُحَيِّرين لراحة السكان، ولا يعقِّبُ أحد حكم هذا المجلس، ولو مجلس الكاساسيون.

وينقسم هذا المجلس إلى قسمين، كل منهما مركب من سبعة أعضاء مأخوذين من مجلس الكاساسيون المذكور: قسم للتأمل في الدعوى وحججها وسؤال الشهود، وغير ذلك مما يقتضي قبولها أو ردها، وقسم للحكم في النازلة بمحضر الجوري الذي عدده تسعة وثمانون عضوًا، مأخوذة من أعضاء مجالس

الإيالات، إلا أنه لا يحضر منهم في المجلس وقت الحكم، إلاَّ ستة وثلاثون عضوًا ينتخبون بالقرعة من التسعة والثمانين المذكورين، ولا يكون في هذا الجوري أحد من الوزراء وأعضاء مجلس السناتو، ومجلس وكلاء العامة، ومجلس الدولة، ولو كان من أعضاء مجالس الإيالات المذكورة.

والسبب في ذلك واضح؛ لأن النوازل المعروضة على هذا المجلس هي من النوازل السياسية، فحينئذ هم الخصماء، فلا يسوغ وجودهم في المجلس الحاكم في النازلة.

والكونستيتوسيون يضمن في الأصول التي تقررت سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف، وهي أساس حقوق العامّة بفرنسا.

وهذا ملخصها:

التسوية أمام الحكم، وقبول كل واحد من الناس لأي خطة كانت، بدون اشتراط شيء زائد على الأهلية.

والحرية الشخصية:

وتمام الأمن على النفس والعرض والمال، والحق في مدافعة الظلم، والحرية في المطابع والاجتماعات العامة.

وكون إرادة العامة أساس كل سلطة.

وجواز مشاركة سائر السكان في أعمال الدولة، بواسطة نوابهم الذين يسمونهم.

وتعيين الأداء، وتحرير أصول المصاريف، ومطالبة كل متوظف في تصرفاته.

وكون سلطة التشريع منفصلة عن سلطة التنفيذ، بمعنى أن لا يكون مخترع القانون هو المنفذ له.

وأن أعضاء مجالس الحكم لا يُعْزَلون.

وحضور الجوري عند فصل نوازل الجنايات، وإشهار المفاوضة السياسية ونوازل الجنايات في الجريدة الرسمية.

وعدم التعذيب للتقرير بالذنب.

وعدم التحجير في الصناعات.

وتأسيس المكاتب للفقراء.

الفصل الخامس
في الوزارات

اعلم أن إدارة المملكة تحت نظر عشرة وزراء، كل منهم يتصرف فيما وُكِّل إلى أمانته عن أمر الإمبراطور؛ لأنهم مسؤولون له عن تصرفاتهم، ويجتمعون للنظر في المصالح تحت رئاسته، أو رئاسة من ينوبه، كل أسبوع مرتين في الأقل.

فأولهم: وزير الدولة، وهو الذي يكون واسطة بين الملك والمجالس، بحيث يعرض عليه ما يرد منهم، ويبلغ إليهم ما يصدر منه، وهو الذي يناضل عن تصرفات الدولة لدى مجلسي السناتو ونواب العامة، مع رئيس مجلس الدولة ومن يعينه الملك من الأعضاء، وهو الذي يمضي مع الملك على أوامر ولاية الوزراء ورؤساء المجالس المذكورة، وأعضاء مجلس السناتو ومجلس الدولة، والأوامر الصادرة في فتح المجالس وإغلاقها، وغير ذلك مما لا يتعلق بخدمة وزارة من الوزارات.

والحاصل أن العادة في الممالك الأوروباوية المؤسسة على القوانين، هو وجوب إمضاء الوزير مع الملك في جميع الأوامر الرسمية، سواء تعلقت بالسياسة الخارجية أو الداخلية، كعقد الشروط مع الدول الأجانب، وتولية المتوظفين

وتأخيرهم، وإمضاء القوانين والتراتيب والأحكام، وغير ذلك؛ ليدل إمضاء الوزير على عمله بها المقتضي لموافقتها للقانون، خصوصًا فيما تكون المسؤولية فيه على الوزراء.

ومن أعمال هذا الوزير تحرير تقرير فيما يقع بمجلس الوزراء، وحفظه، وتقديم من وجب تقديمه للولاية من متوظفي وزارته لموافقة الملك.

وتنقسم خدمة هذه الوزارة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم مركَّب من المقدار اللازم من الكُتَّاب وغيرهم تحت رئاسة مستشار.

الثاني: وزير الأحكام والديانة، وهو مكلف بحفظ طابع الدولة الذي يختم به على القوانين والشروط، وغيرها من الأوامر الرسمية.

وهو الذي يقدم لموافقة الملك من وجب تقديمه من أعضاء مجالس الحكم وأهل الحسبة وغيرهم من المكلفين بالأحكام، ويوزعهم على الخدمات، وعليه إدمان المراسلة مع مجالس الحكم وأهل الحسبة فيما يتعلق بتحسين الإدارة في الأحكام، وأمرهم بالوقوف عند الحدود.

وله النظر في سيرة الشهود، وغيرهم ممن له مساس بالأحكام.

ومن واجباته إعلان القوانين الجديدة للعامة، والنظر على مطابع الدولة، وهو الذي تعرض عليه مطالب التخفيف أو العفو من الملك عمن حكم عليه بعقوبة، ومطلب من أراد الدخول في العصبة الفرنساوية، ومطلب الترخيص للفرنساويين في خدمة دولة أجنبية؛ لأن القاعدة في أوروبا أن كل من يخدم منهم عند الدول الأجانب بدون رخصة فقد ضيَّع جنسيته وحماية دولته له.

وأما خدمة الوزير المذكور في الديانة، فبالمراسلة مع دولة البابا فيما يتعلق بأمور الدين، ومع كبراء الديانة بفرنسا، وحفظ الكنائس وغيرها، وهو الذي يمضي مع الملك في الأوامر الصادرة منه في هذا الشأن. وتنقسم الوزارة المذكورة إلى ستة أقسام تحت رئاسة ستة مستشارين.

الثالث: وزير الأمور الخارجية ومن أعماله تهذيب شروط المعاهدة والتجارة مع الدول الأجانب، بما يوافق عز الأمة وفوائدها، وتقديم من استحق الولاية لموافقة الملك من السفراء من الرتبة الأولى والثانية والثالثة، والقناصل، وغيرهم من النواب في الدول الأجانب، والمتوظفين من الوزارة، سواء كانوا داخل المملكة أو خارجها.

وهو الذي يصحح مع الملك على شروط الصلح، والمعاهدة والتجارة، وأوامر المتوظفين، وغير ذلك من الصحائف الرسمية، وهو الآمر لنواب الدولة بالوقوف

عند حدود مأموريتهم بمقتضى سياسة الدولة، والحافظ لشروط الدولة مع غيرها، وللخريطات المرسوم بها حدود المملكة.

وأقسام هذه الوزارة خمسة تحت نظر خمسة مستشارين.

الرابع: وزير العمالة - أي الداخلية - ومن مأموريته إجراء القوانين المتعلقة بالضبطية العامة الحافظة لراحة المملكة، وهو الناظر على عموم سياستها الداخلية، وعلى إدارة الإيالات، وهو الذي يقدم لموافقة الملك عمال الإيالات والأوطان، والبلدان التي يسكنها أكثر من ثلاثة آلاف نفس، وسائر متوظفي وزارته.

وله النظر في انتخاب وكلاء العامة، إجراؤهم على مقتضى القوانين، وفي إدارة التلغراف، والسجون، والمارستانات، والديار المعدة لمصالح الفقراء، وترتيب الحراسة البلدية، وإحصاء عدد سكان المملكة في كل خمسة أعوام، وإدارة المطابع العمومية، خصوصًا مطابع الجرنالات الرسمية.

وهو الذي يمضي مع الملك في جميع الأوامر الرسمية، من الولايات وغيرها، مما له تعلق بوزارته.

وتنقسم الوزارة المذكورة إلى أحد عشر قسمًا تحت نظارة أحد عشر مستشارًا.

الخامس: وزير المال، وهو المكلف بعرض القوانين المتعلقة بالمال، وحصر دخل الدولة وخرجها في كل سنة، وإدارة ما عليها من الدين، بمثل إعطاء الفائدة، أو اشتراء من الدَّين المؤجل، وتوزيع مرتبات المتقاعدين من العسكر وأهل السياسة، ومن صدرت منه خدمة مهمة؛ إذ من العوائد الأوروباوية أن من خدم الدولة ثلاثين سنة بوظيفة سياسية أو عسكرية، يرتب له مرتَّب مدة حياته، بحسب ما بلغه من المراتب، وكذا من صدرت منه خدمة نافعة للوطن يعين له مرتب عمري بحسبها، وقد يورث عنه إذا طلب ذلك الملك في الوجهين ووافق عليه مجلس وكلاء العامة.

ومن أعمال وزير المال النظر على البانكات المرتبة بإذن الدولة، أي ديار الصيارفة، وعلى الاتفاقات التي تقع بين الدول في شأن البريد وغيره، مما له تعلق بوزارة المال، وهو الذي يقدّم لموافقة الملك متوظفي وزارته، والقُبَّاض والجباة ونحوهم، ويمضي مع الملك على جميع الأوامر المتعلقة بالوزارة المذكورة.

وتنقسم خدمتها إلى سبعة عشر قسمًا كلّ منها تحت رئاسة مستشار.

السادس: وزير الحرب، ومن أعماله حصر عدد العساكر البريّة، وإدارة المهمات الحربية، من المؤونة واللباس، والأسلحة وفبريكاتها، والحصون، والمكاتب، والمارستانات العسكرية، ومجالس أحكام العسكر وسجونهم.

وهو الأمر على حركات الجيش في وقت الصلح والحرب، والمكلف بإدامة الطاعة منهم، وتعيين المبلغ الذي يدفعه من أراد إعفاء نفسه والخروج من الخدمة العسكرية، ويقدم لموافقة الملك ولاية من وجب تقديمه من ضباط العسكر على اختلاف مراتبهم، ومتوظفي وزارته، والمكلفين بخدمة مهمات الجيش مِمَّن له تعلق بالوزارة، ويمضي مع الملك في جميع الأوامر المتعلقة بهذه الوزارة.

وتنقسم خدمتها إلى تسعة أقسام، كل منها تحت رئاسة مستشار.

ولَمَّا كان الجيش الفرنساوي من أشهر الجيوش في وقتنا، ناسب أن نبيّن هنا الأسباب التي اقتضت شهرته، وذلك أن الخدمة العسكرية بمقتضى قانون فرنسا تجب على أبناء الأمة الفرنساوية، من غير فرق في ذلك بين الأهالي، بحيث يجب على من بلغ السن المحدود في القانون، أن يحضر وقت أخذ العسكر ليدخل القرعة مع أبناء جنسه من سكان بلده، إلا إذا كان له عُذْر معتبر في القانون.

والخدمة العسكرية لها مدة معلومة تنتهي إليها.

ومن تراتيبهم أنه لا يمكن لأحد أن يصير ضابطًا في العسكر إلا بالاستحقاق، وذلك بأحد أمرين:

أولهما: تعلُّم الأمور العسكرية في المكتب العسكري، فإذا شهد بنجابة المتعلم أهل المعرفة خرج من المكتب فسيالاً صغيرًا، ملازمًا فما دونه، ثم يترقى بحسب أهليته.

والثاني: أن يخدم في الجندية ستة أشهر في الأقل، فيترقى إلى ما فوق بالشروط المقررة عندهم.

وهي أن الأنباشي لا يترقى إلى رتبة شاوش إلا بعد خدمته ستة أشهر أيضًا.

والشاوش لا يترقى إلى رتبة ملازم إلا إذا خدم عامين.

ولا يترقى من هذه الرتبة إلى ملازم أول إلا إذا خدم مثل ما ذُكِرَ.

وكذا المذكور لا يترقَّى إلى رتبة يوزباشي إلا إذا خدم مثل الذي قبله.

وكذا اليوزباشي لا يترقى إلى رتبة بنباشي إلا بعد خدمة أربعة أعوام.

والبينباشي لا يترقى إلى رتبة قائم مقام إلا بعد ثلاثة أعوام.

والقائم مقام لا يترقى إلى رتبة أمير آلاي إلا بعد عامين.

والأمير آلاي لا يترقى إلى رتبة أمير لواء إلا بعد ثلاثة أعوام.

وأمير اللواء لا يترقى إلى رتبة أمير أمراء إلا بعد ثلاثة أعوام أيضًا.

وأمير الأمراء لا يصير ماريشالاً - أي مشيرًا في العسكر - إلا إذا تأمَّر على قطعة من الجيش في وقت الحرب.

والمدة المذكورة في الانتقال من رتبة إلى رتبة هي المدة اللازمة في غير وقت الحرب وغير جيش المستعمرات.

أما في وقت الحرب فيكفي نصف المدة المذكورة، وكذا الجيش المقيم بالمستعمرات الخارجة عن المملكة، كالجزائر وغيرها، فإن من خدم فيها عامًا يحسب له عامان.

وقد تعطى الرتبة العليا لمن ظهرت نجابته في ميدان الحرب، بدون اعتبار المدة المشار إليها.

ولم نذكر في المراتب المتقدمة بلوك أمين وباش شاوش، وصاغ قول أغاسي وآلاي أمين؛ لأن الأول عندهم بمثابة الأنباشي، والثاني مثل الشاوش، والثالث كاليوزباشي، والرابع كالبينباشي، ولا يتيسر الانتقال من رتبة إلى ما فوقها إلا بالتدريج، مثل البينباشي لا يتولى أمير آلاي إلا بعد أن يكون قائم مقام، ولو كان في ميدان الحرب وصدرت منه أهم الخدم.

وأما معيار الاستحقاق للمراتب العسكرية، فقبل رتبة البينباشي يكون ثلثا المراتب بالسبقية، والثلث بالانتخاب، أي بالتقدم على أقرانه في معرفة الفنون العسكرية.

وأما رتبة البينباشي فالنصف بالمعرفة والنصف بالسبقية، وفي مدة الحرب يعتبر التنصيف في المراتب المذكورة كلها، والترقي من قائم مقام فما فوق المعتبر فيه المعرفة لا غير.

ومن تراتيبهم أن وزارة الحرب ترسل في كل عام عدة أمراء إلى مراكز الجيوش؛ لتفقد أحوالها في التعليم، وسيرة الضباط، والمؤونة، والكسوة، وأحوال السلاح، إلى غير ذلك من الأمور التي يجب البحث عنها.

وهؤلاء الأمراء يحررون تقارير لوزير الحرب، تتضمن بيان ما يشاهدونه من تلك الأحوال، ويقيدون أسماء الضباط الذين يستحقون الترقي، وينعقد مجلس بوزارة الحرب من الأمراء المذكورين عند رجوعهم ليتأملوا التقارير المذكورة، خصوصًا في ترقية الضباط؛ حيث يوجد في كل من جرائد الأمراء أُوَل وثوانٍ وثوالث، باعتبار الاستحقاق، فلا بد من جمع ما في الجرائد كلها في جريدة واحدة لبيان تلك المراتب من المجموع.

وتقدم هاته الجريدة لوزير الحرب، ولا يمكن لأحد كائنًا من كان ممن هو في رتبة المذكورين ولم يذكر في الجريدة أن يترقى قبل المذكورين بها، إلا إذا صدرت منه خدمة مهمة معتبرة قانونًا.

ومن تراتيبهم أن من خدم في العسكر مدة معلومة، أو عجز قبل تمام المدة بسبب الخدمة، فإنه يُعطي مرتب التقاعد، على كيفية مبينة في قوانينهم، وقد يعطي لزوجته بعد موته ثلث ذلك.

وللدولة اعتبار تام بتربية أيتام من مات في خدمتها، خصوصًا الخدمة العسكرية ذكورًا كانوا أو إناثًا، ولهم مكان مُعَدٌّ لتربية البنات تحت نظر الإمبراطورية.

ولهم دار ضخمة البناء معدة لسكنى من يعطب في الخدمة العسكرية، وبها إدارة عجيبة في تدبير المساكن والمآكل والمشارب، وبها القدر اللازم من الخَدَمَة ذكورًا أو إناثًا، حتى إن مقطوع اليدين مثلاً يوكَّل به نسوة يطعمنه ويسقينه ولا يفارقنه، وبها بستان عظيم، يحتوي على أنواع شتى من الشجر لنزهة أولئك العاجزين، وبها كراريس صغار لركوب من لا يقدر على المشي؛ ليستنشق الهواء بالدوران في ذلك البستان، ولهم خَدَمَة يَجُرُّون تلك الكراريس، فبهذه الأسباب يعلم القارئ مقدار شهرة الجيش الفرنساوي الذي صار قدوة لغالب الممالك.

السابع: وزير البحر، ومن أعماله إدارة المراسي والترسخانات، وحصر عدد العساكر البحرية، وكذا البرِّيَّة المعدة للبحر، وبحرية السفن المتجرية الحاملة لراية الفرنسيس، والنظر في إدارة العمالات التابعة لفرنسا غير الجزائر، وإدارة المهمات البحرية، كالمؤونة واللباس، والأسلحة وفبريكاتها، والكرستة والحديد لإنشاء السفن، وغير ذلك مما له تعلق بالقوة البحرية وإدارة دار السواقط، والمارستانات، وسجون المحكوم عليهم بالكراكة.

وعن إذنه تسير الدوننمة(١) في وقت الحرب والصلح.

ويقدم لموافقة الملك ولاية جميع الضباط البحرية، ومتوظفي وزارته والترسخانات، وسائر ما له تعلُّق بخدمة الوزارة، ويمضي مع الملك على سائر الأوامر المتعلقة بخدمتها، ولعساكر البحر، من تراتيب الترقي والتفقد، مثلما ذكر لعساكر البر.

وتنقسم خدمة هذه الوزارة إلى اثني عشر قسمًا كل قسم منها تحت نظر مستشار.

الثامن: وزير المعارف، ومن أعماله إدارة جميع المكاتب العمومية غير المكاتب الحربية، وترتيب كيفية الدروس.

---

(١) الدوننمة: الأسطول، وهي معربة. (م).

ويقدم لموافقة الملك ولاية المكلفين بإدارة المكاتب ومتوظفي وزارته، ويمضي مع الملك على جميع الأوامر المتعلقة بالوزارة.

وتنقسم خدمتها إلى ثمانية أقسام تحت ثمانية مستشارين.

التاسع: وزير الفلاحة والمتجر، وسائر الأشغال العمومية، وهو المكلف بالإعانة على نمو الفلاحة والتجارة وسائر الصناعات، بتراتيب حسنة ترفع عنها العوائق.

وله النظر في إدارة المكاتب المُعَدَّة لعلوم الفلاحة، وإدارة المجالس المُرَكَّبَة من العارفين بالصنائع، لإعطاء الرأي فيما يلزم فعله لتنمية ما ذُكِر، وترتيب قوانين الكمارك، وإعلام العامة بأحوال الفلاحة والمتجر في كل سنة. لتحصل لهم مَلَكَة التجريب بما يقع فيها من النقص والزيادة.

وله النظر على مكتب البيطرة، وعمل الطرقات، وبناء القناطر، ونظافة الأودية والترع لتيسير سير السفن فيها، وإدارة نزح السباخ، ومنع فيض الأودية، والنظر على سائر طرق الحديد، سواء كانت للدولة أو للجمعيات؛ لتكون على حالة مستحسنة. ويقدم لموافقة الملك جميع المتوظفين بالوزارة، وسائر المأمورين بالخدمة المتعلقة بها، ويمضي مع الملك في الأوامر الصادرة فيما يتعلق بوزارته. وتنقسم خدمتها بين خمسة عشر مستشارًا.

العاشر: وزير دار المَلِك، ومن أعماله إدارة صرف المبلغ المعين للمَلِك في كل سنة، وغير ذلك مما له تعلق بخاصة الملك وداره، وإدارة التياطرات، وهي مجالس الملاهي، وما أولاها أن تُسَمَّى مجالس تهذيب الأخلاق؛ لأن الإنسان يشاهد فيها ما تَضَمَّنته القرون الماضية عيانًا؛ لمزيد اعتنائهم بمحاكاة الواقع ولغات الأمم، وأشكال لباسهم المختلفة باختلاف الأعصار والأمصار، فغالب لعبهم في تلك المجالس جدٌّ في صورة هزل؛ ولذلك يحضرها الملوك والأعيان.

ومن أنظار الوزير المذكور إدارة الأماكن المعدة لتوليد الحيوانات؛ فإنَّ كل إيالة من إيالات فرنسا بها محل مُعَدٌّ لتوليد الحيوانات، يُجلَبُ إليه جياد الخيل، وأحسن سائر الحيوانات من جميع جهات الأرض؛ لتوليدها وبيعها للعامة، وليس مراد الدولة بذلك التجارة والربح، وإنما المراد تكثير الحيوانات لتنمية عمارة المملكة.

وفي كل وزارةٍ مجلسٌ مركَّب من أعضاء ورئيس، ينتخبهم الإمبراطور من الأعيان للتأمل وإعطاء الرأي للوزير في الأمور المهمة.

الفصل السادس
في ولاة إيَالات[1] المملكة

اعلم أن مملكة فرنسا تنقسم إلى تسع وثمانين إيالة، تسمى ديبرتمان، وتلك الإيالات تنقسم إلى ثلاثمائة وسبعين أرونديسمان، أي وطنًا كبيرًا، وتلك الأوطان تنقسم إلى ألفين وتسعمائة وثمانية وثلاثين كانتونًا أي وطنًا صغيرًا، والأوطان الصغار تنقسم إلى سبعة وثلاثين ألفًا وخمسمائة وعشرة كومونات، ومحصل الكومون أنه عبارة عما يتصرف فيه أحد المشايخ[2].

إذا تمهَّد هذا فنقول:

إنَّ في كل مركز من الإيالات واليًا عموميًّا من طرف الدولة مكلفًا بإجراء القوانين وأوامر الدولة، والنظر في مصالحها، كالإعانة على استخلاص المجابي، وأخذ العسكر، والنظر في الاجتماعات العامة لانتخاب أعضاء مجلس وكلاء العامة، وحفظ راحة السكان، وغير ذلك من كليات الأعمال.

---

(١) إيَالات: جمع «إيالة» بمعنى ولاية. (م).
(٢) المشايخ: ممثلو السلطة الجهوية في القرى والأحياء بتونس في هذه الفترة. (م).

وله النظر على نموّ الفلاحة والتجارة، وسائر الصناعات والعلوم، ورفع العوائق عنها، وإدارة عمل الطرقات، وبناء القناطر والمارستانات، وحفظ جميعها عن إذن وزير العمالة؛ إذ عموم خدمة الولاة المذكورين تحت أمر الوزير المذكور، وإن كان لبقية الوزراء مراسلات معهم فيما يتعلق بوزاراتهم.

ثم، مع كل من الولاة مجلس تحت رئاسته، مركب من أعضاء يُنصِّبهم الملك.

وهذه المجالس تسمى مجالس ولاة الإيالات.

ومن أعمال هذه المجالس التأمل في فصل النوازل التي تتعلق بالإدارة في شكاية بعض الناس، من ثقل الأداء المرتب عليهم، غير شكايات الأوطان والبلدان؛ لأن مرجع ذلك لغير هذه المجالس، وكالنزاع الذي يقع بين المأمورين بتنفيذ المصالح العامة وبين من أخذ شيئًا منها بقدر معلوم من أرباب الاتفاقات، على مقتضى الشروط الواقعه بينهم، وكالتأمل في الخسارة والفائدة التي يطلبها أشخاص من أهل الإيالة من أرباب الاتفاقات المذكورة؛ لما يحصل بأعمالهم من الضرر، إلى غير ذلك من النوازل المتعلقة بالإدارة لا النوازل الشخصية التي تقع بين أفراد الناس فإن مرجعها إلى مجالس الحكم.

أما الأوطان الكبار ففي كل مركز منها نائب عن الوالي يُنصِّبه الملك، ومأموريتهم في الأوطان كما مأمورية الولاة في الإيالات، وتصرفهم عن إذن الولاة المذكورين.

وفي كل مركز إيالة مجلس، عدد أعضائه بعدد الأوطان، تنتخبهم الأهالي لمدة تسعة أعوام، وينتخب الملك رئيس المجلس ونائبه من الأعضاء، وتسمى هذه المجالس مجالس الإيالات، ويتبدل ثلثهم في كل ثلاثة أعوام.

ومن أعمالهم توزيع الأداء المُرَتَّب من مجلس وكلاء العامة بين أوطان الإيالة، باعتبار المكاسب، وتعيين المدة المطلوبة من كل واحد من سكانها لخدمة مصالحها العامة، عدا العسكرية، والمقدار اللازم دفعه للمجلس البلدي ممن أراد إعفاء نفسه من تلك الخدمة، وما يلزم إحداثه من مصالح الإيالة، كتمهيد الطرقات، وبناء القناطر والمارستانات ونحوها، والمبالغ اللازم صرفها في ذلك؛ لأن العادة في فرنسا أن إحداث الطرقات السلطانية المارة من تخت المملكة إلى حدودها، وما يتبعها من قناطر، وحفظها على الدولة، والطرق الموصلة لبعض بلدان الإيالات لبعضها، أو منها للطرق السلطانية، على أهل الإيالات.

والمبالغ، ومدة الخدمة اللازمة لذلك، ونحوها من المصالح تُعَيِّنُهَا هذه المجالس. وكذلك من مأموريتهم إعطاء الرأي فيما تجب إزالته من مَضَارّ الإيالة، وتحقيق حساب الوالي وغيره من المكلفين بصرف المبالغ المعيَّنة لإجراء مصالحها،

وهم الذين يُعَيِّنُون الأمناء الذين يرجع إليهم في النظر في تقويم ما يُؤخذ من الأملاك للمصلحة العامة، ولهم أن يعرضوا على وزير العمالة ما يرونه من المصالح، ويجب اجتماع هذا المجلس كل سنة في وقت يعينه الملك، وللولاة حضوره عند اجتماعه للخدمة، وتُسْمَعُ آراؤهم إلا إذا كان تأمل المجلس في تحقيق الحساب المتعلق بمصالح الإيالة.

ثم في كل من مراكز الأوطان الكبار مجلس أيضًا، تنتَخِب الأهالي أعضاءه لستة أعوام، تحت رئاسة رئيس ونائبه ينتخبهما الملك من أعضائه، ويتبدل نصفه في كل ثلاثة أعوام، ويجتمع هذا المجلس مرتين في السنة في وقتين تُعَيِّنُهما الدولة.

ومن أعماله توزيع الأداء المُعيَّن من مجلس الإيالة على الوطن بين بلدانه باعتبار المكاسب، والتأمل في شكايات البلدان من ثقل الأداء المرتب عليهم، وله إعطاء الرأي في مصالح الوطن، مثل مجلس الإيالة في مصالحها، ولنوَّاب الولاة في الأوطان حضور هاته المجالس عند اجتماعها، غير أنهم لا كلام لهم وقت ترجيح الرأي.

وأما البلدان والقرى، ففي كل منها شيخ يُنصِّبه الملك إذا بلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف فأكثر، وأمّا إذا كان سكانها أقل من ذلك فولاية مشايخها من والي الإيالة.

ومن مأمورية المشايخ المذكورين النظر في مصالح البلد، من إدارة الأملاك المعيّنة لذلك، وحفظ راحة السكان، وحصر عدد من يموت ومن يزداد، وأمر التزويج، وانتخاب وكلاء العامة؛ ليكون الانتخاب على مقتضى القانون. ولهم أحكام تخص الضبطية، وهم نواب الدولة في إعلان القوانين وإجرائها في البلدان، سواء كان عامة أو خاصة.

ومن حقوقهم تولية سائر المتوظفين بالبلد، ممن لم تعيّن القوانين ولايته، ككتاب الإدارة، والمكلفين بحفظ خزائن الكتب، والبنائين، والحراس، ونحوهم.

ثم إن في كل بلد من بلدان فرنسا مجلسًا بلديًّا تحت رئاسة شيخ البلد أو نائبه، مركبًا من أعضاء تنتخبهم الأهالي لخمسة أعوام.

ومن أعمال هذا المجلس ترتيب إدارة الأملاك المعدة لمصالح البلد التي تباشر إدارتها، وتقسيم المراعي بين أهل البلد، وتعيين مقدار الحطب الواجب دفعه لكل من سكان البلد في السنة، والمكان الذي يؤخذ منه من غابة البلد، وإعطاء الرأي فيما يتعلق بحدود البلدان؛ لمعرفة ما يجب على كل منها من تمهيد الطرقات، وله تعيين ما يجب إحداثه من مصالح البلد، وترتيب إدارة ما يعين لديار الصدقات، وإعطاء الرأي فيما يعرض عليهم من والي الإيالة.

وبالجملة فلهم النظر في جميع مصالح البلد، ثم لوالي الإيالة في حالة معروفة في القانون أن يعطِّل خدمة هذا المجلس لمدة شهرين، ولوزير العمالة تعطيله لمدة

عام، وللملك تعطيله لتمام خمسة أعوام، وفي كل من الأحوال الثلاثة تعين جمعية لإدارة خدمة المجلس المذكور.

ففي البلدان المسكونة بأقل من ثلاثة آلاف نَفْس يكون التعيين من والي الإيالة، وفي البلدان التي سكانها أكثر من ذلك يكون من الملك، وعند تمام مدة التعطيل يجب إعادة الانتخاب من الأهالي، ويتسبب التعطيل عن أمور سياسية، كتداخلهم فيما ليس لهم، ونحو ذلك، ولم يرجعوا عنه بعد النهي.

هذا، وفي كل مركز من مراكز الإيالات قابض عمومي يقبض مجابي الدولة تحت أمر وزير المال، وفي كل بلد أو قرية جابٍ تحت إذن القابض، وليس للوالي أو نائبه مدخل في خلاص المجابي إلا إعانة المذكورين.

وما أحسن هذا الترتيب في منع ولاة الإيالات والأوطان من التعاطي في قبض المجابي؛ لأنه بذلك يتيسر لهم الاحتساب على سيرة القُبَّاض والجُبارة في حفظ حقوق الدولة والرعية؛ إذ هو أهم المقاصد من ولايتهم.

الفصل السابع
في الكلام على تقسيم الجيش

اعلم أن الجيش الفرنساوي ينقسم إلى سبعة أقسام، كل منها تحت رئاسة ماريشال، ستة منها بفرنسا والسابع بالجزائر.

فالستة التي بفرنسا تنقسم إلى أحد وعشرين مركزًا، كل منها تحت رئاسة أمير أمراء.

ثم تنقسم هذه المراكز إلى تسعة وثمانين، كل منها تحت رئاسة أمير لواء.

والقسم الذي بالجزائر مقسوم إلى ثلاثة مراكز، كل منها تحت رئاسة أمير أمراء، ثم تنقسم هذه المراكز إلى خمسة عشر كل منها تحت رئاسة أمير لواء.

وللمملكة المذكورة خمس مراسٍ حربية، أربع منها في شطوطها على البحر المحيط، وهي شربورغ وبرست، ولوريان وروشفور، والخامسة على البحر الرومي[1] تسمى طولون.

---

(١) البحر الرومي: البحر المتوسط. (م).

الفصل الثامن
في الكلام على مجالس الحكم بفرنسا

اعلم أن سائر النوازل التي يمكن وقوعها بين السكان قسموها إلى تسعة أقسام:

أولها: الجنايات السياسية، وهي كمن يتحزب على الدولة، أو يقصد ذات الملك بسوء، أو يخون المملكة، ونحو ذلك مما يعم ضرره، وقد تقدم الكلام على ترتيب المجلس الذي يفصل هاته النوازل بمحضر الجوري.

ثانيًا: النوازل الصادرة من المتوظفين في خدمة الدولة مما له تعلق بمأموريتهم، أي النوازل التي ترتكب بقوَّة الخطة وبسببها دون نوازلهم الشخصية.

وفصل تلك النوازل يكون من كبراء المأمورين، كالوزراء، وغيرهم من رؤساء الإدارة، كولاة الإيالات، إلى أن تنتهي النازلة إلى مجلس الدولة، وهذا الحكم الصادر سواء كان من الرؤساء أو من مجلس الدولة هو حكم سياسي، من باب نظر آمرٍ في فعل مأموره بترجيع الحق لربه أو رفع الضرر الناشئ من سيرة

المأمورين، إلا إذا ثبت في النازلة مخالفة عمدية توجب عقوبة بدنية فإنها تنقل لمجلس الجنايات.

ثالثها: النوازل الشخصية التي تصدر من المتوظفين، مما لا تعلق له بالمأمورية، وهذه يكون الفصل لها بمجالس الحكم، إلا أنه ليس للمجالس المذكورة جلب المدعى عليه إلا بعد أخذ الرخصة في ذلك من مجلس الدولة.

رابعها: النوازل العسكرية التي تفصلها المجالس الحربية.

خامسها: الجنايات التي تقع بين الأهالي مما عقوبته شديدة، كالقتل والسجن بالكراكة، والسجن الطويل، والنفي إلى مكان بعيد، ونحو ذلك، وفصل هذه النوازل بمجلس الجنايات بمحضر الجوري الآتي بيانه.

سادسها: الجنايات الخفيفة الواقعة بين الأهالي، مما عقوبته السجن مدة خمسة أعوام فأقل، وهذه النوازل تفصل بمجالس الضبطية.

سابعها: النوازل المالية إذا كانت في مائتي فرنك فأقل، ويفصلها حكام الصُّلح.

ثامنها: النوازل المالية التي تزيد على مائتي فرنك، ونوازل الربع والعقار والإرث والزوجية، وغيرها من سائر النوازل المالية غير المتجرية، وهذه كلها تُفْصَل بالمجالس العرفية.

تاسعها: النوازل المتجرية برًّا وبحرًا، وهذه يكون فصلها بمجالس المتجر، وسيأتي في الفصل بعد هذا تفصيل ترتيب المجالس المذكورة.

واعلم أن وظيفة أعضاء ورؤساء مجالس الجنايات والمجالس العرفية عمرية، للملك توليتهم، وليس له عزلهم إلا بحكم يصدر من المجالس.

الفصل التاسع
في الكلام على ترتيب مجالس الحكم

اعلم أن في كل كومون - أي محل ولاية لشيخ - حاكمًا يسمى حاكم الصلح، وله نائبان للقيام بمأموريته في مغيبه بالتناوب، والجميع بولاية من الملك، وليست وظيفتهم عمرية، بل يمكن تأخيرهم عن المباشرة، وكلفة هذا الحاكم فصل النوازل الخفيفة المالية الواقعة بين السكان، على وجه الصلح وأحكامه، على قسمين:

أحدهما: الحكم القاطع في الحال، بحيث لا يتوقف تنفيذه على نظر مجلس التحقيق، وهو ما تعلق بمقدار مائة فرنك فأقل.

والثاني: ما يتوقف على التحقيق، وهو ما تعلق بأكثر من مائة إلى نهاية المائتين، وكذلك له فصل النوازل التي تكون في مقدار ألف فأقل، إذا كانت فيما يفوت بفوات الوقت. وترفع إليه نوازل الجنايات الواقعة بين سكان عمله؛ لعمل التقارير، وتحرير الحجج اللازمة، وقد تطلبهم كبار العائلات بالتوجه إلى محل سكناهم لمعاينة ما يقع من الجنايات فيها. ولهم النظر مع الضبطية في النزاع

الخفيف الواقع بين السكان، كالتعدي على الزروع والبساتين، وقطع ما لا يسوغ قطعه من شجر الغابة، ونحو ذلك.

قلت: وما أنفع هذا الترتيب إذ النوازل الخفيفة لا تقبل التطويل، إلا أنه يُشترط في الحاكم الصلحي من المعرفة وتمام المروة أكثر مما يشترط في غيره؛ لانفراده بالحكم، وعدم تعقبه في غالب النوازل.

وفي كل من الأوطان الكبار مجلس لفصل النوازل العرفية من الماليات، ما عدا النوازل المتجرية، إلا إذا لم يكن في الوطن مجلس متجري. وكل من المجالس المذكورة مركب من رئيس أول ورؤساء ثوانٍ، ومن سبعة أعضاء إلى اثني عشر، ومن أربعة معيّنين إلى ستة.

فالمجالس المركبة من سبعة أعضاء وأربعة مُعَيَّنين تنقسم إلى قسمين، والمركبة من اثني عشر عضوًا وستة معينين تنقسم على ثلاثة، بحيث لا يكون القسم أقل من ثلاثة أعضاء. ولكل قسم نوازل معروفة، وفي النوازل المهمة تجتمع الأقسام كلها، ولا تحقيق على المجالس المشار إليها في الأحكام المتعلقة بمبلغ ألف وخمسمائة فرنك، وفيما دخله ستون فرنكًا في السنة من الربع والعقار، وفيما عدا الفصلين المذكورين للمحكوم عليه أن يرفع نازلته لمجلس التحقيق.

ثم إن المجالس العرفية المذكورة لها تحقيق الأحكام الصادرة من حكام الصلح، في القدر الذي فيه التحقيق، ولها الحكم في الجنايات الخفيفة التي تقع

في أوطانها، وسجن الجاني مدة معلومة، أقلها خمسة أيام، وعقوبته بأداء مال أكثره خمسة عشر فرنكًا.

وفي كلّ من مراكز الإيالات مجلس جنايات، يتركب من رئيس يرسله مجلس التحقيق الكائن في تلك الايالة، وثلاثة أعضاء تؤخذ أيضًا من مجلس التحقيق، أو من المجالس العرفية إن لم يوجد بتلك الإيالة مجلس تحقيق.

وفي كل من مجالس الجنايات اثنا عشر عضوًا في الأقل، تنتخب من أعيان المملكة، تسمى الجوري؛ وذلك أن مقتضى قوانينهم أن يُنتخب في كل سنة عدة أشخاص من أهل المملكة، ممن تتوفر فيه شروط مقررة في القوانين، وهم المسمون بالجوري، فيحضر منهم بالمجلس اثنا عشر عضوًا في الأقل.

وصورة عملهم في ذلك أن الوكيل العمومي - أي المحتسب - إذا أدلى بدعواه على المدَّعى عليه - لأنه هو القائم بالدعوى في الجنايات - وناضل عنه وكيله، واستوفى الرئيس أعماله، من الاستفسار وجلب الشهود ونحو ذلك، يلتفت الرئيس إلى الجوري، ويطلب منهم بيان ما ظهر لهم في النازلة، فتنحاز جماعة الجوري إلى مكان لهم ليتفاوضوا فيها، وما يتفق عليه غالبهم يُعَرِّفُ به رئيسهم رئيس مجلس الجنايات؛ لأن الجوري لا مدخل له في تعيين مقدار العقوبة، وإنما نظره في طرق ثبوت الدعوى، وكون المدعى عليه معذورًا عذرًا يقتضي التخفيف أو لا لتفاوت العقوبة عندهم باختلاف بواعث الجناية؛ فإن من

صمَّم على القتل مثلاً قبل صدوره منه بمدة ليس كمن تعدى عليه المجني عليه حتى حَمَلَه على الفتك به، إلى غير ذلك من الأعذار التي تخف بها العقوبة.

وحكمهم بالبراءة لا يتوقف تنفيذه على موافقة مجلس التحقيق. نعم قد ينظره المجلس الأعلى باعتبار فهم القانون؛ ليعتبر ذلك فيما يستقبل، فلا يبقى لمجلس الجنايات بعد إعطاء الجوري رأيه إلا تنزيل العقوبة من القانون إن كان الحكم بالعقوبة، أو إطلاق المدعى عليه في الحين إن كان الحكم بالبراءة، ولا يقبل هذا المجلس نوازل الجنايات السياسية، كمن يهجم على ذات الملك بسوء، أو يحير راحة المملكة، أو نحو ذلك؛ لأن لتلك النوازل مجلسًا يخصها كما تقدم.

قلت: ومع كون وظيفة أعضاء مجالس الحكم ورؤسائها عمرية في ممالك أوروبا، فإن الأهالي لم تر فيها ضمانة كافية لحفظ حقوقها، إن قصد الأمراء ظلمها؛ لأن تأييد وظيفة الأعضاء لم تنتف به سلطة الأمراء عليهم؛ لأنه قد بقي بأيديهم ترقيتهم من مرتبة إلى ما فوقها من الخطط، وربما يتسبب عن ذلك ميل الأعضاء إلى إرضاء جانب الأمراء وقت الحكم؛ ولذلك جعل تعيين الحكم بالذنب أو البراءة إلى جماعة الجوري التي تنتخبها الأهالي سدًّا للذريعة، وجعل تنزيل العقوبة من القانون إذا كان الحكم بالذنب، وجلب الشهود، واستفسارهم، وغير ذلك من الأعمال لأعضاء المجالس ورؤسائها.

وبالمملكة ثمانية وعشرون مجلسًا، تسمى كُورْدابَّل، بكل منها رئيس أول ورؤساء ثوانٍ بقدر ما يوجد به من الأقسام التي هي في الغالب ثلاثة: قسم لتحقيق أحكام العقوبات الخفيفة يعرضها الجوري.

وقسم لتحقيق سائر الأحكام الصادرة من المجالس العرفية ومجالس المتجر.

وقسم للتأمل في حجج الدعوى: هل تقتضي إرسال المدعى عليه لمجلس الجنايات أم لا؛ لأن دعوى الجناية تعرض أولاً على المحتسب، وهو يعرضها على هذا القسم بعد إتمام أعمال له، وفي كل من المجالس محتسب عمومي ومعه محتسبان لإعانته من طرف الدولة؛ للمناضلة عن حقوق القانون في سائر النوازل لا سيما الجنايات.

وبالبلدان الكبار مجالس متجريَّة مركَّبة من أعضاء ينتخبهم أهل المتجر لمدة عامين.

ولما كانت جميع المجالس تحكم باسم الملك - إذ هم نوابه - وجب عرض أسماء المنتخبين لها عليه؛ إذ له تولية سائر أعضاء مجالس الحكم ورؤسائها.

ولا يتجاوز المجلس المتْجَرِيُّ أربعة عشر عضوًا غير الرئيس، ولا يكون أقل من عضوين.

وفي كل مجلس معينون بقدر الحاجة، والنوازل التي تنشر في المجالس المتجرية هي ما يقع بين أهل المتجر من رسوم الاتفاقات، وبيوع السلع بالآجال، وعقد الشركات والسفاتج[1]، وغير ذلك مما له تعلق بالمتجر.

وبالمملكة مجلس أعلى مقره تختها، تنتهي إليه جميع الأحكام الصادرة من المجالس، سواء كانت في الأمور العرفية أو الجنايات أو المتجر، وبحكمه تنتهي النوازل. وصورة نظره أنه لا يتأمل في أصل النازلة من جهة ثبوتها أو بطلانها، وإنما ينظر في أعمال المجالس، أكانت على مقتضى القانون أم لا، وهل يقتضي القانون ما حكموا به أم لا، ومهما عثر على خلل في الحكم يحكم ببطلانه ويرجع النازلة إلى من يعينه من مجالس التحقيق ليستأنف النظر فيها، فإن وافق المجلس الأول ورُدَّت النازلة إلى المجلس الأعلى، فإنه يعيد التأمل فيها باجتماع غالب أعضائه، وبحكمه تنتهي النازلة. وهذا الحكم الأخير يجب على مجالس الحكم اعتباره كشرح للقانون في نظائر تلك النازلة.

ولهذا المجلس السلطة والنظر على أعضاء سائر الحكم بالمملكة، كإلزام طاعة أهل المناصب بعضهم لبعض، واحترام مكارم الأخلاق، واجتناب ما لا يسوغ للحاكم. وفي قوته تعطيل خدمة أحد أعضاء مجالس الحكم، وإرساله إلى وزير الأحكام لاختبار حاله.

(١) السفاتج: يقصد بها أن يعطي شخص مالاً لشخص آخر، ويأخذ منه توقيعًا يمكنه من خلاله أن يسترد هذا المال من شخص آخر، وهي جمع سفتجة. (م).

ويتركَّب المجلس الأعلى من رئيس أوَّل وثلاثة رؤساء ثوانٍ، وخمسة وأربعين عضوًا ينصبهم الملك بوظيفة عمرية.

وتنقسم أعماله إلى ثلاثة أقسام:

قسم يسمع دعاوى المشتكين من أحكام المجالس؛ لتمييز ما يقبل من ذلك وما يرد، وما يُقْبل يُنْقَل إلى أحد القسمين الآتيين:

قسم يحقق الأحكام الصادرة من مجلس الجنايات.

وقسم يحقق أحكام المجالس العرفية والمتجرية.

وبهذا المجلس أيضًا محتسب عمومي، ومعه محتسبان للمناضلة عن القانون.

الفصل العاشر
في الكلام على مجالس العسكر بفرنسا

هي على مرتبتين:

الأولى: لفصل النوازل العسكرية، وعددها سبعة وثلاثون مجلسًا.

والثانية: لتحقيق الأحكام الصادرة من المرتبة الأولى، وعددها ثمانية مجالس.

وكل من المجالس المذكورة مركَّب من رئيس وستة أعضاء، تنصّبهم أمراء مراكز الجيش، وذلك إذا كانت رتبة المدعى عليه قائم مقام فما دونه، وأما إذا كانت رتبته أمير آلاي فما فوق إلى رتبة الماريشال - التي هي أعلى المراتب العسكرية - فإن نَصْبَ الأعضاء والرئيس يكون من وزير الحرب.

وفي كلّ من المجالس المذكورة وكيل عمومي، ومعه أعوان للمدافعة عن القانون، وكُتَّاب لتحرير الوقائع يُنصِّب جميعهم وزير الحرب.

الفصل الحادي عشر
في تركيب المجالس المذكورة

إذا كانت رتبة المحكوم عليه من باش شاوش فما دونه يكون رئيس المجلس أمير آلاي أو قائم مقام، والأعضاء بينباشيًّا أو آلاي أمين ويوزباشيين وملازمًا أول وملازمًا ثانيًا وشاوشًا.

وإذا كانت رتبته ملازمًا ثانيًا فيكون الرئيس كما ذكر والأعضاء بينباشيًّا أو آلاي أمين، وثلاثة يوزباشية، وملازمًا أول وملازمين ثانيين.

وإذا كان ملازمًا أول فيكون الرئيس كما ذُكر والأعضاء بينباشيًّا أو آلاي أمين وثلاثة يوزباشية وملازمين.

وإذا كان يوزباشيًّا فيكون الرئيس أمير آلاي، والأعضاء قائم مقام، وثلاثة بينباشية، أو ثلاثة آلاي أمينية، وثلاثة يوزباشية.

وإذا كان بينباشيًّا أو آلاي أمين فيكون الرئيس أمير لواء، والأعضاء أميري آلاي وقائمي مقام وبينباشيين.

وإذا كان قائم مقام فيكون الرئيس أمير لواء، والأعضاء أربعة أمراء آلاي وقائمي مقام.

وإذا كان أمير آلاي، فيكون الرئيس أمير أمراء، والأعضاء أربعة أمراء لواء وأميري آلاي.

وإذا كان أمير لواء، فيكون الرئيس ماريشالاً، والأعضاء أربعة أمراء أمراء وأميري لواء.

وإذا كان أمير أمراء فيكون الرئيس ماريشالاً، والأعضاء ماريشالين وأربعة أمراء أمراء.

وإذا كان ماريشالاً فيكون الرئيس ماريشالاً والأعضاء ثلاثة ماريشالات وثلاثة أمراء أمراء.

ويكون تركيب مجلس التحقيق في الرئيس والأعضاء مثل تركيب المجلس الذي وقع القدح في حكمه.

الفصل الثاني عشر
في دخل أهل فرنسا من نتائج الأرض كالنباتات والمعادن والحيوانات ،ومن المتاجر والصنائع وغيرها

فرنك **380,047,000**	المتحصّل في السنة من أكرية الرّيع والعقار
فرنك **5,000,000,000**	قيمة أنواع السلع التي تصنع بفرنسا، وعدد الأشخاص المشتغلين بها يبلغ ستة ملايين
فرنك	دخل النباتات قبل طرح المصاريف
2,160,000,000	ثمن حبوب على اختلاف أنواعها
300,000,000	ثمن بطاطة
12,000,000	ثمن قسطل
80,000,000	ثمن دخان
145,000,000	ثمن كتان وقنّب
38,000,000	ثمن اللفت الأحمر
50,000,000	ثمن بزر الكتان، وغيره من الحبوب الزيتية عدا الزيتون
10,000,000	ثمن أنواع ما يصبغ به
950,000	ثمن بزر الهيلون، وهو نبات تخمر به البيرة
750,000,000	المتحصل من المحاش كالفصّة وغيرها مما يزرع أو يُحمى
140,000,000	ثمن بيرة، وهي الجعة (بكسر الجيم)، أي نبيذ الشعير
550,000,000	ثمن عنب
125,000,000	ما يتحصل من ثمار البساتين المشجرة ومن المقاثي

فرنك	دخل النباتات قبل طرح المصاريف
60,000,000	ما يتحصل من ثمن ثمر شجر التوت وورقه
30,000,000	ثمن غلة الزيتون
2,280,000,000	ثمن ما ينتج من الحيوانات
300,000,000	ما يتحصل من أثمان الكرستة والحطب
6,000,000	ما يتحصل من ثمن عسل النحل
98,000,000	ما يتحصل من ثمن الحرير
150,000,000	ما يتحصل من أثمان الطيور وبيضها، من الدجاج وغيره
1,000,000	ما يتحصل من أثمان الصيد البري
30,000,000	ما يتحصل من أثمان الصيد البحري
7,315,950,000	**الجملة**
فرنك	**ما يتحصل من نتائج المعادن**
170,000,000	ثمن الحديد والذكير
17,000,000	ثمن الفضة والنحاس والرصاص وغيرها
46,000,000	ثمن الفحم الحجري
57,000,000	ثمن الرخام والمرمر وغيرهما من الحجارة
290,000,000	**الجملة**
523,260,833	دخل طرق الحديد المنجزة سنة 1864 وعدد المسافرين بها 71874089، وما حمل بها من السلع 29793000 طونلاتة
فرنك	**دخل التلغراف**
3,305,993	من داخل المملكة سنة 1864
263,911	من المكاتيب الواردة به من خارج المملكة والصادر عنها
5,937,904	**الجملة**
رأسًا	**عدد الحيوانات الموجودة في مملكة فرنسا**
2,983,966	خيل
327,720	بغال
398,149	أَحْمِرَة

رأسًا	عدد الحيوانات الموجودة في مملكة فرنسا
14,197,360	بقر
33,281,592	ضأن
7,268,081	معز
58,456,868	**الجملة**
فرنك **40,500,000**	**قيمة أنواع الطير الموجودة بفرنسا من دجاج وغيره**

قيمة السلع التي دخلت فرنسا والتي خرجت منها سنة 1858

الخارج	الداخل	أسماء الممالك
371,400,000	215,600,000	أنكلترة
37,140,000	87,400,000	العمالات الراجعة لأنكلترة
180,000,000	1,888,000,000	أمريكا أي الدول المتحدة
157,600,000	123,600,000	البلجيك
82,200,000	190,200,000	سردانية ومونكو
125,500,000	71,200,000	زولوراين من ألمانيا
42,400,000	63,600,000	برّ الترك
46,400,000	52,200,000	الروسية
111,700,000	46,100,000	إسبانيا
33,600,000	9,600,000	العمالات التابعة لها
95,600,000	34,900,000	السويسرة
35,500,000	30,000,000	نابلي وصقلية
2,440,000	24,000,000	هولاندة
1,000,000	8,600,000	العمالات التابعة لها

أسماء الممالك	الداخل	الخارج
الشطوط الغربية من إفريقيا	20,800,000	2,000,000
قرنة	17,200,000	21,200,000
دول بلاطة من أمريكا	16,000,000	15,000,000
السويد والنورويج	21,500,000	2,700,000
برازيل	12,500,000	45,000,000
هايتي	10,100,000	38,000,000
مصر	9,100,000	12,500,000
تونس وطرابلس والمغرب الأقصى	9,100,000	5,500,000
بلدان مختلفة من إفريقيا	2,100,000	400,000
بيرو في أمريكا	9,100,000	19,200,000
مكسيكو	7,100,000	11,500,000
فرانكفورت ولوبك وبريمن وسبور	7,600,000	10,300,000
النمسا	6,700,000	11,000,000
شيلي في أمريكا	5,900,000	17,700,000
رومية	480,000	8,900,000
الصين والكوشنشين والسيام	4,200,000	3,500,000
أورغن في أمريكا	3,900,000	9,300,000
البرتوغال	3,700,000	10,800,000
وينازويلة في أمريكا	3,600,000	3,700,000
الإغريق	2,500,000	6,900,000
غواتيمالة في أمريكا	2,100,000	800,000
غرناطة الجديدة في أمريكا	1,600,000	4,500,000
دانمارك	500,000	6,000,000

الخارج	الداخل	أسماء الممالك
200,000	300,000	بوليفيا
900,000	100,000	أكواتور في أمريكا
400,000		هانوفر
126,400,000	34,200,000	الجزائر
100,500,000	118,400,000	العملات التابعة لفرنسا
1,597,240,000	**1,462,500,000**	**جملة المتاجر الداخلة والخارجة فرنكًا**
1,462,500,000	**يضاف الداخل إلى الخارج**	
3,059,740,000	**تكون قوة المتجر داخلاً وخارجًا**	

عدد المراكب التي دخلت فرنسا والتي خرجت منها

مراكب دخلت		مراكب خرجت		أصحاب المراكب
طونلاتة	مراكب	طونلاتة	مراكب	
1,445,873	8,201	19,07,897	12,374	
1,560,097	11,004	2,658,776	16,448	مراكب فرنسيس
3,005,969	19,205	4,566,673	28,822	مراكب أجانب
4,566,673	28,822	يضاف الداخل للخارج		
7,572,642	**48,027**	**الجملة مما ذكر**		

تكاثر الخلق بمملكة فرنسا

عدد أنفس	
19,669,320	كان عدد الخلق في مملكة فرنسا سنة 1700
21	وصار في سنة 1772
24,800,000	وفي سنة 1785
27,349,000	وفي سنة 1801
30,461,875	وفي سنة 1821
34,230,000	وفي سنة 1841
37,386,161	وفي سنة 1861

وليعلم الناظر أن هذه الزيادة إنما هي من نمو العمران والثروة، وممن يدخل في العصابة الفرنساوية من أفراد الأجانب، ونحو ذلك من ثمرات العدل لا من إضافة ممالك جديدة؛ إذ لم يقع ذلك خصوصًا من سنة 1821 إلى سنة 1861.

عدد أنفس	أصناف الخدم
20,351,628	خدمة أنواع الفلاحة
2,094,371	ملاَّكة موادّ الصناعات
7,810,114	صنّاع
3,991,026	أهل العلم من المدرسين والكتَّاب وغيرهم
735,505	خَدَمَة
780,954	أنواع أخرى
35,763,628	**الجملة**

الفصل الثالث عشر
في دخل دولة فرنسا وخَرْجِها والدَّين الذي عليها، وقوتها البرية والبحرية

دخل دولة فرنسا سنة 1864 مأخوذًا من الحساب الرسمي الذي وافق عليه مجلس وكلاء العامة.

فرنك	أنواع الدخل
504,852,633	الأداء الذي على الربع والعقار والأبواب والشبابيك
423,760,216	الأداء الذي على كتب العقود والطبع ودخل أملاك الدولة
39,921,500	دخل الغابات واصطياد الحوت
121,642,000	دخل الكمارك والملح
53,951,000	الأداء الذي على السلع والمأكولات وأمثال ذلك
29,233,000	دخل البوسطة
18,800,000	دخل الجزائر
14,399,000	ما نقص من مرتبات المتوظفين وغيرهم
81,030,015	ما تحصَّل من أنواع طارئة
134,990,000	الأداء الموظَّف على السكر
203,709,000	الأداء الموظَّف على المشروبات
220,376,000	الدخل الحاصل من الدخان

فرنك	أنواع الدخل
14,183,000	الدخل الحاصل من البارود
2,846,500	الدخل الحاصل من المكاتب
2,700,000	الأداء الموظَّف على الخيل والكراريس
176,537,981	المبلغ المعيَّن لشراء كواغد من الدَّين المرتب على الدولة
3,000,000	الدخل الحاصل من سهام طرق الحديد
3,500,000	ثمن أراض
7,000,000	القسط الرابع من المبلغ المطلوب من دولة الصين
12,000,000	ما بيع من غابات الدون
2,000,000	ثمن الحطب
2,110,437,345	يطرح منه المصروف الآتي بيانه
2,105,093,124	
5,344,221	فاصل المقبوض بعد المصروف
26,500,000	مرتّب الإمبراطور وعائلته من الذكور والإناث
9,404,000	مرتب ومصروف مجلسي السناتو ووكلاء العامة
9,209,280	زيادة في مرتب نيشان الافتخار
385,937,574	فائدة الدَّين المؤبد
118,022,745	لشراء كواغد من الدَّين
60,308,617	فائدة الدَّين المؤقت وغيره
76,607,931	المرتبات العمريّة
25,595,900	لوزارة الدولة

فرنك	أنواع الدخل
33,167,610	لوزارة الأحكام
12,534,200	لوزارة الخارجية
179,552,006	لوزارة العمالة
26,472,522	لوزارة المال
377,173,040	لوزارة الحرب
19,443,533	للمأمورين وغيرهم في الجزائر
177,242,332	لوزارة البحر والعملات الخارجية
75,820,257	لوزارة العلوم والدّيانة
135,865,153	لوزارة الفلاحة والمتجر والمصالح العامة
233,451,248	مصروف على إدارة الدخان والمعادن
132,785,203	لجبابة المال وصرف كواغد الدولة وغير ذلك
2,095,093,124	**جملة الخرج**
9,840,000,000	**جملة الدَّين الذي على دولة فرنسا**

اعلم أن ما تراه من الديون الكثيرة على كل دولة من دول أوروبا لم يكن ناشئًا عن عدم ضبط السبب، الذي يتعين لأجله اقتراض الدين، ولا عن سوء التدبير بصرف شيء من المال - قَلَّ أو كَثُرَ- فيما لا يلزم سياسة في نظر المجلس، ولا عن خيانة من المباشرين، وإنما السبب فيه ما يأتي شرحه:

وهو أن العادة الدارجة في الممالك المضبوطة بالقوانين، أن الدولة تقدّم لمجلس وكلاء العامة جملة المصاريف المعتادة اللازمة للسنة القابلة بأوضح بيان في جميع فصولها، وما يثبت عند المجلس من المقدار اللازم لها في نظره، بعد المجادلة بينه وبين الوزراء في ذلك، يترتب الأداء الواجب أخذه من الأهالي في تلك السنة على مقتضاه.

ولهذا كان قانون الأداء والمصاريف يتجدد عندهم في كلّ سنة.

وأما إذا لزمت مصاريف غير معتادة؛ لعمل حرب للمدافعة عن المملكة، أو للهجوم على الغير إن اقتضته مصلحة الأمة السياسية أو المتجرية، كحرب القرم التي صرفت فيها الدولة الفرنساوية وحدها ما يقرب من ألفي مليون فرنك أو لمصلحة عمومية، كعمل الطرقات والخلج والمراسي، وتعمير المراكب الحربية، وتبديل أسلحة الجيوش بالمستحدثات منها، ونحو ذلك مما يلزم لتنجيزه مبالغ وافرة لا يتيسر أخذها من الأهالي؛ لما ينشأ عنه من ضعفهم المؤجِب لخلل العمران في المملكة، فإن الدولة تطلب من مجلس الوكلاء الرخصة في اقتراض المبلغ اللازم لتلك المصلحة، بفائدة معلومة في السنة، والمجلس يتفاوض في أصل السبب الداعي إليها بمحضر الوزراء المقدمين لذلك من طرف الدولة المناضلين عنها.

فإذا رأى غالب المجلس لزومه، رخَّصَ للدولة في الاقتراض بقدره، وحينئذ تعلن الدولة للعامة بالمبلغ المطلوب وفائدته وآجاله التي يدفع فيها مقسطًا، فتبادر العامة إلى قبول ذلك؛ لما هم عليه من الثروة واتساع الآمال؛ بسبب تنظيماتهم العادلة الضابطة لتصرفات الدولة، الملزمة لوفائها بالشرط، بحيث لا يسوغ لها أن تسلم شيئًا من المال إلا لمن تحققت حسن تدبيره وحسن إدارته فضلاً عن أمانته؛ لأن مجلس المحاسبات يتعقب جميع مصاريف الدولة بحساب مدقق؛ ولما لهم في الاقتراض من الفوائد العمومية والخصوصية لكونه من أهل المملكة غالبًا. فهو في الحقيقة كسب من مكاسبهم كسائر الأملاك.

وحينئذ لا يزاد على الأداء السنوي إلا فائدة الدَّين المذكور في كل سنة، مثلاً إذا كانت جملة المُقْتَرَضَ مائة مليون فرنك بخمسة في المائة، فالذي تجب زيادته في الأداء السنوي خمسة ملايين، فتنتفع الدولة وأهل المملكة في أحوال السياسة والمتجر باقتراض المبلغ المذكور؛ لسهولة مواد العمران لهم، ولا يثقل عليهم في الأداء إلا الملايين الخمسة.

وأما الفوائد المرتَّبة لأرباب الديون على المبالغ المقترضة، فإنها تختلف في القلة والكثرة بحسب سياسة كل دولة، وصحة معاملتها، وحسن إدارتها، ونحو ذلك مما تعتبره أرباب الديون، فما كان من الدول بتلك المثابة خفف عنه أرباب الديون فوائد أموالهم، كدولة الإنكليز ودولة الفرنسيس.

فإن الأولى تدفع من اثنين ونصف في المائة إلى ثلاثة ونصف، والثانية من أربعة ونصف إلى خمسة في المائة فائدة لمن تقترض منه، سواء كان من الأهالي أو من الأجانب؛ لأن صحة معاملتهما وحسن إدارتهما كالكفيل بالدين.

ومن الدول ما تكون فائدة ديونه ستة في المائة، ومنها ما تكون سبعة، ومنها ما تكون عشرة، ومنها ما لا طمع له في الاقتراض أصلاً؛ حيث تكون معاملته في حيز السقوط وعدم الاعتبار في أنظار أرباب الديون.

ففوائد دين كل دولة عنوان على حسن إدارتها ومعاملتها. وبهذا التقرير يُعلم أسباب وفوائد الديون الكثيرة التي على دول أوربا.

القوة العسكرية البرية بدولة فرنسا سنة 1861

أصناف العسكر	أمراء وفسيالات	خيالة وطوبجية ومهندسون	عسكر التريس	جملة الجيش
ماريشالات	11			
أمراء تحت السلاح	90			
ممن ذكر في اليداك	70			
أمراء ألوية تحت السلاح	180			
ممن ذكر في اليداك	172			523
فسيالات إتاماجور الجيش	610			
ممن ذكر في الحصون	357			967
ممن ذكر شواش وأُنباشية في الحصون			365	360
فسيالات في اليداك	662			
فسيالات في الإدارة وأطباء	3,645			
فسيالات بمجالس الحكم العسكري	4,389			8,696
عسكر تريس			515,037	515,037
خيالة الجيش		100,221		100,221
طوبجية الجيش		66,007		66,007
مهندسون		15,443		15,443
جندرمريّة وهم خيالة لحفظ البلد		24,172		24,172
صنَّاع العسكر			24,561	24,561
تلاميذ مكتب العسكر			2,961	2,961
الجملة	**10,186**	**205,843**	**542,924**	**758,953**

وفي هذه المدة الأخيرة طلبت الدولة من مجلس وكلاء العامة إنشاء قانون جديد، في صيرورة جملة الجيش وقت الحرب مليون نفس ومائتي ألف، ولم يزالوا يتفاوضون في شأن ذلك.

القوة البحرية بدولة فرنسا سنة 1866

أصناف البحر	أمراء البحر وقبطانات	جملة البحرية
أميرال في مقام ماريشال	2	
ويس أميرال في مقام أمير أمراء تحت السلاح	17	
ممن ذكر في اليداك	14	
كنتر أميرال في مقام أمير لواء	30	
ممن ذكر في اليداك	20	83
قبطان أجفان في مقام أمراء آلايات	130	
قبطانات فراقط في مقام قائمي مقامات	270	400
يوزباشيه		825
أنيس وسبيران وتلاميذ مكتب البحر		1,200
مهندسون ومصوّرون وتلامذة مكتب الإدارة		922
أطبّاء وأعضاء مجالس الحكم		642
مكينجية وصنّاع		3,554
بحرية		33,140
عسكر البَرّ والعَمَلَة		24,797

تابع القوة البحرية بدولة فرنسا سنة 1866

جملة المراكب وبها مدافع 6230	مراكب قلاع	فابورات بها قوة خيل 105267		جملة البحرية	أمراء البحر وقبطانات	أصناف البحرية والمراكب
		بالذنب والعجلة	حديد			
39	1	36	2			أجفان
72	18	37	17			فراقط
40	8	24	8			قرابط
12	12					أبركة
97		97				أفيزو
73	62	11				مراكب خفاف
79	30	49				مراكب لحمل الأثقال
27			27			بطرية عوّامة
52		52				شالوب كوتير قوارب
4			4			مراكب صغار لحراسة الشطوط
	131	**306**				**الجملة**

عدد مراكب متجر الفرنسيس

طونلاتة	عدد المراكب	أصناف المراكب
910,729	14,738	مراكب قلاع
73,267	327	فابورات
983,996	**15,065**	**جملة ذلك**

دخل المجلس البلدي بباريس

ونعني بذلك المقادير المعينة لمصالح باريس ليرى القارئ كيف ينمو عندهم العمران

فرنك	
503,818	كان دخل المجلس المذكور سنة 1798
12,530,740	وصار في سنة 1801
34,336,918	وفي سنة 1811
41,654,360	وفي سنة 1821
50,084,128	وفي سنة 1831
60,494,058	وفي سنة 1851
108,251,898	وفي سنة 1859
202,554,092	وفي سنة 1860، ودخل في هاته السنة مداخيل طارئة
101,408,942	وفي سنة 1864
218,158,905	وفي سنة 1866

فمن تأمل تدرج التفاوت بين هاته الأرقام يظهر له أن لخصوص مدينة باريس من الدخل السنوي ما ليس لكثير من الممالك، ولا يتوهم أن ذلك نتيجة تثقيل الأداء لما أن قاعدتهم في توزيعه على وجه لا يضر بالأصول المأخوذ منها تمنع ذلك كما تقدم، وإنما ذلك من تزايد العمران وثروة السكان، والقليل من الكثير كثير.

ثم إن ما تقدم من الأرقام في بيان ما للأمة الفرنساوية من الثروة، وما لدولتها من الدخل، وكذا ما سيأتي من البيان لما ذكر في بقية ممالك أوروبا، ربما يستكثره الناظر الذي لا خبرة له بما كان لمن تقدَّم من الأمم من الثروة، ولو تأمل ما حكاه المقريزي في كتابه الخطط عن مجابي مصر زمن الفراعنة وزمن الخلفاء الراشدين، وما حكاه أيضًا في الكتاب المذكور، وحكى ابن بطوطة مثله عن سلطان الهند، وما حكاه ابن خلدون عن مجابي دولة بني العباس ببغداد، ودولة الأمويين بالأندلس، وما حكاه غيرهم من جهابذة المؤرخين مما أشرنا إلى بعضه في مقدمة هذا الكتاب، لظهر له صحة ما نسبناه إلى الأمم الأوروباوية، على أنه تيسر للأوروباويين من أسباب الثروة والغنى ما لم يتيسر لغيرهم ممن تقدم، كسهولة المواصلة بين الممالك برًّا وبحرًا بواسطة الفابورات والطرق الحديدية وغيرها، وجودة آلاتها، والجمعيات المتجرية، والبانكات، وغير ذلك من وجوه التمدن الذي تقدَّم شرحه.

ومحصل جوابنا للمنكر هو ما أجاب بمثله ابن خلدون؛ لما بَيَّنَ مداخيل الدول الإسلامية، وخشي استكثار الناس لذلك فقال:

«ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيئًا من أمثاله، فتضيق حوصلتك عن ملتقط الممكنات».

فكثير من الخَوَاصّ إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادروا بالإنكار، وليس ذلك من الصواب؛ فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة، ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها.

ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل إلينا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين، وقابلنا الصحيح من ذلك والذي لا نشك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة إليها، وجدنا بينهما بونًا؛ وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها.

فالآثار كلها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه، ولا يسعنا إنكار ذلك عنها؛ إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح، بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر، وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره.

فخذ من الأحوال المنقولة راتب الدول في قوتها أو ضعفها أو ضخامتها أو صغرها، واعتبر ذلك بما نقصُّه عليك من هذه الحكاية المستطرفة، وذلك أنه ورد للمغرب في عهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلَّب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دلهي حاضرة ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد، وهو فيروز جوه، وكان له منه مكان، واستعمله في

خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب، واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدّث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدّث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون، فتناجي الناس بتكذيبه.

ولقيت وزير السلطان أبي عنان أبا منذر فارس ابن ودرار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لمَّا استفاض في الناس تكذيبه، فقال لي الوزير فارس: «إيَّاك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول، بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشي في السجن.

وذلك أن وزيرًا اعتقله سلطانه، ومكث في السجن سنين رَبَّى فيها ابنه في ذلك المحبس، فلما أدرك وعقل، سأل عن اللُّحمان التي كان يتغذى بها، فقال له أبوه: «هذا لحم الغنم»، فقال: «وما الغنم؟» فيصفها له أبوه بشِيَاتها[1] ونعوتها، فيقول: «يا أبت تراها مثل الفأر؟» فينكر عليه ويقول: «أين الغنم من الفأر؟!» وكذا في لحم الإبل والبقر؛ إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر، فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر» وهذا كثيرًا ما يعتري الناس من الأخبار كما تعتريهم الوساوس في الزيادة عند قصد الإغراب، كما قدمناه أول الكتاب.

---

(١) شِيَاتها: علاماتها. (م).

فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمنًا على نفسه، ومميزًا بين طبيعة الممكن والممتنع بطريق عقله ومستقيم فكرته، فما دخل في نطاق الإمكان قبله، وما خرج عنه رفضه.

وليس مرادنا الإمكان العقلي المُطلق؛ فإن نطاقه أوسع شيء، فلا يفرض حدًّا بين الواقعات، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء؛ فإنَّا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه، وصنفه، ومقدار عِظَمِه وقوته، أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه «. انتهى المراد منه بلفظه.

الباب الثالث

في الكلام على مملكة أنكلترة

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أنه لم يعلم شيء من الحوادث يُستفاد منه تحقيق تاريخ أنكلترة قبل ظهور جول سيزاراي يوليوس قيصر، الذي نزل بجيشه مرتين في تلك الجزيرة، حتى فتحها قبل ظهور المسيح ﷺ بخمس وخمسين سنة، وبعد ثلاث وأربعين سنة من الميلاد المسيحي عاد الإمبراطور كلود إلى ما كان عليه سلفه قيصر من العناية بفتح الممالك، وتبعه في ذلك ورثته، فاجتاز جيش الرومان الجزيرة في سنة ثمان وسبعين ثم في سنة خمس وثمانين، مرورًا بإغريكلا إلى أن بلغ جبال غرامبيان التي تشق إسكوسيا، ولم تدخل تلك الجزيرة بتمامها تحت طاعتهم. وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة خرج الإمبراطور هونوريوس من البريتانيا، وترك أهلها غير قادرين على مدافعة أمة البيكت، فاستعانوا بأمة الساكسون الساكنة بشمال ألمانيا في ذلك الوقت، سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، فلبت دعوتهم سنة تسع وأربعين وأربعمائة، فتأسس بتعاضد الأمتين أربع ممالك بأنكلترة، وهي أسّكْس وسُسّكْس ووسّكْس وكَنْت، وذلك من سنة خمس وخمسين وأربعمائة إلى سنة سبع وعشرين وخمسمائة، ثم جاءت بعدهم أمة الأنجل، وأسسوا من

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة إلى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثلاث ممالك أخرى، وهي استنغليا ومرسيا وديري مع برنيسيا.

وهاته الممالك صارت متحدة تحت سلطة أغبرت صاحب إسكس، سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ثم في سنة خمس وثلاثين وثمانمائة تصدت أمة الدنيمرك إلى محاربة أنكلترة حتى خربوها، ثم من سنة إحدى وسبعين وثمانمائة إلى تسعمائة انتصر على المذكورين ألفرد الكبير ملك أنكلترة، وألزمهم الصلح.

ثم في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة تغلب الدنيمرك على أنكلترة ثانيًا، وأجلسوا ملكهم سيونون على تختها سنة ثلاث عشرة وألف، ولم ترجع العائلة الأصلية إلى التخت المذكور إلا في سنة إحدى وأربعين وألف.

ثم في سنة ست وستين وألف استولى على المملكة المذكورة وِلْيَم الأول دوك نورماندي، وأسس الجنس الجديد الذي جاء عقبه في سنة أربع وخمسين ومائة وألف، وهم جماعة البلنتجنات التي كانت مسماة في فرنسا باسم كونت دانجو، وهم من ذرية وليم المذكور من جهة النسوة.

وأولهم هنري الثاني، وهؤلاء تسلطوا إلى سنة خمس وثمانين وأربعمائة، ومن أعظم الحوادث في تلك المدة اجتماع خمس إيالات كبيرة فرنساوية مع الأنكليز، بجلوس هنري الثاني ومحاربته لتوماس بَكَت من سنة اثنتين وستين

ومائة وألف إلى سنة سبعين، وفتح إرلاندة سنة إحدى وسبعين، وحروب رشارد كوردليون لفرنسا، من سنة خمس وتسعين إلى سنة تسع وتسعين ومائة وألف، وظهور نظام الشرط الكبير المسمى مانيا كارتا، أساس كونستيتوسيون الأنكليز سنة خمس عشرة ومائتين وألف، وقيام سيمون دو مونفور كونت ليستر على هنري الثالث، سنة ثمان وخمسين، وفتح مملكة سكوتلاند - وهي إسكوسيا - من سنة ست وثمانين إلى سنة أربع عشرة وثلاثمائة وألف، ومحاربات فرنسا المتجاوزة مائة سنة من سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف إلى سنة ثلاث وأربعمائة، ثم الحروب الأهلية الواقعة بين عائلتي يورك ولانكستر المسماة حروب الوردتين، المجلية عن سقوط العائلة الملكية من سنة خمسين وأربعمائة إلى سنة خمس وثمانين.

وفي ذلك الوقت ارتقت على تخت السلطنة عائلة تودور، التي تولدت من ثاني فروع بيت الملك، وفي أيامها بلغت السلطنة إلى أوجها، وهي التي أبدلت المذهب الكاتوليكي بالمذهب البروتستانتي، وممن أعان على ذلك التبديل هنري الثامن وإدوارد السادس والملكة إلزبث، وذلك من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وألف إلى سنة ثلاث وستمائة وألف.

ثم في السنة المذكورة خلف الملكة إلزبث جاك الأول، الذي ابتدأت به عائلة ألستوارد بأنكلترة ، وهو أول من جمع الممالك الثلاث: أنكلترة وسكوسيا وإرلاندة في مملكة واحدة، وسماها بريطانيا الكبرى، وأراد ابنه شارل الأول بعد

ولايته بمدة تغيير القوانين والاستبداد بالتصرف، فنشأ من ذلك حروب بينه وبين مجلس البارلمان، وانتصر عليه المجلس بإعانة العامة، وألقاه في السجن، ثم حكم عليه بالقتل كخائن للمملكة، في سنة تسع وأربعين، وفي ذلك الوقت تكونت الربوبليك - أي الجمهورية - فأخذ الجنرال كرومول زمام المملكة، وبقي رئيسًا عليها مدة حياته باسم الحامي، إلى سنة ثمان وخمسين، ثم رجعت عائلة الستوارد إلى الملك سنة ستين وستمائة، لكن هفوات جاك الثاني أنشأت ثورة سنة ثمان وثمانين وستمائة التي بها سقطت تلك العائلة بالمرة.

وارتقى وليم الثالث من عائلة أورانج - وكانت تحته بنت جاك الثاني - ملكًا على تخت أنكلترة. وبهذه الثورة تأسست الدولة القانونية بأنكلترة التي سبقت سائر الممالك إلى الكونستيتوسيون بنحو قرن؛ فبها تأكد احترام الذوات والمكاسب، وظهور العدل في الأحكام، وعدم عزل الحكام، وتحديد الأداء ومراقبة أحوال الدولة، والتكلم في تصرفاتها لدى المجالس، وإنما قلنا: تأكدت هاته الأمور؛ لأنها كانت موجودة عندهم قبل الثورة المذكورة منذ مدة مديدة يتوارثها الأبناء عن الآباء، فلم تزدها الثورة إلا تقوية وتقريرًا.

فالحاصل أن تأسيس القوانين الحامية لحقوق الرعية بأنكلترة كان في القرن الثالث عشر، ومن سعادة الأمة الأنكليزية في أمورها الدنيوية معرفتها بأمور السياسة وإدارة المملكة، واقتدارها على معرفة ما ينبغي في حماية حريتها

وحفظ حقوقها، وإمضاء شروطها؛ حيث أوجدت في ذلك القرن مجلس البارلمان، أي المفاوضة في مناضلات ملوكهم، والبارلمان الموجود اليوم باقٍ على الكيفية المتأسس عليها في أثناء القرن المذكور. وقد قال فرتسكو الكنشليير في مدة هنري السادس بأنكلترة إن الملك على نوعين: استبدادي وقانوني، والفرق بينهما أن الملك في الأول يحكم على الأمة بنفسه، ويوظف عليهم الأداء بحسب ما يظهر له، من غير أن يبحث عن مقدرتهم ورضاهم، وفي الثاني لا يتصرف إلا بشريعة وقانون ترتضيه الأمة لنفسها.

وقد يقال إن الثورة الأنكليزية نشأت عروقها في القرون الماضية، وأظهرت قوتها الأحوال والأوضاع القديمة التي كانت في سياسة المملكة، والتبديل الواقع من الثورة الدينية في القرن السادس عشر، كما أن ثورة سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف كانت بدسائس وليم الثالث، الذي جلس عقبها على تخت الملك، وأعانه عليها السيرة المستقبحة جدًّا التي كان عليها سلفه الملك جاك الثاني، الذي لا بصيرة عنده، ولا شفقة، مع أن المجلسين - أعني مجلس اللوردات ومجلس نواب العامة - كانا متفقين على تلك الثورة والخروج عن طاعة الملك، والأمة بأسرها كذلك. ومن ذلك الوقت ظهر حسن التنظيمات السياسية التي استقامت بها أمور أنكلترة الداخلية، ونمت قوتها البحرية حتى ملكت المستعمرات الكثيرة في سائر جهات المعمورة.

ثم في سنة اثنتين وسبعمائة وألف استولت بعد وليم الثالث حنَّى بنت جاك المذكور.

واستدعت الأمة بعد موتها عائلة هانوفر إلى الملك سنة أربع عشرة وسبعمائة وألف، وهذه العائلة هي الحاكمة اليوم بأنكلترة، وقد استولى منها خمسة ملوك، واسم الملكة المستولية الآن فكتوريا. وفي مدة هؤلاء الملوك الأخيرة فتحت كاندا بأمريكا، سنة ستين وسبعمائة وألف، وتم ذلك بعد حرب سنة ثلاث وستين وسبعمائة وألف، وضاعت من أيديهم الممالك المتحدة بأمريكا، من سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف إلى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وألف، ودخل الهند تحت سلطتهم سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف، وتم ذلك بعد حروب انتهت إلى سنة عشر وثمانمائة وألف، وحاربوا نابليون الأول فرنسا من سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وألف إلى سنة خمس عشرة وثمانمائة وألف. وفي مدة جورج الرابع ابتدى تاريخ العصر الجديد، أي تبديل السياسة على الكيفية التي اختارها نواب الشعب، وذلك في سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة وألف. ولنذكر أسماء ملوك أنكلترة على ترتيبهم في الملك مرقومًا بإزاء كل واحد منهم تاريخ ولايته.

أسماء ملوك أنكلترة وتواريخ ولايتهم

سنة	العائلة الأولى الساكسونية
827	أغبرت
836	أثلولف
858	أثلبلد
860	أثلبرت
866	أثلريد
871	ألفرد الكبير
900	إدوارد الأول القديم
925	أثلستان
941	إدموند الأول
946	أدرد
955	إدوي
957	إدغرد الملقب بالبسيفك أي السليم
975	صانت إدوارد الملقب بالمرتير أي الشهيد
978	أثلريد الثاني
سنة	**العائلة الثانية الساكسونية والدانماركية**
1013	سؤينون الدانماركي
1014	أثلريد المذكور
1016	إدموند الثاني الملقب بالسكسوني
1017	كانوت الكبير دنيمركي
1036	هارولد الأول دنيمركي
1039	هاردي كانوت دانماركي
1041	إدوارد الكونفسور ساكسوني
1066	هارولد الثاني ساكسوني

سنة	العائلة الثالثة من جنس النورماند
1066	وليم الأول الملقب بالفاتح
1087	وليم الثاني الملقب بالأشقر
1100	هنري الأول المسمى بوكليرك
1135	ستيفن دوبلوي
سنة	**العائلة الرابعة من جنس أنجو البلنتجنات**
1154	هنري الثاني
1189	ريشارد الأول الملقب كور دليون، أي قلب الأسد، وهو الذي حارب صلاح الدين بن أيوب عند افتكاكه لبيت المقدس
1199	جان سانتير، أي الذي هو بلا أرض لأن أباه لم يملّكه شيئًا
1216	هنري الثالث
1276	إدوارد الأول
1307	إدوارد الثاني
1327	إدوارد الثالث
1377	ريشارد الثاني
1399	هنري الرابع
1413	هنري الخامس
1422	هنري السادس
1461	إدوارد الرابع
1483	إدوارد الخامس
1483	ريشارد الثالث
سنة	**العائلة الخامسة من بيت تودور**
1485	هنري السابع
1509	هنري الثامن

سنة	العائلة الخامسة من بيت تودور
1547	إدوارد السادس
1553	جان غري
1553	ماريا
1558	إلزابث
سنة	**العائلة السادسة من بيت ستوارت**
1603	جاك الأول
1625	شارل الأول
1652	فترة مدة سجن المذكور وقتله من 1649 إلى 1652
1652	أولور كromول رئيس الجمهورية الملقب بالحامي
1658	ريشارد كرومول ابنه
سنة	**رجوع عائلة ستوارت إلى الملك**
1660	شارل الثاني
1685	جاك الثاني
سنة	**العائلة السابعة من بيت أورانج وستوارت**
1689	وليم الثالث من بيت أورانج وماريا زوجته من بيت ستوارت
1702	حنّى
سنة	**العائلة الثامنة من بيت هانوفر**
1714	جورج الأول
1727	جورج الثاني
1760	جورج الثالث
1820	جورج الرابع
1830	وليم الرابع
1837	فيكتوريا وهي الملكة الآن

الفصل الثاني
في وصف مملكة الأنكليز وتحديد مساحتها

اعلم أن المملكة الأنكليزية تشتمل على ثلاث ممالك متحدة، وهي أنكلترة وسكوسيا وإرلاندة، وسميت ببريطانيا العظمى عند إضافة مملكة سكوسيا إلى أنكلترة ، في عهد جاك الأول سنة ثلاث وستمائة وألف، وهما متصلتان في أكبر جزر بريطانيا، التي يبلغ طولها الممتد مما بين الشمال والغرب إلى ما بين الجنوب والشرق ثمانمائة وثمانين كيلو ميترًا، وعرضها في جهة الشمال خمسة وسبعون ومائتا كيلو ميترٍ، وفي الوسط أربعة وعشرون ومائة كيلو ميترٍ، وفي الجنوب ثمانية وثمانون وأربعمائة كيلو ميترٍ، وتكسير سطحها تسعة وسبعون وستمائة وثلاثون ألفًا ومائتا ألف كيلو ميترٍ مربعٍ، ويحدها شمالاً وشرقًا بحر الشمال، وجنوبًا بحر المانش الفاصل بينها وبين فرنسا، وغربًا بوغاز صان جورج وبحر إرلاندة.

هذا وإن أنكلترة في حد ذاتها تنقسم إلى اثنين وخمسين كونتيا[1]، منها اثنا عشر لإمارة الغال.

---

(١) كونتيا: مقاطعة. (م).

وأما عدد سكانها فإنه قد بلغ في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف عشرين مليونًا وواحدًا وستين ألفًا وسبعمائة وخمسًا وعشرين نفسًا.

والجبال بها قليلة إلا في إمارة الغال، وفي الناحية الشمالية، ومع هذا فليست شامخة؛ إذ أعلاها سناودون، وهو لا يتجاوز ألفًا ومائتي ميتر، وأوديتها كثيرة لكن غالبها صغير، وأكبرها التامس والسفرن، والهومبر، وهو متكون من الترانت الأوز ثم المدوي والمرسي، وأودي آفون، والتيس والدي، والتين والدروانت. وهناك بحيرات قليلة في الناحية الشمالية، والخلج المصنوعة بها لتيسير التواصل كثيرة، ولهم فيها أربعة أصول ينسب كل واحد منها إلى بلدة، وهي ليفربول ومانشستر ولندرة وبرمنغهم.

ثم إن إقليم أنكلترة كثير الرطوبات، بارد ذو ضباب، ينبت به كثير من الثمار والحبوب والخضر، ويوجد به الهبلون، وهو حشيشة الدينار تخمّر بها البيرة، ونباتات يستخرج منها الدقيق، وأخرى يستخرج منها الزيوت، وأما العنب فلا ينبت بأرضهم. ومراعيهم في غاية الجودة؛ ولذلك حسنت خيلها وسائر مواشيها، وكثر الصيد في غالب جهاتها، وبالناحية الغربية من الإقليم المذكور أجمة واسعة، ومزارعها كثيرة، ومقاطع الفحم الحجري والحديد بها غنية جدًّا وكذا مقاطع النحاس والرصاص والقصدير.

وأما الصناعات فقد اتسع عندهم نطاقها غاية الاتساع، لا سيما صناعة الجوخ والكتّان وسائر الأقمشة، ونسج الحرير والصوف والكتان، وغزل القطن وسبغه، واستخراج المعادن، واصطناع الأسلحة وآلات الحديد اللازمة للضروريات، واصطناع الساعات والمصوغ، ودبغ الجلود، وغسل الثياب بالآلات.

وبها طرق عظيمة اعتيادية، وطرق كثيرة حديدية، وطول الذي تم منها سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ثمانية عشر ألف كيلو ميتر وسبعمائة وثمانية وسبعون كيلو ميترًا ويوجد سلك التلغراف في جميع جهات المملكة بكثرة، إلا أننا لم نقف على حساب طوله.

وأمر التجارة بها في غاية الرواج، داخل المملكة وخارجها؛ بحيث إن تجاربهم تصل إلى سائر جهات المعمورة.

وأما مملكة سكوسيا فإنها تُبدي للناظر منظرًا بهيجًا، لا تشبه جهة منها الأخرى، وناحيتها الشمالية صعبة المسالك لكثرة الجبال التي بها، وفي الناحية الجنوبية منها مزارع منبسطة خصبة، والوسط منها تشقه سلسلة من جبال غرامبيان، والشاطئ الغربي كله متصل بمستجزرات عديدة؛ حيث كانت مياه البحر المحيط نافذة فيه وواصلة إلى أصول الجبال؛ ولذلك تكوّن في تلك الجهة عدد كثير من الغولف[١] ومن الباي[٢]، المعبر عنهما عندنا بالجون والدخلة. وبهاته

(١) الغولف: الخليج. (م).
(٢) الباي: الخليج الصغير. (م).

المملكة أودية وبحيرات كثيرة، وبها خليج كبير يسمى كليدونيان، واصل بين بحر الشمال وبحر إرلاندة. وهذا الإقليم بارد ويوجد بجباله مقاطع الرصاص والحديد والفحم الحجري، وأنواع الرخام وبلور الصخر، والحجر اليماني[1] وبقية المعادن.

وأمر الفلاحة بها في غاية الانتظام، والمراعي كثيرة خصبة؛ ولذلك كثُرت أنعامها خصوصًا الغنم ذا الصوف الجيد. وأهل سكوسيا متقدمون في سائر الصناعات لا سيما علم الفلاحة عند أهل الأرض البسيطة.

ثم إن مملكتها منقسمة إلى ثلاثة وثلاثين كونتيا، وقد بلغ أهلها في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ثلاثة ملايين وواحدًا وستين ألفًا ومائتين وخمسين نفسًا.

وأما مملكة إرلاندة فإن موقعها بغرب أنكلترة منفصلة عنها ببوغاز صان جورج وبحر إرلاندة، ومساحة طولها الممتد من الشمال إلى الجنوب أربعمائة وخمسون كيلو ميترًا، وعرضها مائتان وثمانون كيلو ميترًا، وتكسير سطحها يبلغ أربعة وثمانين ألفًا ومائتين وسبعة وثلاثين كيلو ميترًا مربعًا، وعدد أهلها في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف بلغ خمسة ملايين وسبعمائة وأربعة وستين ألفًا وخمسمائة وثلاثًا وأربعين نفسًا.

---

(١) الحجر اليماني: العقيق. (م).

وهذه المملكة تنقسم إلى أربع إيالات، وتنقسم تلك الإيالات إلى اثنين وثلاثين كونتيا، وأرضها في غالب الجهات منبسطة كثيرة الأودية، وبها ثلاثة خلج كبيرة، يسمى أحدها بالخليج الكبير، والثاني بالخليج الملكي، والثالث بخليج نيوري. وبإرلاندة عدد وافر من البحيرات، وشطوطها في غاية التعريج المستحسن، خصوصًا من الناحية التي بين القبلة والغرب؛ ولذلك حصلت هذه المملكة على عدة مينات(١) صالحة لإرساء السفن. وأما المراعي الجيدة ومستنقعات المياه فكثيرة بها، وإقليمها معتدل لكنه ندي سريع التغير، وأصول النباتات التي بها الشعير والفوان(٢)، وهو نوع منه مختص بالدواب، والكتان والبطاطة بكثرة، والقمح بقلة، ويوجد بها كثير من الحيوانات، وخيلها الصغار مرغوب فيها، والمعز والخنزير يوجدان فيها بكثرة، وبها معدن الذهب والفضة، والنحاس والرصاص، والحديد والفحم الحجري، وحجر الزرنيخ، ومقاطع الكذان. وأما الصناعات فإنها غير بالغة فيها مبلغها في غيرها، وبها من المواد قماش الكتان والقطن والأقمشة الرقيقة.

وأما الجزر الموجودة بهذه الممالك فمنها الجزر المجاورة للبريطانيا، وهي ويت ومان وإنكلسي.

والجزر المتجمعة مثل جزر إبريد وجزر أوركاد وجزر سيتلاند إلخ يحتوي جميعها على ألف وستة وعشرين كيلو ميترًا مربعًا وقد بلغ سكانها في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف مائة وثلاثة وأربعين ألفًا وسبعمائة وتسعًا وسبعين نفسًا، وقدر سطح الممالك المذكورة بالتكسير ثلاث مائة ألف وخمسة عشر ألفًا

(١) مينات: مواني. (م).
(٢) الفوان: العلف. (م).

وتسعمائة واثنان وأربعون كيلو ميترًا مربعًا، وقد بلغ سكانها في سنة إحدى وستين وثمانمائة تسعة وعشرين مليونًا وواحدًا وثلاثين ألفًا ومائتين وثماني وتسعين نفسًا، وتختها مدينة لندرة المحتوية بمقتضى ما تحرر في السنة المذكورة على مليونين وثمانمائة ألف وثلاثة آلاف وأربع وثلاثين نفسًا.

ثم إن للدولة الأنكليزية زيادة على جزر البريطانيا جزرًا عديدة ومستعمرات، منها في أوروبا جزيرة اليغولاند في بحر الشمال، وجزر جرسي وغرنسي في بحر المانش، وجبل طارق بأرض إسبانيا، وجزيرة مالطة وغوزو ببحر الروم، وجملة سكان الأماكن المذكورة ثلاثمائة وسبعة وثمانون ألفًا وخمسمائة وثلاث وعشرون نفسًا، ولها في آسيا غالب أرض الهند، من غربي الغانج وجزيرة سيلان، وفي شرقي الغانج مملكة أسام وأركان وممالك أخرى، ولها في الصين جزيرة هنكونغ وبلدتها، ولها في جزيرة العرب مدينة عدن، وفي بوغاز باب المندب جزيرة بريم، وجملة سكان ما ذكر - أي ممالك الأنكليز في آسيا - مائة وسبعة وثمانون مليونًا ومائة وسبعة وعشرون ألفًا وثمانمائة وخمس وسبعون نفسًا، فمن ذلك في الهند مائة وخمسة وثمانون مليونًا وثلاثمائة وسبعة عشر ألفًا وثمانمائة وخمس عشرة نفسًا، والذين منهم تحت حكم الأنكليز مائة وخمسة وثلاثون مليونًا وثلاثمائة وتسعة وستون ألفًا وخمسمائة وثمان وستون نفسًا، والباقي وقدره تسعة وأربعون مليونًا وتسعمائة وثمانية وأربعون ألفًا ومائتان وسبع عشرة نفسًا، مقسوم تحت ملوك طوائف لها نوع استقلال في إدارتها الداخلية، وتؤدي للأنكليز أداء سنويًا

من المال، وللدولة المذكورة في إفريقيا مواضع في سينغال وفي غنيا وجزر موريس صانت الآن، وجزيرة أساسنيون ومستعمرات رأس الرجاء الصالح، ومراكز في جزيرة مدغسكار، وسكان جميعها – أي ما بإفريقيا – تسعمائة ألف وأربعة عشر ألفًا وثلاثمائة وأربع وستون نفسًا. ولها بأمريكا البريطانيا الجديدة، المحتوية على كندا وبرنزويك الجديد، وسكوسيا الجديدة ولابرادور، وجزيرة الأرض الجديدة، وعدة بلدان أخرى كائنة غربي ما ذكر. ولها أراض وجزر في ناحية القطب الشمالي، والجزر المسماة بالأنتيل الصغار، وجزيرة جامايك وغيان الأنكليزية وجزر ماجلان، وجملة سكان جميعها – أي ما بأمريكا – ثلاثة ملايين ومائتان وتسعة وتسعون ألفًا وخمسمائة وثلاث وستون نفسًا، ولها في الأوقيانية – وهي جزر الأوقيانوس، أي البحر المحيط – الشطر الشرقي من أستراليا وعدة جهات من الشاطئ الغربي، وجزيرة تزمانيا وجزر نيو زيلاند أي زيلاندة الجديدة، وجزر نور فولك، وجملة سكانها مليون وثلاثمائة وثمانية وخمسون ألفًا وثلاثمائة وإحدى وثمانون نفسًا. ولها ممالك جديدة بجنوب إفريقيا، كمدينة لاغوس تملكتها سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف، وويدًا (بتشديد الدال)، وعدة جزر صغيرة.

واعلم أن من هذه الممالك ما هو غير معتبر في حد ذاته لكنه بواسطة كونه مركزًا حربيًّا ومأوى للسفن عند الحاجة معتبر جدًّا؛ حيث إنَّ بوارج الأنكليز يمكنها بواسطة تلك الممالك أن تجول بجيشها في سائر أقطار الأرض بسهولة.

فالحاصل أن جملة رعايا أنكلترة في أقسام الكرة الخمسة، بلغت في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف مائتين وعشرين مليونًا وثلاثمائة وثمانية آلاف وتسعمائة وأربعًا وأربعين نفسًا، وذلك أكثر من خمس سكان المعروف من الكرة الآن.

الفصل الثالث
في بيان التنظيمات السياسية بأنكلترة

اعلم أن الكونستيتوسيون الأنكليزي - كما أشار إليه لورد بروغم - ليس بسيطًا، بل هو مركب من ملاحظة أمور ناشئة عن تركب الدولة الأنكليزية من الأصول الثلاثة التي لا تخلو دولة ملكية عن واحد منها، وذلك أن الدولة إما أن تكون أوتو كراتيك أي استبدادية، أو أريستو كراتيك، أي زمامها بيد الأعيان، أو ديموكراتيك أي أمرها بيد العامة. ولا شك أن كل واحد من هاته الصور في حد ذاتها لا تكفي لحفظ حقوق الأمة ولا لحسن الإدارة؛ فلذلك تأسس الكونستيتوسيون الأنكليزي على الأصلين المتقررين بين الدول الأوروباوية، وهما: أن ينوب عن القوة السلطانية مجالس مستقلة في تصرفها، وأن لا تمضي أحكامها إلا بموافقة الملك لها، وأما ما يعرض للكونستيتوسيون المذكور من مزيد القوة والضعف فإنما ذلك من اختلاف عاداتهم وتبدل أوقاتهم؛ إذ لم يكن الكونستيتوسيون عندهم أمرًا سياسيًّا متفقًا عليه، ولم يكن صادرًا في أصله عن إملاء وروية وإعمال للقواعد العملية كما فعله الفرنساويون، بل هو نتيجة ملاحظة أحوال وعادات كما أشرنا إليه. وقال دوك ديان الذي - كان أمبشدور فرنسا

بلندرة - إن الكونستيتوسيون الأنكليزي مستجمع من القوانين القديمة والجديدة، ولا يخلو من نوع ارتباك؛ إذ قد يوجد فيه حكمان متناقضان في نازلة واحدة، بأن يصدر حكم جديد فيها قبل إبطال الأول وتركه؛ بمقتضى حب الأمة للتمدن مع احترامهم لعاداتهم القديمة.

ثم إن مبدأ تاريخ الكونستيتوسيون الأنكليزي من وقت انعقاد الشرط الكبير، الذي عرضه جماعة البارونات على الملك جان سانتير، وألزموه بتصحيحه وإمضائه، وذلك في التاسع عشر من يونية سنة خمس عشرة ومائتين وألف، ومنه قوله في الفصل الثاني: «سوغنا لسائر رعايانا في مملكتنا الأنكليزية، علينا وعلى ورثتنا إلى الأبد، جميع الحرية الآتي شرحها، ليملكوها وأعقابهم منا ومن أعقابنا». وفي الفصل الرابع عشر منه يقول: «ولتركيب المجلس العمومي بمملكتنا للمفاوضة في توظيف الأداء على الناس نجمع جماعة الأرشفاك والأفاك، أي رؤساء الأساقفة، وهم من أهل الخطط الدينية والأبي، وهم رؤساء الأديرة التي بها الرهبان، والكونت والبارونات الكبار، باستدعاء منا بمكاتبة كل شخص بانفراده، وبواسطة رؤساء متوظفي الدولة نجمع المتوظفين الذين لنا عليهم الأمر». وفي الفصل الخامس عشر منه يقول: «ونفعل مثل ذلك فيما إذا أردنا وضع الإعانة على مدينة لندرة، مع بقاء الحرية القديمة للمدينة المذكورة وحرية عاداتها». وفي الفصل الثاني والعشرين منه يقول: «مجلس الأحكام العمومية الكبير لا يلزم في المستقبل انتقاله إلى حيث ننتقل بل يستقر بالمحل المعين له». وفي الفصل

الخامس والعشرين منه يقول: «المكتري لأرض أحد الأعيان الذين كانوا يملكون الأراضي بما عليها لا يغرم مالاً لمجرد هفوة صغيرة ولا كبيرة، إلا بحسب الجناية وإذا لم يكن للجاني ما يزيد على مقدار المعيشة الضرورية فلا يسوغ إغرامه وإذا تعلقت الجناية بالباعة السوقية فلا يسوغ أن تمس رؤوس أموالهم ولا أن تعطل حركاتهم». وفي الفصل السادس والعشرين يقول: «إن أرباب الفلاحة سواء كانوا تحت سلطتنا أو تحت سلطة أرباب الأملاك لا تضرب عليهم الغرامة عند صدور الذنب إلا بقدر طاقتهم ولا يعطون عن خدمة أراضيهم ولا تلزم الغرامة إلا بشهادة اثنتي عشرة نفسًا من الجيران الذين ترضى شهادتهم ويمينهم». وفي الفصل الثامن والثلاثين منه يقول: «ليس لأحد من جماعة الأبي والكونت ولا غيرهم من ضباطنا أن يأخذ على وجه الغصب خيلاً أو كراريط لحمل أثقالنا إلا بدفع القيمة المعتادة». وفي الفصل الثالث والأربعين منه يقول: «ويكون القيس والكيل والوزن في سائر بلدان المملكة بمعيار واحد وهو الموجود بمدينة لندرة» وفي الفصل الثامن والأربعين يقول: «لا يمسك أحد من الناس ولا يسجن أو يؤخذ منه شيء مما يملكه ولا يعطل شيء من عاداته وحريته ولا يخرج عن ذمة القوانين ولا ينفى من أرضه ولا يمس بما ينافي الحرية بأي وجه كان ونحن لا نكون عليه ولا نأمر بسجنه إلا أن يصدر ذلك حكم بمقتضى قانون البلاد المتقرر لدى المجالس». وفي الفصل التاسع والأربعين منه يقول: «لا نمنع أحدًا حقًّا له ولا نبيع عليه شيئًا ولا نعطل دونه حكمًا». وفي الفصل الثاني والخمسين يقول: «كل أحد من مملكتنا يرخص له في السفر والخروج من المملكة متى شاء وفي الرجوع إليها

ترخيصًا مطلقًا بدون أن يخشى منعًا في ذلك من أحد كان السفر في البر أو في البحر وعليه أن لا يحيد عما يجب عليه من طاعتنا».

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين ومائتين وألف تقرر الشرط الكبير بالقانون المسمى تقرير أوكسفورد، وهي بلدة بأنكلترة، الصادر عن إملاء أربعة وعشرين بارونًا في أول اجتماع لهم بلندرة، في مجلس المفاوضة الذي لقبوه بالبارلمان، ويحتوي التقرير المشار إليه على أشياء، منها أن البارونات هم الذين يسمون حكام النوازل في كل سنة كما يسمون ناظر الخزنة، والشانسلر وهو رئيس الكتبة، وشاهد الدولة، وغيرهما من متوظفي المملكة، ومنها أن تكون تحت نظرهم حراسة قصور الملك، ومنها أن البارلمان يجتمع ثلاث مرات في السنة في فبراير ويونية وأكتوبر، ومنها أن يسمى كومسيونًا مؤبدًا مركبًا من اثني عشر بارونًا للحضور في البارلمان ليتفاوضوا مع مجلس الملك في سائر الأمور، ومنها أن يعين أربعة من الكفاليبرية في كل كونتي لتلقي ما عسى أن يحدث من الشكايات بالأعيان، ونحوهم من متوظفي الملك، ويعرضون ذلك على البرلمان في أول جلسة له.

ثم في سنة أربع وستين ومائتين وألف اجتمع البارلمان أول مرة، وكان فيها تامًّا؛ إذ لم يكن تركّبه من الأعيان والقرناء فقط بل كان معهم وكلاء الكونتي والبورغ، أي وكلاء الإيالات والقرى، حتى إن ماكولي المؤرخ عبّر عن هذا الاجتماع بوقت تمام تكوين الأمة الأنكليزية في الحقيقة، وظهور أخلاقهم الخصوصية المحفوظة فيهم من ذلك العهد، ومن ثم عُدّ آباؤهم سكان جزيرة

حِسًّا ومعنى، أي كما أنهم منقطعون من غيرهم حسًّا فهم منقطعون عنهم أيضًا في سياستهم وعاداتهم. وظهرت فيهم من ذلك الوقت مزايا الكونستيتوسيون؛ فإنه وقع فيه بعد ذلك تغيير كبير، فهو أحسن ما عاشت عليه أمة كبيرة عدة قرون.

ومما نشأ في ذلك الوقت اجتماع مجلس الكومون، أي نواب الإيالات الذي نسج على منوالهم فيه سائر الأمم، وفي مدة الملك إدوارد الثالث افترق المجلسان اللذان كانا مجتمعين قبل ذلك الوقت، ثم في مدة ريشارد الثاني رخص لنواب الأهالي أن ينظروا في أمر الدخل والخرج، وفي مدة هنري الرابع ظهر شرط سنة ست وأربعمائة وألف، الذي حجر على الملك أن يتصرف بدون موافقة مجلس مؤبد يحلف أعضاؤه بالبرلمان على المحافظة على سائر قوانين الكونستيتوسيون.

ثم في مدة حروب الوردتين من أيام ملك عائلة تودور المستبد ضعفت سلطة مجلس البارلمان، حتى صار يقنع من الغنيمة بمجرد البقاء.

ثم في مدة ستوارت ارتفع شأنه، وخرج من ربقة العبودية التي بقي فيها مدة طويلة؛ لتقدّم سلطة الملك بعد منازعات شديدة، أرسى الحال فيها على هدم تلك السلطة الاستبدادية.

ثم بعد ذلك دخل أمر المملكة في قبضة كرومول، الذي بدد شمل البارلمان في سنة ثلاث وخمسين وستمائة وألف، ثم تجدد احترامه في مدة شارل الثاني،

ثم تجددت المحاربة بينه وبين السلطة الملكية في مدة جاك الثاني، وأجلى الأمر فيها عن سقوط القوة الملكية أيضًا سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف.

ثم إن البارلمان أعطى تاج الملك وليم دورانج، وفي الرابع والعشرين من فبراير سنة تسع وثمانين وستمائة وألف تجدد بمعاريض القوانين أساس الكونستيتوسيون الأنكليزي الموجود الآن بالتمام.

وشروطه الأصلية هي أنه لا عبرة بالقوة الملكية التي يستند إليها في الإلزامات والتوقيفات بدون موافقة البارلمان، ولا ينسخ شيء من القوانين أو يوقف العمل به، ولا يسوغ تعيين شيء من الأداء لخصوصية الملك أو لمصلحة المملكة بغير موافقة البارلمان، أو بكيفية مغايرة لمقصده، وأن كل شخص من آحاد الناس له أن يعرض على الملك مطلبه بنفسه، ولا يعوقه شيء عن ذلك، ولا يسوغ أخذ العسكر ولا بقاؤه في الخدمة بدون موافقة البارلمان، وأن انتخاب أعضائه يكون من الأهالي بمقتضى اجتهادهم، بدون منافاة لحريتهم، ولا تعطل حرية المفاوضة بين العامة فيما يقع به، ولا يلزم أحد بوضع مال على جهة الضمان إلى تمام الخصومة، ولا يضرب عليه غرامة تشق عليه، ولا يعاقب بعقاب شديد أو غير معتاد، وينبغي أن يشهر للناس أسماء أمناء الحكم الذين يقع عليهم الاختيار، كما ينبغي أن يكون اختيارهم على أتم وجه، والأمناء الذين يستفتون في مرتكب جناية كبيرة ينبغي أن يكونوا من أصحاب الأملاك، ينبغي المحافظة على اجتماع البارلمان

لإصلاح جميع ما يشتكي منه، وتغيير ما يلزم تغييره من القوانين وحفظ الباقي عن طروق الخلل.

كما أنّ صك القانون الذي يبين شروط وراثة التاج يشتمل على الشروط الآتي بيانها، وهي: أنَّ كل شخص يتّحد بكنيسة رومية، أو يتزوج ببباباوي، أو بباباوية، أي يكون على مذهب الكاتوليك، يسقط حقه من الملك، ولا يمكن من أن يملك التاج أبدًا، أو يرثه ولا تكون بيده إدارة الدولة، وإذا وقع ذلك ونزل فالأمة لا تكون مطالبة بطاعته، ويرجع التاج إلى أقرب وارث.

ثم إنهم بعد مدة قليلة اقترعوا في صك القوانين على المقدار الذي ترخص فيه القمرة للدولة من العسكر الذي يبقى تحت السلاح في كل سنة.

ثم في دولة المملكة حتى اقترع بالبارلمان على معروض في قبول عائلة هانوفر للملك، من فصوله أن كل من يرث التاج الأنكليزي في المستقبل لا بد أن يدخل تحت قيود اعتقادات الكنيسة الأنكليزية طبق ما تقرر في القوانين، وإذا نقل التاج إلى أحد غير مولود بأنكلترة فلا تكون الأمة الأنكليزية مدافعة عن ملك أو أرض غير راجعين إلى التاج الأنكليزي بدون موافقة البارلمان، ولا يمكن لمن يملك التاج في المستقبل أن يتوجه خارج أرض أنكلترة وسكوسيا وإرلاندة، إلا بإجازة من القمرة. وجميع نوازل الإدارة التي يجب عرضها على مجلس الملك المسمى بالمجلس الخاص يجعل تقرير فيما وقع فيها من الانفصال مصحح ممن حضر من

الأعضاء، وكل من ولد خارج أنكلترة وسكوسيا وإرلاندة وخارج بلدان سلطة المملكة لا يمكن أن يكون عضوًا في المجلس الخاص، ولا في أحد المجلسين المشار إليهما، ولو أخذ عقد الجنسية بالاستحقاق أو بتفضُّلِ الملك، إلا أن يكون أحد أبويه من الأنكليز، ولا يأخذ رتبة ما أو توكل لأمانته وظيفة مدنية أو عسكرية، ولا يعطى شيئًا من أرض التاج على وجه الهبة والعطية، ولا ينتفع أحد بكتب أمان، ولو ختم بالطابع الكبير، إذا كان صدور الشكاية منه من البارلمان.

ومن أجل ما ذكر من الأمور ومعاريض التراتيب وللقوانين التي سيأتي الكلام عليها، انقسمت القوة الحكمية بين الملوك والبارلمان.

الفصل الرابع
في قوة التنفيذ

اعلم أن قوة التنفيذ بيد الملك؛ فهو الذي ينفذ القوانين بواسطة وزرائه، وأن تاج البريطانية العظمى ينتقل بالوراثة، يرثه الأكبر فالأكبر من السلسلة الواحدة من العائلة على ترتيبهم في الولادة، بمعنى أنه ينقل من الأب إلى الابن البكر وهكذا، ويتقدم الذكر على الأنثى إذا كانا في درجة واحدة، مثل الأخ الصغير يتقدم على أخته الكبيرة، ويلقب ملك أنكلترة باسم الري.

وهذه طالعة أوامره: فلان بنعمة الله ملك المملكة المتحدة من البريطانية الكبرى وإرلاندة محاميًا عن العقيدة، ومن حيث كونه رئيس الكنيسة يختار كبراء الديانة، ويأمر بجمع ديوان الأساقفة، ومن حيث كونه رئيس المملكة ينصِّب الوزراء ويمنح سائر الوظائف العسكرية برًّا وبحرًا، وسائر ألقاب الشرف والمقامات والنياشين، وغير ذلك من أنواع الجزاء في الأمور المدنية والجندية، ويرخص في قبول علامات التمييز المعطاة من ملوك الأجانب، ويرسل السفراء، ويقبل سفراء الدولة الأجنبية، ويستعين بكافة أهل المملكة على ما يهم الجميع، ويشهر الحرب، ويعقد الصلح، ويضرب السكة، ويعطي مكاتيب الجنسية الأنكليزية،

ويعفو عن الجناة ونحوهم. وهذه الأمور وإن كانت كلها راجعة لسلطة الملك بأصل الاستحقاق فإنها متوقفة على إجازة الوزراء، من حيث إنهم مطالبون بتصرفات الدولة عند البارلمان؛ ولذلك لا يبدي الملك أمرًا حتى يستشير وزراءه.

ثم الوزراء لا يمكن بقاؤهم في التصرف إذا لم يكن غالب أعضاء المجلس موافقًا لسياستهم، وهو معنى مسؤولية الوزراء، وصورة موافقة المجلس في ذلك أن تعرض على أعضائه سائر النوازل الداخلية والخارجية. وذلك من حقوقه، كما أن له أن يسأل الوزراء عما يظهر له متى شاء أو يقدح في سيرتهم، وعلى الوزراء الجواب، فينشأ عن ذلك مجادلة بالمجلس بين القادح والمدافع، فإذا اتفق غالب المجلس بعد تأملهم في النوازل وجواب الوزراء عما ورد على سيرتهم في إدارة المملكة من القدح، لم يبق للملك – والحالة ما ذكر – إلا أحد أمرين: إما تبديل الوزراء أو إغلاق المجلس، على شرط أن يعيد الأهالي الانتخاب، فإذا انتخبوا غير الوكلاء الأول ممن يعرف باللين والمساعدة للدولة، دلَّ ذلك على رضاهم بسيرتها، فيبقى الوزراء حينئذ على خططهم، وإذا اختاروا الوكلاء الأول من هو مثلهم في المعارضة دل ذلك على عدم رضاهم بها، ووجب حينئذ خروج الوزراء من الخطة.

ومن حقوق المجلس أيضًا أن يدّعي على أحد الوزراء أو على جميعهم بالخيانة إذا رأى موجبًا لذلك، فيكون فصل النازلة بالمجلس الأعلى أي مجلس اللوردوات، ومنها أن يمتنع من إعطاء المال والعسكر للحرب التي يراها الملك إذا

لم ير فيها فائدة للأمة؛ لأن ترتيب الأداء والخدمة العسكرية أمر سنوي لا بد من تجديد القانون فيه كل سنة.

قلت: فبهذه القوانين حصل للأمة الأنكليزية من المعارف والعمران وأنواع التمدن ما صارت به جزيرتهم كأحسن البساتين، بعد أن كانت صخرة في البحر لا عمران بها، وما استولوا به على خُمس سكان الكرة كما هو مشاهد بالعيان لمن له اطلاع على الجغرافيا.

ثم إن الوزراء ينتخبهم الملك من أعضاء المجلسين، ويقع الاختيار بالتعيين لرئيس العصبة التي تنحاز إليها أكثرية القمرة، وهذا الرئيس يتلقب بالوزير الأول، وهو الذي يعين بقية الوزراء من أعيان العصبة المذكورة، ويعرض ذلك على موافقة الملك؛ فإن لم يوافقه عليهم امتنع من قبول الرئاسة؛ لأن المسؤولية إذا وقعت في إدارة أحدهم تشمل جميعهم، إذ العهدة عليهم كلهم في حسن الإدارة، فبالضرورة يمتنع من قبول الخدمة مع من لا يتفق بكفاءاته.

هذا ويوجد في سياسة المملكة عصبتان، وهما هويغ وتوري، فالأولى حزب التقدم وتوسيع دائرة الحرية، والثانية المحافظة على الأصول القديمة، فالوزراء وغيرهم من أهل الخطط المعتبرة يكونون من أحد الحزبين من غير مشاركة الحزب الآخر له، وإذا سقطت الوزارة أمام البارلمان لأجل نازلة سياسية أو كان أحد

المجلسين ضدًّا لها، وظهر بالقرعة عدم رضاهم بتصرفها، فإن رئيس الوزراء يتأخر عن الخدمة، واستعفاؤه يستلزم استعفاء رفقائه.

صورة تركيب الوزارة: لورد الخزانة، وهو وزير المال يكون في الغالب هو الوزير الأكبر، ثم لورد رئاسة المجلس الخاص، ثم اللورد الشانسلر الكبير، وشانسلر الأشيكي، وناظر الأمور الداخلية، وناظر الأمور الخارجية، وناظر المستعمرات الخارجية أيضًا، وناظر الحرب، وناظر أمور الهند، ويضاف إلى هؤلاء الأعضاء التسعة الذين هم وزراء عدة أشخاص من متوظفي الدولة، ثم إن جراية أعضاء الوزارة تختلف باختلاف خططهم، من خمسين ألف فرنك إلى مائتين وخمسين ألفًا في السنة. والوزارة تتصرف تحت أمر الملك في أمور المملكة الداخلية والخارجية المتعلقة بمواصلاتهم مع الدول الأجنبية، بدون خروج عن حدود البارلمان كما تقدم.

الفصل الخامس
في كيفية استنباط الأحكام القانونية

اعلم أن استنباط الأحكام ببلاد الأنكليز من تصرف الملك والبارلمان، الذي هو عبارة عن مجلس اللوردوات ومجلس وكلاء العامة، واجتماعهم يكون في الوقت الذي يعينه الملك من أيام السنة، ولا يؤاخذ أعضاء البارلمان بما يصدر منهم من الأقوال في كلتا القمرتين، كما لا يؤاخذ صاحب المطبعة بما يشيعه من ذلك وغيره في الورقات اليومية، ولكل واحد من الأهالي أن يعرض على البارلمان ما يبدو له في أي أمر كان، وانتهاء جلساته يكون بإذن الملك، والجرنالات تطبع سائر المفاوضات بدون إخلال بشيء منها.

وقمرة اللوردوات تتركب من الأكليروس، وهم أهل الكنيسة، والنوبليس وهم الأعيان، ومن هذا التركيب يتولد طائفتان من اللوردوات، وهما القرناء الروحية والقرناء العالمية.

فالطائفة الأولى مركبة من رئيسي أساقفة كنتوربري ويورك، وهما بلدتان، وأربعة وعشرين أسقفًا من أنكلترة ، وأحد رؤساء أساقفة إرلاندة، وثلاثة أساقفة

منها. والطائفة الثانية هم أمراء العائلة الملكية المعدودون من جملة القرناء، ثم سائر قرناء أنكلترة الذين وجدوا قبل اتحاد سكوسيا بها وبعده، وقرناء البريطانية الكبرى الموجودون بعد اتحاد إرلاندة معها، وعدة أشخاص من لوردوات سكوسيا وإرلاندة، فنواب سكوسيا بالقمرة ستة عشر لوردًا ينتخبهم لوردوات البلاد لمدة حياتهم، ويسمى هؤلاء اللوردوات بالقرناء النواب. فرتبة اللورد تكون تارة بالوراثة وأخرى بتسمية الملك، فإن كان بالوراثة استحقها الابن البكر. وأما القرناء الذين كان يسميهم الملك لمدة الحياة فقط فلا وجود لهم اليوم، والملك يمكنه أن يُحْدِث متى شاء من شاء من قرناء أنكلترة دون حصر بعدد خاص، ولا يمكنه ذلك في قرناء سكوسيا، كما لا يمكنه إحداث قرين من إرلاندة إلا أن يبلغ عمر الواحد منهم إحدى وعشرين سنة، ومن خصوصياتهم أن لا يحكم على من ارتكب منهم خيانة تتعلق بالدولة أو خرج عن الطاعة إلا في قمرة اللوردوات، كما أن اللورد لا يحلف عند دفع الشهادة أمام الحكم، وإنما يقول: «أشهد بما يقتضيه شرف ذاتي». ولا يعزل عن مقامه إلا بحكم يصدر من البارلمان. وللقرين إعطاء الرأي بالمجلس إذا كان حاضرًا ساعة الاقتراع، كما أن له إرسال رأيه مصححًا منه إلى المجلس مع أحد القرناء أمثاله. ومن خصوصيات القرناء جواز التسجيل ضدًّا للقرعة المضروبة بدفتر القمرة، أي أن الذي يخالف فما اتفق عليه رأي الغالب له أن يكتب في دفتر المجلس أدلته في المخالفة.

وما أحسن هذا الترتيب، إذ بذلك يظهر من حصل برأيه ضرر للمملكة! ومن خصوصيات اللورد أنه لا يوقف لأجل دَين وجب عليه، ومجلس النواب إذا ادعى على أحد المتوظفين بشيء فإن الحكم عليه يصدر من مجلس اللوردوات، الذي هو منتهى الأحكام. وقد بلغ عدد أعضاء مجلس اللوردوات في جلسة سنة خمس وستين وثمانمائة وألف أربعمائة وستة وخمسين عضوًا، وكان انقسامهم من أنكلترة وإيالة والس التي يقال لها بالفرنساوية الغال، ومن سكوسيا ومن إرلاندة على الترتيب الآتي بيانه في الجدول محوّله.

عدد	تفصيل أعضاء مجلس اللوردوات
3	قرناء العائلة الملكية
20	دوك
111	كونت
24	أساقفة ويقال لهم أيضًا مطارنة
16	قرناء سكوسيا
2	أرشفاك أي رؤساء الأساقفة
19	مركيز
22	فيكونت
207	بارونات
28	قرناء إرلاندة
4	رؤساء أساقفة منهم اثنان لإرلاندة واثنان لسكوسيا
456	**الجملة**

وأما قمرة وكلاء العامة المسماة بالقمرة الثانية فإنها تشتمل على أناس منتخبين من الشعوب ليقوموا بحقوقها مدة سبعة أعوام، وعند تمامها يبدلون بغيرهم أو يجدد لهم، وحسب كيفية هاته القمرة من آثار القانون المحرر في سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة وألف. وانتخاب الوكلاء في الكونتي والمدن والقرى من حقوق من بلغ من العمر إحدى وعشرين سنة متصرفًا في حقوقه المدنية، وله من الدخل السنوي مما لا ينقل من الأملاك مائتان وخمسون فرنكًا، ولا يلزم اعتبار ذلك المبلغ فيمن كان من أهل المعارف، وفي الجميع تعتبر الوجاهة، ويكون الانتخاب علنًا. والقرعة لا مدخل فيها لقرناء المملكة، بمعنى أنهم لا ينتخبون غيرهم، كما أنه لا مدخل فيها لأجنبي، ولا لمن لم يبلغ سن الرشد، ولا لمن ثبت عليه أنه حلف يمينًا كاذبة أمام الحكم، أو استعان بصندوق الصدقة الخارجة من الكنيسة في تلك السنة، ولا للمكلفين بأخذ مداخيل الكمارك ونحوها، ومداخيل الكومون، ولا للمكلفين بالتامبر أي طبع الكواغذ، ولا لسائر متوظفي الدولة أو متوظفي البوسطة أو أعوان الضبطية، ولا لكل من ثبت عليه أنه تحيَّل أو رام التحيُّل في الانتخاب السابق عن ذلك الوقت.

هذا ما يتعلق بالذين ينتخبون غيرهم.

وأما الذين ينتخبون للنيابة عن الشعوب بالقمرة، فيشترط فيهم بلوغ إحدى وعشرين سنة، وأن يكونوا من الأهالي، لا من الأجانب ولا من حكام المجالس العالية أو مجالس الكونتي أو مجالس البوليس أو وكلاء الخصام الذين

يخدمون بمجالس التحقيق، ولا من أهل كنيسة أنكلترة وسكوسيا الكاتوليكيين، ولا ممن صدر عليه حكم بالنفي أو ثبتت عليه جناية أو خروج عن الطاعة، ولا ينتخب متوظفو الكونتي والمدن والقرى في البلاد التي يخدمون فيها، وكذلك المكلفون بقبض المجابي الموظفة بعد سنة اثنتين وخمسين وستمائة وألف. وكل من له خطة يأخذ عليها مرتبًا من الدولة من الخطط المحدثة بعد سنة ثمان عشرة وسبعمائة وألف أو تكون معيشته جارية من الدولة، أو يكون من الوكلاء المكلفين بأمور الجيش أو ممن يلتزمون شيئًا من الدولة أو من ضباط الشرف، ولفظ الشرف لقب في لغتهم لخطة معروفة.

ثم إن قمرة النواب هي التي تُسَمِّي رئيسها في أول اجتماع لها. وسائر معاريض القوانين يمكن عرضها على كل من القمرتين بدون تمييز، لكن جرت العادة بأن تعرض أولاً على القمرة الثانية التي هي مجمع نواب العامة، وإذا عرض المعروض عليها يمكنها أن تقبله على حاله أو تتصرف فيه بالزيادة والنقصان، أو ترده، ويستثنى من ذلك ما له تعلق بالأعيان؛ فإنه يرفع إلى مجلس اللوردوات لاقتضاء العادة أن وكلاء العامة لا يغيرون منه شيئًا، وكذا ما له تعلق بالأداء السنوي؛ فإنه يقترع عليه أولاً في مجلس النواب، ثم تتفاوض فيه قمرة اللوردوات، فإما أن تقبله أو ترده بدون تصرف فيه، وفي هذه القمرة للقرناء أن يعرضوا المعاريض متى شاؤوا، وأما في قمرة النواب فلا بد من استيذانها وطلب الرخصة في العرض. وكل ماله تعلق بفائدة الجمهور يكون غالبًا عرضه من الدولة، وصورة الاقتراع

في القمرة الأولى أن تيلفظ القرناء بلفظ راض أو غير راض، وكثير منهم يدفع القرعة بواسطة غيره من أمثاله بالكتابة كما قدمنا، وأما في القمرة الثانية فلا بد من الحصول بالذات ومن الجواب بلفظ لا أو نعم. وبعد قبول المعروض في القمرتين يعرض على الملك، فإما أن يتولى النظر فيه بنفسه أو ينيب له كومسيونًا من اللوردوات، وبإمضاء الملك يصير المعروض قانونًا يعمل به.

وقد بلغ أعضاء قمرة النواب في سنة خمس وستين وثمانمائة وألف ستمائة وثمانية وخمسين عضوًا، وكان تركهم على التفصيل الآتي:

الجملة	نواب البلدان والقرى	نواب الكونتي	أسماء الممالك
500	338	162	أنكلترة
53	23	30	أرلاندة
105	41	64	سكوسيا
658	**402**	**256**	**الجملة**

الفصل السادس
في الحرية العامة

لا ريب أن الأمة باختيارها للنواب المناضلين عنها بالقمرة، وبما لأرباب الأملاك وغيرهم من متوظفي المملكة من نفوذ الكلمة، وبدوام نظر البارلمان في أمور العامة، وبإعلان مباحثاتهم بدون منع، تستقرّ حريتها، ويستتب نجاح سائر أمورها.

وحسبك أن الطبقة العليا من الناس وأوساطهم يتداخلون في سائر الأمور، ولهم مزيد اعتناء وشدة مراقبة لأفعال متصرف دولتهم، ولآرائهم اعتبار تام في انتخاب متوظفي البلاد مع ما لأرباب الحرف والصناعات من الرخصة في عرض ما أرادوا عرضه على البارلمان، ثم لا يصدر من الدولة فعل من الأفعال بدون أن يكون الوزير الذي أذن فيه ضامنًا لما ينشأ عنه، وكذلك سائر المتوظفين، ضامنون لما ينشأ من تصرفهم، بحيث إنهم من الأدنى إلى الأعلى يتوقعون شكاية بهم من آحاد الناس للتريبونال[1]، ويوقف المشتكى به بإذن البارلمان وهو من أحسن الضمانات في حفظ الحقوق.

---

(١) التريبونال: المحكمة. (م).

ثم إن الناس لا يُمنعون من الاجتماع في المجامع العمومية للنظر في أفعال الدولة، ولا تضيق هذه الرخصة عليهم، كما أشار إليه اللورد بروغم، وقد يمكن اجتماع مئات من الألوف في مكان واحد للمكالمة فيما يظهر لهم من سيرة الدولة، بإقامة الدليل على ذلك بلا مانع. وما يقع عليه الاتفاق يعرض عليها وعلى البارلمان، إلا إذا خرجوا عن الحدود المعقولة القانونية، بأن اغتنموا فرصة تلك الرخصة، وأرادوا تحيير راحة السكان، بإشهار السلاح، وتهديد من لم يوافق رأيهم، ونحو ذلك، فيجب منعهم حينئذ، بأن يقوم حاكم المحل خطيبًا فيهم بقوله: «سيدنا وحاكمنا الملك يأمر كل فرد منكم أيها المجتمعون بالتفرق في الحين، وبأن تدخلوا مساكنكم أو أماكن خدمتكم، تحت قيد الحكم الصادر في أول سنة من دولة الملك جورج في قطع الهرج والاجتماعات الغوغائية، والله يحرس الملك».

وإذا لم يفترق الجمع بعد الخطبة بقدر ساعة يمكن حينئذ إعمال القوة، وتوقيف رؤساء العصبة، وقلما يحتاج إلى ما ذكر.

ولهم أيضًا الرخصة في طبع الآراء ونشرها في البلاد في أسرع وقت، ولايتوقفون على استئذان في إنشاء جرنال أو تأليف كتاب في أي غرض شاؤوا، والضمانة التي يلزم اعتبارها في ذلك أن يعرف مؤلف الكتاب أو الجرنال، باسمه ولقبه ومسكنه؛ ليطالب إذا تجاوز الحدود الملحوظة في صناعة الكتابة إلى التشفي

من الأغراض الشخصية، أو التحريض على القيام والخروج عن الطاعة، ونحو ذلك.

ثم إنَّ تقرّر الحرّية الشخصية ليس لخصوص تمكين الموقوف بدون حق من التشكي من سائر المجالس، بل يعتبر مع ذلك إمكان وقوع الحكم الشديد على كل حاكم يمتنع من سراح الموقوف بعد إعطائه ضمانة كافية على الوجه الذي مر ذكره. وزيادة على ذلك فالقانون الأنكليزي أعطى ضمانة أخرى للناس عند الحاكم، وهي إيقاع الحكم بواسطة الجوري، أي الأمناء الذين تقدم بيانهم في الكلام على مجالس فرنسا.

هذا إجمال الإدارة السياسية بمملكة الأنكليز.

ولنختم هذا الفصل بما قاله اللورد بروغم من أن الكونستيتوسيون الأنكليزي يحتوي على النتائج النافعة للدولة الملكية الاستبدادية، والدولة التي بيد الأعيان، والدولة الجمهورية؛ حيث حصلت به قوة الأولى وثبات الثانية لتقرّر عاداتها وقوانينها، وحرية الثالثة؛ حيث إن جميع الأمة بواسطة وكلائهم يتداخلون في سائر تصرفات بلادهم بالاحتساب على سيرة الدولة، ولهم شأن عظيم عند مديري أمورهم، ولآرائهم مزيد اعتبار عند انتخاب متوظفي الدولة، ولوجوه الناس منهم نفوذ كلمة تمنع العامة من ارتكاب ما يحير راحة السكان، وكذا للملك نفوذ الكلمة في أحوال المملكة بما لا يعطل شيئًا من أعمال المجالس

المتقدم ذكرها. ومن مزايا الأمة الأنكليزية تحسين الإدارة في فصل النوازل، باستقلال مجالس الحكم، ومنع أعضائها من الدخول في خدمة البارلمان، وفي المنازعات السياسية التي تقع بين الأحزاب.

ثم اعلم أن المملكة الأنكليزية منقسمة باعتبار إدارتها المدنية إلى إيالات، تسمى كل واحدة منها بكونتي، أي عمل كونت، وباعتبار الإدارة الحكمية وإدارة الضبطية إلى أقسام أخرى، وكل من هذه الإدارات الثلاث منفصلة عن الآخرين، فمتوظف الكونتي اللورد النائب والشَّرِف وحكام الصلح، والكورنر، وهم دون حكام الصلح في الرتبة والتصرف، فأما اللورد النائب فهو الوالي العسكري بالكونتي، وتقديمه وتأخيره بيد الملك نفسه، وقد جرت العادة بانتخابه من أعضاء القمرة المعبر عنهم بالبير أي القرناء، وهم اللوردوات من سكان ذلك الكونتي، وليس لهذا الوالي مرتب في مقابلة خدمته، ويختار بنفسه شخصًا أو شخصين يكونان في إعانته، ويعبر عن مجموع الوالي ومعينيه بنواب الكونتي والوالي المذكور يأخذ الحراس الأهلية، ويسمّي ضباطهم، وعليه حماية راحة السكان وأمنهم، وهو الذي يعرض على اللورد الشانسلر الكبير من يستحق التقدم من الحكام والمحافظ على دفاتر مجالس الأحكام والتريبونالات.

وأما الشَّرِف فهو لقب لأول متوظف مدني من الكونتي، يختاره الحاكم من ثلاثة أشخاص يعينهم حكام المجالس العالية وعظماء المملكة في كل سنة، بحيث لا يبقى هذا المتوظف في خطته أكثر من سنة، ولا يسوغ لمن وقع عليه

الاختيار أن يمتنع من القبول، وإن كانت خدمته مجانًا، وكلفته استبقاء راحة السكان وإجراء القوانين، وهو الذي يوقف المدين ويجمع أمناء الحكم - أي الجوري - الذين يشهدون على المدعى عليه بثبوت الذنب أو عدمه، كما أنه يرأس المجتمع الذي يرام انتخاب النواب فيه للقمرة، وعليه حراسة السجون، ويكون في إعانته معين نائب وبالِي أي عون حكم، وحرس سجون، وله أن يستعين بمن شاء من الناس ممن تجاوز سِنُّهُ خمس عشرة سنة إذا اضطره الحال إلى ذلك، إلا جماعة البير أي القرناء؛ فإنهم معافون من ذلك.

وأما حاكم الصلح - ويعبر عنه بالمِجْسِترات، أي القاضي - فولايته تكون بأمر اللورد الشانسلر الكبير، بعرض نائب الكونتي، ويكون انتخابه من بين أصحاب الأملاك والعقارات ووجوه الناس، وقد يختار من أهل الكنيسة، بشرط أن يكون له من دخل أملاكه مائة ليرة سترلين أي ألفان وخمسمائة فرنك في السنة، وكلفته الحكم بين الناس وتحسين الإدارة، ولا يأخذ في مقابلة خدمته شيئًا.

ثم إن عدم عزلهم وتبديلهم بمجرد العادة؛ إذ ليس في القوانين ما يقتضي ذلك، وليس لأحد عليهم يد، ولا يتقيدون بعدد، ويجتمع بهم المتوظفون في أوقات من السنة لتلقي ما يستقر عليه الرأي من الإدارة.

واجتماع هذه المجالس على نوعين: كبير وصغير، فالاجتماع الكبير لمدة ثلاثة أشهر، فيقع أربع مرات في السنة، ويكون به عدد كثير من حكام الصلح، ولا يتم نصابه إلا بوجود اثنين منهم، ويمضي الحكم باتفاقهما، ويختار حكام الصلح رئيسًا عليهم تكون خدمته غالبًا مجانًا، وتحت أمرهم متوظف يسمى كلاردبي، بمعنى ضابط الصلح لتنفيذ أوامرهم، ويوليه اللورد النائب، ويكون انتخابه في الغالب من أعيان الأفوكاتية[1]. ومن أعمالهم أن يكلفوا شخصًا يقبض ويدفع المال المتعلق بالكونتي، ومن خدمتهم تعيين الأداء بوجه خصوصي، وتسمية غالب متوظفي الإيالة.

واعلم أن إدارة الكونتي تحتوي على الخدم الآتية، وهي: إقامة سجون الجنايات الخفيفة، وأمر الضبطية والمحافظة على لوازمها، وبناء القناطر، وتسوية الطرقات وحفظها، وبناء مأوى الفقراء وحفظها، وحفظ الموازين الرسمية. ومصاريف هذه المصالح كلها تخرج من الأداء الموظف على الكونتي، والمغارم المتحصلة عند الضبطية، وما يعين لأماكن المجانين. وأما الكورنر - وهو الحاكم المستنطق - فخدمته جمع سائر الحجج اللازمة في النوازل، والقيام بالحق العام؛ ولتسهيل الإدارة ينقسم إلى أقسام حكمية - كما أشير إليه آنفًا - وحكام الصلح يراسلون الجمعيات الصغار مرة في الشهر أو أكثر إذا اقتضى الحال.

---

(١) الأفوكاتية: المحامين. (م).

ذلك، وتنقسم أنكلترة بالنسبة لأحكام الجنايات إلى سبع دوائر، تعقد بها مجالس الجنايات في كل ستة أشهر، وتسمى مجالس الدائرة.

ثم ينقسم الكونتي بالنظر إلى أعمال الضبطية إلى أقسام أصولية تنتهي إلى حكام الصلح، وعلى رئاسة كل قسم ناظر من الضبطية له النظر على سائر ضباطها.

ثم ينقسم كل كونتي إلى أقسام تسمى هَنْدَرَدْس بمعنى أن المائة من العائلات يرأسهم كونستابل كبير، أي رئيس شرطة، يسميه حكام الصلح حين يجتمعون بالمجلس. وأعمال المذكور تدور بين ضابط الصلح ومنفذ أحكام القضاء، ويكلف أيضًا بجمع الأداء.

اسم البورو يطلق في أنكلترة على البلدة التي تقيم نائبًا في البارلمان، أو تكون ذات خصوصية في الإدارة بدون أن تكون تحت أحكام الكونتي، وبعض تلك البلدان التي يوجد بها المطران - أي كبير الكنيسة بذلك القسم - تسمى ستي أي مدينة، ومن البورو والستي تحصل مجامع بلدية مركبة من الشيخ - وهو الرئيس - والْدَرْمَن - وهو النائب عن الشيخ - وأعضاء من وجوه الناس بالبلد ينتخبهم الأهالي لثلاثة أعوام، ويتبدل ثلثهم كل سنة، ونواب الرئيس تسميهم الأعضاء، ومدة خدمتهم ست سنين، ويتبدل نصفهم في كل ثلاث سنين يعينون الرئيس في خدمتهم.

وهذا المجلس ينتخب رئيسه من الأعضاء أو من معيني الرئيس في كل سنة، ومن وظيفة الرئيس أنه يرأس الجمعية التي تختار النائب للقمرة، إذا لم تكن البلدة من البلدان التي بها رئاسة الكونتي، كما يرأسها عند اختيار أعضاء المجلس البلدي، ويتأمل مع معينيه في جرائد أسماء من له حق الانتخاب بالقرية، ويتصرف كتصرف حاكم الصلح في سنة خدمته ثم في السنة التي تليها، وتكون خدمته مجانًا.

ومن المتعلقات نظر المجلس البلدي إدارة الأملاك الراجعة للبلد، وضبط مداخيلها، ومراقبة أحكام البلد، ومطالعة السجون والمارستانات وإدارة الضبطية، وفصل المنازعات التي تقع بين ضباطها والأهالي بإعانة حاكم الصلح بالقرية، ثم البارواس وهي قسم دائرة الديانة. وهذا التقسيم في بلاد أنكلترة المعتبر دينيًّا وسياسيًّا معًا، مستعمل في سائر جهاتها. وإدارة أحوال البارواس تكون من الجمعية المركبة من كل من يكلف، ومن لوازم الإدارة المذكورة حفظ الكنائس والمقابر والطرقات، وإعانة المساكين، والضبطية، وحصر من يولد ويموت؛ فالمتوظفون المكلفون بهذه الخِدَم المختلفة - وهم وكلاء الكنائس والمَرْغلِير ونظار المقابر والطرقات، وأولياء الفقراء وضباط البوليس أي الضبطية - كلهم تسميهم الجمعية العمومية المذكورة.

الفصل السابع
في شرح نظام الأحكام

اعلم أنه ليس بأنكلترة وزارة حكم مثل التي بفرنسا وغيرها، وأحكامها ليست محصورة بكتاب أو تقييد، وليس بها ما يخص المتوظفين بحكم إذا ارتكبوا مخالفة في تصرفاتهم الحكمية، وإنما جميع النوازل التي يختص بها مجلس والي الإيالة ومجلس الدولة بفرنسا راجعة في بلاد الأنكليز إلى مجالس عالية، يسمى مجموعها مجلس الملك، وإلى المجالس المعتادة ومجلس الأشيكيي فيما يخص المحاسبات. وسائر المتوظفين من أي نوع كانوا مطالبين بأعمالهم، فكل من يدعي مضرة منهم يطالبهم لدى المجالس المعتادة، بدون توقف على رخصة ما، ولو كانت المضرة ناشئة عن قوة الخطة العامة.

وأحكام الأنكليز تستند إلى القانون العام المؤسس على مجاري العادات، وتؤخذ من الأحكام التي جرى بها العمل، ومن الشروط المتفق عليها، ومن شريعة الرومان، ومن القانون المسطور والأحكام المؤلفة، وأنظار المشرعين الكبار من البارلمان.

فالجمعيات التي عليها مدار الإدارة الحكمية - بواسطة أو بدونها – هي القضاة والجوري ومشرعو التاج، وجماعة الشَّرِف، والأفوكاتية، وأعوان الحكم.

فاللورد شانسلر الكبير بيده رئاسة الماجستراتور، أي أحكام القوانين، ويقال له القاضي الأول، ويرأس قمرة اللوردوات، وهو أيضًا أحد أعضاء مجلس الوزراء.

ثم نائب الشانسلر واللوردوات الذين هم قضاة المجالس العليا، وتحتهم حكام مجالس الكونتي ومجالس الضبطية، وحكام هاته المجالس يأخذون المرتب وبجانب جمعيات الحكم المشار إليها توجد حكام الصلح، ولا مرتب لهم، وتكون منهم مجالس الأشهر الثلاثة في كل كونتي ومجالس الجلسات الصغار، ويحضر لديهم جميع التصرفات المحلية المتعلقة بالحكم، وكذلك ما يتعلق بالإدارة.

ثم الجوري - أي أمناء الحكم - لهم اعتبار تام في الحكم المدني، أي الأحكام العرفية، وكذا أحكام الجنايات، ومنهم جوري كبار وجوري صغار، فخدمة الكبار التأمل في الدعوى من جهة قبولها أو ردها، فما يتفق عليه اثنا عشر من ثلاثة وعشرين - وهم جملة الجوري - يكون عليه العمل قبولاً أو ردًّا، وإذا قُبلت الدعوة يكون فصلها بمجالس الحكم بمحضر الجوري الصغار الذين عددهم في الأقل اثنا عشر.

والشروط الواجب اعتبارها في انتخاب الجوري المذكورين هي: أن يكون سن الواحد منهم أكثر من إحدى وعشرين سنة ودون الستين، ويكون له دخل سنوي من الربع والعقار مقداره مائتان وخمسون فرنكًا، ويدفع كراءً سنويًا مقداره خمسمائة فرنك أو مقدارًا معلومًا للفقراء. وفي جميع الحالات يشترط أن يكون ممن يتصرف في حقوقه المدنية والسياسية. وليس للجوري مرتب، بل يخدمون مجانًا، ولعدم وجود محتسب عمومي ببلاد الأنكليز كان القيام بدعاوى الجنايات ممن تعلقت به الجناية، إلا إذا اشتدت فتقوم بها الدولة، ولذا كانت ضباطها. ومستشارات التاج في الأحكام هم أتورني جنرال أي المحتسب، وسُلِّسْتُر جنرال، أي الأفوكاتو العام، وأفوكاتو الملك، وهؤلاء المذكورون يعطون رأيهم في كل نازلة يسألون عنها، خصوصًا ما يتعلق بما بين الأجناس من الحقوق، والأتورني جنرال مخصوص بمقاصصة الجناة في الجنايات الثقيلة، والشَّرِف مكلف بإمضاء الأحكام، وتحته الكورنر الذي متعلق وظيفته الأصلية النظر في حال من يموت بحادث: هل كان موته بأمر سماوي أو كان على وجه الخطأ أو العمد؟ وكل أحد له أن يدافع في نازلته عن نفسه لكن في الغالب لا يستغنى عن توسط الأفوكاتو. وجماعة الأفوكاتية تنقسم إلى قسمين، وكلاهما مكلف بالنيابة عن الخصمين وإحضار لوازم النازلة.

كيفية الحكم في نوازل الجنايات

يمكن حصر أحكام الجنايات في طبقتين:

فالمجالس التي تحكم بدون حضور أمناء الحكم هم الطبقة الأولى، وهم حكام الصلح الذين يحكمون بانفرادهم، ومجالس الجلسات الصغار ومجالس الضبطة، وهؤلاء لا يحكمون إلا في النوازل الخفيفة، كغرامات المخالفات في مثل صيد البحر والبر وخدمة الفبريكات، وعدم التحفظ عما يضر بالعامة كبيع ما يضر بالبدن، ونحو الإجارات الواقعة بين المعلمين وصناعهم، وفي زجر من لا حرفة له عن البطالة، ثم في حفظ الشوارع وطرق الحديد، وآلات الوزن والكيل، وما أشبه ذلك، ونوازل المشاتمات، والضرب الذي لم ينشأ عنه جرح أو مضرة، والسُّكْر، وإفساد سياجات البساتين، ونحوها.

المجالس التي يحضرها أمناء الحكم الصغار، فالأمناء الكبار يوجهون لهاته المجالس المدعى عليه بغير الأمور الثقيلة، والأمور الثقيلة يحكم فيها المجلس المستقر، ويقال له مجلس الوطن. وبمدينة لندرة مجلس الجنايات الكبير، وتحكم هذه المجالس في الجنايات الشخصية، والجنايات على الأملاك، ودعاوى الزور، ونحو ذلك. ورفع الشكايات إليها تارة يكون ممن تعلقت به الجناية، وتارة من ضباط الضبطية، وتارة من الدولة نفسها. ولكل واحد من الناس غير المتوظفين القيام بالجنايات صغيرة كانت أو كبيرة ولو لم تلحقه ضرورة منها. ثم إن ضباط الضبطية لهم إمساك الذين لا صناعة لهم وإيقافهم بالسجن، إذا صدر منهم ما

يحير الراحة، كما لهم إيقاف من يدعى عليه أنه اختطف شيئًا أو سرقه أو جنى جناية، ويسوغ مثل ذلك للأثورني جنرال، وهو محتسب الدولة المشار إليه آنفًا في حالة مخصوصة كما تقدم. وإذا وقع موت بقتل أو تشاجر أفضى إليه ولو بلا تعمد، أو قتل أحد نفسه، فالكورنر يبذل الجهد في البحث فورًا، ويستدعي لذلك بعض أطباء الدولة ليمتحن بدن القتيل ويعطي رأيه في سبب الموت، وكل أحد يدعى عليه القتل يرفعه الكورنر للمجلس المستقر، وفيما عدا أحوال القتل من سائر الجنايات يرفع إلى أحد الحكام أو حكام الصلح أو الجلسات الصغار أو مجلس الضبطية، وكل من هذه المجالس الصغار التي تحكم في النوازل الخفيفة لا يوقف المدعى عليه، بعد إعطاء ضمانة كافية لمطلب المدعي، الذي لم يشتط فيه، كما أنه يطلقه إذا رأى الحجج القائمة عليه غير ناهضة. وإذا كانت محتملة للصحة احتمالاً لا يكفي الحكم عليه فإنه يطلق أيضًا، بعد أخذ الضمانة الكافية بأن سيرته تتحسن في المستقبل. وهذه الضمانة إما أن تكون بكفالة إنسان معروف، أو بتعيين مقدار معلوم من المال، ولا يلزم وضعه بمحل. وإذا لم توجد الضمانة المذكورة فللمجلس إيقاف المدعى عليه مدة أقصاها سنة، وإذا ترجح ثبوت الجناية على المدعى عليه فإن المجلس يفصل النازلة بذلك إن كانت من النوازل الخفيفة، وأما إن كانت ثقيلة فإن يتمم الموجبات من تحرير الشهادات وتحليف شهودها ونحو ذلك، ثم يوجه النازلة إلى مجلس الأشهر الثلاثة أو إلى المجلس المستقر.

وسائر أعمال المجلس تكون علنًا، وللمدعى عليه أن يحضر الأفوكاتو أول وهلة ليدافع عنه، ولا يستنطق خارج المجلس بل وفي المجلس نفسه ينبهه الحاكم،

ويأمره بالتثبت، وعند استنطاقه يقول له: «ما تقول؟ ولست بمكره على القول قل إن شئت عارفًا أن ما تقوله يكتب عليك، ويمكن أن يكون فيه حجة عليك، فانظر ما تقول». قلت: ما أبعد هذا عن التقرير بضرب السياط ونحو ذلك فتأمل.

وفي الأحكام المتقررة أن المدعى عليه لا يرخص له في السراح بوضع الضمانة، بل يوقف بالمحل المعلوم يأكل ما يشتهيه من الطعام، ويجتمع بأقاربه متى شاء، ويأتيه الأفوكاتو المدافع عنه في أي وقت شاء، ويختلي به، ولا ينادي في السجن أو في محل الحكم إلا بعنوان المسجون، دون المتهم أو الجاني أو المذنب حتى تثبت عليه الدعوى. وفي اليوم الذي يصدر فيه الحكم يجمع الشَّرِف غالب الأمناء الكبار والصغار، ويقرأ شاهد المجلس تقرير الدعوى على الأمناء الكبار، فيتأملون هل في النازلة قرائن وشبهات كافية في تذنيب المسجون، فإذا اتفق غالب الأمناء على توجُّه موجب الحكم يكتب كبيرهم على رسم الدعوى لفظ رسم صحيح، والمسجون الذي تظهر عليه قرائن كافية في الجناية يحضر بالمجلس، ويقرأ عليه ضابط المجلس رسم الدعوى، ويسأله أيعترف بالذنب أم لا؟

فإن اعترف نبَّهه الحاكم بخطاب ليّن على ما يمكن أن يترتب على اعترافه، عسى أن يتيقظ ويرجع عما صدر منه، فإذا دام على الاعتراف حكم المجلس عليه في الحال بدون حضور الأمناء وبدون مدافعة عنه.

والذي لا يعترف بالذنب ويدعي البراءة يحضر له الأمناء الصغار، فيحلفون أمام المجلس، وتُبْتَدَأ المنازعة فيتكلم وكيل المدعي أولاً، مع تقرير الأدلة

واستنطاق الشهود وتحليفهم قبل الشروع في الحكم، ويجلسون في بيت الحكم بحيث يسمع كل منهم شهادة من قبله.

قلت: وهذا الصنيع ليس بمستحسن. والمدَّعى عليه أو وكيله يمكنه معارضة أدلة المدعي واستنطاق الشهود، بإلقاء ما يظهر له بدون توسط رئيس الحكم في ذلك، ولا يسوغ للرئيس أن يعرف المجلس بما يعرفه من حال المدعى عليه، كأن يقول: هذا من أهل التهم أو ذوي المروءة، وحسبه إذا تكررت منه الجناية أن يعرّف الحاكم بذلك، بعد إعطاء أمناء الحكم رأيهم في النازلة وحينئذ يسوغ له تقرير ذنبه السابق، ولا تدفع الشهادة إلا بمحلّ الحكم، ويجب حضور شهود الجنايات بأنفسهم في المجلس بحيث لا تغني الكتابة من غير حضور الشاهد.

وهذا الحضور من الشهود لدى الحكم في أمر الجنايات كاد يكون واجبًا في هذه الأزمان. وبعد سماع دعوى المدعي واستفسار شهوده يبتدأ بسماع كلام المدعى عليه واستفسار شهوده أيضًا وآخر الكلام للمدعى عليه إذا لم يكن المدعي هو الدولة؛ فإن كان إياها فإن لها آخر الكلام، فإذا انتهت المجادلة فإن الرئيس يعرض النازلة على الأمناء، وتكون المباحثة بمحل مخصوص. وجماعة الأمناء لا يعطون رأيهم إلا بعد اتفاق جميعهم، بمعنى أن يقولوا كلهم: مذنب أو غير مذنب، فإن خالفهم واحد منهم باحثوه حتى يرجع إليهم أو يرجعوا إليه.

قلت: ووجوب الاتفاق غير معقول.

الحكم المدني

لما لم يكن بأنكلترة قانون معين يرجع إليه في الأحكام المدنية، اعتاضوا عنه الاستعانة في غالب الأحوال بالأحكام الماضية، والقوانين المتقررة، وقد يحكمون بمجرد الاجتهاد مع ترجيح سلوك طريق اللين والتخفيف. ويمكن لهذه الطائفة أن تحكم بما يقتضيه الذوق السليم والإنصاف، خصوصًا إذا لم تتكرر الجناية من المدعى عليه.

والحاصل أن دائرة المجالس التي تحكم بمقتضى العادات والأحكام الماضية أضيق من دائرة المجالس الحاكمة بمجرد الاجتهاد.

قال المؤلف فرانكفيل: إذا تعلقت النازلة بحدوث مضرة فمجالس الأحكام غير الاجتهادية لا تقدر إلا على الحكم بدفع المقدار الحاصل من الضرر، وأما مجالس الاكيتي أي - الاجتهاد المبني على العدل - فلها أن تحكم بأخذ الحذر اللازم منها لعود المضرة في المستقبل، بمعنى أن مجالس الأحكام العامة نظرها مقصور على الحقوق الثابتة، ومجالس الاكيتي تجيل نظرها فيما يؤدي إليه الاجتهاد فتمنع المضرات الواقعة والمتوقعة.

وينفذ حكم هذين النوعين من المجالس في سائر الأحكام المدنية، أي المعاملات والجنايات، فالمجالس التي تصدر عنها الأحكام الاجتهادية هي قمرة اللوردوات، ومجلس الشانسلر العالي المشتمل على رئيس القضاة - وهو اللورد

شانسلر - وعلى لوردوين من حكام التحقيق، وثلاثة من نواب الشانسلر، وواحد دفتر دار [1] ينظر صحف الحكم. وبهذا المجلس أيضًا اثنا عشر مستشارًا لمجرد الاستشارة، بدون أن يكون لهم صوت في الحكم وإعطاء الاجتهاد لمثل هذا العدد، مع أن أفراده من العارفين بالنوازل والأحكام، لا ينشأ منه ضرر.

والأحكام العامة تنحصر في أربع طبقات:

الأولى: مجالس الكونتي للحكم في الأمور المدنية التي يحقق عليها.

الثانية: المجالس الثلاثة العالية للأحكام العامة، وهي مجلس الملك، ومجلس النوازل المدنية، ومجلس الأشيكيي أي المحاسبات المالية.

الثالثة: مجلس بيت الأشيكيي أيضًا.

الرابعة: قمرة اللوردوات؛ فمجالس الكونتي يبلغ عددها إلى تسعة وخمسين، وهي التي تحكم الحكم الأول في النوازل التي لا يتجاوز الحق فيها ألفًا ومائتين وخمسين فرنكًا.

وهذه المجالس تشتمل على قاض، وهو الحاكم، وعلى صاحب خزانة المجلس، وعلى يازجي، أي كاتب المجلس، وعلى أعوان ورئيسهم.

(١) دفتر دار: موظف المالية المكلف بمراقبة الحسابات في العهد العثماني. (م).

فصاحب الخزانة هو المكلف بتحقيق حساب اليازجي، واليازجي يقبل سائر المطالب ويقيدها بدفتر مجعول لذلك الأمر، مع تعيين أسماء الخصوم، وألقابهم، ومساكنهم، وجماعة الأعوان مكلفون بإمضاء الأحكام، ويحضرون وقت الحكم، وهم الذين يكتبون تذاكر التعيين ويباشرون تعطيل الأملاك، وغير ذلك من لوازم الحكم. ولكل من المدعي والمدعى عليه في النوازل العرفية أن يطلب لفصل النازلة أمناء الحكم إذا كانت الدعوى في قدر مائة وخمسة وعشرين فرنكًا فأكثر.

وهذه الجوري - أعني التي تكون في الأحكام العرفية - تتركب من عشرة أعضاء، ومجالس الحكم الثلاثة الكبار تحقق النوازل التي ترجع إليها من مجالس الكونتي، وتقبل النوازل التي تكون في مقدار ألف ومائتين وخمسين فرنكًا فما فوق، ويختص مجلس الملك زيادة على مراقبة المجالس التي هي دونه، بجلب جميع النوازل التي يظهر له أن ينظر فيها، ولو في أقل الأشياء، كما يختص مجلس الأشيكي بالحكم في النوازل المتعلقة بمال الدولة، فالمجلس الأول مركب من رئيس وأربعة أعضاء أيضًا. وأعضاء هذه المجالس الكبار مكلفون بالحضور مرتين في السنة بمجالس الجنايات، وبالإيالات السبعة من تقسيم المملكة الأنكليزية. وزيادة على ذلك يرأس في كل شهر واحد من أولئك الأعضاء مجلس الجنايات المستقر بلندرة، الحاكم في سائر الجنايات التي ترتكب بلندرة ونواحيها، ومن يطلب تحقيق الحكم الصادر من أحد المجالس الثلاثة يركَّب له

مجلس من ثمانية أعضاء مأخوذين من المجلسين اللذين لم يحكما في النازلة، ويرأسهم اللورد شانسلر، وهو قاضي القضاة، ولا يحقق على هذا المجلس أحد إلا مجلس اللوردوات، الذي هو في تلك الحالة بمثابة المجلس العالي، وبحكمه تنتهي النازلة. وهذا المجلس له النظر في الأحكام العامة الصادرة من مجلس الشانسلر والمجالس الثلاثة العالية.

والحاصل أن للأحكام المدنية وأحكام الجنايات سلطات تتَّحد تارة وتتعاقب أخرى، وهناك تريبونالات صغار خصوصية تركناها هنا، وهي المعدّة لمثل نوازل الفَلَس والإرث، والنكاح والطلاق، ومجلس البحرية ومجلس المعادن، ومجلس المدارس، ونحو ذلك. والحكام مطلقًا ينتخبون من أشهر العارفين بالأحكام، ويسميهم اللورد شانسلر الكبير، ولا يعزل أحد منهم باختيار الحاكم، وإذا وقع خلاف بين إدارة الدولة ومجلس من المجالس تعرض النازلة على مجلس المملكة.

هذا ما أمكن تلخيصه من تراتيب المجالس والأحكام بأنكلترة.

الفصل الثامن
في محاصيل المملكة الأنكليزية وعدد حيواناتها، ونتائج معادنها، وغير ذلك

ليرة سترلين	محاصيل الأشياء الآتي ذكرها سنة 1833
86,700,000	ثمن سائر الحبوب
113,000,000	ثمن أنواع الحشيش المزدرع والطبيعي واللفت
19,000,000	ثمن البطاطا
3,800,000	ثمن الفواكه والخضر المزدرعة بالمقاثي
2,600,000	ثمن الكرستة والهبلون أي حشيشة الدينار
6,000,000	ثمن الجبن والزبد والبيض وغيرها
3,500,000	ثمن الأنغري أي الدَّمّال
12,000,000	ثمن الصوف وبزر القنب
246,600,000	**الجملة ليرة تصير 61,665,000,000 فرنك**

رأس	عدد الحيوانات في السنة المذكورة
2,560,000	خيل
11,600,000	بقر
55,800,000	غنم ومعز وغير ذلك
69,960,000	**الجملة قيمتها تقريبًا 6,050,000,000 فرنك**

والمملكة الأنكليزية تقدمت في عمران أرضها بأنواع الفلاحة والمواشي تقدمًا كليًّا منذ نيف وثلاثين سنة، إلا أني لم أجد تفصيل ذلك في الكتب الملخَّص منها هذا الكتاب.

نتائج معادن أنكلترة سنة 1856

فرنك	أصناف المعادن
20,031,000	ثمن القصدير
71,176,000	ثمن النحاس
43,877,000	ثمن الرصاص
5,577,000	ثمن الزنك وهو التوتية
363,638,000	ثمن الحديد
48,000	ثمن المعدن المسمى أرسنيك وهو السليماني
13,000	ثمن المعدن المسمى نيكل
416,597,000	ثمن الفحم الحجري
13,850,000	ثمن الملح
2,500,000	ثمن المعدن المسمى باريت
76,062,000	ثمن حجر البناء
3,022,000	ثمن التراب الذي يصنع منه الفرفوري
1,016,391,000	**الجملة**

نتائج سكك الحديد

فرنك 778,908,925	**جملة ما تحصل منها في سنة 1863 وعدد المسافرين بها 204,699,466 نفسًا.**

محاصيل الأهالي أصحاب الصنائع

ليرة ستريلين	أنواع المصنوعات
31,000,000	ثمن الأقمشة المصنوعة من القطن
8,000,000	ثمن أقمشة الحرير
16,250,000	ثمن أقمشة الصوف
11,000,000	ثمن أقمشة الكتان
15,000,000	ثمن الجلد
17,300,000	ثمن أنواع المصنوعات الرقيقة
59,000,000	ثمن البلور والفخار
3,400,000	ثمن المصوغ وماعون الفضة ونحو ذلك
9,000,000	ثمن الكاغذ وتوابعه
31,200,000	محاصيل ما بقي من سائر الحرف
148,050,000	**جملة ذلك تساوي 3,701,250,000 فرنك**

قيمة السلع الواردة إلى أنكلترة والخارجة منها في 1861

أسماء الممالك	الداخل	الخارج
الروسية أي الموسكو	12,822,688	5,765,830
السويد	2,620,720	1,121,921
النورويج	9,551,205	628,602
الدنيمرك وعمالاتها الخارجية	2,635,041	1,961,426
البروسية	6,440,895	4,057,850
مكلنبورغ	412,431	97,897
الهانوفر	284,984	1,882,716
أولدمبورغ	36,479	77,148
البلدان المتحدة من ألمانيا	6,058,490	13,046,419
هولاندة	7,692,895	10,989,749
عمالاتها في غير أوروبا	335,883	1,195,827
البلجيك	3,817,800	4,914,359
فرنسا	17,826,646	17,427,413
الجزائر	30,322	20,955
عمالات فرنسا في غير أوروبا	85,353	11,095
البرتوغال	1,962,899	2,356,105
إسبانيا وجزر الباليار	5,458,373	3,686,434
كوبا وغيرها من مستعمرات إسبانيا	4,271,793	1,460,269
عمالات من توابع البرتوغال	781,510	210,991
عمالات من توابع إسبانيا	1,046,323	940,397
إيطاليا	2,480,064	6,792,660

أسماء الممالك	الداخل	الخارج
أوستريا أي النمسة	1,246,046	1,795,659
الإغريق	789,544	324,196
برالترك	3,631,929	3,104,029
التونة من توابع الدولة العلية	1,123,290	196,375
الشام من توابع الدولة العلية أيضًا	77,425	884,544
مصر	8,398,493	2,398,478
تونس وطرابلس	14,093	1,794
الغرب	498,288	187,726
الدول المتحدة في أمريكا	49,389,492	11,025,683
المكسيك	347,529	652,862
أمريكا الوسطى	313,869	176,517
هايتي	137,471	310,555
غرناطة الجديدة	433,060	837,426
فينازويلة	24,556	434,086
برازيل	2,631,480	4,690,875
أوراغون	439,717	602,087
بوينوس إيرس وباطاغونيا	1,674,869	1,403,227
شيلي	2,414,895	1,380,533
بوليفيا	125,416	1,031
بيرو	3,169,552	1,221,018
أكواتور	81,802	156,916
مملكة الصين	8,608,609	3,161,918

أسماء الممالك	الداخل	الخارج
جزر جابون	538,687	43,426
سيام	25,138	36,191
العجم أي بلاد فارس		26,545
شطوط إفريقيا الشرقية	495	216
شطوط إفريقيا الغربية	1,467,992	1,076,452
كرونلاند ومضيق داوس		271
جزر البحر الجنوبي		
مراسٍ مختلفة	143,110	46,721
جزر الصوند	638,772	822,024
جبل طارق	133,834	1,169,142
مالطة	143,437	628,891
جزر الإغريق	213,157	325,982
عمالات الأنكليز في أمريكا الشمالية	8,682,061	4,195,581
جزر في غربي الهند وهندوراس	4,381,054	2,178,944
غيان	1,761,380	666,701
جزر فالكلاند ويقال لها مالوين	4,767	13,121
أوستراليا	6,901,487	11,530,804
عمالات الهند الشرقي	21,968,752	17,053,355
جزر سانغبور	1,913,425	1,056,458
جزيرة سيلان	2,251,019	508,349
عدن وجزر في البحر الأحمر	17	368,12
جزيرة موريس	1,914,042	589,747

أسماء الممالك	الداخل	الخارج
عمالات جنوبي إفريقيا	1,421,647	2,171,616
عمالات وجزر غربي إفريقيا	208,751	507,079
هونكونغ في الصين	137,864	1,778,522
جزيرة اليغولاند	544	394
الجملة ليرة سترلين	218,478,751	159,632,498
يضاف الداخل إلى الخارج		218,478,751
جملة قوة المتجر ليرة تساوي 9,452,781,225 فرنكًا	**378,111,249**	

بيان متجر الهند سنة 1861

	ليرسترلين
الداخل إليها في السنة المذكورة	34,170,703
الخارج منها	34,090,154
جملة قوة متجر الهند تساوي 1,706,521,425 فرنكًا	**28,260,758**

المراكب التي دخلت مراسي أنكلترة والتي خرجت منها في 1862

أصناف المراكب	المراكب الخارجة		المراكب الداخلة	
	مراكب	طونلاتة	مراكب	طونلاتة
مراكب قلاع أنكليزية	22,635	5,260,329	22,921	5,532,162
مراكب قلاع أجنبية	24,434	4,745,473	25,765	4,911,579
فابورات أنكليزية	7,941	2,660,046	7,644	2,609,816
فابورات أجنبية	1,793	512,040	1,225	462,479

المراكب الداخلة		المراكب الخارجة		أصناف المراكب
طونلاتة	مراكب	طونلاتة	مراكب	
13,516,036	**57,555**	**13,177,888**	**56,803**	الجملة
13,177,888	56,803			يضاف الداخل للخارج تكون
26,693,924	114,358			جملة المراكب الداخلة والخارجة

عدد السكان	بيان تكاثر الأهالي بأنكلترة عدا إرلاندة وسكوسيا
4,800,000	كان عدد السكان بأنكلترة سنة 1600
560,000	وصار في سنة 1650
2,525,000	وفي سنة 1688
7,517,000	وفي سنة 1750
10,942,000	وفي سنة 1801
11,609,000	وفي سنة 1821
18,526,000	وفي سنة 1841
23,271,995	وفي سنة 1861

وما تراه من التكاثر غير داخل فيه من ارتحلوا عن أوطانهم.

دخل الدولة الأنكليزية وخرجها والدين الذي عليها

ليرة سترلين	أنواع الدخل سنة 1862
24,034,000	من الكمارك
17,155,000	من الأداء الذي على المأكولات والمشروبات
8,994,000	من الأداء الذي على التامبر أي الطابع
10,567,000	الأداء المرتب على الدخل

ليرة سترلين	أنواع الدخل سنة 1862
3,150,000	الأداء المرتب على الربع والعقار وغيرهما
3,600,000	دخل البوسطة
300,000	دخل ملك الدولة
2,803,561	من الأنواع المختلفة
70,603,561	**الجملة**
42,970,000	**يضاف إلى ذلك دخل الهند**
113,573,561	**الجملة ليرة تساوي 2,839,339,025 فرنكًا**
سترلين	**أنواع الخرج في السنة المذكورة**
26,231,657	فائدة الدين
1,884,001	مصاريف على الدين
16,264,789	مصروف العسكر والحراسة البلدية
11,370,588	مصروف السفن والبحرية
920,587	مصروف إنشاء السفن
406,489	مرتب الملكة
7,640,435	مرتب الموظفين السياسية وغيرهم
4,553,461	مصروف على استخلاص الأداء
1,080,001	مصاريف مختلفة
43,255,000	مصروف الهند
113,607,008	**جملة الخرج تساوي 2,840,175,200 فرنكًا**
112,573,561	**يطرح من هذه الجملة الدخل المتقدم**
836,175	**زيادة الخرج على الدخل**

فرنك	بيان ديون الدولة الأنكليزية
2,004,521,517	جملة الدين الذي على الدولة
2,846,927,025	جملة الدين الذي على الهند
22,892,142,200	المجموع من ذلك

واعلم أن الدولة الأنكليزية بمقتضى قوانين المملكة لا تطلب من الأهالي أداء سنويًّا إلا المصاريف اللازمة لصالح الدولة المذكورة أصولها آنفًا، وأما الأداء اللازم للمصالح العامة غير ما تقدم، من عمل الطرقات، وبناء القناطر والمارستانات، والكنائس والمدارس، ومرتبات المكلفين بها، ومرتبات أهل الخطط الدينية ونحو ذلك، فإن تعيينه وصرفه بيد مجالس الأوطان والبلدان، تحت نظارة البرلمان الكبير، ولا دخل للدولة فيه، وقدره تقريبًا ثمانمائة مليون فرنك.

القوة العسكرية البرية بدولة أنكلترة سنة 1861.

جملة الجيش	عسكر التريس	الخيالة	الطوبجية والمهندسون	أصناف العسكر
98,918	98,918			عسكر تريس بالضباط
14,436		14,436		خيالة بالضباط
21,336			21,336	طوبجية بالضباط
11,708			11,708	مهندسون وغيرهم بالضباط
1,121				أتاماجور أي أركان الحرب
				جيش الهند
59,567	59,567			تريس

جملة الجيش	عسكر التريس	الخيالة	الطوبجية والمهندسون	أصناف العسكر
6,416		6,416		خيالة
5,482			5,482	طوبجية
12,057				يداك
12,400				في إرلاندة
19,333				رديف
262,772	**158,485**	**20,825**	**38,526**	**الجملة**

القوة البحرية بأنكلترة في سنة 1861

جملة البحرية	أمراء البحر وقبطانات	أصناف البحر
	24	أميرالاً كبيرًا تحت السلاح
	66	ممن ذكر في اليداك
90		
	27	كاهية أميرال تحت السلاح
	57	ممن ذكر في اليداك
84		
	21	كنترا أميرال تحت السلاح
	107	ممن ذكر في اليداك
128		
	350	قبطانات أجفان تحت السلاح
	402	ممن ذكر في اليداك
752		

جملة البحرية	أمراء البحر وقبطانات	أصناف البحر
	450	قبطانات فراقط تحت السلاح
	723	ممن ذكر في اليداك
2,173		
	798	يوزباشية تحت السلاح
	353	ممن ذكر في اليداك
1,151		
54,300		فسيالات صغار وعسكر بحرية
18,400		فسيالات وعسكر بر معد للمراكب
76,078	**3,378**	**جملة البحرية**

تابع القوة البحرية بدولة أنكلترة

جملة المراكب ومدافعها 9756	مراكب قلاع	فابورات بها قوة خيل 105267: فابورات	فابورات بها قوة خيل 105267: فابورات مدرعة	جملة البحرية	فسيالات	البحرية وأصناف المراكب
82	1	58	23	76,078	3,378	جملة البحرية
53	10	43				أجفان
30		27	3			فراقط
55	1	52	4			قرابط
3						شالوب أي قوارب
						كنونيار أي ذوات
136		136				المدافع
4			4			شالوب كنونيار

جملة المراكب ومدافعها 9756	مراكب قلاع	فابورات بها قوة خيل 105267		جملة البحرية	فسيالات	البحرية وأصناف المراكب
		فابورات	فابورات مدرعة			
12		12				بطريات عوامة
4		4				مراكب متنوعة
38	38					أفيزو
70		70				شالوب بومبارد
2		2				مراكب كبار لحمل الأثقال
6		6				بومبارد
2		2				ياكت
						مراكب لحراسة الشطوط
497	**50**	**421**	**35**	**76,078**	**3,378**	**الجملة**

عدد مراكب متجر الأنكليز في سنة 1862

طونلاتة	عدد المراكب	أصناف المراكب
4,396,509	26,212	مراكب قلاع
537,891	2,228	فابورات
906,125	9,829	مراكب العمالات التابعة لأنكلترة ، ولم يتيسر لنا الآن تمييز الفابورات من مراكب القلاع
5,840,525	**38,269**	**الجملة**

وجملة البحرية في جميع المراكب المذكورة نفسًا **2,883,045**.

الباب الرابع

في الكلام على مملكة النمسة

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن هذه المملكة يقال لها مملكة أوستريا، وأوستريا في نفسها عمالة بلقب أرشيدو كاتو، وكانت تسمى نوركا وبانونيا العليا، أضيفت للسلطنة الرومانية في مدة الإمبراطور تيبار، سنة ثلاث وثلاثين من تاريخ المسيح. وكانت منذ القرن الخامس منه تتداول عليها أمم البرابرة[1] كأمة الهن والإستروغوت، والبويان والواندال، واللونغوبارد، إلى أن انقسمت بين أهل بأواريا وجماعة الأوار، وهي أمة من التتار.

ثم استولى عليها شارلمان سنة سبعمائة وإحدى وتسعين، وسماها أوستريا.

ولما أراد هنري الوازلور - أي الصائد بالطيور - أن يضع سدًّا يقي المملكة من إغارات المجار، جعل أرض أوستريا مارغرافية، والمارغراف لقب لحاكم الحدود، وكان ذلك سنة تسعمائة وثمان وعشرين، ثم في سنة تسعمائة واثنين وثمانين أولى عليها إمبراطور ألمانيا أوتون الثاني ليوبولد من بالبرغ، وتوارثها بنوه بعده،

(١) أمم البرابرة: الشعوب الجرمانية التي غزت الإمبراطورية الرومانية، ابتداء من القرن الثالث إلى السادس الميلاديين. (م).

بلقب مارغراف أولاً ثم باسم مركيز، ثم باسم دوك وكان أخذهم للقب الأخير في سنة ألف ومائة وست وخمسين.

ثم بعد انقراض تلك العائلة دخلت تحت سلطة فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا، وذلك في سنة ألف ومائتين وست وأربعين، ثم انتقلت إلى يد أوتو كار ملك البوهيميا في سنة ألف ومائتين وثلاث وخمسين، ثم دخلت تحت يد رودولفو، من عائلة هابسبورغ إمبراطور ألمانيا في سنة ألف ومائتين وست وسبعين، ثم أعطاها لابنه ألبرت في سنة ألف ومائتين واثنتين وثمانين، وبقيت في عَقِبه يتداولونها أولاً بلقب دوك، ثم من سنة ألف وأربعمائة وثلاث وخمسين بلقب أرشيدوك. وقد خرج من هاته العائلة عدة أشخاص استولوا إمبراطورية ألمانيا بعد الإمبراطور رودولفو، وباستيلاء ألبرت من تلك العائلة إمبراطورًا على ألمانيا في سنة ألف وأربعمائة وثمان وثلاثين باسم ألبرت الثاني، صارت الإمبراطورية وراثة في تلك العائلة، وكانت مملكة أوستريا في ذلك الوقت تعاظمت، بانضمام عمالة ستيريا إليها في سنة ألف ومائة وست وثمانين، وعمالة كارنيول، ثم بإضافة كل ما كان راجعًا بالوراثة إلى رودولفو من هابسبورغ، وهو الألزاس والصواب والسويسرة، وذلك في سنة ألف ومائتين واثنتين وثمانين، لكن في سنة ألف وثلاثمائة وسبع استقلت السويسرة بنفسها، وكذا انساق لعائلة أوستريا بسبب تزوج مكسيمليان بمارية - التي هي من عائلة بروغونيا - سنة ألف وأربعمائة وسبع وسبعين، البلاد الواطئة، أي هولاندة، وقطعة كبيرة من بورغونيا، ثم لما استولى شارلكان - أي

شارل الخامس - أضاف إلى ممالكها العديدة مملكة إسبانيا، لكن بالقسمة التي وقعت في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وألف بين شارل المذكور وأخيه الأرشيدوك فردناند، انتقلت هولاندة وأحواز بورغونيا إلى الفرع الإسبنيولي من عائلة أوستريا، وتناول قسم فردناند المذكور عمالة أوستريا الأصلية، مع ما يتبعها، وضم إليها البوهيميا وبلاد المجار، والأسقفيات الثلاث، أي العمالات التي كانت تحت حكم المطارين[1]، وهي تول وماتس وفردون، وكذلك المورافيا والسيلازيا واللوزاس، ثم نزعت منهم هذه الأخيرة بمعاقدة وستفاليا الواقعة في سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف، كما نزع منهم الألزاس والأسقفيات الثلاث، وعُوِّضَت لهم بملك ترانساوانيا والكرواسيا، ثم بمصالحة أوترخت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة حازت أوستريا من تركة شارل الثاني ملك إسبانيا دائرة بورغونيا، ودوكاتو مانتوة وممالك نابلي وسردانية، وفي سنة أربع عشرة وسبعمائة استبدلوا سردانية بمملكة صقلية، ثم بعد سنة خمس وثلاثين وسبعمائة أرجعوا صقلية ونابلي إلى الإنفانت دون كارلوس من عائلة إسبانيا، وأخذوا عوضهما دوكات بارمة وبياشنسة وغواستالة. وفي سنة أربعين وسبعمائة وألف انقطع نسل عائلة أوستريا من الذكور، وانتقلت وراثة المملكة إلى البنات، فاستولت مارية تريزة - ولقب زوجها فرنسوى من لورين - باسم إمبراطور، بعد منازعات طويلة، ثم صار إمبراطورًا بالفعل سنة خمس وأربعين وسبعمائة وألف، وسمي فرنسوى الأول، وهو جد العائلة الجديدة المسماة أوستريا لورين، المستولية الآن. وفي سنة ست

(١) المطارين: جمع مطران وهو رئيس الكهنة، درجة كنسية. (م).

وثمانمائة وألف انحَلَّت سلطنة ألمانيا، وسلب من فرنسوى الثاني لقب إمبراطور ألمانيا ولقب باسم إمبراطور أوستريا، وقصر حكمه على الممالك التي كانت له بطريق الوراثة.

ثم إن ثورة الفرنساويين وحرب سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف نزعت من يد أوستريا جزءًا كبيرًا من ممالكها، في ألمانيا وإيطاليا، غير أنه بحوادث سنة خمس عشرة رجعت لها إيالاتها القديمة، ما عدا دائرة بورغونيا التي عوضت عنها مملكة اللومبارديا والبندقية بإيطاليا، وفي سنة تسع وخمسين وثمانمائة وألف ضيعت بمحاربة سولفرينو اللومبارديا، فأخذها ملك سردانية بواسطة نابوليون الثالث المنتصر في تلك الواقعة، وفي سنة ست وستين وثمانمائة خرجت البندقية أيضًا من يدها؛ حيث تغلبت عليها دولة بروسية في حرب صادووة؛ لمعاهدة بين تلك الدولة ودولة إيطاليا على محاربة دولة أوستريا.

الفصل الثاني
في بيان أسماء ملوك أوستريا

سنة	جماعة المارغراف
982	ليوبولد الأول كونت دوبابنبرغ
994	هنري الأول
1018	ألبرت الأول المُلَقَّب بالمنصور
1056	أرنست الملقب بالشجاع
1075	ليوبولد الثاني الملقب بالجميل
1096	ليوبولد الثالث الملقب بالخاشع
1136	ألبرت الثاني الملقب بالمُتَعَبِّد
1136	ليوبولد الرابع الملقب الكريم
سنة	**جماعة دوكات أوستريا**
1142	هنري الثاني جازوميرغو
1177	ليوبولد الخامس
1194	فردريك الأول الكاتوليكي
1198	ليوبولد السادس الملقب بالماجد
1230	فردريك الثاني الملقب بالمحارب والشجاع
1247	أوتوكار
سنة	**عائلة أوستريا هابسبورغ**
1282	ألبرت الأول
1308	فردريك الأول الملقب بالجميل
1330	ألبرت الثاني الملقب بالعاقل

سنة	عائلة أوستريا هابسبورغ
1358	رودولف الرابع الملقب بالماهر
1365	ألبرت الثالث أخو المذكور
1385	ألبرت الرابع
1404	ألبرت الخامس، ثم في سنة 1438 انتخب المذكور لإمبراطورية ألمانيا باسم ألبرت الثاني
1440	فردريك الثالث، وفي سنة 1453 لقب أمراء عائلته بأرشيدوك أوستريا
سنة	**جماعة الأرشيدوكات الذين نالوا الإمبراطورية بألمانيا من عائلة هابسبورغ**
1493	مكسيملياني الأول
1519	شارلكان، وكان ملك إسبانيا والصقليتين أيضًا، أي نابلي وصقلية
1556	فردناند الأول ملك البوهيميا والمجار، ثم الذين من بعده استولوا على تلك الممالك مع إمبراطورية ألمانيا
1564	مكسيملياني الثاني
1576	رودولف الثاني
1612	متياس
1619	فردناند الثاني
1637	فردناند الثالث
1657	ليوبولد الأول
1705	جوزاف الأول
1711	شارل السادس
1740	مارية تريزة ابنة شارل المذكور، وكان زوجها دوك لوران، وشاركها في الملك ثم صار إمبراطور ألمانيا بلقب فرنسوى الأول، وبعد موته سنة 1765 شاركت في ملكها ابنها جوزاف الثاني، واستقل بعدها سنة 1780
1790	ليوبولد الثاني
1792	فرنسوى الثاني
سنة	**إمبراطورية أوستريا**
1804	فرنسوا المذكور، تلقب بفرنسوى الأول
1835	فردناند الأول ابن المذكور، ورث أباه سنة 1835
1848	فرنسوى جوزاف الأول المستولى الآن

الفصل الثالث
في وصف المملكة

اعلم أن السلطنة النمساوية مقرها وسط أوروبا، بين سبع درجات وإحدى عشرة دقيقة وأربع وعشرين درجة وخمس دقائق من الطول الشرقي، وبين اثنتين وأربعين درجة وثمان دقائق وإحدى وخمسين درجة ودقيقتين من العرض الشمالي. ويحدُّها في ناحية الشمال الروسية في طائفة والبروسية في أخرى، ومملكة الساكس، وشرقًا عمالتا إفلاق وبُغْدَان التابعتان للدولة العثمانية في طائفة، وفي البقية الروسية، وقبلة مملكة إيطاليا وبحر البنادقة والمملكة العثمانية الأوروباوية، وغربًا مملكة بأواريا ومملكة فورتنبرغ وعصبة السويسرة وإيطاليا في طائفة. وأكبر الطول فيها من المشرق إلى المغرب يبلغ ألفًا وأربعمائة وثمانين كيلو ميتر، وأكبر العرض يبلغ ألفًا ومائة وستين كيلو ميتر، ومساحة سطحها من وقت الصلح المنعقد في زوريك سنة تسع وخمسين وثمانمائة وألف ستمائة ألف وثلاثة وثلاثون ألف كيلو ميتر مربعًا، وعدد سكانها على ما تحرر في سنة سبع وخمسين وثمانمائة وألف بلغ خمسًا وثلاثين مليونًا وثمانية عشر ألفًا وتسعمائة وثماني وثمانين نفسًا، وعلى ما تحرر في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف سبعة وثلاثين مليونًا من النفوس،

منهم ثمانية وعشرون مليونًا وستمائة ألف وثمانية وأربعون ألفًا واثنتان وستون نفسًا كاتوليك، وأربعة ملايين وثلاثمائة ألف وخمسة وعشرون ألفًا وثلاثمائة وثلاث أنفس بروتستانت، ومليونان وتسعمائة ألف وأحد وعشرون ألفًا وتسعمائة وتسع وثلاثون نفسًا على مذهب الإغريق، وخمسون ألفًا وخمسمائة وسبعون نفسًا بروتستانت يقولون بالوحدانية، أي ينكرون الثالوث وألوهية عليه السلام ومليون وتسعة وأربعون ألفًا وثمانمائة وإحدى وسبعون نفسًا من اليهود، وثلاثة آلاف وتسعمائة وخمس وخمسون نفسًا على مذاهب مختلفة. وتخت المملكة مدينة وِيَنَّى، وقد بلغ سكانها في سنة أربع وستين وثمانمائة وألف خمسمائة ألف وثمانية وسبعين ألفًا وخمسمائة وخمسًا وعشرين نفسًا، مع ما فيها من الجند. وينتظم في هذه السلطنة أمم مختلفة الأجناس، وبلدان مختلفة الطبائع والأخلاق، ويمكن حصر تلك الأمم في ثلاثة أقسام كُلِّيَّة، وهي: بلدان ألمانيا، وبلدان المجار، وبلدان بولونيا.

فبلدان ألمانيا هي أوستريا التي سميت بها السلطنة، ودوكات صالسبورغ وستيريا، وكارينتيا وكارنيول، والفريول، وأراض مدينة تريست والتيرول، مع الفورارلبرغ، ومملكة بوهيميا، ومارغرافية مورافيا، وسيليزيا النمساوية.

وأما بلدان المجار فهي الترانسيلوانيا، والسلافونيا والكرواسيا، المنقسمة إلى عدة أوطان حربية.

وأما بلدان بولونيا فتحتوي على الغاليسيا، ولودوميريا، والبوكوين. وبلدان ألمانيا هي الداخلة وحدها في الكونفيدراسيون جرمنيك. أي عصبة جرمانيا، وقد خرجت الآن عن العصبة المذكورة. ومن هاته البلدان المختلفة يتكون اليوم أربع عشرة ولاية كبيرة. وهذه المملكة كثيرة الجبال والرُّبَا أعظم ذلك سلسلة جبال أرتس التي في الناحية الشمالية، ويقال لها جبال أرض الحديد، وسلسلة جبال كراباك في الناحية الشرقية، وفيما بين الغرب والجنوب فروع من جبال الألب، وفي الوسط جبال بوهيميا وجبال مورافيا. وبالمملكة أفياف في غاية الامتداد، منها بسيطة أوستريا السفلى التي يشقها وادي طونة، والبسيطة الكبرى والبسيطة الصغرى الكائنتان في بلاد المجار، وبسيطة سلافونيا. وأما أَوِدْيَتها فالألب والأودر والفيستول والدنييستر، كلها تخرج من مملكة أوستريا ووادي طونة، غالب امتداده في تلك المملكة واستمداده من عدة مواضع بها. وبها عدة خُلُج مصنوعة، مجموع طولها يبلغ ستة آلاف وثلاثمائة وخمسين كيلو ميترًا، وتتصل بها أودية تلك المملكة، وأعظمها خليج فرنسوى الأول، يجمع بين وادي تيس والطونة. وبها طرق كثيرة متقنة الصنعة لتسهيل المواصلة بين البلدان وطول طرق الحديد المُنْجَزَة سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف، بلغ خمسة آلاف وثمانمائة وثمانية وثمانين كيلو ميترًا. ودَخْلُها في السنة المذكورة بلغ مائة وسبعين مليون فرنك وتسعمائة ألف وخمسة وثمانين وألفًا ومائتين واثنين وسبعين فرنكًا. وبلغ طول التلغراف بها سنة أربع وستين وثمانمائة وألف خمسة عشر ألف كيلو ميتر وتسعمائة وستة وتسعين كيلو ميترًا.

واعلم أن المملكة النمساوية كلها في الأرض القَارَّة، وليس بها من الشطوط إلا المقدار الذي على بحر البنادقة، وشاطئه الشرقي أرفع من الغربي، الذي غمر البحر منه مواضع كثيرة فصارت مستنقعات للمياه، ومقدار امتداد الشطوط المذكورة ألف وسبعمائة كيلو ميتر. ويوجد فيه من جهة الشرق جزر عديدة، مثل فاليا وكيرسو وأوزيرو، كما يوجد بتلك المملكة بحيرات، منها بحيرة أتير في أرشيدو كاتو أوستريا، وبحيرات بالتون ونويدل في المجار، وبحيرة كلاجنفورت في السيريا.

ثم اعلم أن المملكة النمساوية هي أغنى الممالك الأوروباوية من جهة المعادن التي تستخرج من أرضها؛ فإن بها معدن الذهب في ترانسيلوانيا والمجار، ومعدن الزئبق في الكارينتيا، والقصدير والرصاص في بوهيميا، والحديد بكثرة في ستيريا واليريا وبوهيميا وهنغاريا، كما يستخرج من هاتين المملكتين الأخيرتين الزنك، أي التوتيا المعدنية، والكالامين، أي الحجر السليماني، والأنتيمون، أي الكحل الأصبهاني، وفي بوهيميا أيضًا معادن الزرنيخ والزاج والرهج الأبيض. ويوجد في هنغاريا وترانسيلوانيا وغاليسيا معادن عديدة، يستخرج منها الملح، كما يوجد الترب بكثرة في المجار، وهو نوع من التراب له بعض خواص للنفط، ويصلح للوقود. والفحم الحجري موجود في سائر إيالات السلطنة المذكورة، كما يوجد في بعض مواضع منها الأحجار الثمينة، كالروبيل، أي الياقوت الأحمر، والأوبال، وبها أيضًا تراب الفرفوري ونحوه من الأتربة المنتفع بها، ومن خواص

بلاد أوستريا كثرة العيون المعدنية، أي الجارية على المعادن، ففي المجار أكثر من ألف عين من ذلك.

هذا، وإن الصناعات في سائر بلاد أوستريا في غاية الرواج، وبها عدد وافر من الفبريكات والآلات المعتبرة، لا سيما صناعة الجوخ؛ فإن لهم بها مزيد اعتناء، وكذلك أقمشة الحرير والقطن، والكتان والكاغد، وصناعة الخرط. وبلور بوهيميا في غاية الشهرة، وبستيريا يتقن صناعة الحديد والفولاذ، والمصوغ، واصطناع الأواني، ونحوها، كما اشتهرت مدينة وِيَنَّى بإتقان صناعة الكراريس والصيني وأهل التيرول بصناعة الفراء. وبالجملة، فأعمال اليد تُشَغِّلُ عددًا وافرًا من أهالي تلك المملكة ذكورًا وإناثًا، يبلغ سبعة ملايين وثمانمائة ألف بين صغار وكبار، وقيمة ما يخرج من أيديهم تتجاوز الثلاثة آلاف وخمسمائة مليون من الفرنكات. ومقاطع المعادن والفبريكات في المملكة المذكورة عيون مُتَدَفِّقَة بالمال، وتشغل من الأهالي أكثر من مائة ألف وثمانية آلاف، وقد بلغت نتائجها في سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف مائتين وثلاثة وتسعين مليونًا وأربعمائة وسبعة وخمسين ألفًا وأربعمائة وسبعة وخمسين فرنكًا.

وأما الفِلاحَة فأكثر من ثلث السلطنة صالح للحرث، وقَدْرُ الثلث منها غابات، وأكثر من الربع مُرُوج ومَرَاعٍ، ومنابت الكروم منها مُقَدَّرَة بخُمس العُشر. وبالمملكة من الحيوانات العدد الكثير؛ فمن الخيل ثلاثة ملايين وأربعمائة وستون ألفًا وثلاثمائة وتسعة وتسعون، ومن البغال ثلاثة وعشرون ألفًا وسبعمائة وأحد

وثمانون، ومن الأحْمِرَة ثمانية وثمانون ألفًا ومائتان وأربعة وثمانون، ومن البقر أربعة عشر مليونًا ومائتان وخمسة وخمسون ألفًا ومائة وستة عشر، ومن الضَّأْن ستة عشر مليونًا وستمائة وأربعة وستون ألفًا ومائتان وستة وثلاثون، ومن المَعْز مليون وخمسمائة وسبعة عشر ألفًا وثمانمائة وخمس وعشرون، ومن الخنازير ثمانية ملايين ومائة وأحد وخمسون ألفًا وستمائة وثمانية. وقدر ما يتحصَّل من نتائج الفلاحة في السنة يبلغ خمسة آلاف وتسعمائة وخمسة ملايين من الفرنك، وبها عدة جمعيات يُعَبَّر عنها عندهم بكريدي فونسي لإعانة أهل الفلاحة بما يحتاجون إليه من المال، وبها اثنتان وسبعون جمعية للفلاحة، وخمسة هاراس، أي أماكن لتجويد الخيل.

ونُمُوُّ المتاجر بها لم يزل آخذًا في الازدياد يومًا فيومًا، وبلغت قيمة المَتْجَر دخلاً وخرجًا في سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف ألفًا وأربعمائة مليون وثمانمائة وستة وأربعين ألف فرنك وسبعمائة واثنين وخمسين فرنكًا. وعدد المراكب المتجرية التي دخلت مراسي المملكة وخرجت منها في تلك السنة أحد وعشرون ألفًا وسبعمائة وخمسة عشر، الداخل منها عشرة آلاف وتسعمائة وخمسة، والخارج عشرة آلاف وثمانمائة وعشرة، والمحمول للقسم الأول من الطونلاتات سبعمائة وستون ألفًا وثلاثمائة واثنتان وخمسون، وللقسم الثاني سبعمائة وأربعة وسبعون ألفًا وتسعمائة وعشرة، فالجملة مليون وخمسمائة وأربعة وأربعون ألفًا ومائتان واثنتان وستون طونلاتة.

ثم إن لهم اعتناءً عظيمًا بالتعلّم والعمل بما يتعلَّمونه، وظهر منهم التقدم البَيِّن في ذلك خصوصًا في إيالة أوستريا. وتعليم الأطفال أمر مُحَتَّم عندهم من سن الست إلى الاثنتي عشرة سنة. وقد بلغ عدد المكاتب في سنة تسع وخمسين وثمانمائة وألف تسعةً وعشرين ألفًا ومائة وثمانية وثلاثين، وهي مكاتب أولى لتعليم مبادئ العلوم، وبها مليونان وخمسمائة ألف من التلامذة ذكورًا وإناثًا، وهناك ثمانمائة وأربعة وثلاثون مكتبًا أرفع منها، ومائتان واثنان وسبعون مكتبًا في الدرجة الوسطى، منها مائتان وأربعون مكتبًا من النوع الذي يسكن به التلاميذ واثنان وثلاثون مكتبًا للعلوم الرياضية. وهناك سبعة مكاتب بوليتكنيك، أي لسائر العلوم الرياضية، وعدة مكاتب أخرى مخصوصة بالصنائع، وبها مدارس عمومية يتعلم بها المنتهون من التلامذة. وهناك مكاتب خاصة بفنون منها سبعة عشر مكتبًا لفن القبالة، وثلاثة للمعادن، واثنان وثلاثون للفلاحة، وخمسة لعلوم التشريح، وثلاثة لعلم الأحكام، ومكتب للبحرية، وتسعة للعساكر البرية. واعلم أن مصاريف المكاتب المذكورة يُدفع من الدخل الراجع لها مما يؤخذ من التلامذة، ونحو ذلك، وما ينقص من المصاريف المذكورة فعلى الدولة والبلدان.

الفصل الرابع
في قوانين هاته المملكة وكيفية إدارتها السياسية

اعلم أن القوانين النمساوية مؤسسة على مناشير صدرت من ملوكها في تواريخ مختلفة:

الأول: المنشور الصادر من الملك شارل السادس سنة أربعة وثلاثين وسبعمائة وألف، وفيه منع تقسيم المملكة في المستقبل، وأنها تبقى مملكة واحدة تحت سلطة ملك واحد، وبيَّن فيه كيفية وراثة كرسي الملك.

الثاني: المنشور الصادر من الملك فرنسوى الثاني في أول أغشت سنة أربع وثمانمائة وألف، وبمقتضاه سمي ملك النمسة باسم إمبراطور.

الثالث: المنشور الصادر من الإمبراطور فرنسوى جوزاف الأول في الثاني من أكتوبر سنة ستين وثمانمائة وألف، وبمقتضاه صارت القوة التشريعية - أي وضع القوانين - من حقوق الإمبراطور والمجلس.

الرابع: القانون المؤرَّخ في السادس وعشرين من فبراير سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف، وبمقتضاه صار من حقوق الأهالي انتخاب وكلاء يجتمعون في المجلس المسمى ريخسرات، المنقسم إلى مجلسين:

الأول: مجلس الأعيان، وهو مُرَكَّب من مائة وتسعة أعضاء من الرشداء من أمراء العائلة الملكية، وكبراء الكنيسة الذين لهم رتبة أمير، ورؤساء العائلات الذين لهم الحق في أن يكونوا أعضاء في هذا المجلس بالوراثة، وبقية الأعضاء ينتخبهم الإمبراطور من المتوظِّفين في الدولة ومن أعيان أهل المملكة بوظيفة عمرية.

الثاني: مجلس وكلاء العامة المركَّب من ثلاثمائة وثلاثة وأربعين عضوًا، تنتخبهم مجالس الإيالات من أعضائها، ورؤساء المَجْلِسَيْنِ ينتخبهم الملك من الأعضاء.

الفصل الخامس
فيما للملك من الحقوق

فمن حقوقه عرض القوانين الجديدة على المجلسين، والإمارة على العساكر البرية والبحرية، وإنشاء الحرب، وعقد الصلح والمعاهدة، والتجارة، ونصب المتوظفين من الوزراء وغيرهم، وتأخير من لم تكن وظيفته عمرية عن المباشرة، وتعيين وقت اجتماع المجالس السياسية في كل سنة، وغلق مجلس وكلاء العامة، ومنعه من الخدمة إن اقتضى الحال ذلك، وإجراء إدارة المملكة على مقتضى القوانين، وغير ذلك من كليات السياسة بواسطة وزرائه المسؤولين للمجلس عن تصرفات الدولة.

الفصل السادس
في حقوق المجلسين

فمنها التأمّل والقرعة[1] في سائر القوانين المعروضة من الملك ومن الأعضاء؛ لأن لهم ذلك بحيث لا يمكن صدور قوانين جديدة إلا بعد المفاوضة فيها علنًا بالمجلس، وموافقة غالب الأعضاء عليها، خصوصًا فيما يتعلق بتعيين أصول مصاريف الدولة، والمبالغ الواجب أخذها في كل سنة من الأهالي، والقوانين المتعلقة بالكمارك والمتجر، والبريد والتلغراف، والطرق الحديدية، والخدمة العسكرية، وسائر قوانين الأحكام المعتبرة بين السكان، وغير ذلك مما يَعُمُّ نفعه.

ومن حقوق المجلسين سؤال الوزراء المباشرين عما يظهر لهم في إدارة أحوال المملكة متى شاؤوا، وعلى الوزراء الجواب بالبيان، ولا يحضر في المجلسين وكلاء العامة من هنغاريا وكرواسيا وترانسيلوانيا إلا في النوازل التي تَعُمُّ مصلحتها سائر المملكة؛ لأن لِهَاتِهِ الإيالات المذكورة نوع استقلال في إدارتها الداخلية، ولها مجالس خاصة للنظر في مصالحها.

---

(١) القرعة: التصويت. (م).

الفصل السابع
في الكلام على مجلس الدولة

هذا المجلس مُرَكَّب من الوزراء، وممن ينتخبهم الملك من المتوظِّفين، ومن أهل المملكة، ومأموريته تهذيب القوانين الجديدة التي يجب عرضها على المجالس السياسية وتراتيب الإدارة، وفصل النوازل الواقعة بين المأمورين فيما يتعلق بمأموريتهم، ونحو ذلك من كليات الأمور.

الفصل الثامن
في الكلام على الوزارات

اعلم أن إدارة المملكة تنقسم إلى نِظَارَة ثمانية وزراء، وهم مسؤولون عن تصرُّفاتهم، ويجتمعون للنظر في المصالح تحت رئاسة الملك أو من ينوبه، ويُسَمَّى محلّ اجتماعهم مجلس الوزراء، ومعهم ثلاثة أعيان تسمَّى شانسليي، أي كنشليير، ولكلٍّ واحد منهم رتبة وزير، وهؤلاء مكلَّفون بمصالح الإيالات الثلاث المذكورة في آخر الفصل السادس.

الفصل التاسع
في تقسيم المملكة

اعلم أن المملكة النمساوية تنقسم إلى عشرين إيالة، وتنقسم تلك الإيالات إلى أوطان كبار وصغار، وفي كل إيالة والٍ من طرف الدولة، ومعه مجلس مشورة مكلَّف بإمضاء أوامر الدولة، والنظر على الضبطية، وعلى بقاء راحة السكان، وإدارة عموم مصالح الإيالة، وغير ذلك مما للعمال النظر فيه من مصالح الدولة والإيالة.

الفصل العاشر
في مجالس الإيالات

اعلم أن في كل إيالة مجالس؛ ففي إيالتي ألمانيا وسلافونيا مجلس مركَّز من كبراء الكنيسة ومن رؤساء مكاتب العلوم، ومن المنتخبين من أصحاب الأملاك، ومن مجالس المتجر وأهل الصناعات، ومن أهالي البلدان والمداشر، ومن نُوَّاب سكان الضواحي لستة أعوام. وفي إيالة هنغاريا مجلس ينقسم إلى مجلسين: أحدهما مركَّب من كبراء الكنيسة ومن أعيان المملكة المسلمين عندهم نوبليس[1]، والآخر مُرَكَّب ممن ذكر ومن الأهالي، وجملة أعضائه ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون لمدة ثلاثة أعوام. وفي عمالة ترانسيلونيا وكرواسيا وسلافونيا مجالس مثل ما ذكر لهنغاريا، والملك ينتخب رؤساء المجالس المذكورة من الأعضاء، إلا رئيس المجلس الثاني من هنغاريا؛ فإن انتخابه للمجلس، وكذلك رئيس مجلس إيالة ترنسيلوانيا؛ لأنه من حقوق أكبر أعيان المملكة.

---

(١) نوبليس: طبقة من الأعيان. (م).

الفصل الحادي عشر
فيما تَسْتَحِقُّه هَاتِهِ المجالس

فمن حقوقها النظر في المصالح الخاصة بالإيالات، من توزيع الأداء، وغير ذلك، كما ينظر مجلس النواب في التخت في مصالح سائر المملكة.

الفصل الثاني عشر
في مجالس الأوطان

اعلم أن في كل وطن كبير من أوطان إيالة هنغاريا وترانسيلوانيا وكرواسيا وسلافونيا مجلسًا مركَّبًا من أعضاء، ينتخبهم الأهالي للنظر في مصالح الوطن، مثل ما لمجلس الإيالة، وفي الأوطان التابعة لإيالتي ألمانيا وأسلاف مجالس مركَّبة من أعضاء تنتخبهم الأهالي لإعطاء الرأي للولاة، وإعانتهم على إدارة المصالح، وغير ذلك.

الفصل الثالث عشر
في مجالس البلدية

اعلم أن في كل بلدة من بلدان المملكة مجلسًا مركبًا من أعضاء تنتخبهم الأهالي لمدة ثلاثة أعوام، تحت رئاسة مشايخ البلدان ومأمورية المجالس المذكورة إدارة الأملاك الراجعة لمصالح البلد، وصرف المبالغ المُعَيَّنَة لعمل الطرقات، وبناء القناطر وحفظها، وإدارة مكاتب العلوم، والمارستانات وديار الصدقات، وإعلان القوانين الجديدة، وتوزيع الأداء المرتب من مجالس الكبار على أهل البلد باعتبار المكاسب، وإعانة المأمورين بأخذ العسكر، والنظر في أحوال الضبطية المكلَّفة بمنع ما يُحَيِّر راحة السكان.

الفصل الرابع عشر
في إدارة الأحكام

الألمان والسلاف

اعلم أن الأحكام في المملكة النمساوية تختلف إدارتها باختلاف أقسامها.

فأما الألمان والسّلاَف فلهما مجلس عالٍ مَقَرُّه مدينة وِينّى، وأعمال هذا المجلس النظر في النوازل نظرًا ثالثًا، أي تحقيق حكم مجالس التحقيق، سواء تعلَّق بجناية أو بمعاملة مالية، وفصل جميع ما يقع من التوقفات والمخالفات بين المجالس والتريبونالات الداخلة تحت إدارته، وفصل ما يرفع إليه من الخلاف الواقع بين المجالس ومتوظفي الدولة.

ويليه مجالس مكلفة بالتحقيق، أي بإعادة النظر في أحكام المجالس الأُوَل، وهذه المجالس موجودة بمدينة وِينّى، وغراتس وترييست، وأنسبروك وبراغ، وبرون ولامبرغ، وكراكوفيا وزارة.

ولهم من المجالس الأُوَل نحو ثلاثة وعشرين، مركبة من عدة أعضاء، ولهم من التريبونالات الصغار سبعة وأربعون. ويكون الحاكم فيها شخصًا واحدًا، وحكمها أقصر من حكم المجالس، حتى إنها لا تحكم في الجنايات إلا بمثل ما يحكم به رؤساء البوليس أي الضبطية.

وأما الجنايات الثقيلة والمتوسطة فترجع إلى المجالس، فما كان منها سياسيًّا يختص بالحكم فيه المجلس الذي في مركز الإيالة؛ وذلك لأن المجالس يحكمون في سائر النوازل المالية، وفي الجنايات التي لم يُعَيِّن لها القانون حاكمًا غيرهم لخصوصية في النازلة أو في مرتكبها.

ثم إن أعمال المجالس لا يلزم كتابتها إلا في النوازل المالية، وأما في الجنايات فلا يلزم ذلك، كما لا يلزم إشهار الحكم، غير أن للرئيس أن يرخص لمن يطلب الحضور لاستماع الخصام، وله أن يفتح باب مجلس الحكم لسائر الناس. وعرض الشِّكَايَة يكون أولاً من المدَّعِي أو من وكيل الحق العمومي، والمدَّعَى عليه له أن يوكل من يناضل عنه، وإن اقتضى الحال تقديم وكيل رسمي قُدِّم وأمر الوكلاء العمومية والأفوكاتية نظير اصطلاح فرنسا.

هنغاريا

أما هنغاريا فالمجلس الأعلى المسمى عندهم بطاولة السبعة الأشخاص مركب من سبعة أعضاء، ومن المجلس الملكي المُعَبَّر عنه بطاولة روايال، ويُعَبَّر عن الجميع بالمجلس الأكبر السلطاني، ويرأسه وزير الحكم، وينفرد مجلس طاولة السبعة بتحقيق نوازل الأموال والجنايات كما ينفرد المجلس الملكي بتحقيق أحكام التريبونالات التي تحت إدارته، ومع كونه مجلس تحقيق يحكم أيضًا مجلس أول، فيما إذا أريد فهم مضمون حكم مشكوك فيه، وينزل الأحكام بطريق القياس، كما يحكم في نوازل القتل والقصاص الشائن للعرض، ولهم تريبونالات صغار، ويُعَبّر عنها بتريبونالات طاولة الديسترتكت المشتملة على عدَّة أعضاء، ونظامهم يشبه المجالس الأُوَل.

وعلى هذه الكيفية مجالس كرواسيا وسلافونيا وترانسيلوانيا، ووراء هَاتِهِ المجالس المذكورة يوجد لتلك السلطنة سلطة وأحكام خصوصية، كمجلس الماريشال الكبير، الذي يحكم في النوازل المتعلقة بالعائلة السلطانية ورسل الأجانب، والتريبونالات العسكرية والبحرية والمتجرية، وأحكام أهل العُرْف في النوازل التي تحدث في الأسواق السنوية المسماة بفوار، ويقع التحكيم بتراضي الخصمين في الأمور المتجرية والمالية.

هذا، وبعد تحريرنا أحوال الإدارة السياسية بالمملكة النمساوية وقعت تغييرات معتبرة، لَزِمَنَا بيان خلاصتها هنا، وهي أن المملكة المذكورة انقسمت إلى مملكتين: الأولى مملكة النمسة وتوابعها من أمم الألمان والسلاف، والثانية مملكة المجار وتوابعها، والمملكتان تحت رئاسة ملك واحد باسم إمبراطور بالنسبة للأولى، وباسم ملك بالنسبة للثانية. ولكل من المملكتين قوانين سياسية تخصّها، ومجلسان: مجلس أعلى ومجلس وكلاء عامة؛ لتأسيس القوانين وتعيين أصول مصاريف الدولة، والأداء اللازم أخذه من الأهالي لذلك، والاحتساب على الدولة، وغير ذلك مما تقدم بيانه.

وإدارة المملكتين في أمورهما الداخلية والخارجية موكولة إلى عهدة الملك بواسطة وزراء في كلتا المملكتين مسؤولين عن تصرفات الدولة للمجالس. والمملكتان وإن كانت كل وحدة[1] منهما مستقلة في أحوالها الخاصة بها، لكنهما مُتَّحِدَتَان في المصالح التي تَعُمُّهُمَا وللنظر في هاته المصالح التي تتحد فيها المملكتان مجلس مُرَكَّب من أعضاء تنتخبهم المجالس، وإدارة مملكة المجار بمقتضى قوانينها القديمة.

وقوانين المملكة النمساوية تغيرت في هذه المدة الأخيرة؛ لأن تأسيس القوانين السياسية وانتزاعها كان من حقوق الملك، والآن صار من حقوق

(١) وحدة: واحدة. (م).

أهل المملكة، بحيث إن ترتيب القوانين المذكورة وتبديلها يكون منه ومن مجلس وكلاء العامّ كما ذكر عن غيرها من الممالك، وما عدا ما ذكرنا يكفي في بيانه ما قَدَّمْنَاه.

الفصل الخامس عشر
في القوة المالية والعسكرية

دخل الدولة النمساوية سنة 1863

فيورين	أنواع الدخل
129,386,100	من الرَّبْع والعقار والبتيندات، أي سراحات الصنائع[1]
249,958,501	من الكمارك والملح، والدخان والتامبر، والمأكول والمشروب
40,612,863	من المعادن وأملاك الدولة
16,762,917	دخل طارئ من أنواع شتَّى
436,720,381	**الجملة فيورين تساوي 109,180,095,250 فرنك**

(١) سراحات الصنائع: ما يدفعه التجار والصناع مقابل رخصة لمزاولة المهنة. (م).

خَرْج الدولة النمساوية سنة 1863

أنواع الخرج	فيورين
مُرَتَّب الإمبراطور وعائلته	7,458,700
مصروف كنشلرية الملك، أي بيت سرّ الدولة	75,000
مرتب أعضاء مجلس الدولة	192,900
مصروف مجلس الوزراء	68,500
المبلغ المعين لوزارة الخارجية	2,733,800
المبلغ المعين لوزارة الدولة	27,085,264
للوزارة المذكورة لمصالح الديانة ومكاتب العلوم	9,740,935
المبلغ المُعَيَّن لكنشلرية هنغاريا	15,064,764
لكنشلرية إيالات كرواسيا وسلافونيا	2,297,437
لكنشلرية إيالات ترانسيلوانيا	3,539,118
لوزارة البوليس أي الضبطية	3,341,771
لوزارة الأحكام	9,136,700
لوزارة المال، ومنه مصروف خلاص المجابي	113,176,998
لوزارة الفلاحة والمتجر	6,881,034
مصروف على تحرير محاسبات الدولة	4,636,000
مصاريف مختلفة	1,386,000
لوزارة الحرب	93,321,600
لوزارة البحر	11,072,500
فائدة الدَّين الذي على الدولة	150,102,560
زيادة لوزارتي الحرب والبحر	35,000,000
جملة ذلك تساوي 1,240,778,95,250 فرنكًا	**496,311,581**

فيورين	مقابلة الخرج بالدخل
496,311,581	جملة الخرج كما في الجدول السابق
436,720,381	يطرح منه جملة الدخل المتقدم تفصيله
59,591,200	زائد الخرج يساوي 148.978,000 فرنك وقيمة الفيورين النمساوي فرنكان ونصف
6,316,796,602	**جملة الدَّيْن الذي على الدولة النمساوية فرنكًا**

القوة العسكرية البَرِّيَّة بدولة النمسة

وقت الحرب	وقت الصلح	مراتب العساكر وأصنافهم
3	3	ماريشالات أي مشيرات
212	212	أمراء وأمراء ألوية
326		من المذكورين في اليداك
489,788	171,428	تريس
41,903	39,183	خَيَّالَة
93,962	45,122	طوبجية
785	785	حُرَّاس
12,404	12,404	جندرمرية وهم ضرب من الشرطة
639,383	**269,137**	**جملة ذلك عدا الفسيالات**

ويضاف إلى العدد المذكور عساكر أخرى في وقت الحرب، كالخَيَّالة غير المرتَّبين والحرس البلدية، وغير ذلك.

القوة البحرية بالدولة النمساوية سنة 1865

مراتب العسكر وأصناف المراكب	جملة البحرية	فابورات بها قوة خيل 13580	مراكب قلاع	جملة المراكب وبها مدافع 1063
أمراء البحر	6			
قبطانات أجفان	10			
قبطانات فراقط	21			
قبطانات قرابط	4			
يوزباشية وملازمية	433			
بحرية	10251			
أطباء وصنائعية وغيرهم	3635			
عسكر تريس معد للبحر	5121			
أجفان		1	2	1
فراقط		5		7
فراقط حديد		7	3	7
قرابط		2	11	5
زبركة		3	34	14
شالوب		27		61
فابورات بالعجلة		19		19
ياكت		2	1	2
بطرية عوامة				1
الجملة	**19481**	**66**	**51**	**117**

الباب الخامس

في الكلام على مملكة الروسية

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أنه لم يُعْرَف في القديم من سكَّان هاته المملكة إلا أهل الجنوب، وكان الأقدمون يَدْعُون هذه الجهة باسمي سرماتيا وشيتيا، على وجه إجمالي من دون تحديد معلوم، ويقسمون القبائل القَاطِنَة بها إلى سرمات وركسولان، ويازيج وأغاتيرس، وكيمريس وتاوري وماوت، وغير ذلك. ثم في القرون الأولى من السلطنة الرومانية أغار السرمات - وهم فرع من السلاف سكان شمال الروسية الأصليين - على الجهة الجنوبية المذكورة، وتملَّكوها، واستمرَّت في سلطتهم إلى أن خرجت عليهم في القرن الثالث من التاريخ المسيحي أمة الغوت Goths من أرض سكنديناڤيا - وسيأتي ذكرها - واستولت على غالب القبائل المُسْتَقِرَّة بين بحر البلتيك والبحر الأسود، فَتَكَوَّنَ من ذلك بين أنهر النييمن والدنييبر، والولغا والدون سلطنة كبيرة، شملت جميع ما يسمَّى الآن روسية أوروبا. وفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة أغار الهن - المتقدم ذكرهم في الأبواب السالفة - على هذه السلطنة، وأسقطوها، فاستمرت البلاد بعد ذلك مدة أربعة قرون ممرًّا للأمم الواردة على أوروبا من المشرق، وميدانًا للاضطرابات المسترسلة.

وبالجملة فقد استولت عليها أمم الهن Huns والآلان والبلغر والخزر على التعاقب، وطرد بعضهم بعضًا، ومع ذلك الاضطراب فقد تأسست بها مدن في حدود القرن السادس، وأشهرها نفوغورود الكبرى وكياف، ثم ظهرت بها أمة الفاراغ، وهي من أمم جرمانيا الساكنين بشاطئ البلتيك، وقدومهم إليها كان باستدعاء من أهل نفوغورود؛ ليدافعوا عن حدودهم ضد أهل فينلاند.

ثم إن روريك رئيس الفاراغ استولى على نفوغورود، ولقب بالأمير الكبير سنة اثنتين وستين وثمانمائة، ثم امتدت أيدي ذريته حتى استولوا في أقرب وقت على القسم الجنوبي من الروسية، وعلى الغاليسيا، واستقروا بكياف إلى أن ضَيَّقُوا على القسطنطينية وأخافوا أهلها. وازدادت شَوْكَتُهُمْ ونمت مكاسبهم في مدة الأمير فلاديمير الكبير، الذي أدخل الديانة النصرانية إلى بلاده سنة ثمان وثمانين وتسعمائة، واستمر ارتفاع شأنهم، وزادت شوكتهم في مدة ياروزلاف الأول، صاحب شريعتهم وأحكامهم، وذلك من سنة تسع عشرة وألف إلى أربع وخمسين وألف. ثم بعد ذلك اشتعلت بها نيران الحروب الأهلية؛ بسبب ما كان لهم من العادة القبيحة من قسمة الممالك بين أمراء العائلة الملكية؛ فإن الأمير منهم كان يستولي على قطعة من الأرض بما فيها، وكذا تعطى قطع للبنات عند زواجهن، فنشأت من ذلك الحروب الأهلية التي انقسمت بها المملكة إلى أقسام يتعذر معها اتحاد الإمرة، فبقيت كياف - التي هي تخت السلطنة - مقرًّا للأمير الكبير وبقية الأقسام تحت سلطة أمراء من تلك العائلة، وهي إمارة نفوغورود

وبولوتسك وسمولا نسك وتشرنغوف، وبريزلاف وتموتركان، وهاليكس وتفار، وفلاديميرس وسوزدال، ثم موسكو التي تأسست في سنة سبع وأربعين ومائة وألف.

ومع هذا الاضطراب الذي كان داخل المملكة كانت الغارات المشرقية تتداول عليها، فمن ذلك ما فاض عليها من أمة البشيناغ، وأمة بولوفتس، وأمة المغول.

ففي سنة أربع وعشرين ومائتين وألف اجتاز باتوخان بن جنكز خان بجيش المغول وادي ولغا، وافتتح قسمًا من الروسية الجنوبية، وأسس السلطنة الكبيرة المسماة بسلطنة كابشاك وفي سنة أربعين ومائتين وألف استولى باتوين توشى - أحد أمراء المغول - على مدينة كياف، وبعد مدة يسيرة انقاد لأحكامه البودوليا والفولينيا والغاليسيا الشرقية، كما انقاد لطاعته أمراء الروسية الشمالية، ولم يبق منهم مستقل بأمره إلا أمير موسكو، الذي تلقب في سنة ألف وثلاثمائة وثمان وعشرين بلقب الأمير الكبير. وقد دامت سلطة المغول على الروس مدة مائة وخمسين سنة، وذلك من سنة ألف ومائتين وأربعين إلى سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثمانين.

ثم بوقوع حروب أهلية في المغول والتتار، واستيلاء تيمورلنك على بلدانهم اتسعت عن الروسية رِبْقَة العبودية، ومع ذلك فقد ضيَّقوا على مدينة موسكو،

ونُهبت مرارًا، ولم تتحرر تلك البلاد من رق التتار إلا في سنة ألف وأربعمائة وإحدى وثمانين، على يد الأمير الكبير إيفان الثالث. وطوع هذا الأمير في ذلك العهد نفوغورود وبسكوف والبيارمية، وضم إلى ممالكه عدة ولايات كانت لأمراء، منها السفاريا، ثم أضاف أيضًا إلى مملكته القسم الغربي من سيبيريا.

ثم إن بازيلي وإيفان الرابعين اللذين استوليا بعد الأمير المذكور شرعا في الحروب التي استمرت مدة طويلة مع أهل بولونيا، وجماعة الكفاليرات التوتونيك وأهل السويد، وفي أيامهما افتتحت سمولانسك وقازان، واستراكان وغالب سيبيريا، وعجز إيفان المذكور عن أخذ الليفونيا مع شدة اجتهاده وحرصه على أخذها.

ثم في سنة ألف وخمسمائة وثمان وتسعين انقطعت عائلة روريك، ووثب بوريس غودونوف على كرسي المملكة، فنشأت من ذلك اضطرابات، مع ما كان من تَحَارُب بولونيا والسويد على أخذها، ولم يزل ذلك الاضطراب بها حتى أشرفت على الاضمحلال(١).

ثم بولاية ميشال رومانوف في سنة ثلاث عشرة وستمائة وألف خمدت نيران الحروب، وزال معظم الضرر، وقامت الروسية على ساقها شيئًا فشيئًا في مدة هذا الأمير، ثم في الأيام التي بعده استرجعت سفاريا من أيدي البولونيين. ولما انتقلت الدولة لبطرس الكبير من سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف إلى سنة

(١) الاضمحلال: الذهاب والزوال. (م).

خمس وعشرين وسبعمائة وألف، أخذ في توسيع دائرة المملكة، وتهذيب أخلاق أهلها بالفنون والصناعات، وكان مطمح نظره تحرير أهل الروسية، واستخلاصهم من ربقة[١] الجهل والعبودية، وتنمية عَدَدِهم وعُدَدِهم. وكان اقتضى الحال أن يزور بنفسه الممالك الأوروباوية، ويشاهد الأمم الذين أحرزوا قَصَب السَّبْق[٢] في ميدان التمدُّن، فتوجَّه أولاً إلى مملكة هولاندة، وتعلَّم بها صناعة النجارة واصطناع السفن، وكان يخدم بترسخانة صاردم مثل آحاد الناس متسميًا باسم بطرس ميكايلوف، ثم توجه إلى أنكلترة، واختار منها مهندسين حُذَّاقًا ليصطنعوا له خليجًا بين وَادِيَيْ دون وولغا. ومع ذلك فلم تنقص هذه الأشغال من ملاحظته لمصالح بلاده وأسباب عمرانها، مع استرساله في الحروب الهائلة، ومن مآثره أنه هذَّب الأحكام، ودَوَّن لها قانونًا، ونَظَّم أحوال الضبطية، وأجاد صناعة السفن وترتيب الحربي منها، وأعان أصحاب الصنائع، وأبدل حكم البطرك الذي هو كبير الكنيسة المستبدّ بحكم المجلس الذي ركّبه للنظر في أمور الديانة، وأسس أَكْدَمِيَّة العلوم بمدينة بطرسبورغ، واخترع كيفيات نياشين الافتخار لتمييز ذوي المناصب، وأسس المدينة المذكورة التي هي التخت الآن، وَوَسَّع نطاق المملكة إلى بحر البلتيك وبحر الخزر والبحر الأسود، وضَعْضَعَ ملك بولونيا، وأوقفها على السقوط، وكسر من شوكة السويد، وتداخل في سياسة أوروبا العمومية، وقوَّى سلطته ونفوذ كلمته داخل مملكته، بجعل نفسه رئيسًا للديانة.

(١) ربقة: قيد. (م).
(٢) أحرزوا قصب السبق: تفوَّقوا على غيرهم. (م).

ثم لما أفضت الدولة في سنة اثنتين وستين وسبعمائة وألف إلى عائلة هولستين غوتورب الغربية من بيت رومانوف؛ لانقراض عقب[١] البيت المذكور وقفت الروسية عن التقدم هُنَيَّة[٢]، ثم في مدة كاترينا الثانية، من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وألف إلى ست وتسعين عادت إلى التقدم وتوسيع الدائرة، إلى أن بلغت ما بلغت من القوة والاشتهار، وفتحت بلاد التتار الصغرى مع أرض القريم، وافتكّت الليتوانيا من يد البولونيين، واستولت على الكورلاند والكوكاز - أي الجركس - وظفرت بنصف مملكة بولونيا عند اقتسامها في سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف. وابنها بولس الأول المستولي بعدها دخل في التَحزُّب الأوروباوي على فرنسا، وبعث جيشًا تحت رئاسة الجنرال سوفاروف سنة تسع وتسعين وسبعمائة وألف إلى السويسرة لمحاربة الفرنسيس هناك. فاسترسلت الحروب مع فرنسا حتى أوقفها إسكندر الأول بشروط تيلسيتس سنة سبع وثمانمائة وألف، ثم تجددت الحروب سنة اثنتي عشرة بين الدولتين، حتى اضطرت الروسية إلى إحراق مدينة موسكو بنفسها إرغامًا لنابليون الأول. ومع ذلك فلم تتنازل عن قُوَّتِهَا، بل أخذت حينئذ فينلاند والبوتنيا الشرقية وباسرابيا الكربج، ثم في سنة خمس عشرة وثمانمائة وألف تسلَّطت على أكثر من ثلثي بولونيا الكبرى، التي كان نابليون قبل ذلك بثماني سنين أنشأها دولة مستقلَّة باسم غران دو كاتو وأرسوفيا، وأنشأت فيهما مملكة ذات كونستيتوسيون بلقب مملكة بولونيا. وكانت

(١) عَقْب: ذرية أو ولدٌ ذكر. (م).
(٢) هُنَيَّة: قليل من الوقت. (م).

الروسية في ذلك الوقت أكثر الدول الكبار سطوة ونفوذ كلمة في أوروبا، ورئيسة للحزب المعروف بصانت أليانس، أي المعاهدة المقدَّسة، المنعقدة بينها وبين دول بروسية وأوستريا وأنكلترة، وبعض الدول الصغار على محاربة نابليون المذكور.

ثم بعد انتقال السلطنة إلى الإمبراطور نيكولا استولت الروسية على القسم الأكبر من أرمينية وافتكَّته من يد الفرس، وكذا إيالة إخالسيكي ومصبّ نهر التونة من يد الترك. وفي سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف بلغ جيش نيكولا إلى نواحي القسطنطينية، فأوقفه تداخل الدول الكبار، وقبل ذلك كانت هذه الدولة ضعَّفت الدولة التركية ضعفًا بَيِّنًا بإعانتها الإغريق على تحصيل استقلالهم، من سنة عشرين وثمانمائة وألف إلى سنة سبع وعشرين، وبِسَعْيِهَا في تحرير الصرب والفلاق والبغدان وجعلها تحت حمايتها.

والحاصل أن الدولة العثمانية رأت الشدة عند عقدها مع الروسية شروط هنكار أسكله سي، في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف. وقد ثار أهل بولونيا في ذلك الوقت على الروسية مع قيام أهل فرنسا على ملكهم في سنة ثلاثين وثمانمائة وألف، إلا أنها قهرتهم وطَوَّعَتْهُم، مع ما أظهره الثُّوَّار من قوة المدافعة. ومن ذلك الوقت صارت بولونيا قطعة من مملكة الروسية، بعد أن كان لها نوع استقلال، بشروط كانت بينهما. ولما ظفر الإمبراطور نيكولا في سائر الوجهات ورأى خلوّ الجَوِّ له عزم في سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وألف على حماية النصارى القَاطِنِين بإيالات الدولة العثمانية، فأنشأ حروبًا جديدة مع الدولة المذكورة، أفضى الحال

فيها إلى اتحاد فرنسا وأنكلترة مع الدولة العثمانية، ووقوع الانكسار على جيش الروسية عدة مرات، حتى انقادت إلى طلب المصالحة بعد فقدها مدينة سيبستبول في القريم، وتمت شروط الصلح وصُحِّحَت في منتهى مارس سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف، وكان النجاح فيها للدول المُتَّحِدَة. وفي أثناء الحروب المذكورة وُلي إسكندر الثاني ابن نيكولا، وهو الذي عقد الصلح ثم شرع في إصلاح ما فسد بالحروب المشار إليها، وتقويم حال سلطنته، فابتدأ بتحرير الرعايا من سلطة الأعيان عليهم، ونظم كيفية تعليم العامة. وبينما هو بصدد تفقد حال بلاده إذ ثار عليه أهل بولونيا في سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف، ولم يستتب له تطويعهم إلا بعد سنتين بواسطة حروب أُهْرِقَت فيها دماء غزيرة.

الفصل الثاني
في ذكر ملوك الروسية على ترتيبهم في الولاية

سنة	عائلة روريك
862	روريك الأول مع أخويه سميوس وتروفر ثم وحده
879	أوليغ نائب الدولة عن إيغور
913	إيغور المذكور ابن روريك
945	أولغا زوجة إيغور المذكور
964	زفياتوزلاف الأول
973	ياروبولك الأول
980	فلاديمير الأول
1015	زفياتوبولك الأول
1019	ياروزلاف الأول
1054	إيزيازلاف الأول، عزل مرتين ورجع إلى 1078
1067	فزيرلاف
1073	زفياتوزلاف الثاني إلى 1076
1078	فزريفولود الأول
1093	زفياتو بوولك الثاني
1113	فلاديمير الثاني
1125	مستيزلاف الأول
1132	يارزوبولك الثاني

سنة	عائلة روريك
1137	فياتشيزلاف
1138	فزيفولود الثاني
1146	إيغور الثاني
1146	إيزيازلاف الثاني إلى 1154
1147	يوريي الأول في مدينة موسكو ثم في مدينة كياف، من سنة 1149 إلى سنة 1157، ثم وقع خلاف وانشقاق بين ملوك موسكو وكياف واستمر مدة ست وثمانين سنة مبدؤها 1154
1154	في كياف روستيزلاف الأول إلى 1162
1154	في مدينة موسكو أندريا الأول بوغوليوسكي إلى 1157
1156	في كياف إيزيازلاف الثالث إلى 1167
1167	فيها أيضًا مستيزلاف الثاني إلى 1170
1168	فيما ذكر غليب يوريافيتش أي ابن يوريي الأول إلى 1172
1172	فيما ذكر ياروزلاف الثاني إيزيازلافيتش إلى 1175
1175	في موسكو مكاييل الأول إلى 1177
1177	في موسكو فزيفولود الثالث إلى 1212
1179	في كياف رومان الأول
1179	في كياف زفياتوزلاف الثالث إلى 1193
1193	فيها أيضًا روريك الثاني إلى 1209
1193	فيها أيضًا رومان الثاني إلى 1206
1206	فيها أيضًا فزيفولود الثالث إلى 1212
1212	فيها أيضًا مستيزلاف الثالث إلى 1224
1213	في موسكو يوريا الثاني إلى 1238
1230	في كياف فلاديمير الثالث إلى 1239
1217	في موسكو قسطنطين إلى 1218
1239	في كياف ميكاييل الأول [فزيفولود وفيتش] إلى 1240
1238	في موسكو ياروزلاف الثاني أخو ميكاييل إلى 1240 وبعد حروب باتوبن توشي انتقل التخت أولاً إلى فلاديميرس ثم إلى موسكو

سنة	عائلة روريك
1240	ياروزلاف الثاني المذكور
1247	ياروزلاف الثالث فزيفولود وفيتش
1249	أندريا ياروزلافييتش
1252	صانت إسكندر الأول، سمّي نفسكي لانتصاره على السويد عند نهر النيفا
1263	ياروزلاف الثالث ياروز لافيتش
1272	بازيلي الأول
1272	ديميتري الأول إلى 1294
1294	أندريا الثاني إلى 1304
1295	دانيال
1304	بازيلي من سوزدال
1304	ميكاييل الثاني من تفار إلى 1319
1319	يوريي الثالث
1323	ديميتري الثاني من تفار
1326	إسكندر الثاني من تفار
1328	إيفان الأول كاليتا
1340	سيميون
1353	إيفان الثاني
1359	ديميتري الثالث من سوزدال
1362	ديميتري الرابع دونسكي
1389	بازيلي الثاني
1425	بازيلي الثالث الضرير
1462	إيفان الثالث الملقب بالكبير
1505	بازيلي الرابع
1533	إيفان الرابع الملقب بالمهول، وهو أول من تسمّى كزار، أي إمبراطور
1584	فادور الأول
1598	بوريس غودنوف من عائلة رومانوف

سنة	عائلة روريك
1605	فادور الثاني
1605	ديميتري الخامس، واسمه الحقيقي غريغوريوس
1606	بازيلي الخامس شويسكي
1610	فلادزلاس من بولونيا
سنة	**عائلة الرومانوف**
1613	ميكاييل الثالث
1645	ألكسيس الأول
1676	فادور الثالث
1682	إيفان الخامس وبطرس الأول الكبير
1686	صوفيا مع المذكورين إلى 1689
1689	بطرس الكبير وحده
1725	كاترينا الأولى زوجة بطرس المذكور
1727	بطرس الثاني
1730	حنّى بنت إيفانوف
1740	إيفان السادس
1741	إلزبث أو إليصابات بنت بطرس
سنة	**عائلة هولستين غوتورب**
1762	بطرس الثالث من هولستين غوتورب حفيد إليصابات
1762	كاترينا الثانية من إنهالت زوجة بطرس الثالث المذكور
1769	باولو الأول أي بولس ابنها
1801	إسكندر الأول
1825	نيكولا الأول
1855	إسكندر الثاني الموجود الآن

الفصل الثالث
في وصف مملكة الروسية

اعلم أن هذه المملكة هي أكبر ممالك الأرض؛ لامتدادها في أوروبا وآسيا وأمريكا من ست عشرة درجة وعشر دقائق إلى مائة وثلاث وثلاثين درجة من الطول الشرقي، ومن ثمان وثلاثين درجة وأربعين دقيقة إلى إحدى وثمانين درجة من العرض الشمالي، وطولها من الشرق إلى الغرب خمسة عشر ألف كيلو ميتر، وعرضها من الشمال إلى الجنوب خمسة آلاف كيلو ميتر، ويقال إنها مقدار تُسع سطح الأرض، كما أنها جزءٌ من تقسيم جَرْم الكرة إلى ثمانية وعشرين جزءًا.

وبها من السكان مقدار سكان ربع أوروبا، وجزء من خمسة عشر جزءًا بالنسبة إلى جميع البشر. والبحور محيطة بها في غالب جهاتها، وفي جهة الشمال منها البحر الجامد، ويحدها في أوروبا من ناحية الغرب مملكة النمسة والمملكة البروسيانية وبحر البلتيك ومملكة السويد، ومن ناحية القبلة بعض مملكة الترك، وفي آسيا بعض مملكة الترك أيضًا، ومملكة الفرس والتركستان ومملكة الصين، ويَحُدُّها شرقًا أمريكا الأنكليزية.

وأعظم أقسامها الثلاثة آسيا، لكن القسم الأوروباوي منها الذي يمكن أن يبلغ نصف قسم آسيا هو المهم المعتبر. وتكسير مساحتها أربعمائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا واثنان وأربعون ميلاً مربعًا جغرافيًّا، أي ثلاثة وعشرون مليونًا ومائتان وستة وثلاثون ألفًا، وسبعة وعشرون كيلو ميترًا مربعًا.

وعدد سكانها ثمانون مليونًا ومائتان وأربعة وخمسون ألفًا وأربعمائة وثلاثون نفسًا، منهم واحد وستون مليونًا وواحد وستون ألفًا وثمانمائة نفس في أوروبا. وجملة رعايا الروسية تنقسم باعتبار أمر الديانة إلى هذه الأقسام، وهي: تسعة وستون مليونًا ومائتان وخمسة وستون ألفًا على مذهب الإغريق، ومليون وتسعمائة ألف على مذهب البروتستانت وثلاثة ملايين وستمائة ألف وواحد وستون ألفًا على مذهب الكاتوليك، وأربعة ملايين وأربعمائة ألف وستة وستون ألفًا من الإسلام، والباقي يهود وغيرهم.

وكان تخت السلطنة في القديم مدينة موسكو، ومن سنة ثلاث وسبعمائة وألف صار التخت مدينة بطرسبورغ. وبعضٌ أقسامها يُسَمَّي حكومة وبعضٌ إيالة وبعضٌ مملكة، هو قسم بولونيا القديمة. ويشتمل القسم الأوروباوي على خمسين حكومة، وبولونيا على خمس حكومات، وفينلاند على ثمان، وكذا الكوكاز وسيبيريا على إحدى عشرة حكومة، فجملتها خمس وثمانون.

وأما القسم الأمريكاني فقد كان في ملك جمعية من تجار الروس؛ ولذلك لم توجد له إدارة رسمية، والآن بيع لدولة أمريكا.

والبحور المحيطة بهذه السلطنة عظيمة، منها البحر الأبيض من ناحية الشمال، وبحر البلتيك في الناحية الغربية، والبحر الأسود وبحر أزوف في ناحية القبلة، وبحر الخزر فيما بين القبلة والشرق، وليس في القسم الأوروباوي جبال معتبرة، إلا في الناحية الشرقية منها فيوجد جبال أُورَال. أمَّا قسم آسيا فكثير الجبال الكبيرة، منها بناحية الجنوب جبال الكوكاز، وبناحية الشمال فروع جبال الأورال الممتدة إلى الناحية الشرقية، ثم جبال آلتاي الصغير، وجبال سيانيان، وجبال كانتي العليا، وجبال داوري وجبال يابلونوي، وجبال آلدان وستانوفوي.

أما أوديتها فهي من أكبر الأودية، منها في قسم أوروبا الولغا والدنيبير، والباتشورا والدوينتان، والنيامن والدنييستر والدون، وغير هذه مما لا يختص بالروسية، كَوادِيَيْ الفيستول والكور، وفي قسم آسيا الكوبان والأوروبي، واليانيسي واللينا، وغيرها مما هو أقل طولاً منها، كالأورال والخاتانغا، وغيرهما.

هذا، وأما أسباب التواصل في الروسية فإنها إلى الآن لم تكن تامة مُرْضِيَة لكنها آخذة في التقدُّم والحسن، والدولة بصدد إتمام الطرق الحديدية لتواصل الإيالات وبلدان المتجر الكبار. وقد أوصلت طريقًا من بطرسبورغ إلى مدينة موسكو، طوله ستمائة وأربعون كيلو ميترًا، وكان انتهاؤه سنة إحدى وخمسين

وثمانمائة وألف. وطريقًا آخر من بطرسبورغ إلى فارسوفيا على ويلنا، طوله مع الفرع الواصل إلى كانغزبرغ ببروسية ألف ومائتان وثمانية وأربعون كيلو ميترًا. وعَمَّا قريب توصل مدينة تيودوزيا - إحدى مراسي القريم - بمدينة موسكو بطريق يكون امتداده ألفًا ومائة وتسعة وخمسين كيلو ميترًا. وهناك طريق آخر يتوجه من موسكو إلى دونابورغ الكائنة على وادي الدوينا؛ ليتصل منها بمدينة ليابو، وهي من أكبر مراسي الكورلاند على بحر البلتيك، وطول هذا الطريق ألف ومائتان وسبعة عشر كيلو ميترًا ثم يتضاعف بين الشمال والجنوب. ومجمع الطرق في كرسك الذي هو مركز بين وسط المملكة والناحية الجنوبية، وسينزل خط الطريق من هناك بين وادي الدون والدنيبير، مع فرع طوله ثلاثون كيلو ميترًا يصل إلى قرب أوديسة، كما يخرج من موسكو طريق آخر يتوجه إلي الناحية الشرقية مارًّا بفلاديميرس، وينتهي إلى نيجني نفوغورود، وطوله أربعمائة وستة وعشرون كيلو ميترًا، ثم يمتد إلى ناحية سيبيريا ليتصل بحدود الصين.

وبالجملة، فقد جمع بالطرق المشار إليها بين ثلاثة تخوت، وهي فارسوفيا وبطرسبورغ ومدينة موسكو، وبين ثلاثة بحور، وهي بحر البلتيك وبحر الخزر والبحر الأسود، وبين ثلاثة أقطار، وهي القطر الشمالي والقطر المركزي والقطر الجنوبي من تلك السلطنة، كما جمع بها بين عدة بلدان كانت متصلة بالخلج المصنوعة، فقد حصل بها لدولة الروسية هيئة اجتماعية لا تحصل بدونها، واتصال بأوروبا من جهة بورسية والنمسة.

أما الاتصال بالخلج فلهم فيه كيفية مستحسنة بها قَرُبَ تواصل مراسي الروسية مع الإيالات الداخلية، فبحر البلتيك يتصل ببحر الخزر بخليجين، وبالبحر الأسود بثلاثة خُلج كبار، كما يتصل هذا البحر ببحر الخزر بخليج واحد، ومن وادي ولغا والنيفا، والدومنا والدون، والدنيبير والنيامن، تحصل اتصالات في غاية الامتداد.

هذا وإن مملكة الروسية محتوية على عدة أمم مختلفة الأجناس، أعظمها جنس السلاف، ومن هذا الجنس الروس والبولونيز أي أهل بولونيا. ثم اللفونيان أي أهل ليفونيا ثم الكورلنديون، ثم الليتوانيون. ويوجد بكثرة بناحية القطب الشمالي من الروسية جنس الفينوي والإستوانيان واللابون، ويقال لهم: سامولياد، وجنس التشراميس والأوستياك، والتشوفاش والبيرميان، وغيرهم، ثم بعد المذكورين جنس الألمان والإغريق، واليهود، والتتار، والترك، والأرمن والكرج، وقبائل الكوكاز، وقبائل أخرى رَحَّالة، مثل المغول والكلموك، والكورياك والكمشدال، والتشوكوتش والإليوت.

ويقال إنه يوجد بهذه السلطنة ثلاثون لسانًا في الأقل، والمذهب الإغريقي المنفصل عن الكاتوليكي هو المتسلطن بتلك المملكة. والكزار أي الإمبراطور هو رئيس الكنيسة من أيام بطرس الكبير، ويُعِينُه في إدارة أمورها المجلس الديني الذي يعبّر عنه عندهم بالسيندوس المقدس[١]. ويوجد بالروسية كثير من الإغريق

(١) السيندوس المقدس: المجمع الكنسي. (م).

التابعين لكنيسة رومة، وقد اعتنى الأهالي كل الاعتناء بتقليل أرباب هذا الاعتقاد.

ثم إن سكان الروسية منقسمون على خمس طبقات، وهي: جماعة النوبليس أي الأعيان، والكلارجي، أي أهل الكنيسة، والبرجوي، أي سكان الحواضر، والبيزان أي أهل البادية والقرى، وهم قسمان: أحرار وسرف، أي مستعبَدون تابعون لغيرهم. ولطبقة الأعيان مزيد سلطة على غيرهم خصوصًا فيما يملكون من الأراضي وعددهم يبلغ أربعمائة ألف نفس، وعدد الطبقة الثانية يبلغ مائتين وخمسة وأربعين ألف نفس، وهاتان الطبقتان لا يدفع أهلهما شيئًا من الأداء للدولة، وأما طبقة السرف فقد خرجت من ربقة الرق بالأمر الصادر في التاسع عشر من فبراير سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف.

وأمر التمدن في الروسية مختلف باختلاف البلدان ومواقعها وعاداتها، والعلوم والآداب، وسائر الصناعات لا تنمو إلا في بلدان مخصوصة. ولا يوجد في المملكة كلها إلا تسعة مراكز أصلية لتعليم العلوم، لكن الإمبراطور الموجود الآن لم يزل مجتهدًا في تحرير إدارة لائقة فيما يتعلق بتعليم العامة.

ثم إن ناحيتي الجنوب والغرب من المملكة المذكورة أخصب وأغنى وأعمر من بقية الجهات، لكن من تجاوز مدينة موسكو ووادي ولغا يرى أن عدد البلدان والقرى والحرث قليل جدًّا، وأكثر الأراضي فَلَوَات[1] مُعَطَّلَة لا تُنْبِت إلا

(١) فَلَوَات: جمع «فلاة» وهي الأرض الواسعة القفر التي لا ماء فيها. (م).

الحشيش، أو مناقع مغطاة بالثلج، أو مقاطع، أو أماكن حيوانات ينتفع بجلودها، ومن ذلك سيبيريا التي هي من آسيا لا يوجد بها إلا المتوحشون من الناس، أو المنفيون إليها والذين يحرسونهم.

واعلم أن وطأة البرد تشتد على ثلاثة أرباع المملكة في الأقل مدة تسعة أشهر من السنة، ويعقبها صيف في غاية الحر والقصر، وفي الناحية القبلية من المملكة يعتدل الهواء، وتوريد وأرمينية وبسرابيا ذوات هواء طيب. وأرض أوروبا منها مختلفة اختلافًا بيّنًا؛ ولذلك اختلفت نباتاتها، وكتان الكورلاند واللفونيا في غاية الجودة، وهذا النوع مع القُنَّب من جوالب الغنى المعتبر. وإيالة الأوكرانيا من أخصب مواضع المعمور في نبات الحبوب، التي يحمل منها مقدار وافر إلى كثير من الممالك. ويوجد في غالب أرضها أجمات[١] ممتدة، ومنها يجلب الصمغ المُعَبَّر عنه بالرجينة، والقطران، وأخشاب السفن الفائقة. وفي آسيا بنواحي بحر الخزر ينبت الراوند، وغيره من أنواع النباتات التي يُتداوى بها، ونبات الدخان كثير في الإيالات الجنوبية، وكذا في إيالات الأوكرانيا والفاروناج وسراتوف وتوريد. ويزرع اللفت الأحمر في مقدار أربعين ألف هكتار (الهكتار عشرة آلاف ميتر مربع)، ويزرع في غالب أراضي المملكة الهبلون. وبإيالة إستراكان ينبت القرمز[٢]، وفي قبلي الكوكاز - خصوصًا أرمينية - ينبت القطن، وينبت الفلفل على شطوط وادي سامارا، وفي توريد ونواحي الكوكاز وإيالة إستراكان توجد الثمار الجيدة،

(١) أجمات: جمع «أجمة» و هي الأرض التي تتكاثف فيها الأشجار وتلتف. (م).
(٢) قرمز: صبغ أحمر. (م).

ويستخرج من عنبها الخمر المعدودة عندهم من أنواعها الطيبة. كما يوجد بالمملكة المذكورة سائر الحيوانات المخلوقة لنفع الإنسان، خصوصًا ذوات الشعر؛ فلها بها شهرة عن بقية الممالك.

ولهذه المملكة مقاطع عديدة، لا سيما في سيبيريا. ومن جبال أورال يستخرج الذهب والفضة، والبلاتين (الذهب الأبيض)، والحديد والقصدير. ومن شطوط البلتيك وغابات الليتوانيا يستخرج الكهرباء [١] الأصفر والرمادي، وبالناحية الأوروباوية من جبال أورال يوجد الماس وأنواع من الأحجار الثمينة.

وأما الصناعات فإن هذه المملكة متنازلة فيها عن الممالك الأوروباوية الغربية بكثير، ومع ذلك فلبعض بلدانها تقدم بيِّنٌ فيها، فمن ذلك صناعة دبغ الجلود الطيّبة الرائحة، منها التلاتين والصابون، وأقمشة السفن، والأخبية، واللبد، وجمع الخاويار، أي بيض الحوت، والغراء[٢] المعروف، وزيت البالين المسمَّى حوت يونس عليه السلام ومستقطرات الحبوب، وصناعة الكراريس، والصباغة، والسلاح، والبلور، وصناعة الأقفال، وتذويب المعادن، وصناعة الكاغد والفرفوري وأنواع الكشمير والجوخ، والأقمشة القطنية، وغيرها.

وأما التجارة فلها رواج تام في داخل المملكة وخارجها، ومراكزها البلدان التي على شاطئ الأبحر كأوديسة وريغا، وإركانجل، وكذا في البر، فلها تداول في

(١) كهرباء: لغة في كهربان حجر كريم. (م).
(٢) الغراء: لصق. (م).

المتجر مع بلدان أوروبا الغربية، ومع الهند والصين. وقد بلغت قيمة المتجر دخلاً وخرجًا في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ألفًا وثلاثمائة وأربعين مليونًا وواحدًا وعشرين ألفًا ومائة وستة وثلاثين فرنكًا. وعدد المراكب المتجرية التي دخلت مراسي المملكة وخرجت منها في تلك السنة، خمسة عشر ألفًا ومائة وثمانية وستون مركبًا، الداخل منها خمسة آلاف وثمانمائة وأربعة، والخارج تسعة آلاف وثلاثمائة وأربعة وستون.

الفصل الرابع
في نظام السياسة والإدارة

إدارة دولة الروسية بيد إرادة سلطانية واحدة، لا تطالب بشيء، ولا يجب أن تقف عند حد، وهي مبعث جميع السلطات. ويلقب السلطان عندهم بكزار أي إمبراطور أوباوتو كرات، وهو الرئيس الأكبر، وصاحب شريعة الأمة، والذي يوظف سائر متوظفي السلطنة، ويده العليا في الإدارة، وفي أمر المال والأمور الداخلية والخارجية، وكذا في ديانة الأمة؛ لأن تصرُّفه يتعلق بالسياسة والديانة؛ إذ هو رئيس المذهب الإغريقي الذي يسمُّونه الأورتودكسي. وتحته مجلس السلطنة، ويستشار في جميع الأمور المهمة غير المتعلِّقة بالسياسة الخارجية؛ فإنها من خصوصياته بإعانة وزرائه.

ثم إن مجلس السلطنة هو مجلس تشريع ومجلس إدارة ومجلس حكم جميعًا، فينظر في أمر القوانين، ويكتبها، ويعيّن المداخيل والمصاريف، ويتأمل المحاسبات السنوية للوزارات، ويكون في الأحكام بمثابة مجلس أعلى. وتركيبته من الوزراء وأمراء العائلة الملكية، ومن أعضاء ينتخبهم الإمبراطور لمدة حياتهم. وينقسم المجلس إلى ثلاث طوائف؛ أُولاها للنظر في التشريع وترتيب القوانين، والثانية للنظر في الأمور

المدنية والدينية، والثالثة للنظر في الاقتصاد والتصرفات المالية، ووراء هذه الطوائف ثلاث جمعيات: إحداها للنظر في أحوال الكوكاز، والثانية للنظر في أحوال بولونيا، والثالثة للنظر في تحرير السرف. ومن أعضاء المجالس الذين هم مستشارو المملكة من لا يجلس بالمجلس إلا إذا استدعي، وذلك في غير أوقات الخدمة الاعتيادية وبعبارة أخرى: الاجتماعات عندهم نوعان: أحدهما الاجتماع للخدمة الاعتيادية، والثاني اجتماع عمومي لداعٍ يقتضيه، وفي هذا الوجه يضاف إليهم بالاستدعاء من ليس له خدمةٌ اعتيادية من مستشاري المملكة. وكل قسم يشتمل على رئيس وأربعة أعضاء إلى سبعة، كلهم لهم حق الجلوس بالمجالس العامة، والإمبراطور يمضي ما يتفق عليه المجلس، وله أن لا يمضيه، ورئيس المجلس العام يرأس الوزراء، ومجلس السناتو الذي كان تأسس بأمر بطرس الأول يتركب من أعضاء ينتخبهم الإمبراطور من أعيان متوظفي المملكة.

وهذا المجلس هو الحارس للقوانين والمحافظ على إمضائها، والمراقب لسيرة الولاة وأعمال كبار متوظفي الدولة المكلفين بخدمة العامة، وهو الذي يشهر القوانين والأوامر الصادرة من الإمبراطور، ويُقَيِّدها، ويعطي خطط النوبليس، ويحكم حكمًا فاصلاً في نوازل الجنايات السياسية، وكذا في الأمور المدنية، وسائر الجنايات، ويستثني من ذلك نوازل قليلة تُعْرَض على خصوص الإمبراطور. ولمجلس السناتو إعادة النظر في الأحكام الصادرة من حُكَّام الإيالات، وهو منقسم إلى عشرة أقسام، خمسة منها في مدينة بطرسبورغ، وثلاثة في مدينة موسكو، واثنان في فارسوفيا. وأُلْحِقَ قسمان

آخران يجلسان بالمدينة الأولى، أحدهما ينظر في أحكام الأملاك، والثاني في الأمور المتعلِّقة بخطَّة الأعيان، ولا يمضي حكم مجلس السناتو في اجتماعاته العامة إلا إذا اتفق عليه ثلثاه فأكثر، وتكون مفاوضتهم سِرِّيَّة لا تحضرها العامة، والمحتسب بالسناتو هو وزير الحكم والإمبراطور يمضي ما يتفق عليه، ويمكنه أن لا يمضيه.

وبجانب مجلس السلطنة والسناتو توجد جمعية تنظر في المعاريض والمطالب التي تعرض على الإمبراطور، وتبيّن للمشتكين من الحكام أَلَهُم عرض نوازلهم على المجلسين المذكورين أم لا؟

وأما المجلس الديني المسمَّى بالسيندوس المستحدث في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وألف، فهو مشتمل على أساقفة الإيالات الكبيرة، ومن أعماله تسمية كبراء الكنائس، والنظر في إدارتهم لها، وعرض ما يستقرّ عليه الرأي في ذلك المجلس على الإمبراطور ليمضيه.

وبعد هاته المجالس الثلاثة الكبيرة مجلس الوزراء، المكلَّف بأمور الإدارة المعتادة، وعدد أعضائه موكول لاجتهاد الإمبراطور. والوزارات في نفسها تِسعٌ - كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في غير هذه المملكة. وزيادة على ذلك يوجد هناك إدارة مركزية للبوسطة والتلغراف، وإصلاح الطرقات، وتيسير أسباب المواصلة. وهناك مجلس يسمى بالرقيب العام، أعضاؤه مثل الوزراء، وقد أشرنا في طالعة الكلام على الروسية إلى أن مملكتها منقسمة إلى حكومات وإيالات، وكل حكومة تنقسم

إلى دوائر، والدوائر تنقسم إلى مشيخات، والمَشْيَخَة تحتوي على قسيمات صغار، وكل حكومة يرأسها الوالي المدني، وهو أكبر متوظفيها والمُطَالِب بتصرفاته فيها، وله مجلس مركب من نائبه وثلاثة مستشارين وجليسين. ويعطي هذا المجلس رأيه تحت رئاسة الوالي في أحوال الإيالة العامة، لكن ليس له إلا إعطاء الرأي، فللوالي أن يعمل برأي المجلس وأن لا يعمل؛ حيث كان هو المطالب بما ينشأ عن تصرفه، وفي النوازل المُتَعَلِّقة بالتاج، ونوازل الجنايات، يضاف لمجلس الوالي ثلاثة أشخاص من المتوظفين يسميهم وزير الحكم، ويحضر ذلك المجلس نائب الحق العام مع معينين له للنظر في إجراء القوانين. ويوجد مع ذلك في كل مركز حكومة رئيس ضبطية ورئيس أطبّاء ورئيس مهندسين. وللوالي أيضًا رئاسة صندوق المال على البناءات والقناطر والطرقات، وجمعية الأعيان في كل حكومة طائفة مُتَّحِدة مَرُوَسة بماريشال منهم، عددهم على عدد الدوائر والمشيخات التي توجد بها طوائف الأعيان. وهذه الجمعيات تعيّن غالب متوظفي الإدارة المدنية والحكمية، كخطَّة ماريشال الأعيان ورئيس الضبطية، ورؤساء مجالس الأحكام وأعضائها، وحكام الصلح، ويكون التعيين في كل ثلاث سنين، لكن تَقَرُّرَ الخطة موقوف على موافقة الإمبراطور، ويكفي موافقة الوالي إذا لم يكن في الخطة مزيد اعتبار.

ثم إن أهالي البلدان ينقسمون إلى طوائف، منها أعيان البلدية، ومنها الباعة، ومنها أواسط الناس، ومنها جمعيات الصنَّاع المعلِّمين. ومن البلدية أحرار إيالات البلتيك وإيالات بولونيا القديمة، ثم سائر الخَدَمة، لكن هؤلاء لهم من البلدية مجرد

الاسم؛ فبلدية البلدان يختارون أعضاء مجلسهم البلدي ورئيسه، كما يختارون مشايخهم وجلساء المجالس، وهم مستشارو الحكام. وللمجلس البلدي زيادة على ما له من الخِدْمَة وإدارة الأشغال فصل سائر النوازل التي تحدث بين البلدية في مُتَعَلِّقات التجارة. ويوجد في المجالس المدنية ومجالس الجنايات نُوَّاب عن المجلس البلدي في البلدان الكبار، وتتجدد المجالس البلدية في كل ثلاث سنين، وفي البلدان الصغار يكون اختيارهم من عامة البلدية، وفي البلدان الكبيرة يختارهم مَنْ أداؤه في العام مائتا فرنك فأكثر ممن بلغ خمسًا وعشرين سنة كاملة. هذا وبكل مشيخة بالبادية جمعية من كبار عائلات المكان تكون هي المجلس البلدي هناك، ويعبر عن رئيسهم بستار وست، وهذا المجلس هو الذي يُعَيِّن أداء المشيخة اللازم للدولة أو لمصالح بلدهم، ويعين اللائق بالخدمة العسكرية في قسمه، ويترجَّح رأيهم بالأكثرية، ورئيسهم هو الواسطة بين جمعية الكانتون – أي القيادة – وبين حكام الصلح والمشيخة، وهو الذي يجيب عَمَّا استقرَّ عليه رأيهم، وله شيء من تصرفات الضبطية. وكل مشيخة بها تريبونال يسمى تريبونال الأمان، مركب من المار الذي هو رئيس المجلس البلدي، ومن عُضْوَيْنِ مُخْتَارَيْنِ من سكان المشيخة، وهذا التريبونال يحكم في سائر النوازل ما عدا نوازل الجنايات. وأما الكانتون فإدارته بيد جمعيته المستقرة بأوسط بلدانه، أو أكثرها سكانًا، أو أشهرها في الحرف والصنائع، وتشتمل على متوظفي المشيخات، وعلى نواب منها، يكون كل واحد منهم نائبًا عن عشر ديار. ونظر هذه الجمعية يتعلق بجميع الفوائد العامة للكانتون، كالمارستانات ونحوها، وتحرير حسابات المتوظفين، وتصحيح دفاتر أخذ العسكر، وتوظيف الأداء، والعمل على ما

يستقر عليه رأي الأكثر منهم. ورئاستهم تكون للشيخ الأسبق في الخطة، وهو الذي يتولى إدارة الكانتون وحفظ راحة السكان، وهو في ذلك مثل رئيس المجلس البلدي إلا أنه أكبر منه خطة، ومن أعماله مراقبة إجراء التراتيب العامة، والبحث عن الجناة وإمساكهم، ومنع ارتكاب الأمور الممنوعة بإنهائها لمن له النظر فيها، وله فصل ما يكون مرجعه لنظر الضبطية. وفي إعانته مجلس مركب من أعيان الكومون الكائن تحت قيادته مع معينيه وقبَّاض المداخيل، ومع ذلك فهو المطالب بما يقع في إدارته؛ حيث كان له الابتداء بعرض الأمور، وليس على المجلس إلا إعطاء الرأي فيها، وتعيين المقادير اللازمة من المال. وفي نحو بيع أملاك بعض الناس بطلب من خزانة الدولة أو من أرباب الديون، وفي تسمية المتوظفين أو تأخيرهم. ويشتمل المجلس المشار إليه على أربعة إلى اثني عشر عضوًا على نسبة عدد السكان لفصل الأحكام، يختارهم المجلس المذكور من أعضائه، ويتبدلون في كل سنة، ويصدر الحكم من مجموعهم أو على التناوب، بحسب ما يقتضيه نظر المجلس المُعَيِّن لهم، ويكون اجتماعهم مرتين في الشهر، وقد يقتضي الحال أكثر من ذلك فيجمعهم رئيس القيادة. ويحكم هذا المجلس في نوازل البوادي التي لا تتجاوز مائة روبل، وهي مبلغ أربعمائة فرنك. وإذا تعلَّقت نازلة بإنسان أجنبي عن الكانتون فإن نازلته ترفع إلى المجالس المعتادة، إلا إذا تراضى الخصمان فتفصل هناك، كما إذا تراضيا في أكثر من المقدار المذكور، وبحكمهم تنتهي النازلة؛ بحيث لا ترفع بعدهم لمجلس آخر، ولو في الجنايات التي يحكم فيها ذلك المجلس. ويصدر حكمهم مشافهة بدون كتب.

ولأهل البادية التحاكم في غير الجنايات لدى حكم يتفق عليه الخصمان الرشيدان، وما يحكم به يكون العمل عليه، ويقيد ذلك الحكم بدفتر خصوصي يكون بمجلس القيادة. ويشترط في جميع المتوظفين المشار إليهم أن لا ينقص عمر الواحد منهم عن خمس وعشرين سنة، وأن يكون صاحب عرض، وليس لأحد أن يمتنع عن قبول خطة ما إلا إذا كان له من العمر ستون سنة، أو عذر بدني معتبر، أو سبقية في الخدمة. ويوجد بالديستريكت مجلس مركب من حكام الصلح دائرة حكمه أوسع من دائرة حكم حكام الصلح بفرنسا. ومن أعمالهم أنهم يقبلون شكاية البوادي من متوظفيهم، سواء كانوا مجتمعين أو منفردين، ولهم توبيخ المشتكي بهم، وإلزامهم غرامة ما ضاع بحكمهم وتعطيلهم عن مأموريتهم. وحكام الصلح تحت نظر ولاة الحكومة والسيناتور.

وبما ذكرنا يُعْلَمَ أن كثيرًا من الإدارات الداخلية يتولاَّه أهل المملكة، وأن الأعيان وطوائف الباعة، والبلدية وأهل البوادي يُسَمُّون متوظفيهم بأنفسهم.

هذا، وإن الايالات الكائنة بحدود المملكة يوجد بها مع كل والي مدينة والٍ عسكري، ولكل منها مجلس إدارة ومكتب سياسي. وهذا الأمر متقرر بمملكة بولونيا وفينلاند وسيبيريا، وتمتاز فينلاند بوجود وزارة لها خصوصية ببطرسبورغ، ومجلس سناتو أعضاؤه يسميهم الإمبراطور في كل ثلاث سنين، ولهذا المجلس تصرفان: تصرف مشرّع من حيث ترتيب القوانين، وتصرف مجلس أعلى من حيث فصل النوازل في تلك المملكة.

الفصل الخامس
في إدارة الأحكام بدولة الروسية

أحكام هاته المملكة متشعبة جدًّا، وقد تقدم في أثناء بيان الإدارة الداخلية الإشارة إلى أن كل طبقة من طبقات الناس لها تصرف في متعلقات الأحكام، ولا حاجة لإعادة ذلك هنا، بل حَسْبُنَا أن نقول في معنى قاعدة كلية إنه يوجد في كل قسم من إيالة تريبونال أول يبتدي الحكم في النوازل، وهو منقسم على طائفتين: إحداهما تحكم في الجنايات، والأخرى في الأمور العرفية. وأعضاء هذا التريبونال يُنْتَخَبون من الأهالي، ويحقق حكمه المجلس العالي المستقر بالبلدة الرئيسية من تلك الإيالة، وهو أيضًا منقسم إلى طائفتين: إحداهما للجنايات والأخرى للأمور العرفية. وفوق هذه المجالس مجلس السناتو وكومسيون المعاريض، المكلف بعرض النوازل على السناتو أو على مجلس السلطنة، وفوق الكل الإمبراطور.

ومن مستحدثات قوانينهم إبطال الحكم بالقتل، وكذا بالضرب إلا في نوازل نادرة. وقد عوضت هاتان العقوبتان مع عقوبات أخرى بالنفي إلى سيبيريا.

هذا بيان إدارة المملكة، فإذا تأملت ذلك ترى أن الإدارة بها مضبوطة بقوانين ومجالس، كغيرها من الممالك الأوروباوية، إلا أن الفرق بينها وبين هذه الممالك من وجهين: أحدهما أن أعضاء المجالس السياسية – كمجلس السلطنة ومجلس السناتو – ينتخبهم الإمبراطور لا الأهالي، الثاني أن ما يتفق عليه غالب أعضاء المجلسين للإمبراطور أن يوافق عليه أو يخالف؛ وهذا هو السبب في تسميته بالسلطان المطلق التصرف؛ لأنه لم يُرَخِّص لرعاياه في التداخل في الأمور السياسية، مما أشرنا إليه عند شرحنا الحرية في المقدمة.

الفصل السادس
في قوة دولة الروسية المالية والعسكرية

بيان دخلها وخَرْجها والدَّيْن الذي عليها

404,068,004 روبل جملة الدخل تساوي 1,616,272,016 فرنكًا.

404,068,004 روبل جملة الخرج تساوي 1,616,272,016فرنكًا

1,922,216,319 روبل جملة الدَّيْن الذي عليها تساوي 7,688,865,276 فرنكًا.

القوة العسكرية البرية سنة 1864

أصناف الجيش	عسكرتريس	خَيَّالة	طوبجية	بلطاجية[1]	جملة الجيش
تحت السلاح	694,511	49,183	48,773	16,203	808,670
عسكر وطني	74,561				74,561
عسكر في الحراسة	53,362				53,362
يداك	199,380				199,380
	1,021,814	49,186	48,773	16,203	1,135,973

القوة البحرية بدولة روسيا سنة 1864

البحرية وأصناف المراكب	أمراء البحر	جملة البحرية	فابورات بها قوة خيل 37007		مراكب قلاع	جملة المراكب ومدافعها 3691
			حديد	بالعجلة		
أميرالات وجنرالات	95	95				
فسيالات كبار وصغار	2340	2345				
متوظفون سياسيون	966	966				
بحرية وعسكر معد للبحر		55216				
حراس المراسي		169				
أجفان				9	9	18
فراقط				20	5	25
قرابط				22	3	25
أكلبير				12		12
بطرية عوامة			1			1

(١) بلطاجية: العمال المنقبون في الأرض، وهي لفظة تركية. (م).

جملة المراكب ومدافعها 3691	مراكب قلاع	فابورات بها قوة خيل 37007		جملة البحرية	أمراء البحر	البحرية وأصناف المراكب
		بالعجلة	حديد			
3	3					أبركة
38	13	25				سكاين
1			1			شالوب
79		79				شالوب كنونيير
14	12	2				ياكت
2	2					طاندير(١)
22	13	9				مراكب لحمل الأثقال
70		70				مراكب صغار
3	3					دوك عوامة
300	300					لخدمة المراسي تقريبًا
613	**363**	**248**	**2**	**58791**	**3406**	

(١) طاندير: سفينة مجهزة للحفر في البحر. (م).

الباب السادس
في الكلام على مملكة البروسية

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن أصل نشأة الدولة البروسيانية كان بإيالة براند بورغ، وأول من استوطنها في زمن تاسيت الروماني، المؤرخ الشهير المولود سنة أربع وخمسين مسيحية، أمة اللومبارد، وجماعة البورغوند، وجماعة السمنون التي تزعم أنها أعز وأشجع أمم السواف، وهم قسم كبير من الأمم الجرمانية، ثم أمة الغوتون التي هي قسم من الفاندال.

ثم في حدود القرن الخامس من الميلاد المسيحي طردت أمة الفاناد تلك الأمم، واستقرت مكانها بتلك الإيالة، وأغارت تلك الأمم المطرودة على عدة إيالات للرومان، فمكثت بها، ولم تلبث أمة الفاناد مدة يسيرة حتى انقسمت إلى عدة أقسام صغيرة.

ثم في القرن الثامن دخلت تحت سلطة شارلمان، فجعلها إيالة في تخوم مملكته.

ثم استولى عليها الكونت سيجفريد صاحب الساكس، بلقب مارغراف البراندبورغ، في سنة سبع وعشرين وتسعمائة.

ثم دخل بالإرث ليد ألبرت الملقب بالدب، من بيت انهالت، وقد ترقى في ذلك الوقت إلى خطة اليكتور، واستقام به حال تلك الإيالة، وتَهَذَّبت أخلاق أهلها، وانتقلوا به من حالة الوثنية إلى النصرانية.

وفي ذلك الوقت كانت تلك الإيالة منقسمة على ثلاثة أقسام، وهي: المارش القديمة الكائنة غربي وادي الألب، والمارش المتوسطة بين وادي الألب والأودر، والمارش الجديدة بشرقي الأودر.

ثم في ابتداء القرن الخامس عشر دخلت تلك الإيالة بطريق الإرث في حوز عائلة لوكسامبورغ، ولما صار ملك بوهيميا سيجر موند إمبراطورًا جعل فردريك السادس من عائلة هوهنزولرن - الذي كان بورغرافًا في نورمبرغ - واليًا عليها.

ثم إن أحد كونتات هونزولرن اسمه كونراد، وهو جد عائلة براندبورغ كان حائزًا بورغرافية نورمبرغ من سنة أربع وستين ومائة وألف، وبقيت في حوز ذُرِّيَتِهِ إلى عام واحد وثمانمائة وألف، واستولى ذريته من سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف إلى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف على عدة بلدان، منها أنسباخ وكولمباخ، ولم يبق خارجًا عن ملكهم من فرنكونيا إلا جانب يسير.

ثم انقسم ملكهم بعد ذلك بين ابني فردريك الخامس، وهما جان الثالث الابن البكر، وفردريك السادس الابن الثاني، وهذا الأخير اشترى في أوائل القرن الخامس عشر من الإمبراطور مارغرافية براندبورغ، بثلاثمائة ألف فيوري، وأخذ لقب أليكتور الذي كان يتلقب به حاكم تلك الإيالة، وتسمى بفردريك الأول من براندبورغ، وذرية هذا الأمير هم الذين يتداولون رئاسة تلك المملكة اليوم باسم ملوك بروسية.

ولم تكن إيالة براندبورغ محتوية في ذلك الوقت إلا على المارشين القديمة والمتوسطة، ثم أضاف إليهما فردريك الثاني الملقب بسن الحديد المارش الجديدة، التي افتكَّها من الكفاليرات - التوتونيك المتقدم ذكرهم، في سنة خمس وأربعين وأربعمائة وألف، ولم تزل هاته الإيالة بأيدي آل بيته إلى ابتداء القرن السابع عشر.

ثم بمقتضى الشرط المنعقد في سانتن سنة أربع عشرة وستمائة وألف، بواسطة دولتي فرنسا وأنكلترة وبعض دول ألمانيا، وشرط دوسلدورف المنعقد سنة أربع وعشرين وستمائة وألف، أضاف الأليكتور جان سيجرموند إلى إيالاته دوكاتو كليف وكونتي المارك والرافنسبرغ، ثم إن جان المذكور المتزوج بابنته ألبرت الثاني الذي كان آخر دوك ببروسية، ورث سنة ثماني عشرة وستمائة وألف الدوكاتو المذكورة التي كانت راجعة لسلطة بولونيا.

فسكان بروسية كانوا في القديم أمتي الغوتون والفاندال وغيرهم، وكانت معدودة من المملكة الغوتية، ثم بعد خروجهم منها أغار عليها أمم من السلاف، كانت فيهم جماعة الليتوانيين، والبورس الذين كانوا يسكنون شاطئ وادي الفيستول، وتَسَمَّت مملكة بروسية باسمهم، وقد كان هؤلاء القوم من عبدة الأوثان المتوحشين إلى أواخر القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي.

وفي مبادئ القرن الثالث عشر رام دوك مازوفيا - واسمه كونراد - إدخالهم في دين النصرانية، فدافعوه، وخَرَّبوا ممالكه سنة سبع ومائتين وألف، فاستغاث أولاً بجماعة الكفاليبرات الملقَّبين في اللاتينية بانسيفري، أي حاملي السيوف، في سنة خمس عشرة ومائتين وألف، ثم بالكفاليبرات التوتونيك في سنة ست وعشرين، فانتصرت الجماعة الأخيرة تحت رئاسة كبيرهم هرمان من سالزا في سنة سبع وثلاثين والتي بعدها. وكان ذلك مبدأ افتتاح تلك البلدان المُتَبَرْبِرَة، وتم فتحها في سنة ثلاث وثمانين. ثم إن الجماعة الأخيرة استقروا في بروسية، وجعلوا رئيس إدارتهم الكبير في ماريانبورغ سنة تسع وثلاثمائة وألف. وكان مستقرهم قبل ذلك بأرض الشام، حين كانوا ممن يحارب المسلمين لأخذ بيت المقدس، فخرجوا منها وتركوها لهم في حدود سنة تسعين ومائتين وألف. وحين استقروا بأرض بروسية قام بختها بهم، ووفدت عليهم طوائف من الألمان، فبنوا مدنًا جليلة اختصَّت بمزايا كمزايا الجمهورية، إلى أن تَكَوَّن من أهليها الطبقات الثلاث الذين كانوا بمجلس الديانات، إلا أن رئاسة المملكة بقيت بيد جماعة التوتونيك الذين

بلغوا نهاية القوة والغنى شيئًا فشيئًا، ثم تنازل أمرهم واختلَّ نظامهم؛ حيث تحكَّمت فيهم دواعي الرفاهية والإسراف، فآل أمرهم إلى التخاذل والتكاسل، حتى تضعضع إيوانهم، وذهب عنفوانهم، بعد أن اشتدت وَطْأَتُهُم على رعاياهم، وبلغ نهبهم وإفسادهم إلى حيث لا يُطاق، حتى صارت الأهالي تستعين عليهم بأهل بولونيا. ولم تزل الحروب مُتَّقِدَة بينهم إلى أن فقدوا شوكتهم واستقلالهم بالكلية. وأول حرب قطعت أَوْدَاج[1] شوكتهم حرب جماعة البولونيين لهم، في تانبرغ سنة عشر وأربعمائة وألف، ثم ما كان في سنة أربعين وأربعمائة وألف من تعصب طوائف عديدة عليهم، كأهل دانتسيك والبينغ وطورن، وغيرهم، مع أعيان من عدة إيالات. وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة وألف دخلوا تحت حماية كزمير الرابع ملك بولونيا.

ثم بمصالحة طورن في سنة ست وستين وأربعمائة وألف وضعت الحرب أَوْزَارَها، بانقسام بروسية قسمين: غربي وشرقي، فالأول صار جزءًا لمملكة بولونيا، باسم بروس، ويدعى بروس بولونيا، والثاني بقي بأيدي ولاتها باسم بروس توتونيك، تحت رعاية بولونيا. وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة وألف استولى على جماعة التوتونيك المذكورة المارغراف ألبرت، وهو من بيت براندبورغ، من الفرع الثاني من تلك العائلة، واتبع المذكور مذهب لوتير، وحل أحباس التوتون، وأدخلها في بيت مال الدولة، وذلك في سنة خمس وعشرين وخمسمائة وألف،

(١) أَوْدَاج: جمع ودج وهو عرق في الرقبة إذا قُطع لا تبقى معه حياة. والمقصود أنه لم يَعُدْ منهم خوف. (م).

وجعل ممالكه المشار إليها وراثة في ذريته مع بقائها تحت رعاية بولونيا، ومن ذلك الوقت صارت هاته المملكة تدعى باسم بروس دوكال.

ثم إن تاج الملك انتقل إلى زوج ابنة فردريك ألبرت الثاني، وهو جان سيجزموند أليكتور براندبورغ المتقدِّم ذكره، في سنة ثماني عشرة وستمائة وألف، غير أنه لم يتيسَّر لأمراء براندبورغ تطويع تلك الممالك الداخلة في حَوْزِهم بالإرث؛ لاشتغالهم بحروب الثلاثين سنة.

ثم إن فردريك غليوم المُلَقَّب بالأليكتور الكبير استخلص البلاد من ورطة الاضمحلال، بعد أن أسلم للسويد إيالة البومرانيا السيناتور في معاهدة وستفاليا سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة وألف، وفتح البومرانيا الشرقية مع إيالات أخرى كان بعضها في حكم أساقفة وبعض في حكم رؤساء أساقفة. ثم بمعاهدة والهاو في سنة سبع وخمسين وستمائة وألف تحررت إيالته من حماية بولونيا، وحصل لهذا الأمير شهرة عظيمة في الناحية الجنوبية، باستخلاص بولونيا ودنيمرك من سلطة السويد، بمشارطة أوليغا في حدود سنة ستين وستمائة وألف. ثم دخل الأمير المذكور في التحالف مع أعداء فرنسا سنة أربع وسبعين وستمائة وألف، وكان له مزيد اعتناء في محاربتها، وفي سنة ست وسبعين وستمائة وألف آوى إلى مملكته عشرين ألفًا من البروتستانت الذين طردوا من فرنسا حين رجع ملكها عن معاهدة نانت، وكان أولئك المطرودون هم الذين عمروا براندبورغ بالحراثة، ومهدوا بها طرق التمدن.

ثم إن فردريك الثالث وارث الأمير المذكور أعان الإمبراطور ليوبولد على الترك سنة ثلاث وثمانين وستمائة وألف، ودخل في محالفة أوغزبورغ ضدًّا للويز الرابع عشر، سنة أربع وثمانين وستمائة وألف ثم دخل في المحالفة ضد لويز المذكور في حروب وراثة إسبانية، سنة سبعمائة وألف، لكن كان دخوله في هذه المحالفة غاليًا على إمبراطور ألمانيا؛ لأنه طلب منه أن يلقبه باسم ملك فصارت إيالته مملكة. وفي أوائل سنة إحدى وسبعمائة وألف تُوِّج بالفعل في مدينة كانغزبرغ، وسمي بفردريك الأول، واعترفت أوروبا بتلك المملكة الجديدة في مصالحة أوترخت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وألف. وأضاف بعد ولايته إلى مملكته إمارة مورس، في سنة اثنتين وسبعمائة وألف، وأرض تكلنبورغ وفالنغن وإمارة نوشتيل في سنة سبع وسبعمائة وألف، ثم في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وألف أضاف لمملكته أيضًا قسمًا من الغلدر، ثم في مصالحة سطوكهولم الواقعة بعد حروب الشمال الكبرى سنة عشرين وسبعمائة وألف، أخذ ابنه فردريك غليوم الأول إيالاته فولن وأوسدوم وسنتين، والنصف من بومرانيا القبلية وجَيَّشَ جيوشًا معتبرة مع خزانة عامرة.

وبالجملة، فقد ترك مملكة خصبة عامرة لابنه فردريك الملقب بالكبير، سنة أربعين وسبعمائة وألف، الذي نسي به أسلافه، وبقي في الملك أربعين سنة نافذ الكلمة في سائر ممالك أوروبا. وفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وألف والتي بعدها اغتنم من عائلة أوستريا جميع السيلازيا إلا قليلاً منها، وكونتية غلاتس،

وبقيت هذه على ملكه بعد صلح آكس لاشابيل، الواقع في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وألف، وصلح هوبرتسبورغ الواقع في سنة ثلاث وستين وسبعمائة وألف. وقاوم التعصب القوي الواقع من فرنسا وأستريا والروسية والساكس والسويد، في الحروب المسماة بحروب السبع سنين المتقدم ذكرها، من سنة ست وخمسين وسبعمائة وألف إلى سنة ثلاث وستين وسبعمائة وألف.

وبالجملة، فقد آل أمر هذا الملك إلى أن وضع مملكته في الصف الأول من ممالك أوروبا الحربية. وفي سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف - التي اقتسمت فيها بولونيا - أخذ في حصته البروس البولونيز، عدا دانتسيك وطورن.

ومما يُحْكَي عن هذا الملك أنه بعد انتهاء تلك الحروب المذكورة أسس إدارة مملكته على قوانين مرعية بين الراعي والرعية، وشرع في إنشاء قصر جليل الشأن رفيع البنيان، في بستان يناسب ظرفه فخامة المظروف؛ للدلالة على ما له من القوة والسلطان، فاعترض لإحدى زوايا القصر طاحون تدور بالريح كانت لرجل من العامة، فاستباعها منه المكلف بالبناء فأبى من بيعها، فضاعف له الثمن فامتنع، فلم يجد المكلف بدًّا من عرض النازلة على الملك، فاستدعى الملك الرجل، وقال له: «لماذا امتنعت من البيع وقد ضُوعف لك الثمن؟» فأجابه بقوله: «مولاي إني لا أبيعها أبدًا، وهي عندي بمنزلة بواستدام» (يعني قصر الملك بالمدينة المسمى بذلك الاسم)، فقال له الملك: «ألم تعلم أني قادر على افتكاكها غصبًا وأخذها مجانًا؟» فأجابه الرجل بِتَهَكُّم: «نعم، أنت قادر على افتكاكها مني إن لم يكن

عندنا قضاة ببرلين» (أي تخت المملكة، وهذه العبارة صارت اليوم مثلاً عندهم)، فضحك الملك، والتفت إلى أصحابه قائلاً: «لعمري لقد صدق الرجل وما لنا إلا تبديل صورة قصرنا» فبقيت الطاحون على حالها إلى اليوم بجانب القصر، وسمى الملك ذلك القصر باسم صاحب الطاحون. انتهت الحكاية.

أقول قد علم الرجل أن الملك لا يقدر على افتكاك الطاحون بدعوى أنها للمصلحة العامة؛ إذ القصر والبستان إنما هما لمصلحة الملك الخاصة؛ ولذلك لم يتزحزح بالتهديد، قاصدًا بامتناعه معرفة: هل كان الملك يفي بما وعد من العدل أو يَحِيد عنه لشهوة نفسه، فلما رأى احترامه لشريعة البلاد وأحكامها أوقف الطاحون على الملك وذريته، وهي باقية شاهدة على عدل ذلك الملك يقصدها المسافرون إلى يومنا هذا، وقد شاهدناها. وعند الاقتسام الثاني لبولونيا - الواقع سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وألف - دخلت دانتسيك وطورن مع جميع بولونيا الكبرى في حوز فردريك غليوم الثاني؛ هذا ولدخول الملك المذكور في المحالفة المضادة لفرنسا اضطر في مصالحة بال - الواقعة في سنة خمس وتسعين وسبعمائة وألف - إلى تسليم ما كان في حوزه بالناحية الشمالية من شاطئ الرين. لكن في الاقتسام الثالث - الواقع في هذه السنة أيضًا - اعتاض ما خرج من يده بإضافة إيالة بياليستوك وبلوك وغيرهما إلى مملكته، وكان قبل ذلك بخمس سنين اشترى إمارة أنسباخ وبايروت.

ثم لما حارب فردريك غليوم الثالث نابليون، وكانت دائرة الحرب عليه في يانه، ضيّع بمصالحة تيلسيت سنة سبع وثمانمائة وألف جميع ما كانت تملكه البروسية في وستفاليا وفرنكونيا، ثم بولونيا الكبرى التي صارت في ذلك الوقت دوكاتو كبرى لفرسوفيا. وتحددت بروسيا بوادي الأودر، وسقط اعتبارها، بَيْدَ أن سقوط نابليون رفعها دفعة واحدة. وإن مجمع ويني أرجع لها في سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف مقدار ربع بولونيا الكبرى تقريبًا، وجميع الممالك التي كانت بيدها، عدا أنسباخ وبايروت، كما التحق بها بومرانيا السويدية، والنصف من مملكة الساكس تقريبًا، وعدة أراضٍ على حافتي الرين الشرقية والغربية، تَكَوَّنَتْ منها بروسية الرين، ويقال لها الدوكاتو الكبرى بالرين الواطي. كما التحق بها سنة خمس عشرة وثمانمائة وألف سعارلوي، وهي قلعة في حدود فرنسا القديمة، ثم استولت سنة خمسين وثمانمائة وألف على إمارتي هوهنزولرن. وبعد محاربة الدنيمرك أضافت إلى ممالكها دوكاتو لونبرغ، بالاتفاق مع النمسة في مدينة غاستين سنة خمس وستين وثمانمائة وألف، ثم بانتصارها على النمسة في سنة ست وستين وثمانمائة وألف، أضافت إلى مملكتها أيضًا عدة ممالك من الكونفدراسيون - أي عصبة جرمانيا القديمة - وهي مملكة الهانوفر والهاس أليكتورال الانتخابية، ودوكاتو ناسو، ومدينة فرنكفورت الحرة التي كانت تحت العصبة.

الفصل الثاني

في أسماء ملوك بروسية وبيان ولاية كل منهم على الترتيب منذ ابتدائهم بأليكتور براندبورغ

سنة	جماعة المارغرافات أليكتورات ببراندبورغ
1415	فردريك الأول
1440	فردريك الثاني الملقب بسن الحديد
1471	ألبيرت الملقب بأشيل وأوليس، أي الشجاع والعاقل
1486	جان الملقب بالشثىرون، أي الفصيح
1499	يواكيم الأول الملقب بنسطور، أي طويل العمر
1534	يواكيم الثاني الملقب بهكتور، أي المحارب
1571	جان جورج
1598	يواكيم فردريك
1608	جان سيجزموند
1619	جور غليوم
1640	فردريك غليوم الملقب بالأليكتور الكبير
1688	فردريك الثالث، وفي 18 يناير سنة 1701 تلقب بملك بروسية، باسم فردريك الأول، وبه ابتدأت مدة ملوك بروسيا
1713	فردريك غليوم الأول ابن فردريك الأول المذكور
1740	فردريك الثاني الكبير، وهو ثالث أولاد فردريك غليوم لا بِكْرهم، وكان يتعاطى العلم ويَنْظِم الشعر بالفرنساوية

سنة	جماعة المارغرافات أليكتورات ببراندبورغ
1786	فردريك غليوم الثاني ابن أخي الكبير
1797	فردريك غليوم الثالث
1840	فردريك غليوم الرابع
1861	غليوم الأول، انتقل الملك إليه من أخيه

الفصل الثالث
في وصف مملكة بروسية

اعلم أن موقع المملكة البروسيانية بين ثلاث درجات وخمس وثلاثين دقيقة وعشرين درجة وإحدى وثلاثين دقيقة من الطول الشرقي، وبين تسع وأربعين درجة وثماني دقائق وخمس وخمسين درجة واثنتين وخمسين دقيقة من العرض الشمالي. وامتدادها طولاً من حدود الروسية إلى حدود فرنسا أي من وادي نيامن إلى وادي موزيل يتجاوز ألفًا ومائتي كيلو ميتر وعرضها يبلغ في أطول جهاته خمسمائة كيلو ميتر وفي متوسطها مائة وخمسين كيلو ميترًا ومبلغ تسطيحها مائتان واثنان وعشرون ألف كيلو ميتر وستمائة وستون كيلو ميترًا مربعًا. وقبل هذا التاريخ كانت المملكة منقسمة إلى قسمين منفصلين بست ممالك صغار يحتوي مجموعها على سطح أقصر جهات عرضه يبلغ خمسة وخمسين كيلو ميترًا وأطولها تسعون كيلو ميترًا.

وكان امتداد خط حدود المملكة البروسيانية ثمانية آلاف كيلو ميتر تقريبًا، منها خمسمائة وسبعون على شاطئ بحر البلتيك. وكان مبلغ عدد سكانها في ثالث دجمبر سنة ألف وثمانمائة وأربع وستين تسعة عشر مليونًا وثلاثمائة وأربعة

آلاف وثمانمائة وثلاثًا وأربعين نفسًا. وبالإضافات الأخيرة اتحدت أقسام المملكة وانتظمت صورتها وحدودها وازداد اتساعها بقدر ثلاثة وخمسين ألف كيلو ميتر مربع على سبيل التقريب، كما ازداد في سكانها أكثر من ثلاثة ملايين ما عدا أهل شلزويغ وهولستين المملكتين اللتين لهما من سطح الأرض سبعة عشر ألف كيلو ميتر وخمسمائة وخمسة وأربعون كيلو ميترًا مربعًا، ومن النفوس تسعمائة وثمانية وخمسون ألفًا وخمسمائة وتسع وسبعون نفسًا. وهاتان المملكتان لم يتحقق مرجعهما إلى الآن لكن بحسب الظاهر تستقل بهما الدولة البروسيانية فيبلغ حينئذ سطح أرضها تقريبًا ثلاثمائة وثلاثة وستين ألف كيلو ميتر مربع. ويبلغ عدد سكانها ثلاثة وعشرين مليونًا وستمائة ألف تقريبًا أيضًا.

وأما حدود المملكة المذكورة، فَيَحُدُّها في ناحية الشمال بحر البلتيك ومملكة الدنيمرك وبحر الشمال وهولاندة، وشرقًا بولونيا والروسية، وقبلة مملكة النمسة ودوكاتوات ساكس، وقسم باواريا الذي على الرين، والهيس، ودارمستاد وفرنسا، وغربًا البلجيك والدوكاتو الكبرى من لوكسامبورغ، وفرنسا.

وأما جبالها فكثيرها بساكس وسيليزيا، وناحية وادي الرين، مثل: جبل سوديت وكاربات وهارن. وما عدا تلك الجهات أراضٍ بسيطة ممتدة.

وأما أوديتها فكثيرها في الناحية الشرقية، منها البريغل والويزر، والفيستول والأودر، والألب. والأنهار المتصلة بتلك الأودية تُسَهِّل المواصلة في سائر جهات

المملكة، وحمل نتائج الأرض والصناعات من بلد إلى آخر. وبوادي الرين الذي يشق الجانب الغربي من المملكة انفتح طريق بحر الشمال للإيالات المتوسطة. وكثير من الأنهر أنشئت خلجًا، وأوصلت بقنوات كبيرة بين الألب والأودر والفيستول تسير فيها السفن التجارية. وبالناحية الشرقية من المملكة يوجد كثير من البرك ومستنقعات المياه، وبحيرتان عظيمتان متصلتان بالبحر، تسمى إحداها كوريشحاف، والأخرى بروسيشحاف.

وبها طرق كثيرة حسنة كالتي في إيالة الرين وإيالة الألب، وبها من الطرق الحديدية ما يتواصل به غالب بلدان المملكة مع التخوت الكبيرة من ممالك أوروبا.

وإقليم المملكة يختلف حَرُّه وبرده باختلاف المواضع. وعلى الجملة، فهي أقرب إلى البرد منها إلى الحر. وفي الناحية الشمالية تكثر الرطوبات جدًّا. وإيالة سيليزيا والإيالة الكائنة على غربي وادي الويزر كثيرة الخصب، بخلاف أرض براندبورغ فإنها مجدبة.

وأما نتائج المملكة فمنها القمح الجيد على اختلاف أنواعه، والحبوب الدقيقة، واللفت الأحمر، والبطاطة والحُمُّص، والكِتَّان والقِنَّب، وخشب السفن، والهبلون والزعفران، والدخان. وبشاطئ الرين تكثر الكُرُوم، ويوجد بها العسل وقصب السكر، والحرير، وجياد الخيل والأنعام. كما أن بها معادن الحديد والنحاس، والقصدير والرصاص، والشبّ وملح البارود، والملح، والزاج، والفحم

الحجري والجير، والرخام المتشفف، وتراب الصيني، والحجر اليماني، والجَزْع، ونحوها من الأحجار الثمينة. ويوجد بشاطئ بحر البلتيك الكهرباء، وفي آكس لاشابال المياه المعدنية، وكذا في فارنبرون وهيرشبوغ، وغيرهما.

وأما صناعات اليد فهي عندهم في غاية التقدم، تُضَاهِي صناعات أنكلترة وفرنسا، ومن نتائجها أقمشة الكتان والقطن، والحرير، والأقمشة المطبوعة، والسُّروج والكراريس، وأنواع السلاح، وآلات الحديد والنحاس، والبرانيط والكاغذ[(١)]، والساعات، والزرابي[(٢)]، وصناعة الدبغ، والدهن الأزرق الشهير بدهن بروسية. وبها من الأشربة البيرة وسائر المقطرات، ويصنع بها البلور والفرفوري والقَطْر[(٣)].

وتجاراتها رائجة، خصوصًا في غربي الويزر لسهولة المواصلات بوادي الرين، والطرق الجبلية المتصلة بمملكة البلجيك وألمانيا وهولاندة والسويسرة، مع وجود شركة الكمارك المسماة بشركة زولفرين، المحتوية على غالب ممالك شمال ألمانيا.

وأما قوتها المَتْجَرِيَّة فهي مجهولة؛ لدخولها في الشركة المذكورة، وعدد مراكب المتجر الداخلة والخارجة بهذه المملكة بلغ في سنة ثمانمائة واثنتين وستين وألف أربعة وعشرين ألفًا ومائة مركب ومركب محمول، جميعها ثلاثة ملايين

---

(١) الكاغذ: الورق. (م).
(٢) الزرابي: جمع زُرْبِيَّة وهي البساط أو الفراش. (م).
(٣) القَطْر: النحاس الذائب. (م).

وثمانمائة وثلاثة وتسعون ألفًا ومائة وأربع وخمسون طونلاتة، الداخل منها أحد عشر ألفًا وتسعمائة وثلاثة وستون، والخارج اثنا عشر ألفًا ومائة وثمانية وثلاثون.

هذا، وإنها من الممالك الأوروباوية المتسعة بها دوائر المعارف، ولم يزل اتساعها يتزايد؛ حيث إن قوانين البلاد تُلْجِئ الأهالي إلى إرسال أولادهم للمكاتب عند بلوغهم ست سنين. وقد بلغ عددهم سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ثلاثة ملايين، ومن مكاتبهم ما هو مخصوص بتعليم الفلاحة والصناعات، وبها عدة مدارس لتدريس الفنون العويصة.

وبالجملة، فبالمملكة البروسيانية سائر أنواع المعارف اللازمة لتقدُّم الدول في ميدان التمدن والتهذُّب.

الفصل الرابع
في قوانين المملكة البروسيانية، وكيفية إدارتها

اعلم أن الملك فردريك غليوم الرابع أعطى الكونستيتوسيون لأهل المملكة خامس دجنبر سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف، مع قانون انتخاب وكلاء العامة، وتعرف به أهل القمرتين المتكونتين بمقتضاه في السادس والعشرين من فراير سنة تسع وأربعين وثمانمائة وألف، وتحرر في سلخ مايه[1] من السنة المذكورة بإعانة مجلس البارلمان، الذي اجتمع في سابع أغشت من تلك السنة أيضًا، فَأَرَّخ الكونستيتوسيون بعد التحرير بسلخ يناير سنة خمسين وثمانمائة وألف.

وهذا أصوله: أن يتساوى جميع البرسيانيين أمام الحكم، بحيث لا تعتبر مزايا الأعيان، وأن لا يتقدم أحد لنيل الوظائف إلا بالمعرفة والأهلية، وأن تحفظ الحرية الشخصية، ولا يحرم منها أحد من السكان إلا في الحالات المقررة في القانون، وأن لا تُنتهك حرمات المساكن، بحيث لا يبحث فيها عن الكواغد وسائر الخبايا إلا على الوجه المبين في القانون أيضًا. وأن لا يحرم أحد من حاكمه الوطني، ولا يحكم عليه مجلس غير معتاد، وأن لا يحكم على المذنب إلا بحكم متقرر معلوم في القانون، وأن تحترم الأملاك، ولا يؤخذ منها شيء للمصلحة

(١) سلخ مايه: آخر شهر مايو. (م).

العامة إلا بالقيمة، ولا يعاقب أحد بالموت مطلقًا، ولا بأخذ المال بدون سبب يوجب ذلك قانونًا. وأن لا يمنع أحد من إشاعة آرائه في هذا الشأن، ولا تضيق دائرة حرية المطابع إلا بقانون. وللأهالي أن يجتمعوا بدون استئذان في ذلك بشرط أن لا يكون معهم سلاح، وأن يكونوا بمحل منحصر، سواء كان اجتماعهم للمشاركة أو لغيرها من الأغراض التي يريدونها، إلا أن يكون لأمر يمنعه القانون. ولا يُمنع أحد من عرض حاله أو شكواه الخاصة به دون ما هي راجعة للعامة؛ فإن الكلام فيها من وظيفة الجمعيات المعروفة. وأسرار المكاتيب مكتتَمَة، واحترامها واجب إلا في أحوال عَيَّنَهَا القانون، كحالة الحرب، والبحث عن الجناية. وقد محا القانون رسوم مزايا الأعيان التابعة لمقاماتهم، والخصوصيات المتعلقة بأراضيهم محوًا لا يكاد يتوقع معه رجوع شيء منها في المستقبل في جميع بلدان المملكة.

وجَنَاب الملك واجب الاحترام، ومكاتيبه الرسمية مختومة بعلامة إمضاء الوزير المسؤول عن تصرفاته، وللملك قوة التنفيذ، وهو الذي يسمِّي الوزراء ويؤخِّرهم، ويعلن القوانين، ويصدر الأوامر اللازمة في إمضائها، ويحكم على الجيوش، ويشهر الحرب، ويعقد الصلح، ويشترط الشروط، إلا أنه يجب عرض سائر شروط المصالحة وغيرها على موافقة القمرة إذا كان في الشروط ما تتحمل به المملكة. وله أن يعفو عن الجاني من غير توقُّف على موافقة القمرة، إلا إذا كان الجاني وزيرًا وصدرت الشِّكَاية به من القمرة، وله أن يجمع البارلمان ويفرقهم عند

انتهاء الخدمة، وله نقض مجلس النواب بشرط انتخاب الأهالي وكلاء في ظرف ستين يومًا، وبعد ذلك بثلاثين يومًا يجمع المجلس.

ومن حقوق الوزراء حضور القمرتين، ويجب عليهما الإصغاء لما يُلْقُونَه لكن لا صوت في الترجيح إلا لمن يكون منهم عضوًا في القمرة. ولكل من المَجْلِسَيْن إقامة الدعوى على الوزراء إذا رأوا منهم خروجًا عن حدود الكونستيتوسيون، أو أخذ مال المملكة أو شائبة خيانة. والحاكم في أمثال هاته النوازل التريبونال الأعلى عند اجتماع جميع أقسامه. والبارلمان الذي هو مجموع قمرتي الأعيان والنُّوَّاب يشارك الملك في القوة التشريعية، وما يكون من التراتيب متعلقًا بتوظيف الأداء يُعْرَضُ أولاً على قمرة النواب التي لها التصرف فيه بالزيادة أو النقص، ثم يعرض على قمرة الأعيان، فإما أن تقبله على ما هو عليه أو ترده بدون تصرف فيه. وللملك وكلّ من القمرتين استنباط الأحكام والتراتيب ثم عرضها على الأنظار لتصير قانونًا بالموافقة عليها. والملك يأمر باجتماع البرلمان في صدر كل سنة للخدمة المعتادة، ويجمعه كلما اقتضى الحال جمعه. ولكلٍّ من القمرتين تسمية رئيسها وعمل تراتيب إدارتها الداخلية. ومفاوضة القمرة تكون علنًا، ولا يتم الرأي في شيء إذا لم يكن غالب أعضاء القمرة حاضرًا، وكل من الأعضاء يعطي رأيه في القرعة بما يؤديه إليه اجتهاده وأمانته، ولا يقال له: لماذا قلت كذا أو اخترت هذا عن ذلك؟ ولا يجلب أحد من الأعضاء إلى الحكم في مدة فتح

القمرة إلا أن يظفر به وقت صدور الجناية منه أو بأثر ذلك، وفي هاتين الحالتين تُستأذن القمرة في جلبه ثم تتبع نازلته.

هذا، وإن قمرة الأعيان تتركب من الأصناف الآتية: أولها أمراء العائلة الملكية الرشداء الذين يسوغ لهم الملك حضور القمرة، وثانيها: الأعيان الذين يستحقون حضور القمرة بطريق الإرث، وهم رؤساء عائلات هوهنزولرن هكينغن وهوهنزولرن سيغمرينغن، ورؤساء أربع عشرة عائلة ملكية قديمة، وتسعة وأربعون شخصًا من الأعيان بين أمراء وكونتات. وثالثها: متوظفو الخطط الأربع الكبار ببروسية، وخمسة وأربعون شخصًا ينتخبهم الملك، ومن يعرض على الملك بطلب جمعية الأعيان وجمعيات العلوم والصناعات وأرباب الأملاك القديمة، ووكلاء أربع وثلاثين مدينة أعطي لها حق العضوية. فعدد أعضاء هاته القمرة والحالة هذه غير محصور، ولا يستحقُّون مرتبًا ولا مصروفًا، وخطتهم في القمرة عُمْرِيَّة.

وأما قمرة النواب فتشتمل على ثلاثمائة واثنين وخمسين عضوًا، منتخبين من مائة وست وسبعين قسمة، بمقتضى قانون السابع والعشرين من يونية سنة ستين وثمانمائة وألف. والانتخاب يستدعي منتخِبًا ومنتخَبًا، فأما المنتخِب (بالكسر) فيشترط فيه أن يكون بروسيانيًّا، مِمَّن بلغْ أربعًا وعشرين سنة ولم يحرم الحقوق المدنية والسياسية، ولم يأخذ الصدقة، وأن يسكن بالمشيخة (أي مكان تصرف الشيخ) ستة أشهر في الأقل. وكل مائتين وخمسين رجلاً ينتخبون رجلاً ينوب عنهم في الانتخاب، فإذا اجتمع المنتخبون أولاً الذين يبلغ عددهم

ثلاثة وسبعين ألفًا ينتخبون النواب، ولا بد أن يكون الانتخاب أولاً، وثانيًا على روس الأشهاد، وأما المنتخَب (بالفتح) للنيابة بالقمرة فيشترط فيه أيضًا أن يكون بروسيانيًّا بلغ عمره ثلاثين سنة، ولم يحرم الحقوق المدنية والسياسية، وأن يكون ساكنًا ببروسية منذ عام في الأقل قبل الانتخاب؛ (لأن الذي يغيب عن بلاده مدة قد يتناسى بعض أحكامها، وقد يُحدث بعده منها ما لا يعلم به، وقد ينقص بالمغيب حبه لوطنه الأصلي؛ ولذلك جرت العادة الأنكليزية بأن نواب دولهم في الممالك الأجنبية يرجعون لوطنهم بعد كل خمس سنين، ويقيمون به ولو شهرين). ومدة نيابة وكلاء العامة بالقمرة ثلاث سنين، ولا يأخذون في مقابلة الخدمة إلا مصروف الطريق والسكنى لا غير.

الفصل الخامس
في كيفية الإدارة الوطنية بالمملكة البروسيانية

مرجع هذه الإدارة إلى ثلاث إدارات: إدارة المركز، وإدارة الإيالات، وإدارة المشيخات.

فأما الإدارة المركزية فتشتمل على وزارة العمالة[1]، ويقال لها الإدارة العليا، ومجلس الوزراء. وأركانها ثمانية وزراء غير داخل فيهم وزير قصر الملك.

وأما إدارة الإيالات - أي من جهة عموم سياستها — فهي بيد ثمانية رؤساء كبار بقدر عدد الإيالات، مقدمين من طرف الدولة، حسبما اقتضاه المنشور المُؤَرَّخ بخامس يونية سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة وألف. وبهذا المنشور تَرَتَّب ديوان في كل إيالة يحتوي على جماعة من الأعيان، أعطى الملك لكل واحد منهم صوتًا شخصيًا وعلى وكلاء ملاّكة الأراضي المسماة أكواستر، وهي مختصة بصنف من الكفاليرات[2] نشأ في عهد الرومان، وعلى نواب المدن والقرى. وفي كل سنة تجتمع هذه الدواوين، وتعرض الدولة عليهم جميع القوانين المتعلقة بمصالح العامة، كما تعرض من تلك الدواوين القوانين المتعلقة بإيالاتها. وكل ديوان

---

(١) وزارة العمالة: وزارة الداخلية. (م).

(٢) الكفاليرات: طبقة النبلاء عند الرومان. (م).

يسمى رئيسه الملقب بالماريشال. والإيالات تنقسم إلى ولايات، مجموعها ست وعشرون، وإدارة كل ولاية بيد جمعية من المتوظفين، كل فرد منهم يطالب بأمر معين. وتلك الجمعية تنقسم أقسامًا ثلاثة: قسم يتكفل بأحوال الضبطية وأعمال المشيخة، وقسم يتكفل بأمر الديانة والتعليم، وقسم يتكفل بالأمور المالية. وتجتمع الأقسام عدة مرات في الأسبوع.

ثم تنقسم الولايات إلى دوائر، الموجود منها بالمملكة ثلاثمائة وست وعشرون دائرة، يحكم في كل دائرة منها لاندرات، وهو بمنزلة خليفة القائد، وولايته من تلقاء الملك، يختاره من أشخاص يُعَيِّنُهُم نواب الدائرة في مكتوب، ويشترط فيه أن يكون من مُلاَّك الأراضي، وهو بمثابة نائب الدائرة عند الدولة، ونائب الدولة عند الدائرة، ويكون في إعانته أعيان الدائرة ونواب البلدان والقرى.

وأما إدارة المشيخة فإنها بيد جمعية تشتمل على شيخ المدينة وعدة مستشارين له، ويجلسون بالمجلس البلدي. وأعضاء تلك الجمعية يسميهم المجلس البلدي، لكن في البلدان التي يبلغ سكانها عشرة آلاف نفس يلزم إمضاء الملك، وفيما هو دون ذلك يمضي على تسميتهم ولاة الإيالات. ثم تسمية أعضاء المجلس البلدي تكون من كل بروسياني يملك دارًا بالمشيخة، أو يدفع أداء أقله خمسة عشر فرنكًا في السنة. والجمعيتان المذكورتان - أي حكام المشيخة وأعضاء المجلس البلدي - تنتهي خدمتهم بست سنين، يتجدد في كل عامين ثلثهم. وإذا اقتضى الحال تعطيل خدمة المجلس البلدي بمقتضى أمر من الملك

فينبغي أن يجمع غيرهم في ظرف ستة أشهر. وتصرفاته على منوال تصرفات المجلس البلدي بفرنسا، ومشيخة القرى في إدارة الشيخ ومعينيه وجماعة الملاّكة، أما الأراضي المحتوية على مشيخة فإن مالكها - بمعنى صاحب الجريد مثلاً - هو الذي يتولى الحكم في ذلك المكان من جهة الدولة، وإذا كانت الأرض لأحد الأعيان فهو الذي يُعَيِّن حاكم المحل للدولة من الفَلاَّحة المكترين منه، وفي غير ذلك يختار الشيخ نائب الحاكم الذي يشمل حكمه تلك الأرض.

وفي إيالة وستفاليا اتحدت المشيخات المتَّحدات الفوائد، وصارت كانتونًا مع بقاء كل مشيخة منفردة بإدارتها الخصوصية، وإنما اجتماعها فيما يرجع للإدارة العمومية. وأرباب الأملاك الذين يدفعون الأداء على الأرض هم الذين يتعاطون إدارة الكانتون مع رئيسهم. وفي إيالة الرين يتولى ذلك شيخ البورغ مع معينين له أو ثلاثة، ومن مشايخ البورغ من له مرتب لرئاسة الكانتون إذا كان يحتوي على عدة مشيخات كبيرة، وكان لهم مجلس بلدي، وكل قرية لها رئيس خاص يجمع أهلها للمفاوضة فيما يخصُّهم.

الفصل السادس
في ترتيب الأحكام

اعلم أن بمملكة بروسية قانونين: أحدهما القانون الفرنساوي وهو المعمول به في إيالة الرين، والثاني القانون البروسياني، وهو المحكوم به في بقية بلدان المملكة؛ ولذلك قد يقع تفاوت في ترتيب الأحكام.

فالجنايات الخفيفة يحكم فيها تريبونالات الضبطية، تارة بحاكم واحد ولا يتجاوز حكمه سجن شهر ونصف، وتغريم مائة وسبعة وثمانين فرنكًا ونصف، وتارة بثلاثة حكّام، ويشتمل حكمهم سائر الجنايات الخفيفة.

وأما الجنايات الثقيلة فإنها تعرض على أمناء الحكم المتنوعين إلى تريبونالات معتادة، أو تريبونالات مخصوصة، فالأولى هي المُعَبَّر عنها بالتريبونالات الأوَّليَّة، وحكمها يمتد إلى نهاية الدائرة من تقاسيم المملكة، والتريبونالات الأخرى تكون في البلدان التي يبلغ سكانها خمسين ألف نفس، وفي إيالة الرين يمتد حكمها في جميع أرضها.

هذا، ويجعل من التريبونالات الأولية اثنان وعشرون مجلسًا لتحقيق نوازل المملكة.

وبمدينة برلين التي هي تخت المملكة مجلس عالٍ مُرَكَّب من ستة رؤساء وتسعة وأربعين عضوًا، ومن أعمال هذا المجلس تحقيق أحكام مجالس التحقيق بجميع المملكة، فأحكام المملكة لها ثلاث درجات إلا في إيالة الرين فليس لها إلا درجتان، لكن لا يُمنع أحد من رفع نازلته من مجلس التحقيق بتلك الإيالة إلى المجلس الأعلى بمدينة برلين، والمجلس المشار إليه هو الذي يَفْصِل أيضًا المنازعات الواقعة أحيانًا بين المجالس فيما يتعلق بحقوقها.

وأما المنازعات التي تحدث بين أهل الإدارة الملكية والمجالس فيُرَكَّبُ لفصلها مجلس خصوصي، من رئيس الوزراء ومن بعض أعضاء المجلس المنازع وبعض متوظفي الإدارة. وهناك مجلس كبير يعقد وقت الحاجة للحكم في أمور مخصوصة، وتركيبه من قمرة الحكم التي ببرلين ومن مجلس الحكم الذي به أعضاء من عائلة الملك وعائلتي هوهونزولرن، ثم إن مجلس الحكم يتركب من اثني عشر عضوًا مأخوذين من قمرة الحكم، خمسة منهم يحكمون حكمًا أوليًا، والباقون يحققون عليهم، وتعيينهم يكون من وزير الحكم. ومن مشمولات نظر قمرة الحكم البحث والحكم في المخالفات التي تقع ضد الدولة، وفي هذه الحالة تنقسم القمرة قسمين: أحدهما: يحكم على المدعي عليه، والثاني: يحقق عليه

بأن ينظر في حال المُدَّعَى عليه، وفي تنزيل الحكم على جنايته. والقسم الأول يتركب من سبعة أعضاء، والثاني من عشرة.

هذا، وإن هناك مجالس خصوصية، منها مجالس التجارة التي تُنْتَخَب أعضاؤها من أعيان التجَّار وثقات أهل المعرفة، بتسمية المعلمين وأرباب الحرف. وقد يحقق هذا المجلس ما يحكم به أهل العُرف على أرباب الصناعات. ومنها مجالس المدارس التي تحكم على التلاميذ فيما يتعلق بالتربية، بالسجن لمدة أقصاها شهر، ومنها مجالس مذهب الكاتوليك التي تحكم في التعازير[1]، وفي متعلقات النكاح، ونحوه مما يرجع للكنيسة، ومنها مجالس الكمارك، والمجالس العسكرية، ومجالس القيم الحاكمة بتعيين قيمة ما يؤخذ للمصلحة العمومية.

واعلم أن التربيونالات كلها مستقلة، ولا تَسَلُّط لوزارة الحكم عليها إلا بتحسين الإدارة الحكمية. وتسمية الحكام بيد الملك، وليس له عزلهم، وإذا أعفى أحد الأعضاء فلا يسقط مرتبه. وهذا تلخيص المجالس الأولية، والأحكام الخفيفة بمملكة بروسية، على ما بيَّنَه صاحب الجدول السنوي الباريسي: تسعة مجالس مدنية أي عرفية بإيالة الرين: ثلاثة مجالس للمدن، مجلسان للمدن والدوائر، وهذه الخمسة تحكم أيضًا مثل مجلس الجنايات إذا انضاف إليها الجوري، أي أمناء الحكم. مائتان وسبعة وثلاثون مجلسًا للدوائر الأولية، منها ستة

(١) التعازير: جمع: «تعزير»، وهو التأديب أو العقوبات. (م).

وسبعون هي مجالس جنايات أيضًا بإضافة الجوري إليها، ست وأربعون جمعية مؤبَّدة معينة للحكم، خمسمائة كومسيون للحكم أيضًا، مائة وخمسة وعشرون حاكم صلح بإيالة الرين، ثلاثة وثمانون مجلسًا خصوصيًّا، منها مجلسان للمتجر والبحر، وثمانية لخصوص المتجر في إيالة الرين، وستة للمدارس، واثنان وعشرون للكمارك بشاطئ الرين والألب والويزر، وثلاثة وثلاثون للمشيخات في إيالة الرين من الناحية الجنوبية، واثنتا عشرة جمعية من أهل العُرف في ولاية كولونيا.

الفصل السابع
في بيان قوة بروسية المالية والعسكرية البرية والبحرية في سنة 1265/ [1848-1849]

- 150,714,031 طالر جملة الدخل تساوي 565,177,616 فرنكًا.

- 150,599,164 طالر جملة الخرج تساوي 564,746,865 فرنكًا.

- 114,867 زيادة الدخل على الخرج 430,751 فرنكًا.

وكان دخل الدولة في سنة إحدى وستين ومائتين وألف 135,341,701 طالر، بمقتضى المضبطة الرسمية المقدمة لمجلس النواب، والخرج 139,327,337 طالر، فزاد إذ ذاك الخرج على الدخل 3,985,636 طالر. واعلم أن الطالر يساوي ثلاثة فرنكات وخمسة وسبعين سنتيمًا، أي ثلاثة فرنكات وثلاثة أرباع الفرنك.

جملة الدَّين 268,671,204 طالر، تساوي 1,007,517,015 فرنكًا.

هذا، وبعد التاريخ المذكور، أي عام خمسة وستين اقترضت الدولة البروسيانية مبالغ وافرة لحرب جرمانيا، ثم بعد الحرب اقترضت أيضًا مبلغًا

لتبديل المكاحل والمدافع؛ ولإنشاء سفن حربية، فتكون جملة الدَّين الذي عليها الآن أكبر مما ذُكِر.

بيان القوة العسكرية البرية في سنة 1865

وقت الحرب	وقت الصلح	أصناف العساكر
1	1	ماريشال
1	1	نائبه
35	35	جنرالات كبار
58	58	ليتنان جنرال
97	97	ماجور جنرال
190	190	أمراء الإيالات
308,373	165,963	عسكر تريس
42,013	41,203	خَيَّالة
30,120	17,611	طوبجية
7,072	5,427	بلطاجية وغيرهم للطرقات
33,750	2,220	المكلفون برفع الأثقال
144,597		عسكر يداك
153,516	8,015	عسكر الحراسة
719,823	**240,821**	**الجملة**

القوة البحرية بدولة البروسية سنة 1865

أصناف البحرية	أمراء وضباط	جملة العسكر
أميرال	1	
كنتر أميرال	1	2
قبطانات أجفان	4	
قبطانات فراقط	8	12
يوزباشية وملازمية	67	
فسيالات صغار	104	171
شوّاش وأونباشية وبحرية وصناع بحرية		2454
صغار		300
عسكر تريس معدّ للبحر		
أمراء آلايات	3	3
قائمو مقامات	1	1
آلاي أمينية	2	2
يوزباشية وملازمية	8	8
شوّاش وأونباشية وعسكر طوبجية		666
يوزباشية وملازمية	6	6
فسيالات مكلفون بأحوال المراسي	32	32
شواش وأونباشية وعسكر		444
الجامعة نقلت إلى محوله	234	4101

تابع القوة البحرية بدولة البروسية

جملة المراكب ومدافعها 462	مراكب قلاع	فابورات بها قوة خيل 3900		جملة العسكر	أمراء وقبطانات وفسيالات	أصناف البحرية والسفن
		أليس	بالعجلة			
				4101	237	نقلة جامعة محوله
2		2				أجفان مدرعة بالحديد
8		8				قرابط
6		6				شالوب كانونيير كبار
15		15				شالوب كانونيير صغار
1		1				ياكت
1				1		قرابط
2		2				أفيزو
2						فابورات لجر السفن
3	3					فراقط قلاع
3	3					أبركة
2	2					مراكب صغار
36	36					شالوب كنويير
4	4					يول
85	**48**	**34**		**4101**	**237**	الجملة

هذا، ودولة بروسية مجتهدة الآن في تكثير أسطولها اقتداء بالدول الكبار الأخرى؛ فإنها بعد التاريخ المتقدم ذكره خصصت تسعة وأربعين مليون طالر لإنشاء سفن جديدة، منها عشر فراقط مُدَرَّعة، وعشرة من النوع المسمى مونيتور. وهي مراكب مدرعة ذات منطح، حاملة لمدافع ضخمة، وعشر قرابط من لوح وحديد، وعدة مراكب لحمل الأثقال، وأكثر هذه المراكب يكون إنشاؤها في بلاد الأنكليز.

بيان عدد مراكب بروسية المتجرية في سنة 1865

كان للبروسيانيين في سنة 1855 ثمانمائة وتسعة وعشرون مركبًا لا غير، محمولها من الطونلاتات 267،088، ولكن مع ازدياد حظوظ البلاد ازداد أيضًا عدد مراكب المتجر؛ لما يوجد في أجزاء العمران والحضارة من تعلق بعضها ببعض، فبلغ عددها في سنة 1858 تسعمائة وثلاثة وثلاثين مركبًا، محمولها 326،216 طونلاتة، وصار في سنة 1861 ألف مركب وثلاثة وأربعين مركبًا، منها خمسة وأربعون فابورًا، محمولها من الطونلاتات 336،832، ومن البحرية 10،251. وبلغ في سنة 1865 ما يأتي:

عدد البحرية	عدد المراكب	أصناف المراكب
10251	961	مراكب قلاع كبار
	27	فابورات كبار
	390	مراكب قلاع صغار
	86	فابورات صغار
الجملة	**1464**	

الباب السابع
في الكلام على عصبة جرمانيا

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

قد سلف لنا في المقدمة أن شارلمان ملك فرنسا ومعظم ممالك أوروبا أسس سلطنة سماها السلطنة الغربية الجديدة أو الثانية، وذلك سنة ثمانمائة مسيحية، ثم خرجت عنها فرنسا وإيطاليا سنة سبع وثمانين وثمانمائة، ومن مبدأ دولة أوتون الثاني سنة اثنتين وستين وتسعمائة، صار التاج الملكي الذي كان متداولاً بين ملوك فرنسا وإيطاليا وألمانيا مختصًّا بملوك الأخيرة منها، ولُقِّبَتْ من ذلك الوقت بالمملكة الجرمانية.

وكان هذا التاج من عهد موت آخر إمبراطورات العائلة الكارلونجيانية سنة إحدى عشرة وتسعمائة إلى سنة ثمانٍ وثلاثين وأربعمائة وألف لا يعطى إلا بالانتخاب، ومن هذه السنة إلى سنة ست وثمانمائة وألف صار وراثة في عائلة هابسبورغ.

وفي السنة المذكورة تَشتَّت شمل هذه السلطنة بتسليم فرنسوى الثاني، ثم فيها أيضًا اتحدت الممالك الغربية منها، وأنشأت المعاهدة المسماة بمعاهدة الرين، تحت حماية نابليون الأول.

ثم بما وقع من الحوادث سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف، والتي بعدها تغيرت تلك المعاهدة، وتبدلت بمعاهدة جديدة بين ثلاث وثلاثين دولة تلقبت بمعاهدة جرمانيا، تحت رئاسة إمبراطور النمسة، وبالحرب التي وقعت بين البروسية والنمسة سنة ست وستين وثمانمائة وألف انحلَّت المعاهدة المذكورة، وأسست دولة بروسية الظافرة في هاته الحرب معاهدة أخرى لقبتها بمعاهدة ألمانيا الشمالة، وجعلتها تحت رئاستها، وأدخلت فيها جميع الممالك التي كانت داخلة في المعاهدة التي قبلها، ما عدا مملكة باواريا والفورتنبرغ، وإمارة بادن وليختنستين، والممالك التي كانت تابعة للنمسة وداخلة في المعاهدة، وهولاندة، وأسست لتلك المعاهدة كونستيتوسيونًا بمحضر البارلمان الألماني أي مجلس نواب العامة من تلك الدول المتحدة، وبمحضر المجالس الخصوصية بها، وذلك سنة سبع وستين وثمانمائة وألف.

الفصل الثاني
في قانون المعاهدة

محصّل الكونستيتوسيون المشار إليه آنفًا ما معناه أن المقصود من هذه المعاهدة هو حماية حقوق الممالك الداخلة فيها، وإبقاء قوانينها، وتحسين حال أمة الألمان، وأن رئاسة الدول المتعاهدة من حقوق تاج بروسية فقط، وأن ترتيب القوانين العمومية لهذه الدول يكون بواسطة المجلس المشترك، الذي هو فيها بمثابة مجلس الدولة في غيرها، وبواسطة بارلمان المعاهدة ولأعضاء المجلس المشترك أصوات بقدر قوة ممالكهم حتى إنَّ بروسية بما أضافت لها من الممالك صار لها سبعة عشر صوتًا، وبقي لما عداها من سائر الدول ستة وعشرون.

ولكل نائب دولةٍ من الدول المذكورة أن يحضر في البارلمان ولو بدون موافقة أعضاء المجلس، ويسمع كلامه فيما يدافع به عن رأي دولته. وإذا وقعت مخالفة بين أعضاء المجلس في تغيير القوانين التي تتعلق بالقوة البحرية أو البرية، فإن الجهة التي معها صوت الدولة الرئيسة تترجح على مقابلتها، إذا كان الرأي إبقاء الحال على ما كانت عليه. وأعضاء البارلمان تسميهم أهالي الممالك، وكَلَّفَتْه استنباط القوانين العمومية، وله أن يقبل الشكايات وعرض

الحال، ومدة خدمته ثلاث سنين، ولا يغلق قبل استيفائها إلا بموافقة مجلس النواب والدولة الرئيسة. وإذا وقع ذلك فلا بد أن يجتمع المنتخبون من الأهالي في ظرف ستين يومًا؛ لينتخبوا أعضاء مجلس جديد يجتمع عند تمام تسعين يومًا من يوم الإغلاق. وينتخب البرلمان رئيسه والنواب عنه والكُتَّاب، ويمضي الأمور بموافقة الأكثر.

وأما مباشرة الدول الأجنبية فيما يتعلق بخلطتها مع دول المعاهدة فلا تكون إلا للدولة الرئيسة؛ فهي التي تنشئ الحرب وتعقد شروط الصلح والمعاهدات، وغير ذلك مع الأجانب، وترسل السفراء السياسية بالنيابة عن جميع تلك الدول، وهي التي تجمع مجلس النواب والبارلمان كل سنة، وتفتح المجلس وتغلقه، وتعرض على البارلمان ما اتفق عليه مجلس النواب. ويبعث المجلس بعض الأعضاء أو مكلَّفًا خصوصيًّا للمدافعة، وتعلن القوانين، وتمضي عليها، وتسمي المتوظفين في الخطط العمومية، وتؤخرهم إن استوجبوا التأخير. ويرأس ملك بروسية الذي هو أمير جيوش العصبة الألمانية في الحرب القوة البحرية والبرية المعدودة جندًا واحدًا في حالة السلم والحرب، ويتسع تصرفه في القوة البحرية، بحيث يولي الضباط بها والمتوظفين بخططهم ويؤخرهم. وقد وقع اتفاق العصبة المذكورة من هذا التاريخ إلى آخر سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وألف، على أن تكون قوة الجند في حالة الصلح بحساب واحد على المائة من السكان تقريبًا، وأن جميع القوانين العسكرية الموجودة في بروسية

تمضي على جميع عساكر الممالك المتعاهدة، وإذا أرادت مملكة أجنبية الدخول في المعاهدة فلا يكون ذلك إلا بواسطة الدولة الرئيسة، وبمقتضى قانون المعاهدة.

والحاصل أن مجلس نواب الدول ومجلس وكلاء العامة بالممالك المتحدة كلاهما ينظر في المصالح العمومية لتلك الدول، تحت رئاسة دولة بروسية المستقلة كما تقدم، بما يتعلق بالأحوال الخارجية من عمل الحرب وعقد الشروط وغير ذلك بالنيابة عن جميع تلك الدول، وإن كانت كل واحدة منها لها استقلال تامٌّ في أحوالها الداخلية؛ فعندها مجالس وإدارات بتراتيب تخصها بحسب ما يليق بحالها.

والمقصود من هذا الاتحاد أمران:

الأول: حماية هذه الدول بعضها من بعض، بحيث لا تتعدى واحدة منها على الأخرى ولو كانت أضعف منها.

والثاني: حمايتها من الدول المجاورة لها، ولو كانت في غاية القوة؛ لما تراه من الشوكة لمجموعها التي لا تحصل لكل واحدة منها بانفرادها، فظهر بهذا أن كل واحدة من هذه الدول وإن فاتها شيء من حقوقها كمباشرتها للدول الأجنبية، فقد حصل لها من الطمأنينة التامة بسبب الاتحاد المذكور الحامي استقلالها، ما يوازي أضعاف ما فاتها من تلك الحقوق الحاصلة لها على فرض عدم دخولها في المعاهدة وتعرضها للأخطار، ولذلك لم يقع من واحدة منها

توقف في هذا الأمر، الذي مَنْ تَبَصَّر فيه يراه من أحكم السياسات النافعة في بقاء استقلال الدول الصغيرة، التي تهتدي إليه، وتبني قواعدها عليه؛ لأن قوة الجميع ليست كقوة المجموع كما قال الحكيم العربي:[الكامل]

إنَّ القِدَاحَ إذَا اجْتَمَعْنَ فَرَامَهَا بالكَسْرِ ذُو حَنَقٍ وَبَطْشٍ أَيدِ
سَلِمَتْ وَلَمْ تُكْسَرْ فَإنْ هِيَ بُدِّدَتْ فالوَهْنُ والتَّكْسِيرُ للمُتَبَدِّد

ثم إن بروسية عقدت مع ممالك جرمانيا الجنوبية - وهي مملكة باواريا ومملكة فورتمبرغ، وإمارة بادن الكبيرة — معاهدة، على أن تكون هي مع هذه الدول يدًا واحدة على من حاربها أو حارب واحدة منها. والغالب على الظن أن هذه الممالك ستدخل في المعاهدة المتقدمة، كما يدخل فيها أيضًا جانب من إمارة الهاس الكائنة على شاطئ وادي المين، وإمارة ليختنستين الصغيرة. ومساحة جملة هذه الممالك مائة وثلاثة عشر ألفًا وسبعمائة وأربعة وثمانون كيلو ميترًا مربعًا، وعدد سكانها بلغ في سنة ست وستين وثمانمائة وألف ثمانية ملايين وخمسمائة ألف وعشرين ألفًا وأربعمائة وستين نفسًا. وإذا وقع ما يظن من دخول هذه الممالك في المعاهدة المتقدمة، تكون مساحة ممالك الدول المتعاهدة خمسمائة ألف وثمانية وعشرين ألفًا وثمانمائة واثنين وتسعين كيلو ميترًا مربعًا، وعدد سكانها ثمانية وثلاثين مليونًا، وجندها المشترك في حالة السلم ثلاثمائة ألف وثمانين ألفًا وبانضمامه لبقية عساكر الممالك المذكورة في حالة الحرب يبلغ نحوًا من مليون ومائتي ألف.

ثم إن التعليم العمومي بتلك الممالك في درجة مرضية، ووجوه الدخل بها هي الفلاحة والغابات، وتربية الحيوان، وخدمة المعادن، التي منها الفضة والحديد، والرصاص والفحم الحجري.

وصناعات الأيدي بها في حالة مُرْضِيَة أيضًا، وأكثرها غزل الصوف وغيره، وصناعة الأقمشة منهما، وبها فبريكات الفرفوري والفخار، والسكر، والبلور، وصناعة الجلود، وغيرها، ودائرة المتجر بها في غاية الاتساع والاستقامة.

الفصل الثالث
في تفصيل أحوال الدول المُتَّحِدَة بألمانيا المسماة كونفدراسيون جرمنيك ما عدا بروسيا

بيان دخل هذه الدول وخرجها

الخرج	الدخل	أسماء الدول
51,221,189	51,221,189	دولة الساكس
16,462,500	16,462,500	دولة مكلمبورغ شوارن
2,062,500	2,062,500	دولة مكلمبورغ سترالتس
8,089,125	8,324,625	دولة أولدنبورغ
6,375,330	6,487,991	دولة ساكس وإيمار
19,155,000	19,155,000	دولة برونزويك
14,468,000	14,468,250	دولة إنهالت داسوتساتن
4,174,500	4,316,340	دولة ساكس ماييننغن
5,226,738	6,045,932	دولة ساكس كوبورغ غوطا
3,135,830	3,295,890	دولة ساكس ألتنبورغ
910,435	1,097,158	إيالة لبيـي ديتمولد
1,994,018	1,954,738	إيالة والديك
5,422,876	5,422,876	إيالة شوارتسبورغ رودولستات
2,292,577	2,355,055	إيالة شوارتسبورغ سوندرسهوزن
1,083,164	1,107,536	إيالة رويس (فرع ثانٍ وهوشلايز)

أسماء الدول	الدخل	الخرج
إيالة شومبورغ ليبي	855,000	855,000
إيالة رويس (فرع بكر وهوغرايان)	750,000	750,000
بلدة هامبورغ	17,236,724	17,236,724
بلدة لوبك	2,538,000	2,670,000
بلدة بريمن	6,677,917	7,380,479
إيالة هاس دارمستات	19,941,716	19,683,200
الجملة	**191,776,937**	**190,649,185**

بيان ما على كل من الدول المذكورة من الدَّين وما تُقدّمه من العساكر لجيش العصبة

أسماء الدول	الدخل	الدَّيْن
دولة الساكس	23,439	221,551,241
دولة مكلمبروغ شوارن	5,526	29,437,812
دولة مكلمبورغ سترالتس	990	3,750,000
دولة أولد نبورغ	3,018	25,852,125
دولة ساكس وإيمار	3,015	21,396,000
دولة برونزويك	2,933	44,511,661
دولة إنهالت داسوتساتن	1,930	12,923,351
دولة ساكس ماينغن	1,780	7,383,144
دولة ساكس كوبورغ غوطا	1,645	6,268,431
دولة ساكس ألتنبورغ	1,418	5,047,000
إيالة ليبي ديتمولد	1,113	1,343,956

أسماء الدول	الدخل	الدَّيْن
إيالة والديك	591	5,625,000
إيالة شوارتسبورغ رودولستات	737	3,500,000
إيالة شوارتسبورغ سوند رسهوزن	661	5,648,291
إيالة رويس (فرع ثانٍ وهو شلايز)	864	2,636,491
إيالة شومبورغ ليبـي	313	3,300,000
إيالة رويس (فرع بكر وهوغرايز)	436	3,300,000
بلدة هامبورغ	2,509	106,320,400
بلدة لوبك	506	3,054,825
بلدة بريمن	1,041	12,902,010
إيالة هاس دارمستات	2,524	23,625,000
الجملة	**56,985**	**561,133,738**

بيان عدد سكان الدول المذكورة وما لكل منه من الأصوات في مجلس النواب العام وأسماء التخوت

أسماء الدول	التخوت	الأصوات	السكان
دولة الساكس	درازد	4	2,225,240
دولة مكلمبورغ شوارن	شوارن	2	546,639
دولة مكلمبورغ سترالتس	نيوسترالتس	1	99,628
دولة أولدنبرغ	أولدنبرغ	1	294,359
دولة ساكس وايمار	وايمار	1	267,112
دولة برونزويك	برونزويك	2	274,069
دولة إنهالت داسوتساتن	داسو	1	119,515

أسماء الدول	التخوت	الأصوات	السكان
دولة ساكس ماينغن	ماينغن	1	168,816
دولة ساكس كوبورغ غوطا	كوبورغ	1	153,879
دولة ساكس ألتنبورغ	لتنبورغ	1	137,075
إيالة ليبي ديتمولد	ديتمولد	1	106,086
إيالة والديك	رولسان	1	57,550
إيالة شوارتسبورغ رودولستات	رود ولستات	1	70,030
إيالة شوارتسبورغ سوندرسهوزن	سوندرسهوزن	1	62,974
إيالة رويس شلايز	شلايز	1	81,806
إيالة شومبورغ ليبي	بوكبورغ		30,144
إيالة رويس غرايز	غرايز	1	39,397
بلدة هامبورغ	هامبورغ	1	229,911
بلدة لوبك	لوبك	1	55,423
بلدة بريمن	بريمن	1	88,856
إيالة هاس دارمستات	دارمستات		845,571
جملة السكان والأصوات		**26**	**5,954,080**

واعلم أن هذه الدول كلها قانونية وراثية، ولكل واحدة منها قمرة خصوصية، أي مجلس نواب، إلا بلدة هامبورغ وبلدة لوبك وبلدة بريمن؛ فإنها جمهورية، وإلا إيالتي رويس فإنهما من الدول ذوات السلطان المطلق، وهما بالنسبة إلى غيرهما من تلك الدول متأخرتان في مجال التمدن. والظاهر من الأحوال الجارية الآن في أوروبا أنهما لا بد أن تتخذا الكونستيتوسيون لتساويا بقية الدول.

الباب الثامن

في الكلام على مملكة إيطاليا

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن إيطاليا – بمقتضى الأخبار المنقولة عن الرومانيين – كانت تسمى في الزمن القديم ساتورنيا، وفي سنة سبعمائة وألف تقريبًا قبل الميلاد وفدت جماعة من سكان أركاديا – وهي قطعة من المورة – إلى إيطاليا، تحت رئاسة كبيرهم المسمى أنوتروس، فَتَسَمَّت البلاد المذكورة أنوتريا، نسبة إلى الرئيس المذكور، ثم سماها إيطالوس أحد خلفائه إيطاليا نسبة إليه. وقبل حرب تروية بمدة وجيزة، أعني في سنة ثلاثمائة وألف تقريبًا قبل الميلاد، اضطر إيفاندروس حفيد ملك أركاديا إلى الرحيل من عمل البيلوبونيز – وهو اسم عمل المورة القديم – وتوجه لإيطاليا مع جماعة من الأركاديين، وأنشأ المدينة الصغيرة المسماة بالأنتيوم، على الجبل الذي سُمِّي فيما بعد بلاتين. وبعد ذلك بمدة يسيرة وفد أنياس صهر ملك تروية على مصبّ وادي التيبر، مع فرقة من عسكره الذين سَلِمُوا من شر الإغريق، وعقد على بنت الملك لاتينوس المسماة لافينيا، وأنشأ مدينة لافينيوم سنة خمسين ومائتين وألف تقريبًا قبل الميلاد. وعلى كل حال فإن في الأزمان القديمة كانت إيطاليا مسكونة بأمم يقال لهم أبو ريجان، أي أصليون، ثم أتاها البيلاج والليبورن

والأوسك، ثم أتاها جماعة من طائفة الإغريق الجديدة، ودخلها مرتين غزاة من أهل البر الذي هو الآن فرنسا وألمانيا، وهم السمبروالسنون وغيرهم، ويقال لهم أيضًا سلت أصحاب بلوفيز. وتخلل بين الدخولين جماعة من جبال الراسية، يقال لهم إتروسك، والمذكورون كانوا دولة جمهورية قوية بإيطاليا حتى قدم بلوفيز إليهم في سنة سبع وثمانين وخمسمائة قبل الميلاد.

فمن ذلك العهد ابتدأ انحطاطهم، وانتهزت رومية الفرصة في تطويع الدولة المذكورة لها. ورومية هذه التي كانت محلاًّ للفوز على سائر إيطاليا، وتكوين سلطنة عجيبة لا مثيل لها في الدنيا ذلك الوقت، اختُطَّتْ في سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة قبل الميلاد، فَحَكَم فيها أولاً سبعة ملوك، من السنة المذكورة إلى سنة تسع وخمسمائة قبل الميلاد. وفي عهد الملك الثالث والرابع منهم صار لها شأن معتبر، وفي عهد الثلاثة الباقين صارت قوية وذات ثروة وعمارة كثيرة، واستولت على بعض جيرانها من الأمم، وظلم الملك تركوينيوس أحدهم أوجب خلع الولاية عنهم وصيرورتها دولة جمهورية في السنة المذكورة، وصاحب الأمر والنهي في الدولة المذكورة كان يقال له قنصل، أعني مستشارًا، وبهذا الانقلاب وقفت رومية عن التقدم والانتشار مدة مائة وستين سنة. وكانت الأمم القوية بإيطاليا في ذلك الوقت الرومان والغوليين في شمالها، والسمنيت في جنوبها، ولكن من سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة إلى سنة خمسين وثلاثمائة قبل الميلاد ضيع الغوليون قُوَّتَهُم من غير نفع.

ثم من سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة إلى سنة سبع وستين ومائتين قبل الميلاد عظمت شجاعة الرومان، حتى إنهم انتصروا على السمنيت، وحازوا جميع وسط إيطاليا وجنوبها. وفي المدة المذكورة تظاهر الرومان بأوصاف فخرهم الحربية والبلدية التي بنوا عليها قوة بلادهم، وتغلبوا على جانب من بلاد الغوليين من سنة إحدى وعشرين ومائتين إلى سنة ثلاث وسبعين ومائة. وفي سنة اثنتين وأربعين للميلاد انضمت القطعة المذكورة إلى إيطاليا، وصارت عمالة من عمالات الرومان.

وبعد ذلك العهد اختلط تاريخ إيطاليا بتاريخ رومية، وصارت تابعة لها في أحوالها، ثم مدت رومية أخيرًا خطى قوتها خارج إيطاليا، وتسلطت شيئًا فشيئًا على جانب كبير من الدنيا المعروفة عند الأقدمين.

وفي سنة ثلاثين قبل الميلاد أبطل أوكتافيوس - أحد ولاتها - الدولة الجمهورية، واستَبَدَّ في الملك بلقب أغسطوس، وإمبراطور أي سلطان، فمن ذلك العهد ابتدأت السلطنة الرومانية التي يقال لسلاطينها قياصرة.

وفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة مسيحية، بعد موت الإمبراطور تيودور انقسمت السلطنة المذكورة إلى سلطنتين: سلطنة الشرق وسلطنة الغرب، وبقيت مدينة رومية قاعدة سلطنة الغرب. ولما خربت السلطنة المذكورة في سنة ست وسبعين وأربعمائة مسيحية، أغار على إيطاليا أمة يقال لها هيرول، وملكتها من

السنة المذكورة إلى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة مسيحية، ثم أمة يقال لها أوستروغوت من السنة المذكورة إلى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة مسيحية، ثم دخلت في ملك السلطنة الشرقية من هذه السنة إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة.

ثم أتى إليها في السنة المذكورة قوم اللونغوبارد، ويقال لهم أيضًا لومبارد واستولوا على أقاليمها الشمالية، فانقسمت حينئذ قسمين: قسم للومبارد سمي إيطاليا اللومباردية أو البربرية، وفيما بعد لومبارديا، وقسم للسلطنة الشرقية سمي إيطاليا الإغريقية أو الرومانية، وهذه القطعة الثانية منها كان يقال لواليها أيكزارخوس، وهي لفظة يونانية معناها حاكم في الخارج، وكان مقره بمدينة رافينا. وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة وقعت هناك ثورة؛ بسبب ظلم الإمبراطور الإغريقي ليون الثالث، واستقلَّت إمارة رومية، وترتبت دولة جمهورية تحت رئاسة الباب. ولكن بعد مدة قليلة صار الوالي الإغريقي يجور على البابوات من جهة وملوك اللومبارديا من جهة أخرى، حتى إن البابا إسطفان الثالث اضطر إلى طلب إعانة شارل مارتل ملك فرنسا. وبينما الأمر كذلك إذ امتد اللومبارد إلى جهة الجنوب، حتى أخذوا من الإغريق في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة قطعة، وسموها عمالة بنفانتو، ولكن خُرِّبَت مملكتهم الأصلية أيضًا بفعل الإمبراطور شارلمان في سنة أربع وسبعين وسبعمائة.

وصارت إيطاليا حينئذ منقسمة إلى ثلاثة أقسام، وهي إيطاليا الإفرنجية، وإيطاليا اللومباردية، وإيطاليا الإغريقية، وفي الانقسام المذكور لم يكن البابوات ملوكًا مستقلِّين بل كانوا تحت سلطة الإمبراطور.

وبعد وفاة شارلمان بقليل صارت إيطاليا مملكة مستقلة، وفي سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة مسيحية أضيف إليها تاج السلطنة. والتاج المذكور كان لبسه من حقوق ملوك الإفرنج المعروفين بالكارلونجيان، ولكن بعد تأخير السلطان شارل الضخم منهم في سنة ثمانٍ وثمانين وثمانمائة اجتهد بعض أمراء الطليان - وهم برانجي وغي وغيرهما - أن يحصلوا على تاج الإمبراطورية وتاج إيطاليا أو أحدهما، وبعد زوال السلالة الكارلونجيانية من ألمانيا في سنة إحدى عشرة وتسعمائة بقي الأمراء المذكورون مستقلين.

وفي سنة اثنتين وستين وتسعمائة أرجع أوتون الأول إمبراطور ألمانيا شمال إيطاليا تحت حكمه، وأراد من بعده الاستيلاء على إيطاليا الإغريقية، وخصوصًا هنري الثالث منهم؛ فإنه جعل البابوات تابعين لسلطنته، وذلك من سنة تسع وثلاثين وألف إلى سنة ست وخمسين وألف مسيحية.

ولكن في سنة ثلاث وسبعين وألف استقل البابا غريغوريوس السابع من التبعية المذكورة، وسعى في رفع الرتبة البابوية على رتبة السلاطين، بواسطة إثارته لنازلة الخلعة[1] التي دام نزاعها إلى سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف مسيحية.

(١) نازلة الخلعة: حادثة خصومة وقعت بين البابا قراقور السابع والإمبراطور هنري الرابع، وأجبر البابا الإمبراطور على الاعتذار بصورة مذلة سنة ١٠٧٧ م. (م).

وفي ذلك الوقت دخل النورمنديون - نسبة إلى عمالة نورمنديا من أعمال فرنسا - إلى إيطاليا الإغريقية وافتكُّوها من سلاطين الشرق ومن اللومبارد، وأحدثوا مملكة الصقليتين سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف، بولاية روجير الأول ملكًا عليهما وتابعًا للبابا.

وفي أثناء ذلك اشتعلت الحرب بين حزب الغوالف وحزب الجيبلين الطليان، ودامت من سنة إحدى وستين ومائة وألف إلى سنة ثمان وستين ومائتين وألف، ففاز الغوالف، وطُرِدَ الألمانيون من إيطاليا، واستقلت بلدان اللومبارديا والطوسكانة، ونادت بالحكم الجمهوري، ولم يبق لها خوف من تسلط سلاطين ألمانيا عليها. ولكن جُلَّ ولاة البلدان المذكورة كانوا ظُلاَّمًا، وطالما طرد البابا من رومية، وانتصب الحكم الجمهوري بها، وشيئًا فشيئًا تمكن حال إيطاليا في التأسيس بعد ثورات شديدة.

وانقسمت مملكة الصقليتين بعد الثورة المشهورة بفابر سيسيليان، سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف إلى مملكتين: مملكة نابلي ومملكة صقلية، واستولى على المملكتين المذكورتين بيتان متعاديان، ودام هذا الحال إلى سنة أربع وخمسمائة وألف. وصارت ميلانو تخت عمالة معتبرة في عهد الأمراء من بيت فيسكونتي، الذين دامت العمالة المذكورة بأيديهم من سنة سبع وسبعين ومائتين وألف إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة وألف، ومن بيت سفورتسة الذين دامت ولايتهم عليها من السنة المذكورة إلى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وألف.

ورفع الكونت أمدى السادس الملقب بالأخضر شأنًا كبيرًا لعمالة سافويا، من سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف إلى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وألف.

ومنذ القرن الرابع عشر صارت البندقية تمتد في بَرِّ إيطاليا، وكانت بيت آست في عمالة فرارة، وبيت غونزاغة بمانتوة، واشتهرت مدينة فلورانسة من بين بلدان طوسكانة، وابتدى تأسيس بيت ميدشي فيها.

ورجع البابوات لإيطاليا بعد أن كانوا منفيين مدة سبعين سنة ببلدة أفينيون من فرنسا، أعني من سنة تسع وثلاثمائة وألف إلى سنة ثمانٍ وسبعين وثلاثمائة وألف، وأرجع الكردينال البورنوس حكم البابا أينوسان السادس، ونشره في جُلِّ بلدان العمالات الكنائسية سنة ستين وثلاثمائة وألف.

ومع ذلك لم يتيسر لإيطاليا أن تُحمى بالتمام من جَوْر الأجنبي، وطالما سعى البابا جول الثاني، من سنة ثلاث وخمسمائة وألف إلى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة وألف في طرد البربر من إيطاليا؛ فإن فرنسا وإسبانيا كانوا يتقاتلون على أخذ هذه البلاد الجميلة، لكن خاب سعي ملوك فرنسا - وهم شارل الثامن ولويز الثاني عشر وفرنسوى الأول - وفازت إسبانيا باستيلائها على مملكة الصَّقَلِّيَّتَيْن سنة خمس وخمسمائة وألف، ثم استتبعت عمالة ميلانو لها في سنة أربعين وخمسمائة وألف، بحيث إنها حصرت إيطاليا شمالاً وجنوبًا، ورتبت باقيها كما شاءت، ولم تبق إلا البندقية مستقلة.

وفي القرن السابع عشر نقصت سلطة إسبانيا بإيطاليا، وفي الثامن عشر كادت تزول بالكلية، بدخول عمالة ميلانو ومملكة الصقليتين تحت حكم النمسة، من سنة ست وسبعمائة وألف إلى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وألف.

ولكن من سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وألف إلى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وألف، استولى في عمالة بارمة ومملكة الصقليتين فرعان من بيت البوربون الإسبنيوليين بشرط أن لا تضم العمالتان المذكورتان إلى مملكة إسبانيا أبدًا.

ثم تبدَّلت أحوال إيطاليا مدة بسبب حروب الثورة الفرنساوية في عهد نابليون الأول؛ فإنه وقع انضمام عمالتي سافويا والبييمونت لفرنسا في سنة إحدى وثمانمائة وألف، ووقع افتكاك عمالة ميلانو من النمسة، وجعلها دولة جمهورية، وأخذت دولة النمسة بدلاً عن ذلك البندقية، وما تبعها واستولى على الطوسكانة أمير من آل بيت إسبانيا. وفي سنة خمس وثمانمائة وألف، بعد حرب أوسترليتس وشروط برزبوغ، أضيفت البندقية مع ما تبعها إلى عمالة ميلانو، وسُمِّيَت مملكة إيطاليا، وضمَّت جنوة إلى فرنسا، وفتحت العساكر الفرنساوية مملكة نابلي، ولم يبق منها بيد ملكها فرديناند الرابع سوى جزيرة صَقَلِّيَّة. وأولى نابليون في المملكة المذكورة أخاه جوزاف سنة سبع وثمانمائة وألف، ثم صِهْره مرات سنة ثمان وثمانمائة وألف. وسلمت مملكة سوطكانة في ملكها سنة سبع وثمانمائة وألف، وأضيفت المملكة المذكورة إلى فرنسا، وأضيف جانب من عمالة البابا لمملكة إيطاليا، وكذلك التيرول الجنوبي في سنة تسع وثمانمائة وألف وأضيفت رومية مع

ما بقي من عمالة البابا لفرنسا، بحيث إن إيطاليا بتمامها كانت تابعة لنابليون بأربع كيفيات ما عدا جزيرة صقلية؛ فإنها بقيت بيد بوربون نابلي، ومملكة سردانية بقيت بيد سافويا؛ وذلك أن سائر الجهة الكائنة بين الشمال والغرب كانت معدودة قطعة من فرنسا، ما عدا عمالة لوكة وبيومبيونو، التي أعطاها لأخته أليزة وسائر الجهة الشرقية مع جانب من عمالة البابا، كانت معروفة باسم مملكة إيطاليا، وكانت تحت إدارة البرنس أوجان ابن زوجته الأولى بالنيابة عنه، برتبة كاهية الملك. ومملكة نابلي كانت تحت حكم صهره مرات. وكان وقع تأخير البابا كبقية أمراء الطليان.

ولكن بعد وقائع سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف رجعت عمالة رومية بتمامها للبابا، بمقتضى شروط وينّي الشهيرة، ورجع لبيت سافويا عمالة سافويا والبييمونت ونيسة وجنوة، واستولت دولة النمسة على ميلانو والبندقية، ولُقِّبَتَا بمملكة اللومبارديا والبندقية.

واستولى بطوسكانة ومودنة أميران من آل بيت النمسة، وأعطيت عمالة بارمة لماريا لويزة زوجة نابليون الثانية، وبقيت مملكة نابلي بيد مرات، ولكن وقع افتكاكها منه في مدة نابليون الثانية المُعَبَّر عنها بمدة المائة يوم، وترجيعها لفرديناند الرابع ملكها الأول.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وثمانمائة وألف ثارت مملكة اللومبارديا والبندقية على دولة النمسة، وانفصلت صقلية من نابلي، وتأسس بنابلي وسردانية الحكم

القانوني المُعَبَّر عنه بالكونستيتوسيون، ونادت رومية وطوسكانة بالحكم الجمهوري. ولكن في سنة تسع وأربعين وثمانمائة وألف رجع كل شيء لحاله. وفي سنة تسع وخمسين وثمانمائة وألف وقعت الحرب بين فرنسا وسردانيا وبين النمسة، فافتكت العساكر الفرنساوية والسردانيّة عمالة اللومبارديا من النمسة، وبمقتضى أصول شروط الصلح المنعقدة في حادي عشر يولية سنة تسع وخمسين وثمانمائة وألف، ببلد فيلافرانكة بوادي المينشيو أحال إمبراطور النمسة عمالة اللومبارديا المذكورة لإمبراطور الفرنسيس، وهو نقل الإحالة المذكورة لملك سردانية. وأصول الشروط المذكورة وقع تصحيحها بمدينة زوريك، ولُقِّبَت شروط الصلح باسم المدينة المذكورة، مُؤَرَّخَة في الحادي عشر من نوفمبر سنة تسع وخمسين وثمانمائة وألف.

وبينما كانت الحرب واقعة باللومبارديا قامت عمالات الطوسكانة وبارمة ومودنة والرومانية، وفي شهر إشتنبر سنة تسع وخمسين وثمانمائة وألف اجتمع أربع جمعيات منتخبة بالاقتراع العمومي بفلورانسة وبارمة ومودنة وبولونيا، وحكموا بتأخير ملوكهم السابقة، وانضمام ممالكهم لمملكة سردانية تحت ولاية الملك فيكتور إمانويل الثاني من بيت سافويا القانونية. ووقع عرض الرأي المذكور على الأهلين، فوافقوا عليه من غير تعرض، وقبل ملك سردانية حكم الانضمام المذكور، وأمر بانضمام بارمة ومودنة والرومانية بمنشوره المؤرخ في الثامن عشر من مارس سنة ستين وثمانمائة وألف، وأمر بانضمام الطوسكانة بمنشوره المؤرخ في الثاني والعشرين من الشهر المذكور.

وبسبب الوقائع الحربية التي تَمَّت في السنة المذكورة نادى أهل عمالة المارش والامبريا من مملكة رومية، وأهل نابلي وصقلية بالانضمام أيضًا.

وفي سلخ أكتوبر واثنين في دجمبر سنة ستين وثمانمائة وألف، قَبِلَ الملك المناداة المذكورة، ووافق على اجتماع العمالات المذكورة مملكة واحدة، بأوامره المؤرخة في السابع عشر من دجمبر.

ثم في السابع عشر من مارس سنة إحدى وستين وثلاثمائة وألف، وقع نشر القانون الذي بمقتضاه سمى الملك فيكتور إمانويل الثاني نفسه ملك إيطاليا، مع تسلسل هذا الاسم في ذُرِّيَّته.

وفي سنة ست وستين وثمانمائة وألف انضمت عمالة البندقية لهذه المملكة الجديدة.

الفصل الثاني
في أسماء ملوك إيطاليا وترتيبهم في الولاية

اعلم أن بيت سافويا متأصل من العائلة المعروفة بالعائلة الساكسونية، وهي عائلة كبيرة منقسمة إلى ستة فروع، منها فرع إمبراطورات جرمانيا. وكبير البيت المذكور هومبرت الأول، الذي أقامه رودولف الثالث ملك بورغونيا واليًا على سافويا وموريان بلقب كونت، وكان يقال له ذا الأيادي البيض.

واختلف المؤرخون في اسم أبيه؛ فمنهم من قال: هو ابن رجل يقال له برتولد أو بارولد كونت موريان، ومنهم من زعم أنه ابن رودلف المذكور، ومنهم من زعم أنه ابن هوغ مركيز إيطاليا. ولقب هومبرت هذا بكونت سافويا في سنة سبع وعشرين بعد الألف، ونال من إمبراطور جرمانيا كونراد الملقب بالساليك عمالتي الفوسينيي والشابلي الأسفل، والعمالة المُسَمَّاة وال دواستة - أي وادي أوستة وهو اسم مدينة - كلها من أعمال سافويا في سنة أربع وثلاثين بعد الألف.

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك وأنسابهم
		عائلة كونتات سافويا
1027	1048	هومبرت الأول المذكور
1048	1060	أمدى الأول قيل ابن هومبرت وقيل حفيده
1060	1080	أمدى الثاني ابن أخي الأول
1080	1103	هومبرت الثاني الملقب بالمتقي
1103	1148	أمدى الثالث، تسلط الإمبراطور هنري الخامس على بلاده وجعلها كونتية السلطنة الجرمانية
1148	1188	هومبرت الثالث
1188	1233	توماس الأول
1233	1253	أمدى الرابع
1253	1263	بونيفاس عرف رولاند مات مسجونًا
1263	1268	بطرس أخو أمدى الرابع، ويقال له شارلمان الصغير
1268	1285	فليب الأول أخو بطرس
1285	1323	أمدى الخامس الملقب الكبير
1323	1329	إدوارد الملقب بالسَّخي
1329	1343	إيمون الملقب بالسليم أخو إدوارد
1343	1383	أمدى السادس، ويقال له الكونت الأخضر

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك وأنسابهم
		عائلة دوكات سافويا
1383	1391	أمدى السابع، ويقال له الكونت الأحمر
1416	1451	أمدى الثامن، ولاّه الإمبراطور سيجز موند خطة دوك في 1416، وسلم المُلْك لابنه لويز في 1434، ثم انخلع له في 1440؛ لأنه انتخب بابا
1440	1465	لويز الأوّل المذكور
1465	1472	أمدى التاسع
1472	1482	فيلبرت الأول المسمى الصياد
1482	1489	شارل الأول المسمى الحربّي أخو فيلبرت
1489	1496	شارل الثاني، ولد في 1488، وكانت الإدارة بيد أمه
1496	1497	فيليب الثاني ابن لويز الأول، ولد في 1438
1497	1504	فيلبرت الثاني المسمى الجميل
1504	1533	شارل الثالث المسمى الطبيب أخو فيلبرت
1533	1580	إمانويل فيلبرت المسمى رأس الحديد
1580	1630	شارل إمانويل الأول الملقب بالكبير
1630	1637	فيكتور أمدى الأول
1637	1638	فرنسوى ياسينت مات في سنّ السبع سنين

من سنة	إلى سنة	أسماء الملوك وأنسابهم
1638	1675	شارل إمانويل الثاني
1675	1713	فيكتور أمدى الثاني
		عائلة ملوك سردانية
1713	1730	فيكتور المذكور، تولى ملكًا على سردانية وغيرها، بلقب فيكتور أمدى الأول
1730	1773	شارل إمانويل الأول
1773	1796	فيكتور أمدى الثاني
1796	1802	شارل إمانويل الثاني
1802	1820	فيكتور إمانويل الأول
1820	1831	شارل فليكس
1831	1849	شارل ألبرت من فرع سافويا كارينيان، تولى الملك لأن شارل فليكس لم يخلف عقبًا، ثم انخلع لولده فيكتور إمانويل الثاني في 23 من مارس سنة 1849، عند تغلب جيوش أوستريا عليه في واقعة نفارة، وتوفي مهاجرًا لبلاده في مدينة إبورتو، من أعمال مملكة البورتوغال في أواخر السنة المذكورة
		ملوك إيطاليا
1861		فيكتور إمانويل المذكور المالك الآن

الفصل الثالث
في وصف إيطاليا

إيطاليا قطعة من جنوب أوروبا، كائنة بين سبع وثلاثين درجة وخمسين دقيقة وست وأربعين درجة وأربعين دقيقة من العرض الشمالي، وبين ثلاث درجات وخمس وأربعين دقيقة وست عشرة درجة وخمس دقائق من الطول الشرقي. وهي شبه جزيرة، وشكلها شكل جزمة ذات مهماز. وحدُّها من جهة الشمال سويسرة والنمسة، وبين الشمال والغرب فرنسا، ومن الغرب وبينه وبين الجنوب البحر الرومي المسمى مديتراني، ومضيق مسينا الفاصل بينها وبين صقلية، وبين الجنوب والشرق البحر الرومي أيضًا، ومن جهة الشرق بحر الأدرياتيك.

وطولها ألف وثلاثمائة كيلو ميتر، وذلك من الجبل المسمى مون بلان إلى رأس سبارتيفينتو. وعرضها يختلف جدًّا؛ فإنه من جهة الشمال يبلغ قدره خمسمائة وخمسين كيلو ميترًا، وفي الوسط ومن جهة الجنوب لا يزيد على مائتين وعشرين كيلو ميترًا مع أنه في بعض الأماكن يضيق حتى إنه لا يتجاوز ستين كيلو ميترًا.

ومساحتها مع جزرها مائتان وأربعة وثمانون ألفًا وأربعمائة وخمسة وستون كيلو ميترًا مربعًا.

وعدد سكانها - على ما تحرر سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف - أربعة وعشرون مليونًا ومائتان وثلاثة وستون ألفًا وثلاثمائة وعشرون نفسًا، كلهم على المذهب الكاتوليكي إلا النادر منهم.

وجزرها المعتبرة الخاصة بها جزيرة صقلية وجزيرة سردانية، وفي جنوب جزيرة صقلية جزيرة بنتلارية، وبين صقلية والبر جزر ليباري، وفي مدخل جون نابلي جزر إيسكيا وكابري، وبين طوسكانة وكورسكة جزيرة ألبا.

قال نابليون: إنه لا توجد قطعة من أوروبا أحسن من إيطاليا وضعًا لصيرورتها دولة بحرية عظيمة؛ فإن طول شطوطها في البر يبلغ ألفين وثلاثمائة كيلو ميتر تقريبًا، وجزيرة سردانية مع جزيرة صقلية لهما ألف وأربعمائة كيلو ميتر من الشطوط، بحيث إن إيطاليا مع سائر جزرها كبارًا وصغارًا تحتوي على ثلاثة آلاف وتسعمائة كيلو ميتر من الشطوط. وقبل سنة تسع وخمسين وثمانمائة وألف كانت إيطاليا منقسمة إلى إحدى عشرة عمالة، وهي مملكة سردانية، وإمارة موناكو، ومملكة اللومبارديا، والبندقية، ودوكات مودنة، ودوكات بارمة، ودوكات لوكة، ودوكات ماسة، وكرارة، وغران، دوكات الطوسكانة، وعمالة البابا، وجمهورية صان مرينو، ومملكة نابلي.

وجميع الممالك المذكورة اجتمعت الآن وصارت مملكة إيطاليا، ما عدا قطعتين صغيرتين، وهما مونكو وصان مرينو، ومدينة رومية والبر المجاور لها الذي بقي لدولة البابا.

وفي جهتي الشمال والغرب من إيطاليا تمتد جبال الألب، وتتصل بها جبال الأبنين التي تشق إيطاليا طولاً، وتتفرق منها عدة جبال صغار، منها جبل النار المسمى فيزوف. وفي صقلية توجد أيضًا سلسلة جبال أعظمها الجبل الناري المسمى آتنة.

ويجري في شمال إيطاليا نهر عظيم يسمى بو تنصب، فيه جُلّ أنهار تلك الجهة، كالتيشينو والآدا والأوليو، والمينشيو والترابيا والطارو، وغيرها، ما عدا نهر الأيزونصو والتليامينتو، والبيافي والبرينتة والأديجي؛ فإنها تَنْصَبُّ في بحر الأدرياتيك.

وفي جهة الوسط والجنوب تجري أنهر صغيرة عديدة تَنْصَبُّ في البحر.

ويوجد في إيطاليا الشمالية عدة بحيرات، منها البحيرة المسماة لاغو ماجوري، أي البحيرة الكبرى، وبحيرات كومو وغاردا، ولوغانو وليكو، وإيزيو.

وفيها طرق معتادة للمواصلة كثيرة.

وأما طرق الحديد فإن المنجز منها في سنة خمس وستين وثمانمائة وألف أربعة آلاف وأربعمائة واثنا عشر كيلو ميترًا، والتي أشرفت على التمام أربعة آلاف وثمانمائة واثنان وثمانون كيلو ميترًا.

وإيطاليا مشهورة بطيب الهواء وحسنه، ما عدا الجهة الوسطى منها؛ فإنه يوجد فيها مستنقعات تسمى بونتين، يحدث منها كل سنة أمراض عامة. وأرضها تختلف، لكنها في الغالب خصبة، وخصوصًا عمل اللومبارديا، الذي ينتج فيه الأرز بكثرة وسائر أنواع الحبوب، وعمل نابلي، الذي زيته وخمره وبردقانه لها صيت عظيم في أوروبا.

وفي الأماكن الجنوبية المتطرفة يُزرع القطن والقصب الحلو، ودود الحرير والنحل يعطيان من ثمرهما مقدارًا وافرًا.

وحيوانها كحيوان سائر أوروبا ما عدا الجاموس الذي صار متأنّسًا، ونوع خروف يوجد بجزيرة سردانية.

وتوجد بها الحيوانات ذوات السموم بكثرة، وفي شطوطها حوت كثير لذيذ.

وغنى إيطاليا الأرضي من أنواع الأحجار الثمينة أكثر من المعادن، وهو ركن مهم؛ فإنه يوجد بها أنواع البرفير والرخام والمرمر، بجبال الألب والأبنين وبكرارة وفلتيرة، والرخام المركَّب من ألوان كثيرة، في ستاتسيمة، والرخام الأسود

في بيستويا والرخام الأخضر في براتو، وحجر فلورانسة الذي بعد صقل بلاطه تظهر فيه أشكال ديار خربة وأشجار، والحجر الذي بعد حرقه يتكون منه ما يعرف بفسفور بولونيا، الذي يلمع في الظلام، واليماني ببارمة وغيرها من أعمال الطوسكانة وفيشنسة وسيينة والبييمونت وجبل الفيزوف.

وأما مقاطع صقلية وسردانية فإنها تعطي جانبًا يسيرًا من الذهب، وقناطير قليلة من الفضة، وألوف قناطير من الرصاص، وخمسمائة أو ستمائة ألف قنطار من الحديد.

وتوجد أيضًا بإيطاليا مقاطع زئبق ونحاس، وتوتيا وكبريت، وشب وملح، وبعض عيون معدنية مشهورة كشهرة عيون ألمانيا.

ويصنع بها الأقمشة الحريرية والصوف، والبرنجق والدويدة، وغيرها من أنواع العجين، والمرايا، والبرانيط، وغير ذلك. ولها صنائع خاصة بها تتقنها، كالفرفوري والفخار الفائق، وآلات الطرب، وأوتارها، وأمور السعف والتبن المنسوبة لها.

وقد قل كثيرًا متجر إيطاليا البحري منذ كُشفت أمريكا ورأس الرجاء الصالح.

ومدنها المشهورة بالتجارة البندقية وآنكوانة، وغرنة وجنوة.

والتجارة الداخلية غير نامية أيضًا، لكن باجتماع إيطاليا في مملكة واحدة ستزول جميع الموانع التي كانت مُعَطِّلَةً للمتجر المذكور. وقد بلغت قيمة متجرها في سنة أربع وستين وثمانمائة وألف، ألفًا ومائتين وأربعين مليونًا وتسعمائة وسبعين ألفًا وتسعمائة وتسعة وعشرين فرنكًا، الخارج منها أربعمائة وخمسة ملايين وثمانية وخمسون ألفًا وثمانمائة وسبعة وثمانون فرنكًا.

وعدد المراكب الداخلة لمراسيها والخارجة منها سنة أربع وستين وثمانمائة وألف، مائتان وواحد وثلاثون ألفًا وتسعمائة وسبعة، الخارج منها مائة وخمسة عشر ألفًا وأربعمائة وخمسة وأربعون. محمول جميعها من الطونلاتات ستة عشر مليونًا وسبعمائة وستة وستون ألفًا ومائتان وأربعة وستون. والسبب في كثرة مراكب هذه الدولة مع أن متجرها أقل بكثير من متجر فرنسا، التي لا يدخلها من المراكب ما يدخل إيطاليا، هو أن غالب هذه شطوط، فيدخلها قاصدها وغير قاصدها من المراكب الجائلة في البحر الرومي وبحر البنادقة، بل يمكن دخول المركب الواحد عدة مراسٍ من مراسيها، ونظير هذا السبب يوجد في بعض الممالك كالدنمارك.

وعمل الطرق الحديدية ابتدى تسهيله.

ويوجد في جميع أعمال إيطاليا قمرات متجرية، والبانكات أخذت الآن في التكاثر.

وبقيت إيطاليا مدة من الزمان مقرًّا للصنائع المستظرفة، أعني التصوير والنقش، ويرغب في انتيابها كثيرًا السَّوَّاحون[1]؛ لكثرة الأبنية الهائلة بها.

وخرج منها رجال معتبرون في جميع الأمور لا يتيسر تسمية جميعهم؛ لكثرة عددهم، فلنكتف من الشعراء الأقدمين بدانتي وبتراركا، وأريوستو وتاسو، ومتستازيو وألفياري. ومن المؤلفين المهرة ببوكاتشو وغويتشرديني، ودافيلا. ومن أهل السياسة بمكيافلي وفيكو. وبكاريا وفيلنجياري. ومن المصورين برفاييل وليوناردو دافينشي وتيتسيانو وتينتورلي، وكوريجيو وكاراتشو، وسالفتور روزا. ومن النقاشين الحُذَّاق بميكيلانجلو وكانوفا. ومن المؤلفين في الموسيقى ببوربرة وبرغوليزي، ومن الفلكيين بغليلاو وتوريشلي وفولطة، ومن البابوات بغريغوريوس السابع وسيستو الخامس وليون العاشر. والقرن السادس عشر الذي وجد فيه كثير من هؤلاء المهرة يُسمى قرن ليون العاشر، وهو معدود من الأربعة القرون المشهورة بالعلوم.

(١) السواحون: السياح. (م).

الفصل الرابع
في الكلام على قوانين دولة إيطاليا

اعلم أن الملك شارل ألبرت صاحب مملكة الصاردو هو الذي أعطى القانون الجاري به عملهم اليوم، بمنشوره المؤرخ بالرابع من مارس سنة ثمانٍ وأربعين وثمانمائة وألف، المُتَضَمِّن أن من حقوق الملك تنفيذ القوانين، والإمرة على العساكر البرية والبحرية، وعقد الحرب والصلح، وشروط المعاهدة والتجارة. ولكن إذا كان في ذلك ما يوجب زيادة مصاريف أو نقصًا من حدود المملكة فلا بد من عرضه على موافقة مجلس نواب العامة.

ومن حقوقه نصب الوزراء وتعيين جميع الوظائف، وتأخير من لم تكن وظيفته عمرية متى شاء، وتعيين وقت اجتماع المجلس الأعلى ومجلس النواب، وتعطيل الثاني إن اقتضى الحال ذلك، بشرط أن يطلب من الأهالي انتخاب مجلس جديد في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر، وعرض ما يستحدثه من القوانين على المجالس المشار إليها، ثم إمضاؤها بعد موافقتهم عليها، وإصدار الأوامر بتنفيذ القوانين، والعفو عمن شاء من أهل الجرائم.

وهذه الأمور وإن كانت كلها من حقوق الملك فإنها متوقفة على إجازة الوزراء؛ لما عليهم من المسؤولية للمجلسين المذكورين عن تصرفات الدولة، حتى إنه لا يسعهم البقاء في الوزارة إذا لم يكن رأي الغالب من المجلسين موافقًا لسياستهم كما تقدم في الدولة الأنكليزية.

الفصل الخامس
في بيان حقوق الأهالي

فمنها المساواة في الحقوق المدنية والسياسية، والمساواة لدى الحكم، والحرية الشخصية، واحترام الأملاك، وحرية المطابع والاجتماعات العمومية للمفاوضة في مصالح الأهالي، وعرض كل أحد ما يظهر له من الشكايات على المجلسين المذكورين.

الفصل السادس
في بيان مجالس المملكة

المجلس الأعلى المسمى بالسناتو يتركب من أعضاء، ينتخبهم الملك من أعيان المتوظفين، ومن كبراء الكنيسة، ومن نجباء أهل المملكة. ومن حقوق أمراء العائلة الملكية أن من بلغ منهم سِنُّه إحدى وعشرين سنة يدخل في زمرة هذا المجلس، ولكن لا يكون له صوت فيه إلا إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة.

وعضوية هذا المجلس عُمْرِيَّة، وعدده غير محصور، إلا أن به اليوم مائتين وثلاثة وثمانين عضوًا. ومن أعماله التأمل في سيرة الدولة، والمفاوضة فيها علنًا، ثم الاقتراع على القوانين التي تعرض عليه من الأعضاء أو من الملك، ومنها التأمل والحكم فيما يصدر من الوزراء من المخالفات التي يُدّعى بها عليهم من مجلس نواب العامة، وفيما يصدر من الجنايات السياسية المتعلقة بالدولة أو بخصوص ذات الملك.

الفصل السابع
في بيان مجلس نوَّاب العامَّة

مجلس نواب العامة يتركب من أعضاء عددهم اليوم أربعمائة واثنان وأربعون، ممن لا يكون عمره أقل من ثلاثين سنة، بمراعاة أن على كل خمسة وثلاثين نفسًا وكيلاً واحدًا لمدة خمسة أعوام. ولا يكون في هذا المجلس من متوظفي السياسة والعسكر من له مرتب من الدولة إلا إذا كان ذلك في مقدار خمس الأعضاء فلا يضر وجوده.

وأعضاء هذا المجلس ينتخبهم الأهالي، لكن يشترط في المنتخَب (بالفتح) أن يكون من أهل المملكة، وممن يتصرف في حقوقه الشخصية والسياسية، وأن يبلغ عمره ثلاثين سنة. كما يشترط في المنتخِب (بالكسر) أن يكون من أهل المملكة منشأً أو دخولاً في الجنسية، وأن يبلغ عمره خمسًا وعشرين سنة، وأن يعرف القراءة والكتابة، وأن يؤدي على أملاكه أربعين فرنكًا في السنة، أو يدفعها كراء عن محل خدمة صناعته، إلا إذا كان من أعضاء مجالس العلوم أو المتجر، أو المدرسين للعلوم والمعارف وأرباب الوظائف السياسية والعسكرية، ونياشين

الافتخار وسماسرة المتجر، والتلامذة المشهود لهم بالمعرفة؛ فجميع هؤلاء لا يُعتبر في تأهلهم للانتخاب ذلك الأداء السنوي.

ومن أعمال مجلس النواب المفاوضة والاقتراع علنًا على جميع القوانين المعروضة من الدولة أو الأعضاء.

ومن حقوقه الخاصة تعيين مصاريف الدولة، ومقدار الأداء الذي يوظف على الأهالي، والتأمل في سيرة الدولة في الأمور الداخلية والخارجية، وسؤال الوزراء عنها، وإقامة الدعوى على أحدهم أو جميعهم بالخيانة، وتنشر النازلة لدى المجلس الأعلى.

أما رئيس مجلس النواب فينتخبه أعضاؤه. ثم إن للدولة مجلسًا مركبًا من أعضاء ينتخبهم الملك من أعيان المتوظفين، مأموريته إعطاء الرأي في النوازل التي تعرض عليه من الوزراء، وفصل النوازل التي تقع بين المتوظفين فيما يتعلق بالمأمورية، وله تهذيب القوانين، ونحو ذلك من المصالح المشار إليها في الكلام على الدول المتقدمة.

الفصل الثامن
في أحوال الوزراء

إدارة هاته المملكة تحت نظارة تسعة وزراء، يتصرفون عن أمر الملك بمقتضى القانون، ويُسألون في تصرفاتهم للأمة، ويجتمعون للنظر في المصالح تحت رئاسة الملك أو نائبه، ويسمى محل اجتماعهم مجلس الوزراء.

الفصل التاسع
في أحكام الإِيَالات

تنقسم هذه المملكة إلى تسع وخمسين إيالة، وتنقسم الإيالات إلى أوطان كبار، ثم هذه إلى أوطان صغار.

ففي كل إيالة والٍ من طرف الدولة، في صحبته مجلس مُرَكَّبٌ من أعضاء ينتخبهم الملك، مُكَلَّف بإمضاء أوامر الدولة، والنظر في عموم مصالح الإيالات، وغير ذلك مما لسائر الولاة.

كما أن في كل إيالة مجلسًا مركبًا من أعضاء ينتخبهم أهل الإيالة لمدة خمسة أعوام، يكون عددهم ستين عضوًا، في الإيالة التي سكانها أكثر من ستمائة ألف وخمسين فيما دون ذلك، إلى أربعمائة ألف وأربعين فيما دون ذلك، إلى مائتي ألف وعشرين في بقية الإيالات المسكونة بأقل من مائتي ألف.

وفي كل سنة يبدل الخمس من المجالس المذكورة بالقرعة في الخمسة الأعوام الأولى، ثم يصير التبديل بالأقدمية.

وتجتمع هاته المجالس أول يوم اثنين من شهر إشتمبر من كل سنة إلى تمام المدة اللازمة. وخدمتهم تعيين المبالغ اللازمة لمصالح إيالتهم، كتمهيد الطرقات، وبناء القناطر والمارستانات والمكاتب، ونحو ذلك.

وتؤخذ المبالغ المُشار إليها من دخل الأملاك الموقوفة على مصالح الإيالة، وإذا لم يَفِ الدخل المذكور يوزعون المقدار الناقص على الأهالي، بزيادة جزء على المطلوب من كل شخص، وإدارة صرف ما ذكر في المصالح المشار إليها في عُهدة وكلاء الإيالة المنتخبين لمجلس النواب.

ومن مأمورية هاته المجالس النِّظَارة العامّة على إدارة المكلَّفين بديار الصدقات المعيَّنة للفقراء، وإعطاء الرأي في تغيير حدود الإيالات؛ حيث يقتضي الحال إضافة شيء من بعضها البعض وفيما يجب إحداثه من القناطر التي يدفع المارُّون عليها شيئًا معينًا، وفي تعيين الأماكن المناسبة لترسيم الأسواق ومجامع الدواب والسلع المعروضة للبيع، وفي تحرير التراتيب المحترمة، وغير ذلك من مصالح إيالتهم.

الفصل العاشر
في نواب حُكَّام الإِيَالات

في كلّ من أوطان الإيالة الكبار نائب، مأموريته التأمل في تصرّف المجلس البلدي: هل هو موافق للقوانين أم لا، وله في غير الحالة الضرورية تعطيل نفوذ رأيهم، ويبادر بعرضه على والي الإيالة الذي له إبطاله بموجب القانون.

كما يوجد في كل من الأوطان المذكورة مأمور من طرف الدولة، مكلف بحفظ راحة السكان، ومأمور آخر مُكَلَّف بالنظر في أخذ العسكر.

الفصل الحادي عشر
في حُكَّام المراكز الصِّغار

في كل مركز من مراكز الأوطان الصغار مأمور، مكلف من طرف الدولة بالنظر في بقاء راحة السكان الذي هو من واجبات حاكم البلد.

الفصل الثاني عشر
في المجالس البلدية

في كلّ بلد مجلس بلدي، يتركب من ستين عضوًا في البلدان التي يبلغ سكانها ستين ألف نفس، ومن أربعين في المسكونة بما دون ذلك إلى الثلاثين ألفًا، ومن ثلاثين عضوًا فيما دون ذلك إلى عشرة آلاف، ومن عشرين عضوًا فيما دون ذلك لمدة خمسة أعوام.

ويُبَدَّلُ الخُمْسُ في كل سنة كما تقدم، وكلهم تحت رئاسة مشايخ البلدان. وشروط انتخابهم كشروط انتخاب مجلس النواب، غير أنه في اعتبار السن فيمن لهم الكلمة في الانتخاب يبدأ بمن بلغ عمره إحدى وعشرين سنة.

وفي اعتبار الأداء يبدأ بمن يؤدي خمسة وعشرين فرنكًا في البلدان الكبار، وفي التي دونها يبدأ بمن يؤدي عشرين فرنكًا، وهكذا إلى من يؤدي خمسة.

وتجتمع هاته المجالس مرتين في السنة ربيعًا وخريفًا لتمام الخدمة.

وقد يجتمعون لنصب المتوظفين وتأخيرهم عن المباشرة، ولهم التفاوض والانفصال في إدارة مصالح بلدهم، والصدقات، ومكاتب التعليم، والتنظيف، والنظارة على الضبطية، وترتيب قبض المبالغ المعينة للبلدة وتعيين ما يكفي منها لمصالحها، وغير ذلك مما لمثلها في الممالك الأخرى.

الفصل الثالث عشر
في إدارة مصالح البلدان

في كل بلد جمعيَّة مركبة من أعضاء، يعينهم المجلس البلدي تحت رئاسة مشايخ بلدهم، مكلفون بمباشرة إدارة ما يعيّنه المجلس لمصالح البلد، وأعضاء هاته الجمعية ستة في البلد المسكون بثلاثين ألف نفس، وأربعة في المسكون بما دون ذلك.

الفصل الرابع عشر
في تعطيل المجالس

للملك تعطيل خدمة مجالس الإيالات، والمجالس البلدية؛ لأسباب سياسية، بشرط أن يطلب من الأهالي أن ينتخبوا مجالس جديدة في مدة غايتها ثلاثة أشهر. وفي تلك المدة يكلف بعض مأموري الدولة بإجراء المصالح المكلفة بها المجالس المذكورة، وإذا رفع للملك شكاية من سيرة الولاة، أو بعض أعضاء مجلس النواب المكلفين بإدارة مصالح الإيالة، فعلى الملك عرض ذلك على مجلس الدولة.

الفصل الخامس عشر
في بيان مجالس الحكم

اعلم أن الدولة الطليانية هي اليوم عبارة عن مجموع دول إيطالية ودولة الصاردو، كما تقدم؛ ولقرب مدة اتحاد الدول المذكورة لم تجد الدولة فسحة لترتيب مجالس الحكم على نمط واحد؛ ولذلك لم يتيسر لنا بيان عدد المجالس، لكن نقول على الإجمال إن الأحكام بإيطاليا منسوجة على منوال أحكام الممالك الأوروبية، وذوات الكونستيتوسيون كفرنسا وأنكلترة، بحيث إن بها مجالس جنايات تفصل نوازلها بمحضر الجوري، ومجالس عرفية، ومجالس صلح، ومجالس تحقيق، وأربعة مجالس عليا.

الفصل السادس عشر
في بيان مكاتب العلوم

اعتمادًا على ما تقدَّم عند الكلام على التراتيب الفرنساوية، من انقسام المكاتب إلى ثلاث مراتب، ينبغي أن نقتصر هنا على بيان عدد المكاتب وما بها من التلامذة، بمقتضى ما حُرِّر في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف، فمكاتب المرتبة الأولى أحد وثلاثون ألفًا وثمانمائة، بها من التلاميذ مليون ومائة وثمانية وسبعون ألفًا وسبعمائة وثلاثة وأربعون، ومكاتب المرتبة الثانية ألف وستة وتسعون، بها من التلاميذ تسعة وأربعون ألفًا ومائة وخمسة وثمانون. ومكاتب المرتبة الثالثة – وهي العليا – تسعة عشر، بها تسعة آلاف وخمسمائة وستة وثمانون.

وأما البندقية، ففيها من المرتبة الأولى ألفان ومائة وستة وعشرون مكتبًا، بها من التلامذة مائة وسبعة وعشرون ألفًا ومائة وسبعة عشر. ومن الثانية أربعة وثلاثون، بها من التلامذة أربعة آلاف وستمائة وسبعة عشر. ومن الثالثة مكتب واحد، به من التلامذة ألف وثلاثمائة وواحد وثمانون.

وفوق المراتب الثلاث مكتب أعلى لتحرير العلوم.

وللمملكة مكاتب مخصوصة بالعلوم العسكرية، والصنائع، والفلاحة، وإدارتها تحت نظر وزير العلوم، ومجلس معه، ومصاريف المرتبة الثالثة، ومائة وثلاثة وعشرين من الثانية، وسائر المكاتب العسكرية على الدولة، وباقيها على الإيالات والبلدان.

الفصل السابع عشر
في قوة إيطاليا المالية والعسكرية، البرية والبحرية

القوة المالية

– جملة دخل الدولة السنوي 614,811,652 فرنكًا تقريبًا.

– جملة خرجها السنوي 935,386,425 فرنكًا تقريبًا أيضًا.

– 3,103,150,979 فرنكًا جملة الدَّين الذي كان عليها في سنة 1863.

القوة العسكرية البرية في سنة 1866

وقت الحرب	وقلت الصلح	أصناف العساكر
153	153	أمراء الجيش من أمير لواء فما فوق
210	210	إتا ماجور أي أركان الحرب
272,175	138,735	تريس بالضبَّاط إلى الأمير آلاي
18,373	17,895	خيَّالة
21,792	21,792	جاندارم وهم ضبطيّة خيّالة
30,032	18,926	طوبجية
16,990	7,424	مهندسون وعسكر لرفع الأثقال
6,175	3,183	المكلفون ب بإدارة الجيش

وقت الحرب	وقلت الصلح	أصناف العساكر
13,900	13,900	ضباط وعسكر مقيمون بالحصون
115,000		عسكر يدّاك
494,800	**222,218**	الجملة

القوة البحرية بدولة إيطاليا سنة 1866

جملة المراكب ومدافعها 1321	مراكب قلاع	فابورات بها قوة خيل 30210		بحرية	أصناف البحرية والمراكب
		فابورات	فابورات مُدَرَّعَة		
				2	أميرالات
				3	فيش أميرال في مقام أمير أمراء
				10	كنتر أميرال في مقام أمير لواء
				22	قبطانات أجفان
				36	قبطانات فراقط
				150	فسيالات من الرتبة الأولى والثانية
				150	فسيالات صغار
				11193	بحرية
				660	صنائعية
				5850	عسكر معدّ للبحر
14			14		فراقط منها واحدة بالشبور[١]

(١) الشبور: البوق أو صفارة الإنذار. (م).

جملة المراكب ومدافعها 1321	مراكب قلاع	فابورات بها قوة خيل 30210		بحرية	أصناف البحرية والمراكب
		فابورات	فابورات مُدَرَّعَة		
2			2		قرابط
6			6		كوننيار
2			2		بطرية عوامة
2		2			أجفان
9		9			فراقط
22	2	20			قرابط
5		5			كوننيار
11		11			أبركة
31	8	23			لحمل الأثقال
104	**10**	**70**	**24**	**18076**	**الجملة**

القوة البحرية بدولة إيطاليا سنة 1866

طونلاتة	مراكب	أنواع المراكب
669,516	16,398	مراكب قلاع
16,887	50	فابورات
686,403	**16,448**	**الجملة**

الباب التاسع

في الكلام على مملكة إسبانيا

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

هاته المملكة كانت في القديم قبل الميلاد تابعة لدولة اليونان.

ثم استولى عليها القرطاجنيون.

ثم في سنة ثلاث وثلاثين ومائة قبل الميلاد استولى عليها الرومانيون، وصارت من الممالك التابعة لهم، وبقيت بأيديهم نحو خمسة قرون.

ثم استولت عليها الأمَّة المسماة فيزيغوت من أهل الشمال، واستوطنتها إلى سنة عشر وسبعمائة مسيحية.

ثم دخلها الإسلام بفتح العرب لها، واسْتَفْحَل مُلْكهم فيها، واتسع نطاقه إلى أن بلغ من الشهرة والتقدم في التمدن والعلوم والمعارف والصنائع، خصوصًا علم الفلاحة الذي اتخذته الإفرنج قدوة إلى يومنا هذا، ما هو معروف.

ثم انقسم ملكها إلى ملوك طوائف، وصار الملك يخرج من أيديهم بسبب ذلك شيئًا فشيئًا، كما هو مشهور في كتب التواريخ الإسلامية، إلى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وألف، وفيها انقرض مُلك الإسلام من إسبانيا رأسًا.

واستولى فردناند ملك إسبانيا على غرناطة، وهي آخر ممالك الإسلام بها. ودام الملك في ذرية فردناند المذكور إلى سنة سبعمائة وألف، فانقرضت.

وطلب الإسبنيوليون فليب الخامس حفيد ملك فرنسا أن يتولى أمرهم، فتولاه بعد حروب مشهورة بين فرنسا وبقية دول أوروبا الذين أرادوا منعه من الولاية عليها، ودام المُلك في ذريته إلى سنة ثمان وثمانمائة وألف، وفيها وقعت بين ملكها وشارل الرابع من العائلة المذكورة، وبين ابنه فردناند السابع منازعة، في حكاية مشهورة اغتنم فرصتها نابليون الأول، فافتكّ المُلك من أيديهم، وقدم أخًا له، وبقي في يده إلى سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف.

ثم رجع مُلكُها لذرية فليب الخامس بولاية فردناند المذكور، ولا زال المُلك في أيديهم إلى يومنا هذا.

الفصل الثاني
في ملوك إسبانيا وتواريخ ولايتهم

سنة	من عائلة أرغون
1479	فردناند الخامس مع زوجته إيزابيلا صاحبة قسطيلية من عائلة النمسة
1516	شارل الأول الذي تلقب فيما بعد بشارل الخامس
1556	فليب الثاني
1598	فليب الثالث
1621	فليب الرابع
1665	شارل الثاني
	من عائلة بوربون الفرنساوية
1700	فليب الخامس
1724	لويز الأول
1724	فليب الخامس ولاية ثانية
1746	فردناند السادس
1759	شارل الثالث
1788	شارل الرابع
1808	جوازاف بونابارت
1813	فردناند السابع
1833	إيزابيلا الثانية مع أمها مارية كريستينا
1843	ثم وحدها إلى الآن

الفصل الثالث
في وصف المملكة

اعلم أن هاته المملكة من الممالك الأوروباوية الجنوبية الغربية، ومقرها بين ست وثلاثين درجة ودقيقة واحدة، وثلاث وأربعين درجة وإحدى وخمسين دقيقة من العرض الشمالي، وبين الدرجة الأولى من الطول الشرقي والحادية عشرة وسبع وثلاثين دقيقة من الطول الغربي. ويَحُدُّها في الشمال البحر المحيط، والجبال الفاصلة بينها وبين فرنسا، وفي الجنوب بوغاز جبل طارق، وفي الغرب مملكة البرتوغال، وفي الشرق البحر الأبيض.

ومساحتها طولاً من الشمال إلى الجنوب ألف ومائة كيلو ميتر، وعرضًا من الغرب إلى الشرق ستمائة كيلو ميتر، ودائرتها ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربعة وسبعون كيلو ميترًا منها ألفان وسبعمائة كيلو ميتر شطوط.

ومساحة أرضها خمسمائة ألف وتسعة وأربعون ألفًا ومائتان وثلاثة وأربعون كيلو ميترًا مربعًا ما عدا جزر الباليار.

وهي ذات جبال وأودية، فيها من الجبال الكبار ستة، ومن الأودية العظام خمسة، ومن الصغار أربعة.

وعدد سكانها بلغ في سنة سبع وخمسين وثمانمائة وألف خمسة عشر مليونًا وأربعمائة وخمسين ألفًا وخمسمائة وأربع عشرة نفسًا، وكلهم على المذهب الكاتوليكي.

ولها مستعمرات في أمريكا، يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين وأربعة وستين ألفًا وأربع وعشرين نفسًا.

ولها في إفريقيا وآسيا والأوقيانوس مستعمرات، يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين وسبعمائة وستة وأربعين ألفًا ومائتين وثلاثًا وثلاثين نفسًا.

ولها تقدُّم في العلوم والمعارف، وفيها من المكاتب من الطبقة الأولى ثلاثة وخمسون ألف مكتب، ومن الثانية ستة وخمسون مكتبًا، ومن الثالثة اثنا عشر مكتبًا. ولها مكاتب أخرى لتدريس المنتهي من التلامذة في المكاتب المتقدمة؛ ليخرج منها المدرسون بتلك المكاتب، وتوجد مكاتب أخرى كمكتب مهندسي الطرقات وبناء القناطر، ونحوها من المصالح العامة، وكمكتب استخراج المعادن، ومكتب الفلاحة، ومكتب الصنائع، ومكتب الموسيقى والنحت وصناعة الدهن،

ومكتب الشهود، ومكتب المتجر البري والبحري، ومكتب البيطرة، ومكتب صناعة الماكينات.

ومن نباتاتها القمح والشعير، والأرز والقطاني، والزيتون والزعفران، والقطن والقنَّب، والعنب والبردقان، والرمَّان، وغير ذلك من الفواكه والثمار.

وفيها معادن كثيرة، كمعدن الزمرد، ونحوه من الأحجار الثمينة، ومعدن النحاس والرصاص، والزئبق والتوتيا، والفحم الحجري والكبريت، والحديد والملح، وغير ذلك.

وأنعامها كثيرة، ومن أشهرها الغنم ذو الصوف الجيد الشهير، ومن صنائعها أقمشة الحرير والكتان، والقطن والكاغد، والصابون والجلد، والأسلحة، وهي في جودة صناعتها مشهورة، خصوصًا بلدة طليطلة، والصياغة، ونحو ذلك.

ولها تجارة واسعة، بحيث بلغت قيمة الخارج منها سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف مائتين وسبعة وسبعين مليونًا وستمائة وثلاثة وثلاثين ألفًا وسبعة وستين فرنكًا ونصفًا، وقيمة الداخل لها أربعمائة وتسعة وأربعين مليونًا وثمانمائة وثمانية وعشرين ألفًا، وسبعمائة وخمسة وسبعين فرنكًا وثلاثة أرباع.

وبلغ عدد المراكب الداخلة براية الإسبنيول خمسة آلاف ومائتين وثمانين وبراية الأجانب خمسة آلاف وخمسمائة وأربعة، والخارجة برايتهم أربعة آلاف وثلاثمائة وسبعة عشر، وبراية الأجانب أربعة آلاف وثمانمائة وأحد عشر مركبًا.

الفصل الرابع
في تنظيماتها السياسية

اعلم أن الكونستيتوسيون الذي عليه اليوم سياسة هاته المملكة كان تأسيسه في سنة خمسة وأربعين وثمانمائة وألف، ومن أصوله أن وضع القوانين الجديدة لا يكون إلا من المجلس المسمى كورتيس بموافقة الملك. وهذا المجلس ينقسم إلى مجلس أعلى ومجلس وكلاء عامة، فالمجلس الأعلى هو المُرَكَّبُ من أعيان العائلات الذين لهم الحق في أن يكونوا أعضاء فيه بدون ولاية خاصة وهم العائلات، المتفضل عليهم بذلك من الملوك لخصال صدرت من أسلافهم، ومن أرباب الخطط النبيهة المجعولة من حقوقها العضوية فيه بمجرد تقدمهم إليها، وهم كبراء الكنيسة، ومن أساقفة ورؤساء أساقفة، وكبراء العساكر الذين يبلغون رتبة خاصة، ورؤساء مجالس الأحكام من الرتبة العليا، ومن أعيان ينتخبهم الملك بوظيفة عمرية من الأهالي، باعتبار الشروط المقررة في القانون.

ومجلس وكلاء العامة هو المركَّب من أعضاء تنتخبهم الأهالي ممن يدفع للدولة أداء سنويًّا مقداره في الأقل مائة وخمسون فرنكًا، على ما لا ينقل، أو ممن له دخل مقداره في الأقل مائة وخمسون فرنكًا مما يُنْقل من الأملاك.

ويُعْتَبَرُ في عددهم أن يكون لكل خمسين ألف نفس وكيل. وهؤلاء الأعضاء يتبدلون في كل خمسة أعوام، وشرط المنتخبين لهم أن يكونوا ممن يدفع أداء للدولة مائة فرنك في كل سنة، أو ممن يدفع خمسين فرنكًا إن كان من أهل المعارف.

ومن حقوق هذين المجلسين القرعة والمفاوضة في جميع القوانين الجديدة، وتعيين أصول مصاريف الدولة ودخلها كل سنة، وسؤال الوزراء عن تصرفات الدولة في السياسة الداخلية والخارجية، وغير ذلك مما تقدَّم إيضاحه في الممالك القانونية.

أما الملك فمن حقوقه تنفيذ القوانين باسمه، وعمل الحرب، وعقد شرط الصلح والمعاهدة والتجارة، ونصب الوزراء، وانتخاب رؤساء المجلسين المذكورين، وغيرهم من المتوظفين، وتأخير من لم تكن وظيفته مؤبدة عن المباشرة وإصدار الأوامر، في تعيين أوقات اجتماع المجالس، وتعطيل خدمة مجلس وكلاء العامة إن اقتضاه الحال، على شرط أن يطلب من الأهالي انتخاب مجلس جديد في مدة نهايتها ثلاثة أشهر، وعرض القوانين الجديدة على موافقة المجالس. وهذه الأصول وإن كانت من حقوق الملك لكنها تتوقف على إجازة الوزراء؛ لمسؤوليتهم عن تصرفات الدولة.

قلت: لكن العمل بهاته القوانين في هذه المملكة لم ينجح مثل ما نجح في غيرها من الممالك الأوروباوية؛ لدوام الحروب الداخلية فيها بين الأحزاب، وبسببه تغتنم الدولة الاستبداد في كثير من الأحوال بقدر ما تنتهز من الفرصة.

وللدولة مجلس آخر غير المجلسين المذكورين، مُرَكَّبٌ من أعضاء ينتخبهم الملك، ومأموريته تهذيب ما يُرَادُ عرضه من القوانين الجديدة على المجالس المذكورة وتراتيب إدارة المملكة، وفصل النوازل الواقعة بين المتوظفين، أو بينهم وبين غيرهم، فيما يتعلق بالمأمورية، ويعطي الرأي في النوازل المهمة التي تعرض عليه من الوزراء. ومجلس آخر أيضًا مأموريته التأمل فيما تنمو به المتاجر وتعظم به الصنائع جودة وإتقانًا.

الفصل الخامس
في إدارة المملكة

إدارتها مقسومة بين ثمانية وزراء، يباشرونها على نظر رئيسهم، الذي هو الوزير الأوّل، ويجتمعون تحت رئاسة الملك أو من ينوبه في ذلك للنظر في المصالح، ويسمى جمعهم مجلس الوزراء.

وتنقسم المملكة إلى تسعة وأربعين إيالة، وفي كل إيالة والٍ مكلف بتنفيذ أوامر الدولة المتعلقة بمصالحها وإدارتها. وينظر في مصالح الإيالة مما على الولاة النظر فيه، كما تقدم إيضاح مثله، ومعه مجلس مشورة مُرَكَّب من أعضاء ينتخبهم الملك، مأموريته التأمل، والحكم في النوازل الواقعة بين المأمورين بإدارة المصالح العامة، ومن يتفقون معه على بعض الخِدَم العمومية، أو بين المأمورين ومن يَدَّعي ضررًا من سيرتهم.

ولكل إيالة مجلس يسمى مجلس الإيالة، مركب من أعضاء تنتخبهم الأهالي، تحت رئاسة رئيس ينتخبه الملك من الأعضاء، مأموريته توزيع الأداء المرتب من مجلس وكلاء العامة على الإيالة بين بلدانها، وتوزيع الأنفس المطلوبة

منها لخدمة العسكر، والنظر فيما تحتاج إليه الإيالة مما يجب إحداثه من المصالح، وتعيين المبالغ الواجب أخذها من الأهالي لقضاء تلك المصالح، ونحو ذلك.

ولكل بلدة من بلدان الإيالة مجلس بلدي، مركب من أعضاء ينتخبهم الأهالي الذين يدفعون للدولة أداءً مقداره في الأقل خمسون فرنكًا في السنة، على ما لا ينقل من الأملاك، وهذا في البلدان الكبار، وأما في البلدان الصغار فلا يعتبر شرط الأداء.

ورئيس هذا المجلس هو شيخ البلد أو نائبه، وينتخبهما الملك من أعضائه.

ومأموريته النظر في مصالح البلد، وتحقيق حسابات الشيخ ونائبه المكلفين بقضاء تلك المصالح، وإجراء القرعة في أخذ العسكر، وإعانة المكلفين بخلاص المجابي، وتعيين تراتيب إدارة أملاك البلد، وتقسيم المياه والمراعي، وغير ذلك من مصالح البلد بين سكانه.

وللمملكة المذكورة من المجالس الحكمية أربعمائة وخمسة وتسعون مجلسًا لفصل نوازل الجنايات والماليات الواقعة بين السكان، وخمسة عشر مجلسًا للتحقيق على الأحكام الصادرة من المجالس المذكورة، إن طلب المحكوم عليه ذلك، ومجلس آخر أعلى، بحكمه تنتهي جميع النوازل، كما تقدم نظيره في فرنسا.

الفصل السادس
في قوة إسبانيا المالية والعسكرية، البرية والبحرية

القوة المالية

- بلغ دخل المملكة السنوي في 1862: 507,892,250 فرنكًا.

- وبلغ خرجها في السنة المذكورة: 505,283,808 فرنكًا.

- وكان عليها من الدَّين في تلك السنة: 3,568,683,575 فرنكًا.

قوتها العسكرية البرية في سنة 1862

169,972	عسكر تريس
16,824	خيالة
12,626	طوبجية
4,016	مهندسون
12,951	خيالة جندارمية لحفظ البلد أي ضبطيَّة خيالة
216,389	**الجملة**

قوتها البحرية في السنة المذكورة

أصناف البحرية والمراكب	جملة البحرية	فابورات	مراكب قلاع	جملة المراكب ومدافعها 1864
فسيالات كبار وصغار	1100			
المكلفون بالإدارة	189			
مكانجية	128			
بحريج	13615			
عسكر بر مُعَدّ للبحر	7980			
أجفان		1	2	3
فراقط		21	3	24
قرابط		18	4	22
قوليت		20		20
لحمل الأثقال		18	10	28
أبركة وسكاين			15	15
فابورات صغار		17		17
كوننيار		30		30
مراكب مشرفة على التمام				
أجفان حديد بها قوة خيل 100		2		2
قرابط		4		4
قوليت		60		6
شالوب كوننيار		12		12
الجملة	**23012**	**155**	**34**	**189**

القوة البحرية المتجرية

المراكب المتجرية	فابورات	مراكب قلاع	الجملة
مراكب كبار للسفر البعيد	43	1395	1438
مراكب صغار للسفر القريب	81	3309	3390
الجملة بها 36744 بحرية	**124**	**4704**	**4828**

الباب العاشر

في الكلام على مملكة السويد والنورويج

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن هذه المملكة كانت منقسمة إلى عدة ممالك صغار.

ثم في القرن العاشر تكوَّن من تلك الممالك دولتان.

وفي ابتداء القرن الثاني عشر صارت المملكتان مملكة واحدة.

وفي سنة ثمانين وثلاثمائة وألف انتخب أهلها ملكة الدنمارك والنورويج لتتولى عليهم أيضًا، وبمقتضى شروط انعقدت سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وألف صارت الممالك الثلاث - وهي المسماة بإسكندنافيا - أعني مملكة السويد والنورويج والدنمارك متحدة تحت إمارة المملكة.

ومن سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمائة وألف إلى سنة عشرين وخمسمائة وألف وقعت ثورات عديدة بمملكة السويد؛ لعدم رضاها بسلطة الدنمارك عليهم، آل الأمر فيها إلى استقلالهم تحت إمارة غوستاف فازا، سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وألف، وفي مدة هاته العائلة تمذهب أهل السويد بمذهب لوتير، الذي هو فرع من مذهب البروتستانت.

وفي مدتها أيضًا من سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وألف إلى سنة أربع وخمسين وستمائة وألف، صارت مملكة السويد من أفخر الممالك المعتبرة في أوروبا، حتى تولى ثلاثة من ملوكها على بولونيا، وتداخلت في أحوال ألمانيا مدة الحروب المسماة بحروب الثلاثين سنة تداخلاً نجحت فيه بانتصارات عظيمة على صدها من دول ألمانيا.

وكانت من الدول الشمالية المتحالفة مع فرنسا، واتسعت حدود المملكة المذكورة، زيادة على ما أضاف إليها الملك إريك التاسع في القرن الثاني عشر من مملكة فينلاند، باستيلاء الملك غوستاف أدولف على إيالات ليفونيا وإينغريا وكاريليا، واستيلاء الملكة كريستينة في القرن السابع عشر على جزء من مملكة البومرانيا، وإيالات برامن وفاردن، ومصب وادي الأودر.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة وألف تنازلت هاته المَلِكة عن الملك لقريبها شارل العاشر، من الفرع المسمى بعائلة القنطرتين.

وهذه العائلة التي ملكت من السنة المذكورة إلى سنة عشرين وسبعمائة وألف رفعت في ابتداء أمرها شأن المملكة، بمقتضى الشروط التي عقدها شارل الحادي عشر سنة ستين وستمائة وألف، مع دولة بولونيا التي سلمت حقوقها في إيالتي ليقونيا وإستونيا لدولة السويد.

وفي السنة المذكورة تسلَّم من دولة الدنمارك إيالات إسكانيا وهالاند وبلاكنج وبوهس، لكن بسوء سيرة شارل الثاني عشر الذي كان انتصر انتصارًا

عظيمًا على جيوش الروسية، انتصر عليه بطرس الكبير ملك الروسية في واقعة بولتافا سنة تسع وسبعمائة وألف، وضاعت على السويد ممالك معتبرة، بمقتضى الشروط التي انعقدت بينها وبين الروسية سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وألف.

وفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وألف تَسَلْطَنَ على السويد أدولف فردريك من عائلة هولستين غوتورب وألجئ الملك غوستاف أدولف - وهو الرابع من العائلة المذكورة - إلى التنازل عن الملك سنة تسع وثمانمائة وألف، ورجع التاج لعمه شارل الثالث عشر لحسن سيرته، وحيث لم يكن له وارث من عائلته تبنى الماريشال الفرنساوي برندوت سنة إحدى عشرة وثمانمائة وألف.

وفي سنة ثلاث عشرة وثمانمائة وألف دخلت دولة السويد مع الدول المُتَأَلِّبة على فرنسا، وأضيف لها مملكة النورويج، حيث شرطت ذلك في تداخلها مع الدول.

وفي سنة ثمانٍ عشرة وثمانمائة وألف تولى الماريشال برندوت المُلك بعد موت شارل الثالث عشر، باسم شارل الرابع عشر، وفي سنة أربع وأربعين وثمانمائة وألف مات شارل الرابع عشر، وتولى ابنه شارل الخامس عشر، وهو المتولي الآن.

وفي مدة شارل الرابع عشر وابنه شارل الخامس عشر المذكورين، ارتفع شأن مملكة السويد والنورويج، خصوصًا في فنون العلم والمعارف، وتهذيب القوانين السياسية، وتنمية الفلاحة والصنائع.

الفصل الثاني
في وصف مملكة السويد والنورويج

اعلم أن مملكتي السويد والنورويج محتويتان على الجزيرة المتصلة بالأرض القارة، المسماة بالإسكندنافيا، وموقعهما بين خمس وخمسين درجة وثلاث وعشرين دقيقة وإحدى وسبعين درجة وعشر دقائق من العرض الشمالي، وبين درجتين وخمسين دقيقة وثمان وعشرين درجة وخمس وأربعين دقيقة من الطول الشرقي. وأطول جهاتهما يبلغ ألفًا وثمانمائة وثمانين كيلو مترًا وأشدهما عرضًا يبلغ ثمانمائة وعشرين كيلو مترًا وسطحهما يبلغ سبعمائة وستة وأربعين ألفًا ومائتين وثمانية عشر كيلو مترًا مربعًا.

ويحدُّ هاته الجزيرة من ناحية الشمال البحر الجامد القطبي، وغربًا خليج الصوند والكاتغات والسكاجر راك والبحر الشمالي وبحر الإسكندنافيا، اللذان هما من أجزاء البحر المحيط، وقبلة بحر البلتيك والسكاجر راك، وشرقًا مملكة الروسية وبحر الروسية وبحر البلتيك وخليج بوتنيا.

وقد بلغ سكانها سنة ستين وثمانمائة وألف خمسة ملايين وخمسمائة وتسعة وخمسين ألفًا وتسعمائة وتسعًا وأربعين نفسًا.

وهاته الأرض المحدودة كائنة بين بحرين، ومنقسمة بسلسلة جبال طويلة، وهي مع ذلك كثيرة البحيرات ومستنقعات المياه والأودية ومجاري السيول، وبها دخلات كثيرة في البحر.

وسكانها أرباب قوة وفطنة، وشجاعة، وخبرة بأحوال البحر.

وقد كانت المملكتان منفصلتين عن بعضهما مدة مديدة، والآن اجتمعتا تحت سلطنة ملك واحد، وإن لم تزالا متغايرتين فلكل منهما لسان مخالف للسان الأخرى وعوائدها أيضًا، وتاريخ كل منهما مختص بها.

ولكل منهما عسكر مستقل بها.

والفاصل بين المملكتين جبال دوفرين المسمَّاة جبال ألب إسكندنافيا.

ومساحة مملكة السويد وحدها أربعمائة وتسعة وثلاثون ألف كيلو ميتر وثمانمائة وثلاثة عشر كيلو ميترًا مربعًا، وعدد سكانها أربعة ملايين وتسعة وستون ألفًا وتسعمائة واثنان. والهواء بغالب أقطارها طيب، والشتاء بها يابس جدًّا، ويدوم ستة أشهر، ولا وجود للربيع بها، ومدة الصيف قصيرة جدًّا مع شدة الحر،

وفي الخريف يكثر الضباب، وكلما قربت ناحية الشمال يشتد البرد وتطول مدة الشتاء.

فإن اللابونيا الكائنة في قسم السويد لا تزيد مدة الصيف فيها على ستة وخمسين يومًا، من الثالث والعشرين من يونية إلى ثامن عشر أغشت، وفي بقية أيام السنة تكون الأرض مغطاة بالثلج والجَمَد.

وأرض السويد ليست بأرض خصب إلا في قسم الغوتيا منها، ولا يصلح للازدراع منها إلا مقدار عشرة آلاف كيلو ميتر مربع، وهذا القدر جزء من ثلاثة وأربعين جزءًا من أرضها، وبقية الأجزاء أجمات وبحيرات وجبال.

ومع ذلك فإن سوق الفلاحة بها نافقة، حتى إن الحاصل من قمح أرضها يبلغ خمسة عشر مليونًا وثلاثمائة طن، ومن البطاطة اثني عشر مليونًا وسبعمائة ألف طن، والطن عبارة عن ألف كيلو، أي ألفي رطل.

وبها من الخيل أربعمائة ألف، ومن البقر مليونان، ومن الضأن مليون ومائة وخمسون ألفًا، ومن المعز مائة وخمسون ألفًا، ومن الخنازير أربعمائة وستون ألفًا. وبها مقاطع الحديد الجيد المشهور، ومقاطع النحاس والرصاص والتوتيا، والكوبالت والكبريت، والزاج، والملح والشب، والفحم الحجري والرخام والبورفير.

وأقوى جوالب الغنى بها ما يُقطع من غاباتها، الآخذة من أرضها قدر ثلاثمائة وعشرين ألف كيلو ميتر.

ويكثر بها صيد الحوت.

والصناعات بها رائجة، كصناعة أقمشة الصوف والحرير والقطن والغوانتوات[١]، واصطناع الآلات الصالحة للفنون الرياضية والطبيعية، ومحابس الرخام، وغيرها من التحف التي تعد للزينة، وصناعة تصفية السكر، وفبريكات الجلد والفخار، والبلور والكاغد، والتقطير ونحوها.

ودخل الأهالي من قيمة ما ذكر في السنة مائة واثنان وستون مليونًا ومائة وأربعون ألف فرنك.

هذا، وإن بالمملكة المذكورة كثيرًا من الخلجان المصنوعة لتسهيل المواصلة، وأعظمها وأحسنها خليج غونتة، الذي يُعبر عليه من بحر البلتيك إلى البحر الشمالي، وبوسطه وادي غوتة، وخليج ترولهتى، وبحيرة وانر، وبحيرة واتر، ووادي موتالا، وبحيرات بورن وبوكسن، بحيث إنه يتوصل به من غوتمبرغ إلى مدينة سطكهولهم. وطوله ثلاثمائة وعشرون كيلو ميترًا، ويحتوي على ثمانٍ وخمسين جابية ومقدار اثنين وثمانين كيلو ميترًا، منه نحت في الأحجار.

والطرق المعتادة بها كثيرة جدًّا.

(١) الغوانتوات: القفازات، معربة. (م).

وأما طرق الحديد الموجودة بهاته المملكة، فمنها ما تمت خدمته ومنها ما لم يزل فيه العمل.

ولم يزل متجرها في النمو حتى بلغت قيمة الخارج منها في سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف مائتين وواحدًا وخمسين مليونًا وثمانمائة وسبعة وثلاثين ألفًا وثلاثمائة وأربعين فرنكًا، وقيمة الداخل لها مائتين وخمسة ملايين وتسعمائة وثمانية آلاف وثمانين فرنكًا.

وبلغت جملة المراكب المَتْجَريّة التي دخلت مراسيها والتي خرجت منها أربعة عشر ألفًا وثلاثمائة وأربعًا، منها براية السويد والنورويج تسعة آلاف وستمائة وأربع وعشرون، الخارج منها سبعة آلاف وتسعمائة وثمانية وعشرون.

وتنقسم مملكة السويد إلى ثلاثة أقسام: أولها قسم السويد، والثاني الغوتيا، والثالث النورلاند واللابونيا، ثم ينقسم القسم الأول إلى تسعة مشيخات، والثاني إلى عشر، والثالث إلى خمس. وبساط التعليم في جميعها في غاية الاتساع.

الفصل الثالث
في قوانينها السياسية

اعلم أن من حقوق ملك السويد الرئاسة على العساكر البرية والبحرية، وعمل الحرب والصلح، وعقد شروط المعاهدة والتجارة، على شرط أن يستشير في مغيب المجالس السياسية الكومسيون المركب من أعضاء من مملكة السويد ومملكة النورويج، وأن يطلب اجتماع المجالس السياسية ليعرض عليهم سبب الحرب إن كان ذلك في وقت حضورها.

وله تولية المتوظفين، وغير ذلك مما لسائر الملوك القانونية، ويتصرف في سياسة المملكة بموافقة أربعة مجالس في أمور، وبإعانة الوزراء ومجلس الدولة المسؤول جميعهم - أي الوزراء وأعضاء المجلس - في أمور أخرى. والمجالس الأربعة المذكورة أولها مركَّب من النوبليس، أي أعيان الأمة، والثاني من أهل الديانة، والثالث من أعيان البلدان، والرابع من لفيف الناس. ولا يمكن تبديل قانون، ولا ترتيب أداء، ولا أخذ عسكر إلا بموافقة غالب أعضاء المجالس الأربعة.

وهذه المجالس لا يقع اجتماعها إلا أربعة أشهر في كل ثلاثة أعوام، وفي مدة مغيبهم يبقى منهم مجلس مُركَّب من أربعة وعشرين عضوًا، من كل مجلس ستة أعضاء، ومجلس مُركَّب من ستة أعضاء مأخوذين من المجلس الثاني، كلفته حفظ حرية المطابع، ومنع التعدي على من كتب شيئًا، وهو مع المجلس الأول والمحتسب العمومي نواب عن المجالس الأربعة مدة مغيبهم؛ للتأمل في سيرة الدولة، ومجالس الحكم، وغير ذلك مما كانت تفعله المجالس المذكورة لو كانت حاضرة ثم وقع جمع المجالس الأربعة في مجلسين: مجلس أعلى ومجلس وكلاء عامة، مع بقاء ما كان لها من الحقوق.

ولأهل مملكة السويد والنورويج ما لغيرهم من رعايا الدول القانونية، من فصل النوازل الواقعة بينها لدى مجلس مُرَكَّبٌ من رئيس وأعضاء بوظيفة عمرية، يفصلون سائر الجنايات والماليات بمحضر الجوري، كما ذكر بمملكة فرنسا وغيرها.

الفصل الرابع
في القوة المالية دخلاً وخرجًا، والعسكرية برًّا وبحرًا

القوة المالية

- جملة دخل الدولة السنوي 335,314,107 فرنكًا تقريبًا.

- وجملة خرجها السنوي 247,970,791 فرنكًا تقريبًا أيضًا.

- وجملة الدَّين الذي كان عليها سنة 1865: 436,006,109 فرنكًا.

- وجملة العساكر كانت في السنة المذكورة 130,000 نفس.

القوة البحرية بدولة السويد سنة 1867

أصناف البحرية والمراكب	بحرية وقت الصلح	بحرية وقت الحرب	فابورات	مراكب قلاع	جملة المراكب ومدافعها 1000
بحرية	9,600	25,000			
أجفان			2	5	7
فراقط			1	3	4
قرابط				4	9

أصناف البحرية والمراكب	بحرية وقت الصلح	بحرية وقت الحرب	فابورات	مراكب قلاع	جملة المراكب ومدافعها 1000
أبركة				8	8
شالوب كوننيار			18	76	94
فابورات صغار			6		6
الجملة	**9,600**	**25,000**	**32**	**96**	**128**

وأما مملكة النورويج فتحتها مدينة كريستيانية.

ومساحة أرضها ثلاثمائة وسبعة عشر ألفًا وسبعمائة وتسعون كيلو مترًا مربعًا.

وعدد سكانها بلغ في سنة خمس وخمسين وثمانمائة وألف مليونًا وأربعمائة وتسعين ألفًا وسبعًا وأربعين نفسًا.

وإقليمها مقارب في الحرارة والبرد لإقليم السويد، على أن البرد في شطوطها أقل منه في أرض السويد، كما أنها في الصيف أقل حرارة من السويد.

ولا يزيد المُحْتَرَثُ من أرضها على جزء من مائة، ولا تتجاوز نتائج مزارعها مليونين وخمسمائة هكتوليتر، أي مائة ليتر من الحبوب، وثلاثة ملايين هكتوليتر بطاطة، ومائة ألف هكتوليتر من الخضر اليابسة.

وصوفها أحسن الموجود بأوروبا، وبالقسم الجنوبي منها ينبت الدخان والهبلون، والأشجار ذوات الثمار.

وبهاته المملكة من الخيل مائة وخمسون ألفًا، ومن البقر سبعمائة ألف، ومن الضأن مليون وثلاثمائة ألف، ومن المعز مائتا ألف، وفوق مائة وعشرين ألفًا من بقر الوحش المعدود من جوالب الغنى بهاته المملكة، كصيد الحوت؛ فإنه أروج تجارة بها، خصوصًا النوع المسمى بمورو، الذي يستخرج منه الزيت المشهور نفعه عند الأطباء، وكذا المسمى بهارنغ.

وفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة وألف باع أهل هاته المملكة من هذا الحوت للأجانب ما تجاوز ثمنه خمسين مليون فرنك.

ومن هذه المملكة يُجْلَبُ الريش اللطيف المستعمل بأوروبا لحشو الوسائد.

ويوجد بها جانب من مقاطع النحاس والحديد، والرصاص والفضة، وغيرها، لكنها ليست غنية كمقاطع السويد.

ولهم تجارة في اللوح رائجة مع الأجانب، وبها محالّ لتذويب المعادن، زيادة على أماكن تقطير السبيرتوات من الحبوب، ومحال لنشر اللوح واصطناع الآلات.

وغالب صناعاتهم على منوال صناعات السويد، فيما يرجع لاستخراج المعادن، وقطع الأشجار، وصيد الحيتان، واصطناع السفن.

ويوجد بمدينة كريستيانية مدرسة علوم عامة، ومكتب حربي، ومكتب بحري. ومذهب أهلها مذهب لوتير من البروتستانت.

وقوة متجرها في سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف بلغت قيمة الخارج منه سبعة وعشرين مليونًا وخمسمائة وخمسة وخمسين ألفًا ومائة وواحدًا وعشرين فرنكًا، وقيمة الداخل ثلاثة وأربعين مليونًا ومائة وستين ألفًا ومائة وتسعة فرنكات.

وجملة المراكب المتجرية التي دخلت مراسيها سنة سبع وستين وثمانمائة وألف ثلاثة آلاف ومائتان وأربعة وسبعون براية المملكة، وألفان ومائتان وستة وأربعون براية الأجانب. والتي خرجت منها ثلاثة آلاف ومائتان وخمسة وثمانون برايتها، وألفان وخمسمائة وثمانية وسبعون براية الأجانب.

وأقسام مملكة النورويج ثلاثة: الجنوب والوسط والشمال، وباعتبار الإدارة تنقسم إلى خمس حكومات، ومجموعها يحتوي على سبع عشرة مشيخة.

وهي في قوانينها وحريتها وأحكامها - ترتيبًا وغير ذلك - كمملكة السويد.

وأما قوتها المالية دخلاً وخرجًا، والعسكرية برًّا وبحرًا فهي ما سنبينه:

القوة المالية

- بلغ الدخل السنوي في سنة 1867: 29,882,250 فرنكًا تقريبًا.
- وبلغ الخرج في السنة المذكورة: 29,882,250 فرنكًا.

– وكان على الدولة من الدَّين في تلك السنة: 45,199,000 فرنك.

– وجملة عساكرها البرية: 42,900 نفس.

القوة البحرية بمملكة النورويج سنة 1864

أصناف البحرية والمراكب	أمراء البحرية	جملة البحرية	فابورات إليس	مراكب قلاع	جملة المراكب ومدافعها396
فيش أميرال	1				
كنتر أميرال	1	2			
قبطانات أجفان		4			
قبطانات فراقط		14			
قبطانات قرابط		16			
فسيالات		44			
فسيالات صغار وبحرية		14,339			
فراقط			2	1	3
قرابط			3	2	5
سكاين			1	3	4
بنباردات			4		4
شالوب كوننيار				103	103
فابورات			5		5
الجملة	**2**	**14,419**	**15**	**109**	**124**

والسفن المتجرية 5,678 فُلْكًا بها بحرية 36,694 نفسًا.

الباب الحادي عشر

في الكلام على مملكة هولاندة

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن هذه المملكة كانت مقسومة على عدة إيالات منفصلة عن بعضها.

ومن سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وألف أضيف جميعها إلى مملكة فرنسا، ثم رجعت إلى العائلة الملكية من النمسة.

وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة وألف رجعت دولة جمهورية، وسميت بالسبع الدول المتحدة.

وفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف استولت عليها دولة فرنسا، وبقي لها اسم الدولة الجمهورية.

وفي سنة ست وثمانمائة وألف رجعت دولة مستقلة، وتولاها لويز بونابارت أخو نابليون الأول. ومن سنة عشر وثمانمائة وألف رجعت عمالة من العمالات التابعة لدولة فرنسا.

ثم رجعت مع عمالة البلجيك دولة مستقلة، وسميت بالبلاد الواطية: (Pays -Bas).

وأول ملوكها من ذلك الوقت غليوم الأول من عائلة الناسو، ولا زالت في ذريته إلى يومنا هذا.

وخرجت عنها دولة البلجيك في سنة ثلاثين وثمانمائة وألف، واستقلت بنفسها.

الفصل الثاني
في وصف مملكة هولاندة

موقعها بين خمسين درجة وخمس وأربعين دقيقة وثلاث وخمسين درجة وخمس وأربعين دقيقة من العرض الشمالي، وبين الدرجة الأولى وخمس دقائق والدرجة الرابعة واثنتين وخمسين دقيقة من الطول الشرقي.

ويحدها قبلة مملكة البلجيك، وشرقًا مملكة بروسية، وشمالاً وغربًا بحر الشمال.

وقدر مساحتها أربعة وثلاثون ألفًا ومائتا كيلو متر مربعٍ.

ومبلغ سكانها في سنة خمس وستين وثمانمائة وألف ثلاثة ملايين وسبعمائة وخمسة وثلاثون ألفًا وستمائة واثنتان وثمانون نفسًا.

ولها مستعمرات خارج أوروبا، فمنها جزر بالأوقيانوس من شرق الهند، مساحتها مليون وخمسمائة وأربعة وثمانون ألفًا وتسعمائة وواحد وتسعون كيلو ميترًا مربعًا.

وسكانها تسعة عشر مليونًا وأربعمائة واثنان وخمسون ألفًا ومائتان وسبع أنفسٍ.

ولها بأمريكا ما مساحته مائة وخمسة وخمسون ألفًا وثمانية وسبعون كيلو ميترًا مربعًا، وبه من السكان ستة وثمانون ألفًا وسبعمائة وثلاث أنفس.

ولها بإفريقيا شاطئ الغيني، وسطحه سبعة وعشرون ألفًا وأربعمائة كيلو ميترًا مربعًا، وسكانه مائة وعشرون ألفًا.

فجملة سطح المستعمرات الخارجية مليون وسبعمائة وسبعة وستون ألفًا وأربعمائة وتسعة وستون كيلو ميترًا مربعًا، وجملة سكانها تسعة عشر مليونًا وستمائة وثمانية وخمسون ألفًا وتسعمائة وعشر أنفس.

ثم إن أرض هولاندة منبسطة في جميع جهاتها، وبعضها أسفل من البحر؛ ولذلك تسمى بالبلاد الواطئة، واحترزوا من فيضان البحر عليها بسدود عجيبة، ولهم كيفيات حسنة في الخُلُج التي تسهل بها المواصلة بين بلدان المملكة.

وبها أودية معتبرة، منها وادي الأسكو، والموز، والرين.

ومروجها كثيرة جدًّا، ومن نتائجها القمح والشعير، والفول والكتان، والقنب والقرمز، والدخان والخضر، والأشجار المثمرة، وأنواع الأزهار والأنعام.

ومن معادنها الحديد وغيره.

وصناعاتها في غاية الرواج، منها قماش الكتان، والموبر والحرير، والجوخ، والكاغد، والفخار، وصناعة الصبغ، وصقل الماس، والكتب، وأنواع التقطير.

وأما طرقها الحديدية فقد بلغت في سنة أربع وستين وثمانمائة وألف ستمائة وأربعة وأربعين كيلو ميترًا.

ولها متجر واسع، بلغت قيمة الخارج منه من المملكة سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف بليونًا وثلاثة ملايين ومائة وتسع وخمسين ألفًا وثمانمائة وسبعة وتسعين فرنكًا ونصفًا، وقيمة الداخل لها بليونًا ومائة واثنين وسبعين مليونًا وتسعمائة وثلاثة وعشرين ألفًا وستمائة وخمسة وتسعين فرنكًا.

والتعليم بها آخذ في التقدم؛ فبها من المكاتب الأولية ثلاثة آلاف وستمائة وثمانية، ومن مكاتب الفقراء ستمائة وخمسة، ومن مكاتب كبار السن مائة وواحد، ومن مكاتب يوم الأحد مائة وأربعة عشر.

وبها ثلاثة مكاتب أصولية لتعليم معلمي المكاتب الصغار، وثلاثة وستون مكتبًا لتعليم الفنون المتوسطة، وبها ثلاث مدارس لتعليم العلوم الدقيقة، ومكتبان يُعَبَّر عنهما بمكتبي المشيخة، واثنا عشر مكتبًا لعلوم الديانة. وبها ثلاثة مكاتب لتعليم القِبالَة والطب ومتعلقاته، ومكتب لمهندسي البلدية، ومتوظفي

المستعمرات الخارجية، ومكتبا حرب، ومكتب بحرية، ومكتب بيطرة، ومكتب فلاحة، وثلاثة أماكن لتعليم الصم والبكم، وثلاثة للعميان، وواحد للبهاليل، وهناك عدة مكاتب لتعليم الموسيقى والتطريب، والتصوير، والجمناستيك، وهو حركات رياضة البدن.

الفصل الثالث
في قوانينها السياسية

اعلم أن دولة هولاندة دولة كونستيتوسيونية.

فمن حقوق ملكها تنفيذ القوانين، والإمارة على العساكر البرية والبحرية، وعمل الحرب والصلح، وعقد شروط المعاهدة والمتجر، ما لم يكن في ذلك تغيير في حدود المملكة ولو بالزيادة؛ فإنه لا يكون حينئذ إلا بموافقة المجلس الأعلى ومجلس وكلاء العامة.

ومن حقوقه أيضًا تعيين وقت اجتماع المجلسين المذكورين في كل سنة، وتعطيل خدمتهما معًا أو أحدهما إن اقتضاه الحال، على شرط أن يطلب من الأهالي إعادة الانتخاب.

ومن حقوقه عرض القوانين الجديدة على موافقة المجلسين، ونصب الوزراء وغيرهم من المأمورين، وتأخير من لم تكن وظيفته عمرية عن المباشرة، وتعيين مرتبات جميع المتوظفين، إلا أعضاء المجلس؛ فإن مرتبهم معين في القانون والنظر في عموم إدارة العمالات التابعة للمملكة خارج أوروبا، والعفو عن المحكوم عليه

من أهل الجرائم بعد استشارة مجالس الحكم في ذلك، وفصل النوازل التي تقع بين إيالتين فأكثر فيما يتعلق بالمصالح العامة، لا في النوازل الشخصية التي تقع بين السكان؛ فإن مرجعها لمجالس الحكم. وجميع ما ذكر وإن كان من حقوق الملك لكن يتوقف إجراؤه على موافقة الوزراء له؛ لمسؤوليتهم عن تصرفات الدولة للمجالس.

الفصل الرابع
في تركيب المجلس الأعلى ومجلس وكلاء العامة وحقوقهما

فالمجلس الأعلى مُرَكَّبٌ من تسعة وثلاثين عضوًا، تنتخبهم مجالس الإيالات ممن يدفع أداء معلومًا لتسعة أعوام، ويبدل ثلث الأعضاء كل ثلاثة أعوام.

ومجلس وكلاء العامة مُرَكَّبٌ من خمسة وسبعين عضوًا، باعتبار أن لكل خمسة وأربعين ألف نفس وكيلاً واحدًا، تنتخبهم الأهالي لمدة أربعة أعوام، ويبدل نصف الأعضاء في كل عامين. وانتخابهم ممن بلغ سِنُّه من الأهالي ثلاث وعشرين سنة، وكان يدفع من الأداء مبلغًا من أربعين إلى مائة وعشرين فرنكًا.

ومن حقوق هذين المجلسين المفاوضة علنًا. والقرعة على جميع القوانين المعروضة من الدولة أو من أعضائهما عليهما، بحيث لا يمضي قانون إلا بعد موافقة غالب المجلسين عليه.

ومنها تعيين أصول مصاريف الدولة، والأداء الواجب أخذه من الأهالي في كل سنة، والنظر في سيرة الدولة، وسؤال الوزراء عما يظهر لهم، خصوصًا مجلس وكلاء العامة؛ لأن من حقوقه تعيين جماعة يحققون له الحال في النوازل المهمة،

بسؤال من يلزم سؤاله، والاطلاع على دفاتر الدولة، وغير ذلك مما يحصل لهم به معرفة حقيقة الحال في تصرف الدولة، بحيث تكون سيرة الدولة في إدارة سياسة المملكة بمقتضى قوانينها.

وتنقسم إدارتها إلى نظارة سبع وزارات مسؤولة عن تصرفاتها، بحيث إن بقاء الوزراء المباشرين في الخطة لا يكون إلا إذا استصوب المجلس المذكور سيرتهم.

وللدولة مجلس مركب من أعضاء ينتخبهم الملك، وله تأخيرهم. ومأمورية هذا المجلس تهذيب القوانين، وترتيب الإدارة، وغير ذلك من مصالح الدولة، تحت رئاسة الملك أو من ينوبه، كما تقدم بيانه في الكلام على فرنسا وغيرها.

الفصل الخامس
في تقسيم المملكة

اعلم أن المملكة تنقسم إلى إحدى عشرة إيالة، وفي كل إيالة والٍ من طرف الدولة، ومجلس مُكَلَّفٌ بإمضاء الأوامر والقوانين، مثل ما ذكر لفرنسا.

وفي كل إيالة مجلس مُرَكَّبٌ من أعضاء تنتخبهم الأهالي لستة أعوام، يجتمعون في وقت معلوم من كل سنة للنظر في مصالح الإيالة، من تعيين ما يجب إحداثه، وتعيين المبالغ اللازمة له، والتأمل في حساب المأمورين بإدارة ذلك، وغير هذا من مصالح إيالتهم، مما تقدم بيانه في بقية الممالك.

وينتخب هذا المجلس من أعضائه جمعية مركبة من أربعة إلى ستة أعضاء لإجراء ما اتفق عليه مجلس الإيالة مع واليها.

وفي كل بلدة من بلدان الإيالة مجلس بلدي، مُركَّب من أعضاء تنتخبهم الأهالي، تحت رئاسة شيخ البلد المنتخب من الملك، ينظرون في مصالح البلد، مثل ما تقدم بيانه في المجالس البلدية بالممالك المتقدمة.

وأما إدارة الأحكام فلهذه المملكة مائة وخمسون مجلسًا من مجالس الحكم، وأربعة وثلاثون تريبونالاً أول، وأحد عشر مجلسًا للتحقيق، ومجلس عالٍ، وليس لهم أمناء حكم. والحكم عندهم يكون علنًا، وحكامهم لا يُعزلون.

ولهم سبعة مجالس للعسكر، وثلاثة للبحرية. وبمدينة أوترخت مجلس حربي عالٍ. والديانة الحاكمة بهاته المملكة هي البروتستانتية.

الفصل السادس
في قوتها المالية دخلاً وخرجًا، والعسكرية برًّا وبحرًا

فرنكًا	دَخْلُ الدولة في سنة 1,863
146,967,970	الدخل السنوي من المملكة عينها تقريبًا
262,662,387	دخل التابع لها من الهند وغيره تقريبًا أيضًا
409,630,357	**الجملة**
فرنكًا	**خَرْجُ الدولة في السنة المذكورة**
145,051,980	مصاريفها في أوروبا تقريبًا
262,641,137	مصاريف على العمالات التابعة لها الجملة
407,693,117	**جملة الدَّين الذي عليها 2,582,547,455 فرنكًا تقريبًا**
أنفس	**القوة العسكرية البرية**
60,962	تريس وخيَّالة وطوبجية وغيرهم بأوروبا
28,504	مثل الأصناف المذكورة في العمالات التابعة لها
89,466	**الجملة**

القوة البحرية في مملكة هولاندة سنة 1863

جملة المراكب ومدافعها 1780	مراكب قلاع	فابورات	جملة البحرية	أمراء البحر	أصناف البحرية والمراكب
				3	أميرال
				1	فيش أميرال
			9	5	كنتر أميرال
			20		قبطانات أجفان
			40		قبطانات فراقط
			309		فسيالات
			173		فسيالات صغار
			96		أطباء البحر
			70		فسيالات الإدارة
			6,197		بحرية غير 800 في الهند
			2,154		فسيالات وعسكر برّ
2	2				أجفان
12	7	5			فراقط
19	7	12			قرابط
42	13	29			قواليت
12		12			أبركة وافيزو وغيرهما
5	5				بطريّة عوّامة

جملة المراكب ومدافعها 1780	مراكب قلاع	فابورات	جملة البحرية	أمراء البحر	أصناف البحرية والمراكب
8	8				أبركة
3	3				شنور
36	36				شالوب كوننيار منها 1 حديد
6	6				مراكب
145	**87**	**58**	**9,068**	**9**	**الجملة**

الباب الثاني عشر

في الكلام على مملكة الدانمارك

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن مملكة الدانمارك كان حالها مجهولاً إلى سنة ثلاثين وتسعمائة، وفي التاريخ المذكور استولت عليها العائلة الأسكيولْدُنجية نسبة إلى سكيولد ودام الملك فيها إلى سنة سبع وأربعين وألف، وفي مدة هاته العائلة استولى الدنمارك على غالب أنكلترة وبقيت بأيديهم من سنة ست عشرة وألف إلى سنة إحدى وأربعين وألف وانقرضت هاته العائلة في سنة سبع وأربعين وألف.

وتولت عليها العائلة الاستريثيدية ودام الملك فيها إلى سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف وآخرهم الملكة مرغريتا ابنة الملك الأخير منهم التي تزوجت بملك النورويج فملكت الدانمارك بعد موت أبيها بحق الوراثة فيه، وملكت النورويج بحق الوراثة في زوجها بعد وفاته ثم ملكت السويد بانتخاب الأهالي لها كما تقدم في الكلام على مملكة السويد.

وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف أعطت تاج مملكة النورويج لقريبها إريك البومراني، وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف أعطته أيضًا تاج مملكة الداغمارك، وفي السنة التي بعدها أكملت له تاج السويد.

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وألف تولى كريستيان الأول من عائلة أولدنبورغ، ولم يزل الملك في أعقابه إلى سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف، غير أن مملكة السويد خرجت من أيديهم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وألف، ومملكة النورويج خرجت منهم أيضًا سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف. وفي سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف المذكورة توفي الملك فريدريك السابع، آخر ملوك الداغمارك من عائلة أولدنبورغ، ولم يترك وارثًا للملك، فتولى عوضه البرنس كريستيان من غلوكسبورغ، بمقتضى معاهدة لندرة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف، وتلقب بكريستيان التاسع. وفي سنة أربع وستين خرج من أيدي الداغمارك إيالتا شلزوويغ وهولستاين.

الفصل الثاني
في وصف هاته المملكة

اعلم أن مملكة الدانمارك هي أصغر الممالك الإسكندينافية الثلاث، وموقعها بين خمس درجات مع ثلاثين دقيقة وثلاث عشرة درجة من الطول الشرقي، وبين ثلاث وخمسين درجة مع عشر دقائق وسبع وخمسين درجة مع أربعين دقيقة من العرض الشمالي.

والبحر محيط بها من جميع الجهات، إلا الجهة القبلية المتصلة بإيالتي شلزويغ وهولستاين، اللتين انفصلتا عنها سنة أربع وستين وثمانمائة وألف، بالحرب التي وقعت بينها وبين البروسية والنمسة.

ويحدها في ناحية الشمال مضيق سكاجر راك الفاصل بينها وبين النورويج، وفي ناحية الشرق مضيق الصوند والكاتاغات وبحر البلتيك الفاصلة بينها وبين السويد، وفي ناحية الغرب بحر الشمال. ومن مشمولاتها القطعة المستجزرة[1]

(١) المُسْتَجْزِرة: أي التي هي بمثابة شبه جزيرة. (م).

المسماة جوتلاند، وجزر سيلاند وفيونيا، ولالاند والسترو بورنهولم، وماين وآروي، وآلزن وفامارن، ولازوي ونستاتهولم.

ومبلغ تسطيحها خمسة وثلاثون ألفًا وتسعمائة وستة وسبعون كيلو ميترًا مربعًا.

ومبلغ سكانها بمقتضى ما تحرر في أول فبراير سنة أربع وستين وثمانمائة وألف مليون وستمائة وألف وثمانية آلاف وخمس وتسعون نفسًا.

والمستعمرات الراجعة للدولة المذكورة هي جزر فاوري بأوروبا، وإنزلاند وغروهنلاند وصانت كروا، وصان توماس وصان جان بأمريكا، ومجموع تسطيح هاته الجزر مائة وتسعة وثلاثون ألفًا ومائتان وأربعة وسبعون كيلو ميترًا مربعًا يخصُّ إزلاند منها مائة وألفا كيلو ميتر وأربعمائة وستة وسبعون. ومجموع سكانها مائة وأربعة وعشرون ألفًا وعشرون نفسًا، يخص إزلاند منها ستة وستون ألفًا وتسعمائة وسبع وثمانون نفسًا.

وتخت هاته المملكة مدينة كوبنهاغ.

والمتصل منها بأوروبا غالبه أرض منبسطة. ومساحات الأودية والبحيرات والسباخ ومستنقعات المياه منها تحتوي على قدر نصف عشر المملكة.

وهذا الإقليم وإن لم يكن في غاية شدة البرد، لكنه ندي، وأرضه خصبة؛ ولذلك كانت أنعامها طيبة، وخيلها جيدة، ويبلغ عدد الخيل فيها ثمانمائة ألف، والبقر يبلغ مليونين ونصفًا، والخنازير ستمائة ألف. والفلاحة بها في غاية النمو قمحًا وشعيرًا وغيرهما. ومما ينجح فيها من النباتات النبات الذي يصبغ به اللون العنابي، والهبلون، والكلزة التي يستخرج منها الزيت، ويزرع به الغرفالة، والفول والبطاطة، والخردل والكتان والقنب، والدخان، ومن ذوات الثمار التفاح والجاص، وحب الملوك والعوينة.

وصيدها كثير وكذا الحوت.

ومن جوالب الغنى بهذه المملكة الطين الذي يحمل منها لتدميل الأرض[١].

وبها بعض مقاطع حديد، والحجر الذي يطبع عليه، وحجر الكرِي مثل الجص والأرجيل[٢]، وقليل من الفحم الحجري بجزيرة بورنهولم. وبشاطئ بحرها يوجد الكهرباء الرمادي[٣]، ويصنع بها أقمشة القلوع والجوخ، والفرفوري، والسلاح، والآجر، والطواحين، وآلات التقطير والتصفية والغوانتوات.

وتجارتها ذات رواج منذ قرون عديدة.

والطرق الحديدية قليلة بها، لكن بها عدة جمعيات لها فابورات عديدة تتوجه بالتجارة لسائر بلدان أوروبا الأصلية.

---

(١) تدميل الأرض: تسميدها. (م).
(٢) الأرجيل: صلصال طين. (م).
(٣) الكهرباء الرمادي: العنبر. (م).

وقد بلغت قيمة المتجر بالمملكة المذكورة سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف اثنين وثلاثين مليونًا ومائتين وثلاثة وتسعين ألفًا ومائة وأربعة عشر فرنكًا، الداخل منها اثنان وعشرون مليونًا وخمسمائة وثلاثة وستون ألفًا وثمانمائة وخمس وخمسون فرنكًا.

وبلغت جملة المراكب المتجرية الداخلة لها والخارجة منها مائة وسبعة وعشرين ألفًا وأربعمائة وستة، الداخل منها أحد عشر ألفًا وتسعمائة وسبعة وستون.

وأما مواد التعليم فهم فيها في غاية التقدم.

ومذهبهم مذهب لوتير، ولا يُمنع أحد من التمذهب بغيره.

وموقع جزيرة إزلاند بين ست عشرة درجة وسبع وعشرين درجة من الطول الغربي، وبين ثلاث وستين درجة وسبع وستين درجة من العرض الشمالي. وأرضها في غاية البرد، ومع كون سطحها كاد يكون من الجمد فقد تقذف مياها تغلي.

ولهم في التعليم تقدم بَيّن، ومذهبهم مذهب لوتير.

اعلم أن هذه الدولة وراثية.

الفصل الثالث
في قوانينها السياسية

فمن حقوق الملك فيها إدارة أحوال المملكة الداخلية والخارجية بواسطة وزرائه المسؤولين عن تصرفات الدولة، ونصب الوزراء وسائر المتوظفين، وتأخير من لم تكن وظيفته عمرية عن المباشرة، وتعيين الوقت المعتاد لاجتماع المجالس اللازم كل سنة، وله جمعها في غير الوقت المعتاد لموجب يقتضيه، وتعطيل خدمة المجلسين الأعلى ومجلس وكلاء العامة أو أحدهما، على شرط أن يطلب من الأهالي إعادة الانتخاب في مدة شهرين، وفي تلك المدة إن بقي أحد المجلسين غير معطل يتوقف عن الخدمة حتى يحصل اجتماع الثاني.

ومن حقوقه الإمضاء على القوانين؛ فكل ما يصدر من المجالس لا يصير قانونًا إلا إذا أمضى عليه الملك. وله في مدة غيبة المجالس إصدار الأوامر في الأمور الضرورية، ويكون لها من الاحترام ما للقوانين، بشرط أن لا تخالف أصولها، وأن تعرض على موافقة المجالس عند اجتماعها.

ومن حقوقه أن يصير رشيدًا عند بلوغه ثمان عشرة سنة، وعليه أن يكون تابعًا لمذهب لوتير الذي هو من فروع مذهب البروتستانت. وتأسيس القوانين يكون منه ومن المجلسين:

(١) الأعلى المركب من ستة وستين عضوًا، منهم اثنا عشر منتخبون من الملك بوظيفة عمرية، وسبعة منتخبون من أهالي التخت لمدة ثمانية أعوام، وسبعة وأربعون منتخبون من بقية الأهالي للمدة المذكورة. ويتبدل النصف ممن لم تكن وظيفته عمرية في كل أربعة أعوام.

(٢) ومجلس وكلاء العامة المركب باعتبار أن لكل ستة عشر ألف نفس وكيلاً واحدًا، فهو غير محصور بعدد مخصوص.

وشرط المنتخب للمجلسين أن يكون سِنُّه خمسًا وعشرين سنة، وأن يكون من أهل المعرفة والمروَّة.

والانتخاب عندهم على درجتين، بمعنى أن عامة الأهالي ينتخبون أناسًا أولاً، وهؤلاء ينتخبون أعضاء المجلسين. واجتماعهما المعتاد يكون في المدة التي يعينها الملك، وأقلها شهران، وخدمة كل منهما تكون علنًا إلا إذا رأوا في بعض النوازل خلاف ذلك.

ومن حقوقهما أن القوانين لا تُعتبر إلا بعد عرضها عليهما، وتفاوضهما فيها ثلاث مرات، ولا تعتبر الموافقة أولاً وثانيًا.

ومنها: تعيين أصول مصاريف الدولة كل سنة، والأداء الواجب أخذه من الأهالي لذلك، وتحرير محاسبات الدولة بعد صرف المصاريف المذكورة.

ومنها انتخاب رؤسائهما من جملة الأعضاء، وأن لكل من أعضائهما أن يقدم ما يظهر له من القوانين للمجلس أو للملك، وأن يسأل الوزراء عما يظهر له، كما أنهم مسؤولون لجملة المجلس وللملك؛ فيمكن ادعاء الخيانة عليهم أو المخالفة للقانون من الملك أو المجلس أو من بعض أعضائه، وحينئذ تكون نازلة تفصل بالمجلس الأعلى.

ويجب على الوزراء الحضور في القُمْرة للمدافعة عن تصرفاتهم أو عن القوانين المعروضة من الدولة. ومن حقوق العامة الضامن فيها القانون الحرية التامة وقت انتخاب أعضاء المجالس، والاجتماعات العامة للمفاوضة في المصالح، وحرية المطابع، والحرية الشخصية، واحترام المساكن، بحيث لا يدخلها أحد إلا بإذن أربابها، أو بموجب القوانين والمساواة بين الأهالي لدى الحكم، بحيث إنه لا فرق بين عظيم وحقير في ذلك، وكذا في الخطط عند وجود الأهلية بالمعرفة والمروّة[1].

---

(١) المروّة: المروءة. (م).

وفصل النوازل الشخصية لا يكون إلا بمجالس الحكم.

وكل بلدة أو قرية من بلدان وقرى المملكة مستقلة بإدارة مصالحها، من غير تداخل من الدولة في ذلك.

الفصل الرابع
في قوتها المالية دخلاً وخرجًا، والعسكرية برًّا وبحرًا

القوة المالية في سنة 1864

- 35,424,640 الدخل رزدالاً يساوي 100,251,731 فرنكًا.
- 37,785,904 الخرج رزدالاً يساوي 107,034,108 فرنكًا.
- 132,110,802 الدَّين الذي عليها، يساوي 373,873,569 فرنكًا.
- والرزدال صرفه فرنكان وثلاثة وثمانون صنتيمًا.

القوة العسكرية البرية في سنة 1862

	نفسًا
عسكر تريس	20944
خَيّالة	6163
طوبجية ومهندسون	4384
الجملة	31491

وفي وقت الحرب تستطيع الدولة جمع خمسين ألفًا.

القوة البحرية بدولة الدانمارك سنة 1862

جملة المراكب ومدافعها 929	مراكب قلاع	فابورات	جملة البحرية	أمراء البحرية وقبطانات	أصناف البحرية والمراكب
				1	فيش أميرال
				2	كنتر أميرال
			3		
				29	قبطانات أجفان
			52	23	قبطانات فراقط
			85		فسيالات
			1,784		بحرية
3	2	1			أجفان
9	4	5			فراقط
6	2	4			قرابط
7	2	5			سكونير
2	2				أبركة
1		1			بطرية عوامة
7		7			شالوب كوننيار
1		1			ياكت
1	1				كوتير
27	27				لحمل الأثقال
8		8			بالعجلة كبارًا وصغارًا

جملة المراكب ومدافعها 929	مراكب قلاع	فابورات	جملة البحرية	أمراء البحرية وقبطانات	أصناف البحرية والمراكب
1		1			يول
33	33				شالوب كوننيار بالمجاديف
17	17				يول بالمجاديف
123	**90**	**33**	**1924**	**55**	**الجملة**

الباب الثالث عشر

في الكلام على مملكة باواريا

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن هذه المملكة كانت في زمن قيصر الروماني معدودة من الصحاري الخالية.

ثم صارت معمورة في مدة الإمبراطور أغسطوط، وعدت من إيالات المملكة الرومانية مضافة للفيندليسا ونوريكا.

ثم في القرن الخامس المسيحي أتت جماعة البويرا من بوهيميا، وسكنوا بنوريكا الغربية، ودخلوا تحت سلطنة الإفرنج من سكان أوسترازيا، وذلك من سنة ستمائة وثلاثين إلى ستمائة وستين. وفي ذلك الوقت كانت مملكة باوارايا مروسة بجماعة الدوكات من عائلة أجيلولف، ورئيس هاته العائلة - وهو أجيلولف - تملك في سنة خمسمائة وثلاثين.

ولم تزل الدوكات تستولي على باواريا من تلقاء ملوك الإفرنج إلى أن تلقب الدوك أديلون بالملك في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فحاول الخروج من رعاية شارل مارتل فلم ينجح سعيه في ذلك.

فلما ولي بعده تاسليون نقض العهد الذي بينه وبين الملك بابان، وتعصب أولاً ضد شارلمان مع ديديا ملك اللومبارديا، ومع دوك أكويتانيا، ثم مع جماعة الأوار لكنه انهزم، وضيع ممالكه، وحُبس في دير رهبان سنة سبعمائة وثمانٍ وثمانين.

ثم إن شارلمان أعطى ولاية تلك المملكة لجيرولد كونت صواب، كما أن لويز المُغَفَّل جعل دوكاتو باواريا مملكة سنة ثمانمائة وأربع عشرة، وأعطاها لابنه لوتير، ثم أعطاها ابنه المذكور للويز الجرماني في سنة ثمانمائة وسبع عشرة.

وكانت مملكة باواريا في ذلك الوقت تحتوي على قبائل الكارينتيا والكرنيول، والإيستريا والفريول، والبانونيا القديمة، والمورافيا والبوهيميا.

وفي سنة تسعمائة واثنتي عشرة انقرضت عائلة الكارلونجيان بوفاة لويز الطفل، فرجعت باواريا إلى ما كانت عليه من الحدود الأصلية، وصارت دوكاتو تحت رعاية سلطنة ألمانيا، وأَمَّروا عليهم المارغراف أرنول الملقب بالخبيث ابن لويتبولد.

ثم بعد وفاته سنة تسعمائة وسبع وثلاثين بقيت المملكة بيد خلفائه مدة يسيرة.

ثم استولى عليها جماعة الدوكات من عائلة الساكس، من سنة تسعمائة وسبع وأربعين إلى سنة أربع وألف، ثم من عائلة فرانكونيا من السنة المذكورة إلى سنة سبعين وألف، ثم جماعة الغوالف من عائلة آست من السنة المذكورة إلى سنة تسع وثلاثين ومائة وألف، ثم جماعة دوكات من أوستريا. ثم في سنة ثمانين ومائة وألف دخلت في يد أوتون الفيتلسباخي، من ذرية أرنول الخبيث المتقدم ذكره.

وقد كبرت المملكة المذكورة في مدة خلفاء الدوك المذكور.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف انقسمت المملكة بين لويز الثاني وهنري الثالث عشر، ابني وتون الملقب بالشهير، فالأول منهما يحكم على باواريا العليا، والثاني على السفلى.

ثم في سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف جمع لويز الثالث ابن لويز الثاني قسمي المملكة، وفي السنة التي بعدها صار إمبراطورًا على ألمانيا، واتسعت دائرة ملكه جدًّا. وقبل موته الواقع في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف تملَّك زيادة على باواريا البراندبورغ وهولاندة، وزيلاند والتيرول، وغيرها.

ثم إن أبناء لويز المذكور قَسَّموا هذه الإيالة على عدة فروع، انقرضت كلها في مدة يسيرة.

وفي سنة سبع وخمسمائة وألف جمع ألبرت الثاني - الذي هو من عائلة فرع المونيخ - باواريا كلها جمعًا جديدًا، وعارض ورثته تسلط المذهب البروتستانتي، وتحزبوا مع إمبراطور ألمانيا في حروب الثلاثين سنة، وفي مقابلة ذلك رقى الإمبراطور فردناند الثاني الدوك مكسيمليان إلى رتبة أليكتور، وجعل هذا اللقب مما يبقى في بيته، وذلك سنة ثلاث وعشرين وستمائة وألف.

ثم إن حفيده مكسيمليان إمانويل استولى من سنة تسع وسبعين وستمائة وألف إلى ست وعشرين وسبعمائة وألف، وفي خلال هذه المدة خالف فرنسا في حروب وراثة إسبانيا، وبعد واقعة هوخستات سقط عن سلطانه، ولم يرجع إليه إلا بعد صلح بادن، سنة أربع عشرة وسبعمائة وألف.

ثم إن وارثه شارل ألبرت ادعى إرث ملك الإمبراطور شارل السادس، فتسلط على البوهيميا وأوستريا، وتَوَّج نفسه في مدينة فرنكفورت سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وألف، وتسمَّى شارل السابع، لكنْ قَارَعَه فرنسوا اللوراني بجيش النمسة، وألجأه إلى التنازل عن المرتبة التي ادعاها، وعن سلطنة باواريا، ومات قبل انتهاء هاته الحرب.

ثم إن ابنه مكسيمليان جوزاف اصطلح مع الإمبراطور، واسترجع منه ممالكه بشروط فوسن سنة خمس وأربعين وسبعمائة وألف، ثم بموت هذا

الأمير - الذي هو آخر عائلته - وقع خلل في مملكة باواريا، وذلك في سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف.

ثم إن شارل تيودور - المتصل بتلك العائلة بواسطة المصاهرة - استولى عليها بدون موافقة أوستريا، وابن أخيه مكسيمليان جوزاف استولى بعد سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف.

وقد قاست مملكة باواريا شدائد في مدة حروب الربوبليك الفرنساوانية، حتى تنازلت لها عن ممالكها الكائنة على شمال الرين، لكن عرضت لها ذلك بما بقي بينهما من المعاهدة مدة مديدة. وكانت تُعين فرنسا بالمدد الكثير، واتسعت دائرة هاته المملكة مدة كونها تحت حماية نابليون اتساعًا بَيِّنًا، وصارت مملكة، أي يُلَقَّبُ حاكمها بالملك، في سنة ست وثمانمائة وألف.

ثم في حروب سنة ثلاث عشرة وثمانمائة وألف، انعطف مكسيميليان بجيشه على فرنسا، بعد أن كان من معينيها، فَجُوزِيَ عن ذلك من قبل الدول المضادة لفرنسا بتقرير ملكه على كلّ ما كان في حوزه.

وفي سنة ثماني عشرة وثمانمائة وألف أعطى أهل مملكته الكونستيتوسيون، وزرع ابنه لويز الأول في مملكته ما كان مولعًا به من حب الفنون المستظرَفة. وتنازل عن الملك لابنه مكسيمليان الثاني، سنة ثمانٍ وأربعين وثمانمائة وألف. ولم يفتر

هذا عن المعارضة في التئام ألمانيا، وانضمام بعضها إلى بعض؛ لما في ذلك من بقاء اعتبار مملكة باواريا.

ثم خلفه ابنه لويز الثاني في سنة أربع وستين وثمانمائة وألف.

الفصل الثاني
في أسماء أمراء مملكة باواريا

سنة	الأمراء المتلقبون بلقب دوك من عائلة أجيلولف
530	أجيلولف
554	غاريبالد الأول
593	تاسليون الأول
610	غاريبالد الثاني
640	تيودور الأول
680	تيودور الثاني
700	تيودبرت وغريموالد
728	هوبرت ويقال له هوجيبرت
7737	أديليون
748	تاسليون الثاني
سنة	**ملوك الإفرنج من عائلة الكارلونجيان**
788	شارلمان
814	لويز الأول ولوتار
817	لويز الثاني الملقب بالجرمانيك
876	كارلومان

سنة	ملوك الإفرنج من عائلة الكارلونجيان
880	لويز الثالث
882	شارل الغليظ
888	أرنول لكارينتي
900	لويز الرابع الطفل
سنة	**الدوكات من باواريا**
911	أرنول الخبيث
937	آبرهاد
938	برتولد
سنة	**الدوكات من ساكس ومن فرانكونيا**
948	هنري الأول
955	هنري الثاني الملقب بالمخاصم
978	أوتون الأول الصوابي
983	هنري الثالث
985	هنري الرابع
1004	هنري الخامس
1026	هنري السادس
1039	هنري السابع
1049	كونراد الأول الزوتفاني
1053	هنري الثامن
1056	كونراد الثاني
1057	أغنيس (ملكة لا ملك)
1061	أوتون الثاني

سنة	الدوكات من الغوالف، ويقال لهم والف أيضًا
1070	ولف الأول
1101	ولف الثاني
1120	هنري التاسع
1122	هنري العاشر
سنة	**الدوكات من بيت أوستريا**
1139	ليوبولد
1141	هنري الحادي عشر
1156	هنري الثاني عشر
سنة	**عائلة ويتلزباخ**
1180	أوتون الأول
1183	لويز الأول
1231	أوتون الثاني الملقب بالشهير
1253	هنري الثالث عشر ولويز الثاني
1294	لويز الثالث
1347	إتيان الأول
1378	جان المونيخي، أي من مونيخ
1397	أرنست وغليوم الأول
1438	ألبرت الأول
1460	جان وسجيزموند
1468	ألبرت الثاني
1508	غليوم الثاني ولويز
1550	ألبرت الثالث

سنة	عائلة ويتلزباخ
1579	غليوم الثالث
1598	مكسيمليان الأول
سنة	**جماعة الأليكتورات**
1623	مكسيمليان الأول صار أليكتورا في التاريخ يمناه
1651	فردناند ومارية
1679	مكسيمليان الثاني (إمانويل)
1725	شارل ألبرت
1745	مكسيمليان الثالث (جوزاف)
سنة	**عائلة بلاتين**
1777	شارل تيودور
1745	مكسيمليان الرابع (جوزاف)
سنة	**الملوك من عائلة بلاتين المذكورة**
1806	مكسيمليان المذكور، وتلقب بمكسيمليان الأول
1825	لويز الأول
1848	مكسيمليان الثاني
1864	لويز الثاني، ومولده في 25 أغشت سنة 1845

الفصل الثالث
في وصف المملكة

هذه المملكة هي أكبر ممالك ألمانيا بعد بروسية.

وهي مُرَكَّبَةٌ من قسمين متمايزين: أولهما في الناحية الشرقية على شاطئ الطونة، وثانيهما في الناحية الغربية على الشاطئ الشمالي من وادي الرين.

فالقسم الأول المُعبَّر عنه بباواريا القديمة يحدّه قبلة وشرقًا مملكة النمسة، وشمالاً مملكة الساكس والدوكاتو من الساكس، ثم البروسية، وغربًا الدوكاتو الكبرى من الهاس دارمستاد، ومن بادن ومملكة الورتنبرغ. والقسم الثاني المعبَّر عنه بباواريا الرينية، وهو أصغر من الأول بكثير، يحده قبلةً فرنسا، وشرقًا الدوكاتو الكبرى من بادن، وشمالاً الدوكاتو من الهاس الرينية، وغربًا بروسية الرينية.

وقدر مساحة مملكة باواريا ستة وسبعون ألفًا وواحدًا وعشرون كيلو ميترًا مربعًا.

وقد بلغ سكانها وقت تحرير الحساب في ثاني دجمبر سنة أربع وستين وثمانمائة وألف أربعة ملايين وثمانمائة وسبعة آلاف وأربعمائة وأربعين نفسًا.

وتخت المملكة مدينة مونيخ.

وبباواريا القديمة جبال كثيرة جدًّا، وأودية كثيرة أيضًا، أعظمها وادي الطونة. كما أن بها بحيرات كثيرة، وكثيرًا من العيون المعدنية. وهواؤها طيب معتدل في غالب البقاع.

وبها مقاطع من حجر الأرحاء والمِسَنّ، والفحم الحجري والرصاص، والحديد والنحاس، والملح.

وأمر الزراعة بها آخذ في التقدُّم، بإعانة الدولة، وإحداثها مكاتب لعلم الفلاحة، مع كون أرضهم خصبة جدًّا في الأماكن المنخفضة. وأصول المزروعات عندهم الحبوب والبطاطة، وعدة أقسام من مشيخات المملكة تستكثر من زرع الكتان والقنب، والدخان والهبلون، والعنب.

وبها غابات جليلة ينتفع بها غاية الانتفاع.

والأنعام بها من جوالب الغنى بعد الزراعة، ومبلغ ما بها من الخيل ثلاثمائة وخمسون ألفًا، ومن الحيوانات ذوات القرون ستة وعشرون مليونًا، ومن الخنازير تسعمائة ألف، ومن الضأن مليون وخمسمائة ألف، ومن المعز مائة وعشرة آلاف.

ويكثر عندهم النحل والدجاج والإوزّ ونحوها.

والصنائع بها رائجة، وإن كانت في ذلك دون بقية بلدان ألمانيا، والموجود منها صناعة الحديد والسلاح، وأقمشة الكتان والصوف، ونحوهما، والجلد الطيب، والكاغد، وآلات الموسيقى والجراحة، والبلور والفرفوري، ونحو ذلك.

وللتجارة بها رواجٌ بَيّنٌ.

وطرقها كثيرة حسنة.

وأما طرق الحديد فقد بلغت في سنة أربع وستين وثمانمائة وألف ألفين وتسعين كيلو ميترًا، والخُلُج بها قليلة، وأعظمها خليج واديي المين، والطونة الذي به يتصل بحر الشمال بالبحر الأسود، وطوله مائة وأربعة وسبعون كيلو ميترًا، واسمه خليج لويز. والخُلُج المصنوعة إنما قَلَّت عندهم لاستغنائهم عنها بتسيير السفن على الأودية الطبيعية؛ فلهم غير وادي الطونة الذي تجري عليه السفن من مدينة أولم إلى مصبه بالبحر أودية أخرى، منها وادي المين، والرين، والإيزار

والين والسالي، وجميعها تسير عليها السفن لتسهيل المواصلة والتجارة، خصوصًا بنتائج الأرض.

ولأهل هاته المملكة تقدم في التعليم للغاية؛ فلهم ثلاث مدارس عامة وعشرة مكاتب كبار، وثمانية وعشرون مكتبًا كبار، وثمانية وعشرون دونها، وستة وتسعون مكتبًا لاتينيًّا، وعشرة مكاتب أصلية لتعليم المعلمين، وثمانية آلاف ومائتان وسبعة وسبعون مكتبًا لتعليم المبتدئين، تحتوي على ثمانمائة وأربعين ألفًا من التلامذة بين ذكور وإناث، وهناك عدة مكاتب خصوصية، وتعليم القراءة والكتابة محتم[1] على الأهالي.

(١) مُحتَّم: إجباري. (م).

الفصل الرابع
في تصرفات الدولة

اعلم أن مملكة باواريا ذات دولة قانونية؛ فالملك يتصرف بمشاركة أرباب الشورى، وهم أهل القُمْرتين: قمرة المستشارين وقمرة النواب.

فأما الأولى فثلثاها يستحقون العضوية فيها بطريق التوارث، والثلث الآخر بتسمية الملك، وخطة الكل عمرية.

وأما الثانية فأعضاؤها يتجددون في كل ست سنين، والأهالي ينتخبون منتخبي أولئك النواب؛ فلكل واحد وثلاثين ألفًا وخمسمائة نفس نائب واحد بالقمرة، وكل رشيد من الأهالي يدفع مقدارًا من الأداء له حق انتخاب المنتخبين؛ فلكل خمسمائة نفس نائب.

وهؤلاء المنتخبون أولاً هم الذين ينتخبون نواب القمرة.

ولا يصلح للقمرة إلا من بلغ ثلاثين سنة، ويجب اجتماع القمرتين مرة واحدة في الأقل كل ثلاث سنين.

ولهم مع الملك قوة التشريع، بمعنى أنهم إذا أرادوا إحداث قانون في حكم ما فليس للملك أن يمتنع من قبوله.

ولا يحرم أحد من الأهالي من لوازم حريته الشخصية، ولا يضرب على ملكه أداء إلا بموافقة الديات[١] (أي مجموع القمرتين).

ومن أنظار الديات منع وقوع مخالفة القانون، ومطالبة الوزراء أو نوابهم لدى مجلس حكم عالٍ. والحاصل أن الكونستيتوسيون هو المتكفل للأهالي بحماية ذواتهم وأملاكهم واعتقاداتهم.

(١) الديات: مجلس النواب، خاص بالعصبة الجرمانية. (م).

الفصل الخامس
في تنظيمات الأوطان

تنقسم مملكة باواريا إلى دوائر كبرى ومتوسطة وصغرى.

وكلّ قسم يمتاز باسم، كالقيادة والمشيخة والدائرة، فإدارة الكومون بيد شيخ البلد، وبه مجلس بلدي.

وأما الدائرة - التي هي عندهم أكبر من الكومون - فإدارتها بيد شيخ المدينة، وجمعية من الحكام، ومجلس بلدي أيضًا.

وعلى الجمعية المذكورة أن تستشير المجلس البلدي في النوازل المهمة.

وفي كل ثلاث سنين يتجدد النصف من الجمعية المذكورة، والثلث من المجلس البلدي، والقسم المسمى بالديستريكت تكون إدارته بيد مجلس مركب من أعضاء المجالس البلدية ومن أعيان أرباب الأملاك، ولا يجتمع هذا المجلس إلا مرة واحدة في السنة، ولكنهم يعينون طائفة منهم مؤبدة لإحضار النوازل التي ينظرون فيها، ولإمضاء ما يستقر عليه الرأي، ويتصرفون في سائر النوازل المتعلقة بالديستريكت مما لا يتوقف على استئذان المجلس والدائرة. وهم في تصرف

مجلس عمومي، يجتمع مرة في السنة للنظر في أحوال الدوائر، وتعيين مقادير الأداء، وهو مركب من نواب مجالس الديستريكت ونواب المجالس البلدية، من البلدان التي يكون بها من السكان أكثر من عشرة آلاف نفس، ونواب أعيان الملاكة، ونواب كبراء الكنائس والمدارس، واختيارهم لمدة ست سنين.

ولهذا المجلس العمومي كوميسيون مؤبَّد، ينظر في النوازل قبل عرضها عليه.

وأما إدارة الأحكام في الأوطان فإن كل دائرة يوجد بها مجالس أولية، من أربعة إلى سبعة، ومجلس تحقيق لنوازل الجنايات والأمور المدنية.

وبالمملكة مجلس واحد لتحقيق نوازل المتجر. ثم المجلس الأعلى الذي مقره مدينة مونيخ التخت يحقق جميع النوازل، وهو أيضًا مجلس كاساسيون، أي فصل لأهل باواريا، أي سكان شاطئ الرين الذين يحكمون بأحكام فرنسا، ولأهل هذا الصقع مجالس وقضاة صلح.

الفصل السادس
في دخل دولة باواريا وخَرجِها، وقُوّتها العسكرية، والدَّين الذي عليها

القوة المالية من 1861 إلى 1867

- جملة دخل الدولة السنوي 98,113,253 فرنكًا تقريبًا.

- وجملة خرجها السنوي 98,113,253 فرنكًا تقريبًا.

- والدَّين الذي كان عليها سنة 1866: 709,450,280 فرنكًا تقريبًا.

القوة العسكرية البرية سنة 1866

أصناف العسكر	تحت السلاح	يداك	جملة
تريس	77,209	74,539	151,748
خيّالة	10,280	12,289	22,569
طوبجية	12,722	13,521	26,243
مهندسون	3,100	1,253	4,353
الجملة	**103,311**	**101,602**	**204,913**

الباب الرابع عشر
في الكلام على مملكة البلجيك

وفيه فصول

الفصل الأول
في وصفها

اعلم أن موقعها بين خمس عشرة دقيقة وثلاث درجات مع ست وأربعين دقيقة من الطول الشرقي، وبين تسع وأربعين درجة مع ثلاثين دقيقة وإحدى وخمسين درجة مع ثلاثين دقيقة أيضًا من العرض الشمالي.

ويحدها في ناحية الشمال وبين الشمال والغرب بحر الشمال وبحر المانش، وبين الشمال والشرق مملكة هولاندة والدوكاتو الكبرى من اللوكسامبورغ، والإيالات البروسيانية من شاطئ الرين، ويحدها شرقًا. وقبلة مملكة فرنسا.

وجملة سطحها تسعة وعشرون ألفًا وأربعمائة وخمسة وخمسون كيلو ميترًا مربعًا.

وقد بلغ سكانها في سنة خمس وستين وثمانمائة وألف أربعة ملايين وتسعمائة وأربعة وثمانين ألفًا وأربعمائة وإحدى وخمسين نفسًا.

وسكان تختها - وهي مدينة بروكسيل - يبلغون مائة وتسعة وثمانين ألفًا وثلاثمائة وسبعًا وثلاثين نفسًا.

وأرضها منبسطة، وبالناحية الشرقية منها بعض جبال، وبها عدة أودية وخلج مصنوعة، وغابات، وأراض خصبة المزارع، ومزروعاتها جيدة وأنعامها كثيرة.

ويوجد بها مقاطع البلاط الأسود الذي تسقف به الديار والكذّان والرخام، والحديد والرصاص، والزنك والفحم الحجري، والحبوب التي تزرع بها القمح والشعير، ويزرع بها الكتّان والخيط، واللفت الأحمر الذي يُستخرج منه السكر، وغير ذلك من أنواع الخضر.

وصناعاتها مستقيمة، فَمِمَّا يُصنع بها الأقمشة الجيدة، والجوخ، وأقمشة الصوف والزرابي. ولهم شهرة في طرز القماش والصبغ، والأقمشة المطبوعة، والسكر، والمقطرات، وعمل البيرة والمطابع، وأماكن بيع الكتب، واصطناع الكاغذ، والبلور والجلود، وتذويب المعادن، وفبريكات السلاح، وماكينات النجارة وآلات الحديد.

وأمَّا طرقها الحديدية فقد بلغ طولها في سنة أربع وستين وثمانمائة وألف ألفًا وأربعمائة وثلاثة من الكيلو ميتر.

ولها متجر نام، بلغت قيمة الخارج منه في سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف تسعمائة وواحدًا وثمانين مليونًا وسبعمائة، وألف فرنك، وقيمة الداخل لها مليونًا وثمانية وستون مليونًا وأربعمائة ألف فرنك.

وأما مواد التعليم بها فقد حسب ما عندهم من المكاتب في سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف، فوجد من مكاتب المبتدئين خمسة آلاف وستمائة وأربعة وستون مكتبًا، ولتعليم المعلمين لهم ثمانية وعشرون مكتبًا، ومكتبان لتعليم المعلمين أيضًا، لكنهما من طرف الدولة. ويوجد بها عدة مواضع لتعليم الفقراء، وأخرى لتعليم كبار السن، وأماكن لتعليم الأطفال والبنات، وسائر الصنائع وأخرى لتعليم الصناعات وغيرها مجانًا، تخرج مصاريفها من المارستانات. ومكاتب لتعليم الفلاحة، وأخرى لتعليم الصم والبكم والعميان، ويوجد بإيالات العسكر مكاتب لتعليم الأبناء المنتسبين للجيش، وهناك خمسون مكتبًا من المكاتب المتوسطة. وبها مدرستان لتعليم العلوم العالية، وبها عدة مكاتب خصوصية كمكتب مهندسي البلد، ومكاتب المقاطع والصنائع، ومكتب الحرب.

الفصل الثاني
في قوانين المملكة

اعلم أن كونستيتوسيون المملكة المذكورة - أي قوانينها السياسية - مبني على المنشور الصادر من الملك ليوبولد الأول، المؤرخ بالسابع من فبراير سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وألف، المشتمل على مساواة جميع أهل المملكة لدى الحكم، بحيث لا فضل لأحدهم على الآخر، وعلى الحرية الشخصية، وعلى حرية المطابع والاجتماعات العامة للمفاوضات في الأمور السياسية، سواء كانت متعلقة بسيرة الدولة أو بغيرها، مما تقدم لنا بيانه عند شرح أحوال المملكة الإنكليزية، وعلى اعتبار آراء العامة، فما يتفق عليه غالب الأهالي في أي شيء كان يجب على الدولة إجراؤه، وأن يكون فصل جميع الجنايات في المجالس بمحضر جماعة الجوري، كما تقدم بيانه في مجالس فرنسا.

الفصل الثالث
في القوة التشريعية

هذه القوة هي من حقوق الملك، والمجلس الأعلى، ومجلس وكلاء العامة، والإمضاء عليها من حقوق الملك، بمعنى أن عرض القوانين الجديدة على المجلسين إما أن يكون من الدولة أو من الأعضاء، ولا تصير قانونًا إلا بعد المفاوضة فيها بالمجلسين علنًا، واتفاق الغالب، وإمضاء الملك عليها.

ومن حقوق الملك عمل الحرب والصلح، وشروط المعاهدة والتجارة، على شرط أن لا يكون في ذلك نقص أو زيادة في حدود المملكة؛ لأن ذلك لا يكون إلا بقانون يصدر من المجلسين.

ومن حقوقه نَصْبُ الوزراء وغيرهم من المتوظفين، وتأخير من لم تكن وظيفته عمرية منهم، وإدارة المملكة في الأمور الداخلية والخارجية بمقتضى القوانين.

وهذه الأمور وإن كانت كلها من حقوق الملك لكنها متوقفة على موافقة الوزراء عليها، من حيث إنهم مسؤولون عن تصرفات الدولة لدى المجالس

السياسية؛ فلذلك لا يبدي الملك أمرًا حتى يستشير وزراءه الذين لا يمكن بقاؤهم في الخطة إذا لم يكن غالب أعضاء المجلسين موافقًا لسياستهم، مثلما تَقَدَّم تقريره في الدول السالفة.

الفصل الرابع
في كيفية تركيب المجالس

كل من المجلسين المذكورين يتركب من أعضاء تنتخبهم الأهالي.

فالمجلس الأعلى مُرَكَّبٌ من ثمانية وخمسين عضوًا، يبدّل نصفهم بعد أربع سنين.

ومجلس وكلاء العامة مُرَكَّبٌ من مائة وستة عشر عضوًا، يبدل نصفهم بعد سنتين.

وشرط المنتخب أن يكون من البلاد، وممن بلغ عمره خمسًا وعشرين سنة، ممن يدفع في السنة اثنين وأربعين فرنكًا على الربع والعقار.

وشرط المنتخب لمجلس وكلاء العامة أن يكون من الأهالي مولدًا، أو دخولاً في زمرة جنسهم بأمر من الدولة، على شروط مقررة في قوانينهم، ومتصرفًا في حقوقه المدنية والسياسية، وممن بلغ عمره خمسًا وعشرين سنة، وكان ساكنًا في المملكة.

وشرط المنتخب للمجلس الأعلى جميع ما تقدم في منتخب أعضاء مجلس وكلاء العامة، وأن يكون ممن يدفع ألفين وستة عشر فرنكًا في السنة على الربع والعقار. ولا يكون أحد من المتوظفين الذين لهم مرتب من الدولة عضوًا في هذين المجلسين إلا الوزراء.

ومن حقوق المجلسين المفاوضة والقرعة على جميع القوانين الجديدة التي منها تعيين أصول مصاريف الدولة كل سنة، والمقدار الواجب أخذه من الأهالي لذلك، وسؤال الوزراء عما يظهر لهم متى شاؤوا، والقدح في سيرتهم، وعلى الوزراء الجواب بالمجلس كما تقدم بيانه في غير ما موضع.

الفصل الخامس
في الوزارات

اعلم أن إدارة المملكة تحت نظارة ستة وزراء، وهم: وزير الخارجية، ووزير الأحكام، ووزير المال، ووزير المصالح العامة، ووزير الحرب، ووزير العمالة. ويجتمعون للنظر في المصالح تحت رئاسة الملك أو من ينوبه، ويسمى اجتماعهم مجلس الوزراء أو مجلس الملك.

الفصل السادس
في إدارة الإيَالات

اعلم أن هذه المملكة تنقسم إلى تسع إيالات. وتنقسم هاته الإيالات إلى واحد وأربعين وطنًا.

ففي كل إيالة والٍ من طرف الدولة، مكلف بإمضاء القوانين وأوامر الدولة، والنظر في مصالح الإيالة، وبقاء راحة سكانها، ونمو فلاحتها، وتجارتها وصناعاتها وعلومها، وغير ذلك مما تقدم شرحه في ولاة الإيالات بفرنسا.

وفي كل إيالة أيضًا مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم الأهالي لمدة أربعة أعوام، يسمى مجلس الإيالة، يجتمع في أوقات معلومة من السنة للنظر في مصالحها، كتوزيع الأداء المرتب من مجلس وكلاء العامة على الإيالة بين أوطانها باعتبار المكاسب، وكتعيين ما يلزم إحداثه من المصالح، ونحو ذلك مما تقدم بيانه في الكلام على إيالات فرنسا.

ومع والي الإيالة مجلس ينتخب أعضاؤه مجلس الإيالة للنظر مع الوالي في إدارة مصالح الإيالة، على مقتضى الأصول المعينة من مجلس الإيالة.

وفي كل بلدة مجلس بلدي تحت رئاسة شيخ البلد، ومأمورية هذا المجلس كمأمورية المجالس البلدية بفرنسا تقريبًا، إلا أن الفرق بينهما هو أنه لا يوجد هنا أدنى تداخل من الدولة في أحوال المجلس البلدي.

وأما إدارة الأحكام في فصل النوازل فهي على منوال الإدارة الفرنساوية ولهم مجلس أعلى، وثلاثة مجالس تحقيق، وخمسة وثلاثون مجلس حكم، ومجلس مَتْجريّ، ومجلس حرب، ومائتان وثلاثة حُكَّام صلح.

الفصل السابع
في قوتها المالية دخلاً وخرجًا
والعسكرية برًّا وبحرًا

القوة المالية

- بلغ دخل المملكة السنوي في 1865: 159,612,890 فرنكًا.
- وبلغ خرجها في السنة المذكورة: 154,144,340 فرنكًا.
- وكان عليها من الدَّين في تلك السنة: 632,167,414 فرنكًا.

القوة العسكرية البرية سنة 1864

عدد أنفس	
56550	عسكر تريس
8202	خيالة وجندارمية
6600	طوبجية
576	المكلفون برفع الأثقال
1690	مهندسون
83618	**الجملة**

وفي وقت الحرب يكون عدد الجيش مائة ألف.

أما القوة البحرية فتكاد لا تُذْكَر؛ لأنها لا تشتمل على أكثر من خمسة مراكب صغار، جملة محمولها ستة وثلاثون مدفعًا لا غير.

ولكن النقص في السفن الحربية تعوضه كثرة المراكب المتجرية؛ فإن للأهالي مائة وأحد عشر مركبًا للتجارة، محمولها أربعة وعشرون طولانته، وعندهم نحو مائتي قارب لصيد الحوت.

الباب الخامس عشر

في الكلام على مملكة البرتوغال

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن مملكة البرتوغال كانت كونتي، أي إيالة مستقلة.

وفي سنة سبعمائة وإحدى عشرة استولى عليها العرب، وأضافوها لمملكتهم بالأندلس، ودامت بأيديهم إلى سنة خمس وتسعين وألف.

ثم انتزعها منهم هنري البورغوني، وصار أميرًا عليها تحت حماية ملك إسبانيا.

وفي سنة تسع وثلاثين ومائة وألف خرج ألفونش بن هنري من حماية إسبانيا، واستقل بلقب ملك.

ودام الملك في ذريته إلى سنة ثمانين وخمسمائة وألف، فيها استولى فليب الثاني ملك إسبانيا على البلاد، وأضافها إلى مملكته.

وفي سنة أربعين وستمائة وألف ثار أهل البرتوغال على إسبانيا، وخرجوا عن طاعتها، وأَوْلَوا عليهم جان الرابع، من ذريته هنري المذكور أولاً، ولم يزل الملك في عَقِبِه إلى الآن.

الفصل الثاني
في وصف مملكة البرتوغال

موقعها بين القبلة والغرب من أوروبا، وامتدادها من الدرجة التاسعة مع أربع وخمسين دقيقة إلى الحادية عشرة دقيقة من الطول الغربي، ومن الدرجة السادسة والثلاثين وست وخمسين دقيقة إلى الثانية والأربعين وسبع دقائق من العرض الشمالي، ويحدها قبلة وغربًا البحر الأطلانتي وشرقًا وشمالاً مملكة إسبانيا.

وتسطيح مساحتها أربعة وتسعون ألفًا ومائتان وثمانية عشر كيلو ميترًا مربعًا.

ومبلغ سكانها سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ثلاثة ملايين وتسعمائة وسبعة وثمانون ألفًا وثمانمائة وإحدى وستون نفسًا. وبها جزر يبلغ تسطحيها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانية وعشرين كيلو ميترًا مربعًا.

ومبلغ سكان هاته الجزر ثلاثمائة واثنان وعشرون ألفًا ومائة وخمس أنفس. فمجموع سطح المملكة المذكورة ما بين جزر وأراضٍ ثمانية وتسعون ألفًا وستة وأربعون كيلو ميترًا.

ومجموع سكانها أربعة ملايين وثلاثمائة وتسعة وأربعون ألفًا وتسعمائة وست وستون نفسًا.

وامتداد شطوطها سبعمائة وخمسون كيلو ميترًا.

وتخت المملكة أشبونة.

وهواؤها في أماكن الجبال معتدل طيب، وأما في المواضع المنخفضة فإن الحر يشتد بها في مدة الصيف.

وأشهر جبالها جبل إسترالة، وجبل غافيارا، وجبل سينترال، وجبل مونشيك. وبهذه المملكة مصب الأودية الأربعة الخارجة من مملكة إسبانيا، وهي المينخو والدورو والتاج والغاديانة.

وبها عدة أنهار، مثل الفوغة والغابادو، والمنديغو والساذاو.

وأرضها أرض براكين تكثرُ بها الزلازل، ويوجد بها كثير من المعادن وأنواع الحجارة: الذهب والفضة، والحديد والرصاص، والقصدير والإثمد[1]، والفحم الحجري، وسائر أنواع الرخام، والفيروزج[2].

لكن ليس لأهل المملكة اعتناء باستخراج هاته المكاسب.

وأرضها في غاية الخصب، لكن غالب جهاتها لا تشغل بالازدراع، بحيث إن الذي يُزرع من أرضها بالقمح والشعير لا يتجاوز جزءًا من أربعة عشر جزءًا، ونصفه مزارع عنب، وكان يمكنهم أن يزيدوا أضعاف ذلك. ويزرع بها دون القمح والشعير والأرز والقطينة، وزيتها كثير مشهور.

ويوجد بها التين والبردقان، وغيرهما من طيب الثمار، والشمع والعسل، والقرمز، ولا يوجد بها من منابت الخشب المعتبر إلا مقدار عشرة آلاف إكتار، تساوي مائة كيلو ميتر مربع، والخشب المذكور صنوبر وسرو، زرعه أحد الملوك الأقدمين على شاطئ الإسترامدور لمنع تسلط الرمل على تلك الناحية.

ولا يوجد بهاته المملكة من الأنعام المعتبرة بكثرة سوى غنم المرينوس؛ فإنها كثيرة وفي غاية الجودة، كما يوجد بها البغال الفائقة.

---

(١) الإثْمِد: حجر يُتَّخذ منه الكُحْل. (م).
(٢) الفيروزج: حجر كريم أزرق. (م).

وفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف عُدَّتْ حيواناتها، فوجد بها من الخيل واحد وسبعون ألفًا وستمائة وثمانية وأربعون، ومن البغال أربعون ألفًا وأربعمائة وثمانية، ومن الحمير مائة وستة وثلاثون ألفًا ومائتان وستة، ومن البقر ستمائة وستة آلاف ومائتان وسبع عشرة، ومن الضأن مليونان وخمسمائة وخمسة وسبعون ألفًا وسبعمائة وسبعون ومن المعز مليون ومائة وثمانية وأربعون ألفًا وثلاثة وتسعون ألفًا وأربعمائة وثمانون.

ومن أعظم جوالب الغنى بهاته المملكة سباخ الملح البحري؛ فهو عندهم من أروج التجارات التي تحمل إلى خارج بلادهم، حتى إن الملح الذي يرد إلى أنكلترة ثلاثة أرباعه من هاته المملكة.

وأما الصناعات فليس لهم تقدم فيها، ومن نتائجها الأقمشة الكتانية والقطنية، والجوخ غير الجيد، وأقمشة الصوف والحرير، وعمل البرانيط والأغطية، والشكلاطة، والفخار الصيني، وصناعة النسج، والدهن، والتقطير، والصبغ، والصياغة، واصطناع البلور والسلاح، وتربية دود القز، ونحو ذلك.

وتجارتها دائرة بين مراسيها الثلاث، وهي: أشبونة وأوبورتو وستوبال، وكادت تجارتهم يكون جميعها بيد الأنكليز.

ولا يوجد بهاته المملكة عدد كثير من الطرق المصنوعة، وغاية ما تم صنعه منها سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف، ألف وثمانمائة وخمسة من الكيلو ميترات. وبصدد الصنع إذ ذاك ثلاثمائة وستة وعشرون كيلو ميترًا.

وللدولة اعتناء بتمديد مجاري الأودية والخلج لسير السفن، بإصلاح الطرقات.

وأما طرق الحديد، فقد بلغ امتدادها سبعمائة وسبعة وعشرين كيلو ميترًا. ومذهبهم كاثوليكي، واليهود لا يُمنعون بها من التعبد بمقتضى ديانتهم.

وللأهالي مدرسة عامة للعلوم في كويمبرا، وستة فاكولتي - أي أماكن دراسة علم - ومائة واثنان وثمانون مكتبًا كبيرًا، وثلاثة آلاف ومائتان وستة مكاتب صغار. وكل السكان يلجأون إلى تعلم القراءة والكتابة.

وأقسام المملكة واحد وعشرون، منها أربعة للجزر.

وتلك الأقسام تنقسم إلى مائة وخمس وستين دائرة.

ثم تنقسم الدوائر إلى أربعمائة واثنتي عشرة مشيخة.

ثم تنقسم المشيخات إلى ثلاثة آلاف وتسعمائة وثمانية وثلاثين باروسا. أي قسم إدارة.

والمستعمرات الراجعة لدولة البرتوغال منها في قسم إفريقيا جزر الرأس الأخضر، ومواضع بسناغمبيا، مثل كاشين وجزر صان توماس والبرانس، وأنغولة، مع أمبريز، وموساميد وموزنبيك. وفي قسم آسيا بالهند غوا وسالسيت وباردز وغيرهما، وبالصين ماكاوو، وباولاقيانية الجانب الشمالي من جزيرة تيمور، وجزيرة كامبنغ بلصقها.

وجملة سطح هاته المستعمرات الراجعة للبرتوغال أربعة عشر ألفًا وتسعمائة واثنا عشر ميلاً من أميال الجغرافيا، تبلغ مليونًا وثلاثمائة وسبعة وستين ألفًا وأربعمائة وثلاثة وخمسين كيلو ميترًا. ويبلغ سكانها ثلاثة ملايين وستمائة وسبعة وثمانين ألفًا ومائتين وثمانٍ وعشرين نفسًا، وإذا ضم هذا إلى ما تقدم يكون مجموع سطوح أرض المملكة وتوابعها مليونًا وأربعمائة وخمسة وستين ألفًا وأربعمائة وتسعة وتسعين كيلو ميترًا مربعًا، ومجموع أهاليها ثمانية ملايين وسبعة وثلاثين ألفًا ومائة وأربعة وتسعين نفسًا.

الفصل الثالث
في قوانين المملكة وأحكامها السياسية

اعلم أن مملكة البرتوغال مملكة وراثية قانونية.

فمن حقوق ملكها تنفيذ القوانين، والإمارة على العساكر البرية والبحرية.

وأما عمل الحرب والصلح، وعقد شروط المعاهدة والتجارة، فلا يكونان إلا بموافقة المجالس.

وله نصبُ الوزراء وغيرهم من المتوظفين، وتأخير من لم تكن وظيفته عمرية عن المباشرة، وتعيين وقت اجتماع المجالس، وتعطيل خدمة مجلس وكلاء العامة إن اقتضاه الحال، على أن يطلب من الأهالي إعادة الانتخاب على مقتضى الشروط المقررة لذلك في غيرها من الدول، وعرض القوانين الجديدة على موافقة المجالس السياسية، والإمضاء عليها، والعفو عمن شاء من أهل الجرائم، ونحو ذلك من إجراء سياسة المملكة بإعانة وزرائه المسؤولين، كما سيأتي.

ثم إن للدولة مجلسًا أعلى مركبًا من أمراء العائلة الملكية، ومن كبراء الدِّين، وممن ينتخبهم الملك من أعيان أهل المملكة بعدد غير محصور بحق

الوراثة في عائلتهم، وعدد أعضاء المجلس الآن مائة وأربعة وثلاثون عضوًا، ومجلس وكلاء عامة مركبًا من مائة وخمسة وستين عضوًا منتخبين لأربعة أعوام ممن يدفع من الأهالي ستة فرنكات في الأقل أداء في السنة، على ما لا ينقل من الأملاك. ويكون الْمُنْتَخِبُ لهم ممن يدفع مقدارًا معلومًا من الأداء. ومن حقوق هذين المجلسين المفاوضة علنًا، والقرعة على جميع القوانين المعروضة من الملك أو من أعضائهما، وتعيين مصاريف الدولة كل سنة، والمقدار الواجب أخذه من الأهالي، والمفاوضة والقرعة على عمل الحرب والصلح، وشروط المعاهدة والتجارة التي تعرضها الدولة، والتأمل في سيرة الدولة، وسؤال الوزراء، وغير ذلك من المصالح السياسية.

وللدولة مجلس مركب من اثني عشر عضوًا، ينتخبهم الملك بوظيفة عمرية للمشورة في النوازل المهمة.

وإدارة المملكة تنقسم إلى نظارة سبعة وزراء مسؤولين عن تصرفاتهم للأمة، يجتمعون تحت رئاسة الملك أو من ينوبه للنظر في المصالح، ومجموعهم يسمى مجلس الوزراء.

وفي كل قسم من أقسام المملكة المتقدمة والٍ مكلف بإدارته، ومعه مجلس يسمى مجلس الوالي، ومأموريته مثل ما ذُكر في مجالس الولاة بمملكة فرنسا تقريبًا.

وفي كل قسم أيضًا مجلس يسمى مجلس الإيالة، مركب من اثني عشر عضوًا تنتخبهم الأهالي للنظر في مصالح الإيالة، مما تقدم تفصيله في بيان خدمة مجالس الإيالات بفرنسا أيضًا.

وفي كل بلد من بلدان الإيالة مجلس منتخب من الأهالي؛ لتعيين ما يجب إحداثه في البلد، وتعيين المبالغ اللازمة لذلك، وللنظارة على انتخاب أعضاء مجلس وكلاء العامة، ومجلس بلدي لإجراء ما تعيّن من المجالس المذكورة تحت رئاسة شيخ البلد أو نائبه.

ويحضر أعضاء المجلس البلدي في المجلس المذكور وقت خدمته. وللملك تعطيل مجالس الإيالات والبلدان، بشرط إعادة الانتخاب من الأهالي.

الفصل الرابع
في قوتها المالية دخلاً وخرجًا والعسكرية برًّا وبحرًا

القوة المالية سنة 1866

- بلغت جملة دخل الدولة فيها: 89,827,972 فرنكًا.

- وجملة خرجها فيها أيضًا: 118,578,107 فرنكًا.

- وكان دَيْنُها في السنة المذكورة: 1,154,627,611 فرنكًا.

القوة العسكرية البرية

2988	نفسًا من ضباط وفسيالات وغيرهم
34374	نفسًا من عامة الجنود
37362	**الجملة**

ومن هذا المقدار 13,478 تحت السلاح، والبقية حُرَّاسُ بلدية.

وفي الجملة المذكورة 3,128 شخصًا من سائر أنواع الخيَّالة.

القوّة البحرية بمملكة البورتوغال سنة 1864

أصناف البحرية والمراكب	أمراء البحر وقبطانات	جملة البحرية	فابورات	مراكب قلاع	جملة المراكب ومدافعها 364
فيش أميرال	1				
كنتر أميرال	1	2			
قبطانات أجفان	10				
قبطانات فراقط	20				
قبطانات قرابط	30	60			
فسيالات أُوَل		50			
فسيالات ثوان		100			
بحرية		3,462			
أجفان				1	1
فراقط				1	1
قرابط			9	3	12
أبركة			8	1	9
سكاين				8	8
لحمل الأثقال				5	5
الجملة	**62**	**3,674**	**17**	**19**	**36**

الباب السادس عشر
في الكلام على سويسرة
وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

اعلم أن سويسرة كانت من سنة ثمانٍ وخمسين قبل الميلاد تابعة لمملكة الرومان. ولكن بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية رجعت من توابع جرمانيا، في القرن الخامس من التاريخ المذكور إلا بعض قطع منها.

ثمَّ بعد ذلك صارت متداولة بين فرنسا وألمانيا وأمرائها الذين منهم عائلة هابسبورغ.

وهذه العائلة لما ملكت ألمانيا أرادت إضافة هذه البلاد إليها، فنشأت من ذلك حروب في سنة أربع وثلاثمائة وألف، آل الأمر فيها إلى طرد جيوش ألمانيا واستقلال سويسرة، وإن لم تنقطع الحروب بعد ذلك بينهما إلى آخر القرن الخامس عشر، وكان الانتصار فيها دائمًا لسويسرة.

وفي التاريخ المذكور اعترف الجرمانيون باستقلالها.

ثم في سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة وألف، بمقتضى الشروط العمومية التي انعقدت بين الدول الأوروباوية، اعترفت الدول المذكورة بها دولة مستقلة من دول أوروبا.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين وسبعمائة وألف دخلت الجيوش الفرنساوية هاته المملكة، وغيروا تراتيبها.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانمائة وألف رتب لها الجنرال بونابارت رئيس الدولة الجمهورية الفرنساوية قانونًا جديدًا لاستقلالها. لكن بعد سقوط نابليون رفضوا قانونه ورجعوا إلى ترتيبهم الأصلي بعد تهذيبه، في سنة خمس عشرة وثمانمائة وألف.

ثم في سنة ثمانٍ وأربعين وثمانمائة وألف وقعت حروب أهلية، آل أمرها إلى تبديل قوانينهم بالقوانين الآتي شرحها، الباقي حالهم عليها إلى اليوم.

الفصل الثاني
في وصف سويسرة

اعلم أن موقعها بين ثلاث درجات وأربع وأربعين دقيقة وثمان درجات وخمس دقائق من الطول الشرقي، وبين خمس وأربعين درجة وخمسين دقيقة وسبع وأربعين درجة وثمانٍ وأربعين دقيقة من العرض الشمالي، ويحدها غربًا فرنسا، وشمالاً إمارة بادن، وشرقًا التيرول النمساوي وجنوبًا إيطاليا. وطولها من الغرب إلى الشرق ثلاثمائة وثمانية وأربعون كيلو ميترًا، وعرضها من الشمال إلى الجنوب مائتان واثنا عشر كيلو ميترًا.

وتربيع مساحتها واحد وأربعون ألفًا وأربعمائة وثمانية عشر كيلو ميترًا.

وعدد سكانها سنة ستين وثمانمائة وألف بلغ مليونين وخمسمائة وعشرة آلاف وأربعمائة وأربعًا وتسعين نفسًا.

وتخت أوطانها المتحدة مدينة بارن، التي ينعقد بها مجلس نواب الأوطان.

وهي منقسمة إلى اثنين وعشرين وطنًا أو إيالة.

ومعظمها جبال، وأعظم جبال أوروبا بها، كما سنبينه إن شاء الله تعالى في خلاصة الكلام على الجغرافيا. وبها أماكن كثيرة لا يزايلها الثلج والجَمَد، وأماكن ذوات بهجة تسر الناظرين بين الجبال المذكورة، وبها أراض منبسطة ذات خصب تشقها بحيرات عذبة.

ومن أعظم مكاسب أهاليها الحيوانات؛ لكثرة مراعيها، فيخرج منها من الزبد والسمن والجبن شيء كثير.

ويوجد بها كثير من المعادن، كالحديد، والنحاس، والرصاص، والكبريت والرخام، وغير ذلك.

وبها عيون معدنية صالحة للتداوي. ولأهلها تقدم بين في جميع الصنائع، لا سيما الأقمشة الحريرية والقطنية، والصياغة، وعمل الساعات، ودبغ الجلود، ونحو ذلك.

ومتجرها مع الأجانب معتبر جدًّا، بلغت قيمة الداخل لها منه والخارج منها ثمانمائة وخمسة وسبعين مليون فرنك.

والتعليم بها في جميع الفنون في غاية التقدم، والأهالي ملجأون بمقتضى القوانين التي بعث أولادهم لتعلم علوم الطبقة الأولى، ولها من المكاتب لهذه الطبقة سبعة آلاف، ولبقية الطبقات أربعة عشر.

الفصل الثالث
في تنظيماتها السياسية

تنقسم سويسرة كما تقدم إلى اثنتين وعشرين إيالة، كل واحدة منها مستقلة بنفسها في أحوالها الداخلية الخاصة بها.

فلها مجالس وتراتيب تخصها، كدولة صغيرة جمهورية ذات رئيس. ومجموع الإيالات متحد كدولة جمهورية كبيرة، فيما يتعلق بمصالحها الداخلية العمومية والخارجية مطلقًا.

ولها مجلسان:

١) مجلس مُرَكَّبٌ من مائة وثمانية وعشرين عضوًا، منتخبين من أهالي الإيالات لثلاثة أعوام، باعتبار أن لكل عشرين ألف نفس وكيلاً واحدًا.

٢) ومجلس مُرَكَّبٌ من أربعة وأربعين عضوًا، منتخبين من المجالس الخاصة بكل إيالة، من كل مجلس عضوان.

ووظيفة هذين المجلسين تأسيس القوانين العمومية، وتعيين أصول المصاريف اللازمة كذلك، وعمل الحرب والصلح، وعقد شروط المعاهدة والتجارة، وغير ذلك.

ولها مجلس آخر مُرَكَّبٌ من سبعة أعضاء، منتخبين للمجلسين المذكورين لمدة ثلاث سنين، وله رئيس منتخب لعام واحد، وهو رئيس الدولة الجمهورية أيضًا في تلك السنة.

وكُلْفة هذا المجلس إدارة ما يتفق عليه المجلسان من القوانين والمصالح العمومية، وخدمة كل واحد منهم بمنزلة وزارة، وهو بمنزلة وزير، فالأمور المكلفون بإدارتها منقسمة بينهم انقسام الوزارات.

وفصل النوازل الشخصية الواقعة بين السكان يكون بمجالس الحكم الموجود منها في كل إيالة من الإيالات ما يناسبها، ولها درجات كمجالس غيرها من الدول.

وأما الجنايات السياسية والنزاع الواقع بين الايالات أو بين المأمورين ففصل ذلك يكون بمجلس مُرَكَّب من أحد عشر عضوًا، ينتخبهم المجلسان المذكوران لثلاثة أعوام.

الفصل الرابع
في قوتها المالية والعسكرية

فأما المالية فإن دخلها في سنة ست وستين وثمانمائة وألف بلغ تسعة عشر مليونًا ومائة وخمسة وسبعين ألف فرنك، وخرجها تسعة عشر مليونًا وأربعمائة وخمسة عشر ألفًا.

وأما العسكرية فجملة جيشها مائة وتسعة وتسعون ألفًا وأربعة وخمسون نفسًا، المرتب منهم تحت السلاح خمسة وثمانون ألفًا وأربعمائة وثمانون، والذي في التسريح سبعة وأربعون ألفًا وتسعمائة وأربعة وأربعون، والرديف أربعة وستون ألفًا وخمسمائة وتسعة وأربعون.

الباب السابع عشر
في الكلام على مملكة البابا

في الكلام على مملكة البابا

لا يخفى أن البابا هو رئيس المذهب الكاثوليكي، وبخطته هذه تكون له السلطة على كل متمسك بذلك المذهب، بمعنى أن له النظر في إجراء الأحكام الدينية، كما أنه ملك سياسي في الأرض التي تحت رعايته.

ومبدأ سلطته سنة ست وعشرين وسبعمائة مسيحية، حين طردت أهالي رومة الدوك الإغريقي.

ثم إن بابن لبراف ملك فرنسا في سنة خمس وخمسين وسبعمائة، وشارلمان ملكها أيضًا في سنة خمس وسبعين وسبعمائة لما أسقطا ملوك اللومبارديا، أعطيا البابا قطعة من الممالك التي فتحاها. كما أن هنري الثالث إمبراطور ألمانيا أعطاه أيضًا في سنة ثلاث وخمسين وألف الدوكاتو من بنفانتو، ثم في سنة سبع وسبعين وألف أعطته الكونتيسة حاكمة طوسكانة عدة أراضٍ.

ثم إن البابا غريغوريوس العاشر أخذ في سنة أربع وسبعين ومائتين وألف من ملك فرنسا الكونتي من فناسان بفرنسا.

كما أن البابا كليمان السادس أضاف لذلك بلدة أفينيون أيضًا، وقد مكثت هاته البلدة محل كرسي للبابا مدة سبعين سنة، ثم خرجت من يده مع الكونتي سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وألف.

ومن ذلك الوقت ثارت مملكة رومية على حاكمها أربع مرات: سنة خمس عشرة وإحدى وثلاثين وثمانٍ وأربعين وتسع وخمسين وثمانمائة وألف، وقد تقدم في الكلام على مملكة إيطاليا بيان كيفية خروج غالب مملكة البابا من يده في الثورة الأخيرة، ودخولها في يد الملك فيكتور إمانويل.

وأما وصف هاته المملكة فمن سنة ستين وثمانمائة وألف لم يبق منها للبابا إلا ما يبلغ سطحه أحد عشر ألفًا وسبعمائة وسبعين كيلو ميترًا مربعًا.

عدد سكانها تقريبًا سبعمائة ألف.

وتخت المملكة مدينة رومية.

وبها من الأهالي في سنة ست وستين وثمانمائة وألف مائتان وعشرة آلاف وسبعمائة وواحد.

ويقطع هاته المملكة الباقية الآن وادي تيبر، وما ينصب فيه، وفي بعضها جبال أبنين.

وأرضها التي بشاطئ بحر الروم منخفضة ندية، ذات مستنقعات وبحيرات، خصوصًا في الناحية الشرقية، لكن بقية المملكة خصبة جدًّا. يزرع بها القمح والشعير والأرز، والقطنية البيضاء، ويكثر بها العنب والزيتون، والرمان والفستق، والتين، ونحوها.

وغياضها كثيرة، ترعى بها الخيل والبقر، والغنم والجاموس الكبير.

وأما الصناعات والتجارة بها فليست آخذة في النمو بل في ضده.

وبها بعض طرق حديدية.

وأما الإدارة الحكمية فإن الدولة مستبدة، والبابا الذي هو رئيس المملكة ينتخبه الكردينالات من بينهم لمدة حياته، وله عند الدول الأجانب رسل على نوعين: أحدهما يلقب بالليغا، وهو الذي يقوم مقامه

في الأمر الروحي، والثاني يلقب بالنونس، وهو الذي ينوب عنه في الأمور السياسية. وغالب متوظفي الإدارة بتلك المملكة من أهل الكنيسة.

ومبلغ مصاريف الدولة ثمانية وستون مليونًا ومائة وواحد وسبعون ألفًا وثمانمائة وتسعة عشر فرنكًا، إذا طرح منه الدخل، وهو أربعة وثلاثون مليونًا وتسعمائة وخمسة عشر ألفًا وتسعمائة وخمسة وتسعون فرنكًا يبقى ثلاثة وثلاثون مليونًا ومائتان وخمسة وخمسون ألفًا وثمانمائة وأربعة وعشرون فرنكًا.

وقَدْرُ الدَّين الذي على العامة بمقتضى ما تحدد سنة ست وستين وثمانمائة وألف ثمانمائة وسبعة وخمسون مليونًا وستمائة وخمسة عشر ألفًا وأربعمائة وأربعة وخمسون فرنكًا.

وعدد جيشها على ما تحرر في السنة المذكورة أحد عشر ألفًا وثلاثمائة واثنا عشر نفسًا، ما عدا الذي في حراسة البابا، وما عدا الحراسة من أهل سويسرة، وحراسة القصر، وأربعة طوابير يداك.

وأما أحوال المتجر، فقيمة ما يدخل المملكة من خارجها واحد وعشرون مليونًا وخمسمائة وعشرون ألف فرنك، وقيمة ما يخرج منها ستة عشر مليونًا ومائة وأربعون ألف فرنك.

وفي سنة أربع وستين وثمانمائة وألف حُرِّرَ عدد السفن الداخلة والخارجة من مراسيها، بين ما هو للأجانب وما هو للأهالي، فوجد خمسة آلاف وتسعمائة وستة عشر مركبًا، تحمل جملتها ثمانمائة وواحدًا وتسعين ألفًا وسبعمائة وثلاثًا وعشرين طونلاتة. وبمرساها ألف وثلاث سفن، أرست للاحتماء بها من عواصف الرياح.

الباب الثامن عشر
في الكلام على مملكة الفورتمبرغ

في الكلام على مملكة الفورتمبرغ

اعلم أن هذه المملكة كانت تحت إمارة كونتوات، إلى سنة تسع وخمسين وأربعمائة وألف، ثم جعلها الإمبراطور مكسيمليان الأول في تلك السنة دوكاتو إظهارًا لمزيَّة واليها آبرارد الأول.

ثم ولي بعد المذكور ابن عمّه آبرارد الثاني، وهو جد العائلة الموجودة الآن.

وفي سنة خمس وثمانمائة وألف جعلها الإمبراطور نابليون الأول مملكة، إحسانًا لحكامها في ذلك الوقت؛ حيث كانوا في إعانته حربًا وسياسة.

والدولة المذكورة كونستيتوسيونية، ذات قمرة أعيان ونواب عامّة.

ومساحة أرضها تسعة عشر ألفًا وأربعمائة وستة وأربعون كيلو ميترًا مربعًا.

وعدد سكانها بمقتضى ما تحرر سنة أربع وستين وثمانمائة وألف مليون وسبعمائة وثمانٍ وأربعون ألفًا وثلاثمائة وثمانٍ وعشرون نفسًا.

وتخت المملكة مدينة إستوتكارد، وبها من السكان تسعة وستون ألفًا وأربعة وثمانون نفسًا.

ودخلها في سنة خمس وستين وثمانمائة وألف والتي بعدها سبعة وثلاثون مليونًا وأربعمائة وأربعة وثلاثون ألفًا وثلاثمائة وتسعون فرنكًا، وخرجها في التاريخ المذكور خمسة وثلاثون مليونًا وخمسمائة وأحد عشر ألفًا ومائتان وثمانية وستون فرنكًا.

ودَينُها كان في ثامن شتنبر سنة ست وستين وثمانمائة وألف مائة وسبعة وسبعين مليونًا ومائتين وخمسين ألفًا وخمسمائة وأربعة وسبعين فرنكًا.

وقوتها العسكرية في حالة الصلح أحد عشر ألفًا وسبعمائة وواحد، وفي حالة الحرب تسعة وعشرون ألفًا وثلاثمائة واثنان وتسعون نفسًا.

والتعليم العمومي بها في غاية الترتيب.

ووجوه دخلها الفلاحة وتربية الحيوانات، وأشجار الفواكه، والأجمات.

وصنائع اليد بها حالتها مستحسنة، وبها فبريكات الحديد، والأقمشة، وخدمة المعادن، وغير ذلك.

الباب التاسع عشر
في الكلام على إمارة بادن الكبرى

في الكلام على إمارة بادن الكبرى

كانت هذه الإمارة في السابق معدودة مارغرافية.

ثم صارت في خطة أليكتور. ثم دخلت في معاهدة الرين، وبعد ذلك دخلت في معاهدة جرمانيا.

والآن هي دولة كونستيتوسيونية بها قمرة نواب.

مساحتها خمسة عشر ألفًا ومائتان وثلاثة وستون كيلو ميترًا مربعًا، وعدد سكانها مليون وأربعمائة وثلاثة وثلاثون ألفًا وخمسمائة وواحد وخمسون نفسًا.

وتختها مدينة كارلسروهي.

وبها من السكان ثلاثون ألفًا وثلاثمائة وسبع وستون نفسًا.

ودخلها في سنة سبع وستين وثمانمائة وألف كان خمسة وثلاثين مليونًا وتسعمائة وثلاثة آلاف ومائتين وتسعة وخمسين فرنكًا، وخرجها في السنة المذكورة كان ثلاثة وثلاثين مليونًا وخمسمائة وواحدًا وثمانين ألفًا وواحدًا وأربعين فرنكًا.

ودَيْنُها المدفوع عليه الفائدة كان في سنة ست وستين وثمانمائة وألف سبعة وخمسين مليونًا وتسعمائة وستة آلاف وسبعمائة وثلاثة وعشرون فرنكًا، يضاف إليه دَيْن طُرُق الحديد، وهو مائة وخمسة وسبعون مليونًا وثلاثمائة وستة وستون ألفًا وثمانمائة واثنان وعشرون فرنكًا، فجملة ذلك مائتان وثلاثة وثلاثون مليونًا ومائتان وثلاثة وسبعون ألفًا وخمسمائة وخمسة وأربعون فرنكًا.

وقوّتها العسكرية في حالة الصلح سبعة آلاف وتسعمائة وثمانِ أنفس، وفي حال الحرب ثمانية عشر ألفًا وأربعمائة واثنان.

والتعليم العمومي فيها له عدة مراكز.

ونتائج أرضها من خدمة الكروم والمعادن، التي منها الفضة والنحاس، والرصاص والحديد، والفحم الحجري.

وبها عدة عيون معدنية مشهورة، ينتابها الناس كثيرًا. وصناعات الأيدي بها قائمة.

الباب الموفي عشرين
في الكلام على مملكة الإغريق

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخها

لما كان حال اليونان في سالف الزمان معلومًا من التواريخ الإسلامية اقتصرنا هنا على ما به الحاجة، فنقول:

اعلم أن أمة الإغريق المسماة سالفًا بالبلاج مجهول منشأ أصلها، إلا ما يقال إن أصلها من آسيا.

ثم في سنة ألفين قبل الميلاد هاجرت إلى أرضهم أمم من أرض مصر والشام، وأحدثوا بها مستعمرات.

وبعد ذلك بمدة انقسم سكان هاته الأرض إلى طوائف ذات ملوك.

ثم في ابتداء القرن التاسع قبل الميلاد طردت ملوكها، وانقلبت دولاً جمهورية مستقلاً كلٌّ منها في أحواله الداخلية، ومجموعها متحد في الأمور الخارجية.

ومن سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد وقعت حروب مهولة بين الإغريق والفرس، كانت في مبدأ أمرها سجالاً، ولكن في السنة المذكورة استولت عساكر الإغريق على مملكة الفرس تحت رئاسة إسكندر الرومي، الذي قهر جميع ملوك آسيا المتوسطة والهند.

وفي سنة ست وتسعين ومائة[١] كان ابتداء استيلاء الرومان على مملكة الإغريق، وتم استيلاؤهم عليها في سنة ست وأربعين ومائة قبل الميلاد.

وفي أواسط القرن الرابع من التاريخ المسيحي، صارت مملكة الإغريق من توابع الدولة الشرقية من دولتي الرومان.

ثم من سنة ست وخمسين وأربعمائة وألف من التاريخ إلى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وألف، انتقلت هذه المملكة إلى ملك الدول العثمانية، بالتبع للدولة الشرقية التي استولى عليها ملوك آل عثمان، وبقيت بيد الدولة المذكورة إلى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة وألف، وفيها وقعت ثورة عظيمة من الإغريق، دامت تسع سنين، آل الأمر بسببها إلى أن صاروا دولة مستقلة بإعانة دول أوروبا.

وَأَوْلَوا عليهم الملك أوتون ابن ملك باواريا؛ وذلك في سنة إحدى وثلاثين.

وفي سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف وقعت ثورة آل الأمر فيها إلى أن حكم مجلس وكلاء العامة بعزله.

---

(١) قبل الميلاد.(م).

وفي سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف، اتفق مجلس وكلاء العامة على تولية الإغريق للابن الثاني من ابني ملك الدانمارك، وقبل ذلك بشرط أن يلحق بالمملكة جزر الإغريق التي كانت في حماية الأنكليز، فألحقت بها سنة أربع وستين وثمانمائة وألف، وتسمى باسم جيورجيوس الثالث ملك الألان أي اليونان.

الفصل الثاني
في وصف هاته المملكة

اعلم أن موقعها بين ثمان عشرة درجة وعشرين دقيقة وثلاث وعشرين درجة وعشرين دقيقة أيضًا من الطول الشرقي، وبين ست وثلاثين درجة وعشرين دقيقة وأربعين درجة من العرض الشمالي. ويحدها شمالاً مملكة آل عثمان، وشرقًا جزر الإغريق التي على مِلْك الدولة العثمانية، وجنوبًا البحر الأبيض، وغربًا بحر الأدرياتيك.

وتسطيح مساحتها مع الجزر التابعة لها واحد وخمسون ألفًا وتسعمائة وسبعة وأربعون كيلو ميترًا مربعًا.

وعدد سكانها بلغ سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف مليونًا وثلاثمائة وستة وعشرين ألفًا ومائتين وستًّا وثلاثين نفسًا.

وإقليمها معتدل. وأرضها وإن كانت كثيرة الجبال إلا أن غالبها صالح للحرث، وجبالها مشغولة بشجر الزيتون.

وبها معادن كثيرة غنية، كالحديد والنحاس، والرصاص والكبريت، والصيني، وحجر الطواحين وأنواع الرخام، لا سيما الأبيض الفاخر، والمرمر الأخضر الذي لا يكاد يوجد بغيرها، والمنيزيا[1]، ونوع من الفحم الحجري كالتراب إلا أنه براق.

والفلاحة بها متقدمة، خصوصًا من سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف. وغالب فلاحتهم القمح والشعير، والقطاني والبطاطة، وأنواع الخضر. ومن أعظم مكاسب الجهة الجنوبية منها الزيت؛ لكثرة الزيتون بها، وبقية نتائجها من الخمور والزيت والعسل الجيد، ودود القز، والقطن، وغير ذلك.

وهي في الصنائع كانت متأخرة جدًّا إلا بعض فبريكات حرير وقطن وصوف، وفبريكات دبغ، ولكنها الآن آخذة في النمو والتقدم.

ولها تجارة معتبرة، بلغت قيمة الداخل منها للمملكة سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف خمسين مليونًا ومائة وعشرين ألفًا، وقيمة الخارج منها عشرين مليونًا وخمسمائة وخمسة وثمانين ألف فرنك.

وبلغ عدد المراكب الداخلة لمراسيها سبعة وستين ألفًا وخمسمائة وسبعة مراكب، والخارجة منها ستة وسبعين ألفًا وأربعمائة واثنين.

(١) المنيزيا: معدن صلب فضي اللون، يدخل في بعض الصناعات والأدوية. (م).

وما ذكرناه من أمر المتجر والمراكب خارج عن الجزر المضافة إليها التي كانت في حماية الأنكليز.

وما قيل في سبب كثرة المراكب الداخلة والخارجة لمراسي إيطاليا يقال مثله هنا.

وأما التعليم بها فهو آخذ في النمو، ولهم تسعمائة واثنان وسبعون مكتبًا من الطبقة الأولى، وثمانون مكتبًا من الطبقة الثانية، وسبعة من الطبقة العليا، ومكتب أعلى لكليات العلوم. ولهم مكاتب خصوصية كمكتب العسكر، ومكتب البحرية، ومكتب التجارة.

ولهم محلان للرصد: أحدهما في تخت المملكة - وهو مدينة أثينا، والثاني في المرسى المسماة بيري، ومكتب للصناعات المستظرفة، كالنقش والتصوير، ومكتب للطبيعيات. والمملكة تنقسم إلى أربعة عشر وطنًا.

الفصل الثالث
في قوانينها السياسية

بمقتضى القانون الصادر سنة أربع وستين وثمانمائة وألف كان من حقوق الأهالي التساوي بينهم لدى الحكم والحرية الشخصية، والاجتماعات العامة للمفاوضة في المصالح، وحرية المطابع، وعدم إمكان مصادرة أحد بأخذ شيء من كسبه أو تعطيل منفعته عنه إلا بحكم القانون، وإبطال الحكم بالقتل في النوازل السياسية، وأن يكون التعليم لأبناء الأهالي مجانًا. وتأسيس القوانين يكون من الملك ومجلس الوكلاء – كما ذكر في غيرها من الدول – وأعضاء هذا المجلس تنتخبهم الأهالي لمدة ثلاث سنين، ممن بلغ سنة ثلاثين سنة في الأقل متصرفًا في حقوقه الشخصية والسياسية. وإدارة المملكة في أمورها الداخلية والخارجية بيد الملك بواسطة وزرائه المسؤولين عن تصرفات الدولة للمجلس المذكور. وفصل النوازل الشخصية الواقعة بين الأهالي يكون بمجالس الحكم المركَّبة من أعضاء تؤبَّدُ وظيفتهم بعد التجريب في مدة معينة بالقانون.

وللدولة مجلس لتهذيب القوانين المستحدثة التي يجب عرضها على مجلس الوكلاء.

وفي المملكة مائة وثمانية حكام صلح، وعشرة مجالس من الدرجة الأولى، وأربعة مجالس للتحقيق عليها، ومجلس أعلى إليه تنتهي النوازل، ومجلس لتحرير جميع محاسبات الدولة.

الفصل الرابع
في قوتها المالية والعسكرية البرية والبحرية

القوة المالية سنة 1866

– جملة دخل الدولة السنوي: 25,362,152 فرنكًا تقريبًا.

– جملة خرجها السنوي: 24,337,992 فرنكًا تقريبًا.

– والدَّين الذي عليها: 208,657,615 فرنكًا تقريبًا.

– جملة عساكرها البرية: 11,900 نفسًا.

القوة البحرية بمملكة الإغريق 1866

أصناف البحرية والمراكب	جملة البحرية	فابورات	مراكب قلاع	جملة المراكب ومدافعها 182
جملة البحرية فرقاطة	991	1		1
مراكب حربية أنواع		7		7
مراكب صغار				2
قرابط			2	2
مراكب صغار		2	22	22
الجملة	**991**	**10**	**24**	**34**

وجملة المراكب المتجرية 4335 وما بها من البحرية 23839.

خلاصة قوى الدول

خلاصة قوى الدول المالية دخلاً وخرجًا

أسماء الدول	الدخل	الخرج
[1] دولة فرنسا	2,110,437,345	2,105,093,124
[2] دولة الإنكليز	2,839,339,025	2,840,175,200
[3] دولة النمسة	1,091,700,962	1,240,778,952
[4] دولة الروسية	1,616,272,016	1,616,272,016
[5] دولة البروسية	791,247,313	790,645,611
[6] دولة جرمانية المتحدة	191,776,937	190,649,185
[7] دولة إيطاليا	614,811,652	935,386,425
[8] دولة إسبانيا	507,892,250	505,283,808
[9- 10] دولتا السويد والنرويج	365,196,357	277,853,041
[11] دولة هولاندة	409,630,357	407,693,117
[12] دولة الدانمارك	100,251,731	107,034,108
[13] دولة باواريا	98,113,253	98,113,253
[14] دولة البلجيك	15,9612,790	154,144,340
[15] دولة البرتوغال	89,827,972	118,578,107
[16] دولة السويسرة	19,175,000	19,415,000

الخرج	الدخل	أسماء الدول
68,171,819	34,915,995	[17] دولة البابا
35,011,268	37,434,390	[18] مملكة الفورتنبرغ
33,581,041	35,903,259	[19] إمارة بادن
24,337,992	28,362,152	[20] دولة الإغريق
11,568,217,407	11,141,141,900,756	الجملة

خلاصة قوى الدول البحرية والبرية

البحرية	البرية	أسماء الدول
65,563	758,953	[1] دولة فرنسا
76,078	262,774	[2] دولة الإنكليز
19,481	639,383	[3] دولة النمسة
58,791	1,135,973	[4] دولة الروسية
4,101	719,823	[5] دولة البروسية
	56,776	[6] دول جرمانية المتحدة
18,076	494,800	[7] دولة إيطاليا
23,016	216,389	[8] دولة إسبانيا
29,419	172,900	[9- 10] دولتا السويد والنرويج
9,068	89,466	[11] دولة هولاندة
1,924	31,491	[12] دولة الدانمارك
	204,913	[13] دولة باواريا
	73,618	[14] دولة البلجيك
3,664	37,362	[15] دولة البرتوغال

البحرية	البرية	أسماء الدول
	199,450	[16] دولة السويسرة
	11,312	[17] دولة البابا
	29,392	[18] مملكة الفورتنبرغ
	18,402	[19] إمارة بادن
991	11,900	[20] دولة الإغريق
310,168	**5,165,077**	**الجملة**

خلاصة قوى الدول البحرية

مدافع المراكب	جملة المراكب	مراكب قلاع	فابورات معتادة	فابورات حديد	أسماء الدول
6230	495	131	306	58	[1] دولة فرنسا
9756	497	50	412	35	[2] دولة الإنكليز
1063	117	51	59	7	[3] دولة النمسة
3691	613	363	248	2	[4] دولة الروسية
462	85	48	35	2	[5] دولة البروسية
1321	104	10	70	24	[6] دولة إيطاليا
1864	189	34	147	8	[7] دولة إسبانيا
1396	252	205	47		[9] دولتا السويد والنرويج
1780	145	87	57	1	[10] دولة هولاندة
929	123	90	33		[11] دولة الدانمارك

مدافع المراكب	جملة المراكب	مراكب قلاع	فابورات معتادة	فابورات حديد	أسماء الدول
364	36	19	17		[12] دولة البرتوغال
182	34	24	10		[13] دولة الإغريق
29038	**2690**	**1112**	**1441**	**134**	الجملة

والدول التي لم تذكر هنا ليس لها مراكب، كما رأيت في ذلك في الكلام على كل واحدة منها، إلا مملكة البلجيك؛ فإن لها ما ذكرناه في مكانه، وهو لا يستحق الذكر هنا.

الكتاب الثاني

في الكلام على أقسام الكرة إجمالاً

وفيه أبواب

الباب الأول

في الكلام على أوروبا

وفيه فصول

الفصل الأول
في تقسيم الأرض

اعلم أن الجغرافيين من الإفرنج قسموا الأرض من الشمال إلى الجنوب ومن المشرق إلى المغرب إلى خمسة أقسام، وهي: أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا، وجزر البحر المحيط المسماة عندهم بجزر الأسياني، وعندنا بجزر الأوقيانوس.

الفصل الثاني
في موقع أوروبا وتحديدها، وقيسها وعدد سكانها

أما موقعها فهي بين سبع وعشرين درجة وخمس دقائق من الطول الغربي وستين درجة من الطول الشرقي، وبين ست وثلاثين درجة وعشرين دقيقة وست وسبعين درجة وثمانٍ وخمسين دقيقة من العرض الشمالي.

وأما الحد، فيحدها شمالاً البحر الجامد، وجنوبًا بحر الروم، وغربًا البحر المحيط وشرقًا وادي كاره وجبال الجركس.

وأما قَيْسُها، فطولها الممتد من كاب صان فنسان بمملكة البرتوغال إلى غلف كاره في شمال مملكة الروسية، خمسة آلاف ومائتان وخمسة وثلاثون كيلو ميترًا.

والكاب بمعنى الرأس، والمراد به الموضع الداخل من الأرض في البحر. وعرضها الممتد من كاب ماطبان من أرض المورة إلى الكاب الشمالي ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانون كيلو ميترًا.

ودائرتها ستة وثلاثون ألفًا وثلاثمائة وخمسون كيلو ميترًا منها واحد وثلاثون ألفًا وتسعمائة وستة من الكيلو ميترات شطوط.

وتربيع مساحة أرضها مع الجزر المعدودة منها تسعة ملايين وتسعمائة وستون ألف كيلو ميتر.

وأما عدد سكانها فيبلغ مائتين وخمسة وسبعين مليونًا، وبنسبة عدد سكانها لمقدار مساحتها يتبين أنها أعمر أقسام الأرض؛ وما ذاك إلا من تقدمها في التمدن.

وتحتوي على ثلاث وأربعين دولة، منها اثنتان وعشرون من دول جرمانيا تسمى كونفيدرسيون، أي متحدة في السياسة الخارجية تحت رئاسة دولة البروسية، كما تقدم بيانه.

الفصل الثالث
في جبالها الشوامخ ومقدار ارتفاعها على سطح البحر

أولها مون بلان، ارتفاعه أربعة آلاف وثمانمائة وعشرة من الميترات.

ثم مون روزا، ارتفاعه أربعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميترًا.

ثم جبل سرفان، ارتفاعه أربعة آلاف وخمسمائة ميترٍ.

ثم جبل فينسترهورن، ارتفاعه أربعة آلاف وثلاثمائة واثنان وستون ميترًا.

ثم جبل يونغفراو، ارتفاعه أربعة آلاف ومائة وثمانون ميترًا.

وهذه الجبال الخمسة في السويسرة.

ثم جبل مالديتا بين فرنسا وإسبانيا، ارتفاعه ثلاثة آلاف وثلاثمائة واثنا عشر ميترًا.

ويوجد بها جبال أخرى، لكنها دون هاته في الارتفاع، وبها جبلان ناريان: أحدهما بصقلية يسمى إتنا، ارتفاعه ثلاثة آلاف وثلاثمائة وأربعة عشر ميترًا، والآخر بمملكة نابلي يسمى فيزوف، ارتفاعه ألف ومائة وثمانية وتسعون ميترًا.

الفصل الرابع
في ذكر أوديتها الكبار

فأعظمها وادي الولغا بمملكة الروسية، طوله ثلاثة آلاف وأربعمائة كيلو ميتر.

ثم وادي الطونة، الخارج من ألمانيا مارًّا في مملكة آل عثمان، طوله ألفان وثمانمائة كيلو ميتر.

ثم وادي الدون بالمملكة المذكورة أيضًا، طوله ألف وأربعمائة كيلو ميتر.

ثم وادي الرين بين فرنسا وألمانيا، طوله ألف وثلاثمائة كيلو ميتر.

ثم وادي الدنييبر بمملكة الروسية، طوله ألف كيلو ميتر.

ثم وادي التاج بإسبانيا، طوله ثمانمائة وأربعون كيلو ميترًا.

ثم وادي السين بفرنسا، طوله ثمانمائة وعشرون كيلو ميترًا.

ثم وادي الودر بألمانيا، طوله سبعمائة وثمانون كيلو ميترًا.

ثم وادي التيمس بأنكلترة، طوله ثلاثمائة وستة وأربعون كيلو ميترًا.

ويوجد بأوروبا أودية أخرى عديدة، لكنها دون هذه في الطول.

الفصل الخامس
في تعداد بلدانها الكبار ومن بها من السكان

فأولها لندرة تخت مملكة الأنكليز، بها مليونان وثمانمائة ألف نفس.

ثم باريس تخت مملكة فرنسا، بها مليون وسبعمائة وخمسة وعشرون ألف نفس.

ثم إسلامبول، بها سبعمائة وثمانون ألف نفس.

ثم بطرسبوغ تخت الروسية، بها خمسمائة وثلاثون ألف نفس.

ثم وينّي تخت النمسة، بها خمسمائة ألف نفس.

ثم غلاسكو في سكوسيا، بها أربعمائة وخمسة وسبعون ألف نفس.

ثم برلين تخت البروسية، بها أربعمائة وسبعون ألف نفس.

ثم نابلي في إيطاليا، بها أربعمائة وخمسون ألف نفس.

ثم مانشستر بأنكلترة، بها أربعمائة وثلاثون ألف نفس.

ثم ليفربول فيها أيضًا ثلاثمائة وثمانون ألفًا.

ثم موسكو بالروسية، بها ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألفًا.

ثم ليون بفرنسا، بها ثلاثمائة وثمانية عشر ألفًا.

ثم مدريد تخت إسبانيا، بها مائتان وثمانون ألفًا.

ثم أشبونة تخت البرتوغال، بها مائتان وستون ألفًا.

ثم أمستردام تخت هولاندة، بها مائتان وخمسون ألفًا.

ومرسيليا بفرنسا، بها مائتان وخمسون ألفًا أيضًا.

ثم بروكسل تخت البلجيك، بها مائتان وأربعون ألفًا.

ثم بيرمنغهام في أنكلترة، بها مائتان وثلاثون ألفًا.

ثم ميلان في إيطاليا، بها مائتان وعشرة آلاف.

الباب الثاني

في الكلام على آسيا

وفيه فصول

الفصل الأول
في موقعها وتحديدها، وقيسها وعدد سكانها

فموقعها بين خمس وعشرين ومائة وخمس وسبعين درجة من الطول الشرقي، وبين خمس درجات وخمس وسبعين درجة من العرض الشمالي. وحدها شمالاً البحر الجامد، وجنوبًا بحر الهند، وغربًا البحر الأحمر، وبوغاز السويس، وبحر الروم، وبحر مرمرة، والبحر الأسود، وجبال الجركس، وبحر الخزر، ووادي أورال، وجبال أورال أيضًا، وشرقًا البحر المحيط. وطولها من باب المندب إلى مضيق بارنغ الفاصل بينها وبين أمريكا في جهة الشمال، أحد عشر ألفًا وخمسمائة كيلو ميترٍ وعرضها من كاب مالغا إلى البحر الجامد الشمالي ثمانية آلاف ومائة وعشرون كيلو ميترًا.

ودائرتها اثنان وستون ألفًا وثلاثمائة وخمسة وعشرون كيلو ميترًا، منها خمسة وخمسون ألفًا وسبعمائة وثلاثة وخمسون كيلو ميترًا شطوط.

وتربيع مساحتها أربعة وأربعون مليون كيلو ميتر.

وهي أكبر من أوروبا بخمس مرات تقريبًا.

وعدد سكانها ستمائة وخمسون مليونًا عند بعض أهل الجغرافيا، وسبعمائة مليون عند آخرين.

وعدد الدول المستقلة بها إحدى عشرة دولة، وباقيها تابع لدول أوروبا التي منها الدولة العثمانية، إما بالاستيلاء التام أو بالنسبة والحماية. ومن أقسام آسيا جزيرة العرب التي طولها ألفان وخمسمائة كيلو ميتر وعرضها ألفا كيلو ميتر وعدد سكانها اثنا عشر مليونًا.

الفصل الثاني
في ذكر جبالها وبيان مقدار ارتفاعها

فأولها جبل إفريزة بين الهند والصين، ارتفاعه ثمانية آلاف وثمانمائة وأربعون ميترًا.

ثم جبل كينيشين جونغا، ارتفاعه ثمانية آلاف وخمسمائة وثمانون ميترًا.

ثم جبل جمولاري، ارتفاعه سبعة آلاف ومائتان وخمسون ميترًا.

ثم جبل دو الجيري، ارتفاعه ثمانية آلاف ومائة وسبعة وثمانون ميترًا.

وهذه الثلاثة بالصين.

ثم جبل أرارات في أرمينية، ارتفاعه خمسة آلاف ومائتان واثنان وستون ميترًا وهو الذي أرست عليه سفينة سيدنا نوح - عليه السلام - بعد الطوفان.

ثم جبل البرس في الجركس، ارتفاعه خمسة آلاف وسبعة من الأمتار.

ويوجد بآسيا جبال أخرى، لكنها دون هذه، وبها جبل ناري يسمى بيشان في مملكة الصين، ارتفاعه أربعة آلاف ومائتان وسبعون مترًا ومثله بمملكة كامشغا يسمى أفاجا، ارتفاعه ألفان وتسعمائة وخمسة وعشرون مترًا.

الفصل الثالث
في ذكر أوديتها الطوال

أولها وادي ينيسي في سيبيريا، طوله أربعة آلاف وستمائة كيلو ميتر.

ثم وادي يانغ تسيكيانغ بمملكة الصين، طوله أربعة آلاف وثلاثمائة كيلو ميتر.

ثم وادي وانغو به أيضًا، طوله ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو ميتر.

ثم وادي آمور بين مملكة الروسية والصين، طوله ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسون كيلو ميترًا.

ثم وادي الفرات بمملكة الدولة العثمانية، طوله ألفان وتسعمائة وتسعون كيلو ميترًا.

ثم وادي إندوس بالهند، طوله ألفان وستمائة كيلو ميترٍ.

ثم وادي غانج به أيضًا، طوله ألفان وخمسمائة كيلو ميترٍ.

الفصل الرابع
في ذكر بلدانها الكبار، ومن بها من السكان

أولها أوشانغ بالصين، بها مليونا نفس.

ثم بيكين تخت الصين، بها مليون وخمسمائة ألف نفس.

ثم نابكن وشوسوفو وكانتون وإنغشو، بها أيضًا، وبكل واحدة منها مليون من النفوس.

ثم يدو تخت الجابون، بها مليون أيضًا.

ثم مياكو فيها أيضًا، بها ثمانمائة ألف نفس.

ثم كلكتة، بها سبعمائة وخمسون ألف نفس.

ثم مدراس، بها سبعمائة ألف نفس.

ثم بوني، بها ستمائة ألف نفس.

ثم لوكتوف وبناريس وبانتا.

وهذه البلدان الست بالهند، والثلاثة الأخيرة بكل واحدة منها ثلاثمائة ألف نفس.

وهوى تخت الكوشنشين، وبانكوك تخت السيام، وكيفونك بالصين بكل واحدة منها مثل ما ذكر.

ثم إدرابد بالصين أيضًا، بها مائتا ألف نفس.

ثم سيغون بكوشنشين، بها مائة وخمسون ألف نفس.

الباب الثالث

في الكلام على إفريقية

وفيه فصول

الفصل الأول
في موقعها وتحديدها، وقيسها وعدد سكانها

فموقعها بين عشرين درجة من الطول الغربي وأربعين درجة من الطول الشرقي، وبين ست وثلاثين درجة من العرض الشمالي، وخمس وثلاثين درجة من العرض الجنوبي. وحدها شمالاً بحر الروم، وشرقًا بحر السويس المسمى البحر الأحمر وبحر الهند، وجنوبًا وغربًا البحر المحيط. وطولها من كاب بونسبرانس (رأس الرجا الصالح) في جهة الجنوب إلى كاب بون المسمى رأس أدار بالمملكة التونسية في جهة الشمال ثمانية آلاف كيلو ميتر. وعرضها من أسين في بحر الهند إلى الكاب الأخضر بمملكة فاس في البحر المحيط سبعة آلاف وستمائة كيلو ميتر.

ودائرتها عشرون ألفًا وثمانمائة وخمسة وثلاثون كيلو ميترًا، منها مائة وعشرون في البر، وباقيها شطوط. وعند فتح بوغاز سويس تصير جزيرة في البحر.

وتربيع مساحتها ثلاثون مليون كيلو ميتر.

وعدد سكانها مائتا مليون عند بعض، وأكثر من ذلك عند آخرين.

وعدد دولها المستقلة مجهول؛ لعدم إمكان معرفة دواخلها إلى اليوم، وأكثر ممالكها التي على الشطوط راجعة لدول أوروبا التي منها الدولة العثمانية، إما بالاستيلاء التام، وإما بالنسبة والحماية.

الفصل الثاني
في ذكر جبالها الشوامخ

فأولها جبل كينا وجبل كلمجار، كلاهما من جبال القمر، وارتفاع كل منهما خمسة آلاف وستمائة ميترٍ.

ثم جبل أتلاس بمملكة فاس، ارتفاعه ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعون ميترًا.

ثم جبل قمرون في جهة الجنوب، ارتفاعه ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعون ميترًا.

ثم جبل انبولستيمين في جزيرة مادغسكار المعدودة من إفريقيا، ارتفاعه ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية من الميترات.

ثم الجبل الناري المسمى تنزيف في الجزائر الخالدات التابعة لقسم إفريقيا، ارتفاعه ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسة من الميترات.

الفصل الثالث
في بيان أوديتها الطوال

أولها نيل مصر، طوله سبعة آلاف كيلو ميتر، وهو أطول أودية الأرض.

ثم وادي سينغال في الناحية الغربية، طوله ألف وسبعمائة كيلو ميتر.

ثم وادي أورانج في الناحية الجنوبية، غربي كاب بونسبرانس، طوله ألف وأربعمائة كيلو ميتر.

الفصل الرابع
في ذكر بلدانها الكبار وعدد سكانها

أولها مصر، بها ثلاثمائة ألف نفس.

ثم تونس ومراكش وفاس، بكل واحدة منها مائة ألف نفس.

ثم الجزائر، بها اثنان وسبعون ألف نفس.

ثم الإسكندرية ومكناسة، وكوماسي، بكل منها ستون ألف نفس.

الباب الرابع

في الكلام على أمريكا

وفيه فصول

الفصل الأول
في كشفها

اعلم أنه لم يكن معروفًا في القديم عند علماء الجغرافيا من كرة الأرض إلا أقسام ثلاثة: آسيا وأوروبا وإفريقيا، وما تبعها من الجزر.

ثم في سنة تسعين وثمانمائة هجرية الموافقة لسنة خمس وثمانين وأربعمائة وألف مسيحية، عثر القبطان كريستوف كولونبو الجنويز، الذي كان في خدمة دولة إسبانيا على قطعة من أميركا، وبعد ذلك عرفت بقيتها بواسطة المذكور وغيره، وعُدَّتْ قِسمًا رابعًا من الكرة.

الفصل الثاني
في ذكر موقعها وحَدِّها، وقيسها وعدد سكانها

موقعها بين ست وثلاثين ومائة وسبعين درجة من الطول الغربي، وبين اثنتين وثمانين درجة من العرض الشمالي، وأربع وأربعين درجة من العرض الجنوبي.

ويحدها شمالاً البحر الجامد ومضيق بارنغ، ومن بقية الجهات البحر المحيط. وطولها من الشمال إلى الجنوب خمسة عشر ألف كيلو مترٍ، وعرضها في الجهة الشمالية ستة آلاف وأربعمائة كيلو مترٍ، وفي الجهة الجنوبية خمسة آلاف ومائتا كيلو مترٍ.

ودائرتها أربعة وسبعون ألف كيلو مترٍ، خارجًا عنها الجزائر الصغار.

وتربيع مساحة أرضها مع الجزر التابعة لها اثنان وأربعون مليون كيلو مترٍ، وعدد سكانها ثلاثة وسبعون مليونًا.

وعدد الدول المستقلة بها ثماني عشرة دولة، وبقية ممالكها ترجع لبعض دول أوروبا.

الفصل الثالث
في ذكر جبالها الشوامخ

فأولها جبل كونكاغو، ارتفاعه ستة آلاف وثمانمائة وأربعة وثمانون ميترًا.

ثم جبل شمراسو، ارتفاعه ستة آلاف وخمسمائة وثلاثون ميترًا.

ثم جبل صوارطه، ارتفاعه ستة آلاف وأربعمائة وستة وثمانون ميترًا.

ثم جبل اليماني، ارتفاعه ستة آلاف وأربعمائة وستة وخمسون ميترًا.

ثم جبل بيشو بيشو، ارتفاعه خمسة آلاف وستمائة وسبعون ميترًا.

وهذه الجبال كلها بالجهة الجنوبية منها.

ثم جبل سانتلي، في الجهة الشمالية، ارتفاعه أربعة آلاف وأربعمائة وخمسون ميترًا.

ثم الجبل المسمى جبل الغونغاغو، في الجنوب، ارتفاعه ستة آلاف وثمانمائة وأربعة وثلاثون ميترًا.

والجبل المسمى ليولياكو، ارتفاعه ستة آلاف ميترٍ.

ثم جبل إنتيسانا، ارتفاعه خمسة آلاف وثمانمائة واثنان وثلاثون ميترًا.

ثم جبل كطوباسي بأمريكا الوسطى، ارتفاعه خمسة آلاف وسبعمائة وخمسون ميترًا.

ثم جبل بيورغو بها أيضًا، ارتفاعه أربعة آلاف وأربعمائة وسبعون ميترًا.

وهذه الجبال الخمسة نارية.

الفصل الرابع
في ذكر أوديتها المديدة

أولها وادي مسيسيبي، طوله خمسة آلاف وثمانمائة كيلو ميتر.

ثم وادي مارون، طوله خمسة آلاف وأربعمائة كيلو ميتر.

ثم وادي مكنسي، طوله أربعة آلاف وتسعمائة كيلو ميتر، وكلها في الجهة الشمالية.

ثم وادي بلاطة، في الجهة الجنوبية، طوله ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو ميترٍ.

ثم وادي صان لوران، في الجهة الشمالية، طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة كيلو ميتر.

ثم وادي بارة، طوله ألفان وخمسمائة وأربعة وسبعون كيلو ميترًا.

ثم وادي أورنيوك، طوله ألفان وثمانية وخمسون كيلو ميترًا، وكلاهما في الجهة الجنوبية.

الفصل الخامس
في ذكر بلدانها الكبار
وما احتوت عليه من السكان

أولها نيويورك، بها مليون ومائة وخمسون ألف نفس.

ثم فيلادلفي، بها خمسمائة وثمانية وستون ألفًا.

ثم بروكيلين، بها مائتان وثلاثة وسبعون ألفًا.

ثم بلتيمور، بها مائتان وأربعة عشر ألف نفس.

ثم ريوديجناير ومكسيكو، بكل منها مائتا ألف نفس.

ثم بستون، بها مائة وخمسة وسبعون ألفًا.

ثم سانسيناتي وأورليان، بكل منهما مائة وسبعون ألفًا.

ثم صان لوي، بها مائة واثنان وستون ألفًا.

ثم لهفان، بها مائة وخمسون ألفًا.

ثم بايا، بها مائة وخمسة وعشرون ألفًا.

ثم شيغاغو وبونزاي، بكل منهما مائة وعشرة آلاف.

الباب الخامس

في الكلام على جزر الأوقيانوس

وفيه فصول

الفصل الأول
في تاريخ كشفها

اعلم أن هذه الجزر المسماة عند الإفرنج بالأسياني كان ابتداء معرفتها في سنة تسعمائة وإحدى عشرة هجرية، الموافقة لسنة خمس وخمسمائة وألف مسيحية. وأول من عثر على البعض منها القبطان كويروس الإسبنيولي، وعُرف باقيها في أوقات مختلفة بواسطة غيره، لا سيما القبطان كوك الإنكليزي، وتم ذلك في سنة اثنتين ومائة وألف هجرية (**1690 ميلادية**).

الفصل الثاني
في موقعها وتحديدها

موقعها بين إحدى وتسعين درجة ومائة وخمس درجات من الطول الشرقي، وبين خمس وثلاثين درجة من العرض الشمالي وست وخمسين درجة من العرض الجنوبي.

وهي مُرَكَّبة من جزر منفصلة عن بعضها، في البحر المحيط، بين آسيا وأميركا وبحر الهند.

وتربيع مساحة جزرها أحد عشر مليون كيلو ميتر.

وعدد سكانها من الخمسة والثلاثين إلى الأربعين مليونًا، وقيل أقل من ذلك.

ودولها المستقلة أربع، وباقيها تابع لبعض دول أوروبا. ولما كانت هذه الجزائر بعضها منفصل عن بعض في البحر، لم يتيسر لعلماء الجغرافيا تقدير طولها وعرضها، ولا حساب دائرتها.

الفصل الثالث
في ذكر جبالها الشامخة

أولها جبل مونت رواي، ارتفاعه أربعة آلاف وثمانمائة وأربعون ميترًا.

ثم جبل بيك في جزيرة فيني، ارتفاعه أربعة آلاف وثمانمائة واثنا عشر ميترًا.

ثم جبل سيميز في جزيرة جاوا، ارتفاعه ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانية وتسعون ميترًا.

ثم جبل مون أفير في جزيرة سومترة، ارتفاعه ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرون ميترًا.

الفصل الرابع
في ذكر أوديتها المديدة

وهو وادٍ واحد في أوستراليا، اسمه وادي موري، طوله ألف كيلو ميتر.

الفصل الخامس
في بيان سكان الكرة

هذا، واعلم أن جملة سكان الكرة - على ما ذكرناه لكل قسم منها- ألف ومائتان وثمانية وثمانون مليونًا، وهو نهاية ما زعمه بعض الجغرافيين.

وغيره يزعم أن عدد سكان الكرة لا يتجاوز تسعمائة وخمسين مليونًا. ومن العدد المذكور مائتا مليون على الديانة الإسلامية وواحد وسبعون مليونًا على النصرانية، وأربعة ملايين من اليهود، والباقي عبدة أوثان. والعدد المذكور للديانة الإسلامية والمسيحية حاصل من جميع من ينتسب إليهما على اختلاف مذاهبهم.

الفصل السادس
في تقسيم البحر

اعلم أن جميع البحور يطلق عليها البحر المحيط، لاتصال بعضها ببعض إلا نادرًا.

وحدُّها ينتهي إلى الشمال والجنوب إلى البحر الجامد، الذي لا يعرف ما وراءه.

ومساحة سطح البحر تقريبًا ثلاثة أرباع الكرة.

وأهل الجغرافيا قسموا البحر المحيط إلى خمسة أقسام أصلية، كل قسم منها مُرَكَّبٌ من عدة أجزاء:

القسم الأول منها المسمى ببحر القطب الشمالي، وهو البحر الكائن بين آسيا وأوروبا وبين أميركا، وهو مُرَكَّب من البحر الأبيض وبحر كاره وبحر سيسيريا، وبحر غلف أبي ويانيسي، والبحر القطبي، وبحر بيفان أدسون.

والقسم الثاني المسمى ببحر أطلانتيك، وهو البحر الكائن بين أوروبا وإفريقيا وبين أميركا، وهذا البحر مُرَكَّبٌ من بحر بلتيك وبحر جرمانيا، وبحر إرلاند، وبحر

غلف غسكونيا، وبحر الروم وتوابعه، وبحر غلف مكسيكو، وبحر جزر أنتيل، وبحر غلف غيني، وبحر السكيمو، وبحر غرويلاند.

والقسم الثالث المسمى بالبحر المحيط الهندي، وهو الكائن بين آسيا وإفريقيا وبين جزر مالغا، وجزر أستراليا.

والقسم الرابع المسمى ببحر الباسيفيك، أي ذي الراحة والسكون، وهو الكائن بين آسيا وجزر السوند وأستراليا وبين أميركا، من بحر بيران وبحر أغوسك، وبحر الجابون والبحر الأصفر، والبحر الأزرق وبحر الصين، وبحر الأسوند وبحر مولوك، وبحر سيليب وبحر غلف كاربا نتري، وبحر كورالا وبحر كليفورني وبحر غلف باناما.

والقسم الخامس المسمى البحر الجامد الجنوبي.

ومن أراد معرفة مواقع هذه الأقسام من الكرة فليطالع صحيفتها من الخارطة؛ إذ معرفتها بالتصوير أسهل للقارئ، والله أعلم.

هذا، ولاقتصارنا في تواريخ الكتاب على ذكر التاريخ العربي تارة والعجمي أخرى، رأينا أن نذيله بجدول جامع بين التاريخين؛ ليسهل به على القارئ معرفة ما يوافق كل تاريخ وقف عليه، وبالله التوفيق.

جدول في المقابلة بين التاريخين الهجري والمسيحي

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
1	622	22	642	43	663
2	623	23	643	44	664
3	624	24	644	45	665
4	625	25	645	46	666
5	626	26	646	47	667
6	627	27	647	48	668
7	628	28	648	49	669
8	629	29	649	50	670
9	630	30	650	51	671
10	631	31	651	52	672
11	632	32	652	53	672
12	633	33	653	54	673
13	634	34	654	55	674
14	635	35	655	56	675
15	636	36	656	57	676
16	637	37	657	58	677
17	638	38	658	59	678
18	639	39	659	60	679
19	639	40	660	61	680
20	640	41	661	62	681
21	641	42	662	63	682

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
64	683	86	705	108	726
65	684	87	705	109	727
66	685	88	706	110	728
67	686	89	707	111	729
68	687	90	708	112	730
69	688	91	709	113	731
70	689	92	710	114	732
71	690	93	711	115	733
72	691	94	712	116	734
73	692	95	713	117	735
74	693	96	714	118	736
75	694	97	715	119	737
76	695	98	716	120	737
77	696	99	717	121	738
78	697	100	718	122	739
79	698	101	719	123	740
80	699	102	720	124	741
81	700	103	721	125	742
82	701	104	722	126	743
83	702	105	723	127	744
84	703	106	724	128	745
85	704	107	725	129	746

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
130	747	153	770	175	791
131	748	154	770	176	792
132	749	155	771	177	793
133	750	156	772	178	794
134	751	157	773	179	795
135	752	158	774	180	796
136	753	159	775	181	797
137	754	160	776	182	798
138	755	161	777	183	799
139	756	162	778	184	800
140	757	163	779	185	801
141	758	164	780	186	802
142	759	165	781	187	802
143	760	166	782	188	803
144	761	167	783	189	804
145	762	168	784	190	805
146	763	169	785	191	806
147	764	170	786	192	807
148	765	171	787	193	808
149	766	172	788	194	809
150	767	173	789	195	810
151	768	174	790	196	811

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
197	812	219	834	241	855
198	813	220	835	242	856
199	814	221	835	243	857
200	815	222	836	244	858
201	816	223	837	245	859
202	817	224	838	246	860
203	818	225	839	247	861
204	819	226	840	248	862
205	820	227	841	249	863
206	821	228	842	250	864
207	822	229	843	251	865
208	823	230	844	252	866
209	824	231	845	253	867
210	825	232	846	254	867
211	826	233	847	255	868
212	827	234	848	256	869
213	828	235	849	257	870
214	829	236	850	258	871
215	830	237	851	259	872
216	831	238	852	260	873
217	832	239	853	261	874
218	833	240	854	262	875

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
263	876	285	898	307	919
264	877	286	899	308	920
265	878	287	900	309	921
266	879	288	900	310	922
267	880	289	901	311	923
268	881	290	902	312	924
269	882	291	903	313	925
270	883	292	904	314	926
271	884	293	905	315	927
272	885	294	906	316	928
273	886	295	907	317	929
274	887	296	908	318	930
275	888	297	909	319	931
276	889	298	910	320	932
277	890	299	911	321	932
278	891	300	912	322	933
279	892	301	913	323	934
280	893	302	914	324	935
281	894	303	915	325	936
282	895	304	916	326	937
283	896	305	917	327	938
284	897	306	918	328	939

مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري
983	373	962	351	940	329
984	374	963	352	941	330
985	375	964	353	942	331
986	376	965	354	943	332
987	377	965	355	944	333
988	378	966	356	945	334
989	379	967	357	946	335
990	380	968	358	947	336
991	381	969	359	948	337
992	382	970	360	949	338
993	383	971	361	950	339
994	384	972	362	951	340
995	385	973	363	952	341
996	386	974	364	953	342
997	387	975	365	954	343
998	388	976	366	955	344
998	389	977	367	956	345
999	390	978	368	957	346
1000	391	979	369	958	347
1001	392	980	370	959	348
1002	393	981	371	960	349
1003	394	982	372	961	350

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
395	1004	417	1026	439	1047
396	1005	418	1027	440	1048
397	1006	419	1028	441	1049
398	1007	420	1029	442	1050
399	1008	421	1030	443	1051
400	1009	422	1030	444	1052
401	1010	423	1031	445	1053
402	1011	424	1032	446	1054
403	1012	425	1033	447	1055
404	1013	426	1034	448	1056
405	1014	427	1035	449	1057
406	1015	428	1036	450	1058
407	1016	429	1037	451	1059
408	1017	430	1038	452	1060
409	1018	431	1039	453	1061
410	1019	432	1040	454	1062
411	1020	433	1041	455	1063
412	1021	434	1042	456	1063
413	1022	435	1043	457	1064
414	1023	436	1044	458	1065
415	1024	437	1045	459	1066
416	1025	438	1046	460	1067

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
461	1068	483	1090	505	1111
462	1069	484	1091	531	1136
463	1070	485	1092	532	1137
464	1071	486	1093	533	1138
465	1072	487	1094	534	1139
466	1073	488	1095	535	1140
467	1074	489	1095	536	1141
468	1075	490	1096	537	1142
469	1076	491	1097	538	1143
470	1077	492	1098	539	1144
471	1078	493	1099	540	1145
472	1079	494	1100	541	1146
473	1080	495	1101	542	1147
474	1081	496	1102	543	1148
475	1082	497	1103	544	1149
476	1083	498	1104	545	1150
477	1084	499	1105	546	1151
478	1085	500	1106	547	1152
479	1086	501	1107	548	1153
480	1087	502	1108	549	1154
481	1088	503	1109	550	1155
482	1089	504	1110	551	1156

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
552	1157	576	1180	601	1204
553	1158	577	1181	602	1205
554	1159	578	1182	603	1206
555	1160	579	1183	604	1207
556	1160	580	1184	605	1208
557	1161	581	1185	606	1209
558	1162	582	1186	607	1210
559	1163	583	1187	608	1211
560	1164	584	1188	609	1212
558	1162	585	1189	610	1213
559	1163	586	1190	611	1214
560	1164	587	1191	612	1215
561	1165	588	1192	613	1216
562	1166	589	1193	614	1217
563	1167	588	1192	615	1218
564	1168	589	1193	616	1219
565	1169	590	1193	617	1220
566	1170	591	1194	618	1221
567	1171	592	1195	619	1222
568	1172	593	1196	620	1223
569	1173	594	1197	621	1224
570	1174	595	1198	622	1225
571	1175	596	1199	623	1226
572	1176	597	1200	624	1226
573	1177	598	1201	625	1227
574	1178	599	1202	626	1228
575	1179	600	1203	627	1229

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
628	1230	655	1257	682	1283
629	1231	656	1258	683	1284
630	1232	657	1258	684	1285
631	1233	658	1259	685	1286
632	1234	659	1260	686	1287
633	1235	660	1261	687	1288
634	1236	661	1262	688	1289
635	1237	662	1263	689	1290
636	1238	663	1264	690	1291
637	1239	664	1265	691	1291
638	1240	665	1266	692	1292
639	1241	666	1267	693	1293
640	1242	667	1268	694	1294
641	1243	668	1269	695	1295
642	1244	669	1270	696	1296
643	1245	670	1271	697	1297
644	1246	671	1272	698	1298
645	1247	672	1273	699	1299
646	1248	673	1274	700	1300
647	1249	674	1275	701	1301
648	1250	675	1276	702	1302
649	1251	676	1277	703	1303
650	1252	677	1278	704	1304
651	1253	678	1279	705	1305
652	1254	679	1280	706	1306
653	1255	680	1281	707	1307
654	1256	681	1282	708	1308

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
709	1309	736	1335	736	1335
710	1310	737	1336	737	1336
711	1311	738	1337	738	1337
712	1312	739	1338	739	1338
713	1313	740	1339	740	1339
714	1314	741	1340	741	1340
715	1315	742	1341	742	1341
716	1316	743	1342	743	1342
717	1317	744	1343	744	1343
718	1318	745	1344	745	1344
719	1319	746	1345	746	1345
720	1320	747	1346	747	1346
721	1321	748	1347	748	1347
722	1322	749	1348	749	1348
723	1323	750	1349	750	1349
724	1323	751	1350	751	1350
725	1324	752	1351	752	1351
726	1325	753	1352	753	1352
727	1326	754	1353	754	1353
728	1327	755	1354	755	1354
729	1328	756	1355	756	1355
730	1329	757	1356	757	1356
731	1330	758	1356	758	1356
732	1331	759	1357	759	1357
733	1332	733	1332	760	1358
734	1333	734	1333	761	1359
735	1334	735	1334	762	1360

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
763	1361	790	1388	811	1408
764	1362	791	1388	812	1409
765	1363	792	1389	813	1410
766	1364	787	1385	814	1411
767	1365	788	1386	815	1412
768	1366	789	1387	816	1413
769	1367	790	1388	817	1414
770	1368	791	1388	818	1415
771	1369	792	1389	819	1416
772	1370	793	1390	820	1417
773	1371	794	1391	821	1418
774	1372	795	1392	822	1419
775	1373	796	1393	823	1420
776	1374	797	1394	824	1421
777	1375	798	1395	825	1421
778	1376	799	1396	826	1422
779	1377	800	1397	827	1423
780	1378	801	1398	828	1424
781	1379	802	1399	829	1425
782	1380	803	1400	830	1426
783	1381	804	1401	831	1427
784	1382	805	1402	832	1428
785	1383	806	1403	833	1429
786	1384	807	1404	834	1430
787	1385	808	1405	835	1431
788	1386	809	1406	836	1432
789	1387	810	1407	837	1433

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
838	1434	862	1457	889	1484
839	1435	863	1458	890	1485
840	1436	864	1459	891	1486
841	1437	865	1460	892	1486
842	1438	866	1461	893	1487
843	1439	867	1462	894	1488
844	1440	868	1463	895	1489
845	1441	869	1464	896	1490
846	1442	870	1465	897	1491
847	1443	871	1466	898	1492
848	1444	872	1467	899	1493
849	1445	873	1468	900	1494
850	1446	874	1469	901	1495
851	1447	875	1470	902	1496
852	1448	876	1471	903	1497
853	1449	877	1472	904	1498
854	1450	878	1473	905	1499
855	1451	879	1474	906	1500
856	1452	880	1475	907	1501
857	1453	881	1476	908	1502
858	1453	882	1477	909	1503
859	1454	883	1478	910	1504
860	1455	884	1479	911	1505
861	1456	885	1480	912	1506
859	1454	886	1481	913	1507
860	1455	887	1482	914	1508
861	1456	888	1483	915	1509

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
916	1510	943	1536	970	1562
917	1511	944	1537	971	1563
918	1512	945	1538	972	1564
919	1513	946	1539	973	1565
920	1514	947	1540	974	1566
921	1515	948	1541	975	1567
922	1516	949	1542	976	1568
923	1517	950	1543	977	1569
924	1518	951	1544	978	1570
925	1519	952	1545	979	1571
926	1519	953	1546	980	1572
927	1520	954	1547	981	1573
928	1521	955	1548	982	1574
929	1522	956	1549	983	1575
930	1523	957	1550	984	1576
931	1524	958	1551	985	1577
932	1525	959	1551	986	1578
933	1526	960	1552	987	1579
934	1527	961	1553	988	1580
935	1528	962	1554	989	1581
936	1529	963	1555	990	1582
937	1530	964	1556	991	1583
938	1531	965	1557	992	1583
939	1532	966	1558	993	1584
940	1533	967	1559	994	1585
941	1534	968	1560	995	1586
942	1535	969	1561	996	1587

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
997	1588	1024	1615	1051	1641
998	1589	1025	1616	1052	1642
999	1590	1026	1616	1053	1643
1000	1591	1027	1617	1054	1644
1001	1592	1028	1618	1055	1645
1002	1593	1029	1619	1056	1646
1003	1594	1030	1620	1057	1647
1004	1595	1031	1621	1058	1648
1005	1596	1032	1622	1059	1649
1006	1597	1033	1623	1060	1650
1007	1598	1034	1624	1061	1650
1008	1599	1035	1625	1062	1651
1009	1600	1036	1626	1063	1652
1010	1601	1037	1627	1064	1653
1011	1602	1038	1628	1065	1654
1012	1603	1039	1629	1066	1655
1013	1604	1040	1630	1067	1656
1014	1605	1041	1631	1068	1657
1015	1606	1042	1632	1069	1658
1016	1607	1043	1633	1070	1659
1017	1608	1044	1634	1071	1660
1018	1609	1045	1635	1072	1661
1019	1610	1046	1636	1073	1662
1020	1611	1047	1637	1074	1663
1021	1612	1048	1638	1075	1664
1022	1613	1049	1639	1076	1665
1023	1614	1050	1640	1077	1666

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
1078	1667	1105	1693	1132	1719
1079	1668	1106	1694	1133	1720
1080	1669	1107	1695	1134	1721
1081	1670	1108	1696	1135	1722
1082	1671	1109	1697	1136	1723
1083	1672	1110	1698	1137	1724
1084	1673	1111	1699	1138	1725
1085	1674	1112	1700	1139	1726
1086	1675	1113	1701	1140	1727
1087	1676	1114	1702	1141	1728
1088	1677	1115	1703	1142	1729
1089	1678	1116	1704	1143	1730
1090	1679	1117	1705	1144	1731
1091	1680	1118	1706	1145	1732
1092	1681	1119	1707	1146	1733
1093	1681	1120	1708	1147	1734
1094	1682	1121	1709	1148	1735
1095	1683	1122	1710	1149	1736
1096	1684	1123	1711	1150	1737
1097	1685	1124	1712	1151	1738
1098	1686	1125	1713	1152	1739
1099	1687	1126	1714	1153	1740
1100	1688	1127	1714	1154	1741
1101	1689	1128	1715	1155	1742
1102	1690	1129	1716	1156	1743
1103	1691	1130	1717	1157	1744
1104	1692	1131	1718	1158	1745

مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري
1798	1213	1772	1186	1746	1159
1799	1214	1773	1187	1747	1160
1800	1215	1774	1188	1747	1161
1801	1216	1775	1189	1748	1162
1802	1217	1776	1190	1749	1163
1803	1218	1777	1191	1750	1164
1804	1219	1778	1192	1751	1165
1805	1220	1779	1193	1752	1166
1806	1221	1779	1194	1753	1167
1807	1222	1780	1195	1754	1168
1808	1223	1781	1196	1755	1169
1809	1224	1782	1197	1756	1170
1810	1225	1783	1198	1757	1171
1811	1226	1784	1199	1758	1172
1812	1227	1785	1200	1759	1173
1812	1228	1786	1201	1760	1174
1813	1229	1787	1202	1761	1175
1814	1230	1788	1203	1762	1176
1815	1231	1789	1204	1763	1177
1816	1232	1790	1205	1764	1178
1817	1233	1791	1206	1765	1179
1818	1234	1792	1207	1766	1180
1819	1235	1793	1208	1767	1181
1820	1236	1794	1209	1768	1182
1821	1237	1795	1210	1769	1183
1822	1238	1796	1211	1770	1184
1823	1239	1797	1212	1771	1185

هجري	مسيحي	هجري	مسيحي	هجري	مسيحي
1240	1824	1265	1848	1290	1873
1241	1825	1266	1849	1291	1874
1242	1826	1267	1850	1292	1875
1243	1827	1268	1851	1293	1876
1244	1828	1269	1852	1294	1877
1245	1829	1270	1853	1295	1878
1246	1830	1271	1854	1296	1878
1247	1831	1272	1855	1297	1879
1248	1832	1273	1856	1298	1880
1249	1833	1274	1857	1299	1881
1250	1834	1275	1858	1300	1882
1251	1835	1275	1859	1301	1883
1252	1836	1277	1860	1302	1884
1253	1837	1278	1861	1303	1885
1254	1838	1279	1862	1304	1886
1255	1839	1280	1863	1305	1887
1256	1840	1281	1864	1306	1888
1257	1841	1282	1865	1307	1889
1258	1842	1283	1866	1308	1890
1259	1842	1284	1867	1309	1891
1260	1843	1285	1868	1310	1892
1261	1844	1286	1869	1311	1893
1262	1845	1287	1870	1312	1894
1263	1845	1288	1871		
1264	1847	1289	1872		

الخاتمة

يقول جامع هذا الكتاب - ألهمه الله إلى الرشد والصواب:

هذا ما تيسر لنا جمعه بحول الله من تصاريف الممالك الإسلامية والأوروباوية، مستعينين في تهذيب ألفاظه ببعض أبناء الوطن، والمظنون بمن رمقه بعين الإنصاف أن يرى فيه إفادة كافية في معرفة المهم من أحوال تلك الأمم، وأن يغتفر في جنب ذلك ما لا يخلو منه كلام مترجم من قلق العبارة وعدم الانسجام، سيما وغالب ما ترجمناه يشتمل على مدلولات مستحدثة لم توضع لها ألفاظ عربية، حتى إنَّا قد نلتجئ بذلك إلى نقل اللفظ بحاله اتكالاً على اشتهاره، ولو عند خصوص المستعملين لحوادث الوقت، ولا نمنع أن يكون منشأ ذلك عدم اطلاعنا على الرديف العربي.

وبالجملة، فإغضاء ذوي العرفان مأمول لمثلنا ممن لم يجرئه على موقف الاستهداف إلا القيام بواجب النصح لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. وبناء على كون ذلك مصدر التأليف، نعلن لمن عسى أن يعثر فيه على شيء

من الهفوات بأنا نرى له المزية علينا في الإرشاد إلى إصلاحه بما يكون أَعْوَنَ في استجلاب النصيحة مستوجبًا بذلك ثناءنا، ثم الثواب من رب العباد.

أُنْجِزَ هذا التأليف بإعانة الله تعالى عشية يوم الاثنين، عاشر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ومائتين وألف (١٨٦٧/٩/٩).

﴿نهاية المتن﴾

معد التقديم في سطور

محمد الحدّاد

- باحث ومفكّر تونسي متخصص في الخطاب الإصلاحي الحديث، حاصل على الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس لأطروحة حول محمد عبده وقضية الإصلاح الديني.
- يشغل خطة أستاذ التعليم العالي بالجامعات التونسية.
- يشرف حاليًّا على كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة للأديان بتونس.
- تولى منصب نائب عميد كلية الآداب.
- مؤسس برنامج دراسات عليا (ماجستير آداب) في الدراسات المقارنة للأديان والحضارات.
- معلق في صحيفة الحياة اللبنانية وعضو في العديد من فرق البحث العلمية الدولية.
- نشر العديد من الدراسات الأكاديمية في المجلات العلمية المتخصصة باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية.

من أبرز الأعمال والمؤلفات العلمية

- الأفغاني: دراسة ووثائق (بيروت، النبوغ، ١٩٩٧).
- حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي (بيروت، الطليعة، ٢٠٠٢).
- محمد عبده: قراءة جديدة (بيروت، الطليعة، ٢٠٠٣).
- مواقف من أجل التنوير (بيروت، الطليعة، ٢٠٠٥).
- الإسلام: نزوات العنف وإستراتيجيات الإصلاح (بيروت، الطليعة، ٢٠٠٦).
- البركان الهائل: في آليات الخطاب الإصلاحي وحدوده (تونس، المعرفة، ٢٠٠٦).
- ديانة الضمير الفردي (بيروت، المدار، ٢٠٠٧).
- قواعد التنوير (بيروت، الطليعة، ٢٠٠٩).

أعضاء اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١٠/٢٠١١

رئيس اللجنة:

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر.

أعضاء اللجنة:

إبراهيم البيومي غانم (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة)، مصر.
إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالامبور)، ماليزيا.
حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
رجب شان ترك (جامعة فاتح، إستانبول)، تركيا.
زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة التراث بالرياض)، السعودية.
زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
زينب الخضيري (كلية الآداب، جامعة القاهرة)، مصر.
سيد دسوقي حسن (كلية الهندسة، جامعة القاهرة)، مصر .
صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر - **أمين اللجنة**.
ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشئون الدينية)، عُمان.
عبد الرحيم بنحادة (جامعة الرباط)، المغرب.
عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.
محمد الحداد (الجامعة التونسية)، تونس.
محمد عمارة (مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.
محمد موفق الأرناؤوط (جامعة آل البيت)، الأردن.
منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
نور الدين الخادمي (جامعة الزيتونة، تونس)، تونس.

I.S.B.N
978-977-453-038-8

DAR AL-KITAB AL-MASRI
Cairo

33 Kasr El Nile Street
P.O.Box 156 ZIP CODE 11511 Atabah-Cairo
Telephone: (202) 23922168 - (202) 23934301
(202) 23924614
Fax: (202) 23924657
Cairo - Egypt
Att.: Mr. Hassan El Zein

DAR AL-KITAB ALLUBNANI
Beirut

P.O.Box 11-8330 Beirut
Lebanon
Telephone: (9611) 735732
Fax: (9611) 351433
Att.: Mr. Hassan El Zein

First Edition
A.D. 2012-2013 - H 1433-1434

Email: info@daralkitabalmasri.com
Website: www.daralkitabalmasri.com

AQWAM AL-MASALIK FI MA‘RIFAT AHWAL AL-MAMALIK

The Surest Path to Knowing Conditions of Nations

Khayr el-Din al-Tunessi

DAR AL-KITAB
AL-MASRI

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI

دار الكتاب المصري

القاهرة

---

٣٣ شارع قصر النيل ـ تلفون: ٢٣٩٢٢١٦٨ / ٢٣٩٣٤٣٠١ / ٢٣٩٢٤٦١٤ (+٢٠٢)

ص.ب: ١٥٦ ـ عتبة ـ الرمز البريدي ١١٥١١ القاهرة ـ ج.م.ع.

فاكسميلي: ٢٣٩٢٤٦٥٧ (+٢٠٢)

Fax: (+202) 23924657 Cairo – Att: Mr. Hassan El-Zein

Website: www.daralkitabalmasri.com

E-mail: info@daralkitabalmasri.com

دار الكتاب اللبناني

بيروت

شارع مدام كوري ـ تجاه فندق البريستول ـ بيروت

تلفون: ٧٣٥٧٣٢ (+٩٦١١) ـ ص.ب: ١١/٨٣٣٠

بيروت ـ لبنان ـ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (+٩٦١١)

turieB 334153)1169(:xaF – Att: Mr. Hassan El-Zein

Website: www.daralkitabalmasri.com

E-mail: info@daralkitabalmasri.com

صدر من هذه السلسلة

العودة إلى الذات
علي شريعتي

الحياة الروحية
في الإسلام
محمد مصطفى حلمي

امرأتنا
في الشريعة والمجتمع
الطاهر الحداد

الإسلام
دين الفطرة والحرية
عبد العزيز جاويش

المرأة والعمل
نبوية موسى

تمهيد
لتاريخ الفلسفة الإسلامية
مصطفى عبد الرازق

دفاع عن الشريعة
علال الفاسي

مقاصد الشريعة الإسلامية
محمد الطاهر ابن عاشور

تجديد الفكر الديني
في الإسلام
محمد إقبال

طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد
عبد الرحمن الكواكبي

المدرسة الإسلامية
محمد باقر الصدر

في الفكر النهضوي الإسلامي

AQWAM AL-MASALIK FI MA'RIFAT AHWAL AL-MAMALIK

The Surest Path to Knowing Conditions of Nations

'Khayr el-Din al-Tunessi

(13)

هذا الكتاب

طبع لأول مرة عام (١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م) وتضمن برنامجًا إصلاحيًا يختزل مجموع ما سعى النهضويون العرب إلى تحقيقه في القرن التاسع عشر، استوحاه خير الدين التونسي من مصادر ثلاثة: تجربته السياسية، ومطالعاته في التاريخ السياسي والاقتصادي وجغرافية العالم، ومشاهداته أثناء الرحلات التي قام بها إلى أوروبا.

يتألف من مقدمة طويلة هي أهم ما فيه، وكثيرًا ما يُختزل الكتاب فيها، بالإضافة إلى جزأين: يحتوي الأول منهما على عشرين بابًا، كل باب مخصص لبلد من البلاد الأوروبية، يتناول فيه تاريخ البلد، وجغرافيته، وموقعه، ومساحته، وأهم ملوكه، وتنظيماته الإدارية والسياسية والعسكرية. أما الجزء الثاني فيحتوي على ستة أبواب: خمسة منها لجغرافية القارات الخمس، والسادس للبحار.

والكتاب يصارح معاصريه بأنّ قضية الإصلاح لم تعد قضية اختيارية. ورغم مضي كل تلك السنين على تأليف هذا الكتاب فإنه بقي أثرًا خالدًا، تتداوله الأجيال، وتستفيد من رؤاه فكأن خير الدين قد خُلق ليشحذ عزائم الإصلاح في حياته وبعد مماته.

ISBN: 978-977-452-105-8

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT